

لعبة الأمم

- ازأرت أن تفهم لعبة الأمم ف عليك أن تضع نصب عينيك القواعد التالية :
- ١- أن من أول أهداف أية أمة أن تبقى في اللعبة ولا تخرج منها .
 - ٢- رغالباً ما تصرف الأمة بصورة لا تهدف معها إلى احراز أي نجاح في داخل اللعبة بقدر ما تهدف إلى استمرار التأييد الجماهيري لزعيمها .
 - ٣- ومن النزاهة الحاطة بمكان أن يُفترأ أي تصريح رسمي حول السياسة الخارجية بصفاة النية وخلص السريرة . فالناورة شرط أساسي لأي زعيم في اللعبة فهو يظهر ما لا يُظن ويقول شيئاً ويعني به شيئاً آخر

تدوين : مروان خضير

الترجمة الصحيحة الكاملة

مايلز كويلاند

The Game of Nations
Miles Copeland
Weidenfeld & Nicolson
London 1969

نشر هذا الكتاب بإذن رسمي من المؤلف
وكافة الحقوق لترجمة وإصدار هذا الكتاب باللغة العربية
محفوظة للانترناشنال سنتر - بيروت
ص.ب ٤٦٤٥

الطبعة الاولى ١٩٧٠ التوزيع في لبنان : مكتبة الزيتونة - شارع احمد شوقي
- بيروت هاتف ٢٢٤٥٧٧ في العالم العربي ص.ب (٥١٦٩)
بيروت- تليفون ٢٤٤٧٣٩

مايناز كونيلا ند

لعِبَةُ الأُمَمِ

الأخلاقية في سِياسة القوة الأمريكية

تَعَرِيبُ

مروان خضير

الترجمة الصحيحة الكاملة
مع تقديم مشاكل السلطة

إهداء المؤلف

إهداء المؤلف

بكل احترام وتقدير ، أهدي كتابي هذا الى السادة :

جيفرسن كاليري
وريموند هير
والفقيه جورج وادسورث

الذين كانوا ابرع سفراء عصرهم ، والذين لن يسمح عصر الاستشارات
الدبلوماسية السريعة لامثالهم بالبروز ثانية .

مايلز كوبلاند

لعبة الأمم

انها لعبة تختلف عن غيرها من أنواع اللهو واللعب - مثل البوكر أو الحرب أو التجارة - في عدة نواح مهمة وهي :

أولا : لكل لاعب في هذه اللعبة أهدافه الخاصة التي تختلف عن أهداف الآخرين ، كما أن تحقيق هذه الاهداف هو مقياس نجاحه .

ثانيا : وكل لاعب في هذه اللعبة مجبر بطروفه داخل بلاده على القيام بأعمال وتحركات ضمن مجال اللعبة دون أن يكون لها علاقة بأسباب النجاح بل يمكن أن تقلل من فرصة النجاح نفسه .

ثالثا : وفي « لعبة الامم » لا يوجد فائزون البتة ، بل الكل خاسرون . لهذا لم يكن حرص كل لاعب على النجاح بقدر ما هو على تجنب الضياع والخسارة .

ان الهدف المشترك لجميع اللاعبين في « لعبة الامم » هو رغبتهم في المحافظة عليها مستمرة دون توقف . ذلك أن توقف هذه اللعبة - « لعبة الامم » - لا يعني سوى شيء واحد الا وهو « الحرب » .

من معاضرة القاها زكريا محي الدين

نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة

في الكلية العسكرية المصرية في ايار (مايو) ١٩٦٢

ملاحظة للقارىء

تعني عبارة « لعبة الامم » ذلك النشاط الذي بدأت وزارة الخارجية
الامريكية في واشنطن بفيء وضع المخططات المناسبة لبسط النفوذ الامريكي على
بلاد العالم عن طريق السياسة والخداع بدل اللجوء الى الحرب المسلحة .

وهكذا يقترب معنى هذه الجملة من « التخطيط السياسي للصراع على
مناطق النفوذ في العالم عن طريق الحرب الباردة » .

المترجم

تعاقب الأحداث

ان فصول الكتاب غير مرتبة حسب تسلسلها التاريخي ، ولذلك نشبت هنا تسلسل هذه الحوادث حسب تاريخ وقوعها .

- ٢١ شباط (فبراير) ١٩٤٧ : السفارة البريطانية في واشنطن تقلم

مذكرتها حول اليونان وتركيا لوزارة

الخارجية الامريكية والتي تعني نهاية

الوصاية البريطانية في الشرق الاوسط .

- ١٢ اذار (مارس) ١٩٤٧ : اعلان مبدأ ترومان

- ٥ حزيران (يونيو) ١٩٤٧ : اعلان مشروع مارشال .

- تموز (يوليو) ١٩٤٧ : الانتخابات السورية .

- ١٤ ايسار (مايو) ١٩٤٨ : اعلان قيام دولة اسرائيل وبده الحرب

العربية الاسرائيلية الاولى .

- ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٩ : قيام حسني الزعيم بانقلاب في سوريا .

- ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٢ : حريق القاهرة من قبل الرعاع او ما يسمى

بالسبت الاسود - كيرميت روزفلت يذهب

الى القاهرة لينظم الثورة السلمية بقيادة الملك

فاروق .

- آذار (مارس) ١٩٥٢ : تنازل كيرميت روزفلت عن فكرة الثورة

السلمية بقيادة فاروق واجتماعه بالضباط

المصريين الاحرار .

- ٢٢ تموز (يوليو) ١٩٥٢ : قيام جمال عبد الناصر بانقلابه في مصر .

- ٥ آذار (مارس) ١٩٥٣ : اجتماع ايزنهاور ودالاس مع ايدن وقيامهم

باول دراسة لفكرة منظمة الدفاع عن الشرق

الاطوسط .

- ايار (مايو) ١٩٥٣ : وزير الخارجية دالاس يقابل جمال عبد الناصر .
- آب (اغسطس) ١٩٥٣ : الاطاحة بمصدق في ايران .
- شباط (فبراير) ١٩٥٤ : عبد الناصر يطيح باللواء نجيب ويستلم السلطة علنا في نفس اليوم الذي اطيح به بالرئيس اديب الشيشكلي في سوريا .
- نيسان (ابريل) ١٩٥٤ : الاتراك والباكستانيون يوقعون الاتفاقية التي أدت الى ايجاد حلف بغداد .
- تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٤ : توقيع اتفاقية الجلاء عن قناة السويس بين بريطانيا ومصر .
- تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤ : الكولونيل ايفلاند والكولونيل جيرهارت يزوران الرئيس جمال عبد الناصر وبيحثان معه ترتيبات الدفاع المشترك .
- كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥ : اعلان حلف بغداد رسميا وتعيين السفير بايروت بدلا من السفير كافر في القاهرة .
- شباط (فبراير) ١٩٥٥ : بعض الزعماء ، ومنهم : تيتو ونهرو وايدن ، يزورون عبد الناصر - قيام اسرائيل بغارتها على غزة مما اضطر عبد الناصر لانهاء اعتداله فيما يتعلق بقضية اسرائيل .
- نيسان (ابريل) ١٩٥٥ : عبد الناصر يحقق نجاحا في المؤتمر الآسيوي الافريقي في بانديونج - اندونيسيا .
- تموز (يوليو) ١٩٥٥ : شيبيلوف يزور القاهرة ليمدد عرض الاسلحة السوفيتية على عبد الناصر .
- ايلول (سبتمبر) ١٩٥٥ : عبد الناصر يقرر على صفقة الاسلحة السوفيتية وآلن يفقد أمله واحلامه في القاهرة .
- آذار (مارس) ١٩٥٦ : الملك حسين يقبل الجنرال جون غلوب بعد الاضطرابات التي قامت بها العناصر الناصرية ووضعت بها على الملك .

- تموز (يوليو) ١٩٥٦ : دالس يعلن انسحاب الولايات المتحدة من المساعدة المالية لبناء السد العالي ، وعبد الناصر يعلن تأميم الشركة العالمية لقناة السويس .
- تشرين اول (اكتوبر) ١٩٥٦ : وقوع الغزو الاسرائيلي الانكليزي الفرنسي على مصر وقضية السويس .
- تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦ : السوريون يعلنون اكتشاف مؤامرة دبرتها المخابرات الامريكية للاطاحة بالحكومة .
- كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧ : اعلان مبدأ ايزنهاور .
- نيسان (ابريل) ١٩٥٧ : احباط محاولة انقلاب ناصرية للاطاحة بالملك حسين .
- شباط (فبراير) ١٩٥٨ : قيام الوحدة بين سوريا ومصر ونشوء الجمهورية العربية المتحدة .
- ايار (مايو) ١٩٥٨ : بدء الازمة اللبنانية .
- حزيران (يونيو) ١٩٥٨ : احباط مؤامرة ناصرية ثانية في الاردن .
- تموز (يوليو) ١٩٥٨ : قيام انقلاب في العراق ضد نوري السعيد واغتياله مع بعض أعضاء حكومته والعائلة المالكة (انقلاب قاسم) - نزول مشاة الاسطول الامريكي في لبنان ، والقوات البريطانية في الاردن لمنع حدوث انقلابات فيهما .
- آذار (مارس) ١٩٥٩ : فشل محاولة اتباع ناصر في العراق للاطاحة بحكومة قاسم .
- ايلول (سبتمبر) ١٩٦١ : انفصال سوريا عن مصر وانتهاء الوحدة .
- ايلول (سبتمبر) ١٩٦٢ : قيام انقلاب في اليمن وتأليف حكومة جمهورية - المصريون يدعمون الجمهوريين والمملكة العربية السعودية تدعم الملكيين .
- شباط (فبراير) ١٩٦٣ : انهيار حكومة قاسم في العراق .

- من تشرين أول (أكتوبر) ١٩٦٥ الى تشرين أول ١٩٦٦ : سيطرة زكريا محي الدين في الجمهورية العربية المتحدة .
 - حزيران (يونيو) ١٩٦٧ : حرب الايام الستة بين العرب واسرائيل .
- لقد اغفلت ذكر عدة حوادث بالرغم من أهميتها التاريخية بسبب ندرة ورودها في فصول الكتاب .



هذه هي قائمة بالسفراء الامريكيين الذين خدموا في السفارة الامريكية في القاهرة أثناء الفترة التي وقعت فيها أحداث هذا الكتاب :

جيفرسون كافري (لغاية كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥)

هنري بايرود (لغاية تموز (يوليو) ١٩٥٦)

فريدريك رينهارت (لغاية نيسان (ابريل) ١٩٦١)

جون بادو (لغاية تموز (يوليو) ١٩٦٤)

لويس باتل (لغاية أيار (مايو) ١٩٦٧)

ريتشارد نولته لعدة أيام من أيار (مايو) ١٩٦٧ لغاية قطع العلاقات الدبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة الامريكية نتيجة حرب الايام الستة بين العرب واسرائيل .

مقدمة المؤلف

يرى سكوت فيتز جيرالد في رواية مسرحية له ، تجلى فيها الذوق الاجتماعي وقواعد الاتيكيت بأبهى مظاهرهما . أن بعض المصادمات التي وقعت بين كرام القوم ، كانت تصل الى طريق مسدود لاعتماد الجميع أن مواقفهم هي الحق ولن يحدوا عن سلوكهم الاخلاقي فيد انملة . وفي خضم هذا التزمتم الاخلاقي والتشبيث بقواعد « الاتيكيت » ، كان ينبغي بعض السوفه لغض النزاع ، وانهاء الخلاف بطريقة لا تشجع السيدة اميلي بوست على استحسانها في كتابها الشهير باسم « الاتيكيت » . غير أن أمثال هذه الحالة شائع جدا في الاجواء الدبلوماسية عامة . فكم من أزمة سياسية بين دول عديدة تعقدت وطالتر ، نتيجة اصرار تلك الدول على مواقفها ، خشية مخالفة المبادئ السامية والحصافة الدبلوماسية . وكم من مرة أيضا انتهت تلك الازمات الحادة ، الى سلام ووثام بفضل وسطاء طارئين ، دون أن يفقد زعيم ماء وجهه أو تهدر كرامة شعبه .

ولا تزال تجول في خواطر كثير منا - ولا شك - أسئلة عديدة عمن كان وراء زحزحة المصريين والبريطانيين عن مواقفهم المعتنة أثناء مفاوضات الجلاء عن السويس عام ١٩٥٤ ؟ ومن الذي أطاح بحكومة الدكتور مصدق في ايران ؟ وكيف ثبت الناصريون اقدمهم في لبنان عام ١٩٥٨ على مرأى ومسمع مشاة الاسطول الامريكي السادس ، الذين كانوا ينعمون بشمس لبنان وشواطئه الدافئة ؟ ولماذا أحجم عبد الناصر عن ضرب اسرائيل في وقت كان مستعدا لذلك ودفع بشعبه لحربها وهو في أقل حالات الاستعداد لها ؟

فالمؤرخون عندما يؤرخون العواث ، يهملون الجواب على مثل هذه التساؤلات ، ويمتنعون عن الفاء الاضواء عليها لانهم نادرا ما يعلمون عن خفاياها شيئا . وكذلك يهملها الدبلوماسيون في مذكراتهم مدفوعين باعتبارات الامن تارة ، وبالرغبة في عدم الايقاع بين الحكومات وشعوبها تارة أخرى . وهكذا تبقى حقيقة الاحداث مدفونة لا تعرف منها خافية ، ولا ينكشف للجماهير منها سر ، الا ما كان بمحض الصدفة . بينما بقسع الذين أنفروا على وضع تصاميمها ، وقاهوا بتنفيذها ، خلف جدران دواوينهم الرسمية ينتظرون الفرصة السانحة

ليزبحوا الستار عنها ويظهروها عارية على حقيقتها أمام شعوب هذا العالم
لمخدوع .

وهذا ما حدث معي فعلا . فلقد دفعت بمسودة هذا الكتاب الى ديبلوماسي
صديق لي ، عله يقلب صفحاته ، فيشدني الى الاخطاء والهفوات فيه . ولكنني
فوجئت به يزجرني لمحاولتي كشف النقاب عن كثير من الاسرار التي يجب
- برأيه - أن تبقى في زوايا النسيان حتى لا تشوه سمعة الحكومة الامريكية
وغيرها من الحكومات أمام شعوبها دون حاجة لذلك أو ضرورة .

وكنت لاحظ بوضوح ، تملل كثير من مواطنينا الاذكياء ، وشكهم حيال
ما ينشره رجال دولتنا الرسميين ، من تفسيرات للعديد من الازمات السياسية
التي مرت بها بلادنا ، ومنها تلك التي نشرها روبرت كنيدي حول الأزمة الكوبية
عام ١٩٦٢ . فلقد حاول السيد كنيدي فيها أن يضيف مسحة شاعرية على أولئك
الرجال الذين اتخذوا تلك القرارات ، بعدما أمضوا ساعات طوال وهم سجينو
احدى قاعات البيت الابيض ، يتأملون تراثنا المجيد ومبادئنا الاخلاقية السامية ،
وقد انتابهم الاسى حيال الغدر الروسي في كوبا (وكأنه قد بان لهم ذلك فجأة
دون أن يحسبوا له حسابا !) . ولكن المستر كنيدي نسي أن كثيرا من المواطنين
الامريكيين يتطلعون بشغف الى معرفة خفايا تلك الوقائع ، وسيجدون متعة
فائقة عندما يعلمون أنه لم يكن في تلك القاعة من قاعات البيت الابيض ، في
ذلك اليوم من أيام عام ١٩٦٢ رجل واحد استطاع أن يفكر لمدة طويلة بغير ذلك
الغدر السوفيتي

ان رجال دولتنا يبذلون كل ما في وسعهم لاطهار أنفسهم - في كتاباتهم -
بمظهر المتفائل المستبشر . ولكنهم ليسوا كذلك، وما كانوا ليبقوا حيث هم الآن،
لو كانوا جاهلين بحقيقة الوضع الانتهازي للعالم الذي نعيش فيه . وأصر على
هذا عندما أذكر انهم كانوا باستمرار يتابعون كل ملخصات تقارير مخابراتنا
السرية ، وبدون انقطاع . وألفت نظر مواطنينا الى أن يكونوا على اطلاع تام على
ما يعبرون عن اعجابهم به ، أو يعربون عن امتعاضهم ونفورهم منه ، مهما
كانت نظرتهم لحكومتهم وشعورهم نحوها . انهم يولونها تفهم ، مستمدين
تصورهم لها من تلك السير والتراجم الرومانتيكية ، التي خطها بعض قادة هذه
الامة . لقد صور السيد كنيدي مثلا كثيرا من الشخصيات الوطنية بانها على
فسط وافر من الذكاء والشجاعة والشهامة ، وأنها دائما نعمة مرهقة من كثرة ما
خاضت من صراع مع ضمايرها من جهة ، ومع بعضها بعضا من جهة أخرى ،
بغية الوصول الى نتائج وقرارات ذات تأثير كبير على مستقبل بلادهم ومستقبل

الانسانية جمعاء . ولقد يجد تصويره هذا بعض الترحيب في نفوس الذين اعتادوا التحليق في اجواء الخيال والمثاليات . ولكنه بدكس ذلك سيمتعض له اولئك الذين يدركون تماما ان زعماءهم - ولحسن الحظ - ليسوا ملائكة او قديسين ، وانهم مجرد افراد طالما ترددوا في اتخاذ القرارات النهائية . ان غالبيتنا تعيش في بقعة من العالم يسيطر عليها الاقتصاد الغربي من خلال مؤسساته الضخمة مثل جنرال موتورز ومجلس اتحساد التجارة . الكنيسة الكاثوليكية . ولهذا فان لهم فرصة اعظم للوصول الى صورة اكثر دقة واقرب الى الحقيقة دون ان يفقدوا ثقتهم في الوسائل المتبعة .

ولم يكن بمقدور الساسة اتخاذ كثير من تلك القرارات الهامة لوحدهم ، فقد كان يشاركونهم فيها ، وبصورة رئيسية ، رجال على قسط وافر من المعرفة والخبرة ، مثل رؤساء ومدراء وزارات ضخمة ، تملك في متناول يدها كل وسائل التحقيق والاستقصاء ، مهما بلغت القضايا من الاهمية وتاهت في مجاهل التعقيد . ولقد اتصفت تلك الوسائل بالموضوعية المطلقة ، والعمومية الشاملة ، والفعالية المؤكدة ، حتى كادت تعطينا افضل الحلول لمشاكلنا مترفعة عن اتباع الاحواء الشخصية الى حد تلاشى معه احتمال شطط كبار المسؤولين او انزلاقهم الى مواطن الهوى .

كانت ادارة المخابرات للشؤون الخارجية تظهر ما يواجهنا من صعاب ، وتبين مكامن الاخطار فيها ، وتقترح عددا من الحلول لها ، وتنصح بكثير من التحفظات حيالها . وبنفس الوقت كانت ادارة المخابرات للشؤون الداخلية تستقرىء الرأي العام ، مرجحة بعض الحلول ، ومبينة اتجاهات الشعب وما يميل اليه من تحفظات وردود فعل . وهكذا كانت تنحصر مهمة كبار متخذي القرارات العليا في الموازنة بين ما يصلهم من تقارير وآراء ، مرجحين افضلها ومتبينين اصلحها لمشاكلنا العديدة المتنوعة .

وقد يقع أحيانا ، تضارب بين نتائج استقصاء كلا الادارتين ، الخارجية والداخلية . فيعمد رئيس الجمهورية ، مثلا ، بقيادته الناجحة ، وشخصيته القوية ، الى ترجيح كفة العلاقات الخارجية على حساب الاتجاهات الداخلية . وهكذا يمكن لرئيس الجمهورية ان يعدل بعض الاتجاهات الداخلية حتى لا تقف حجر عثرة في طريق المضي قدما للمحافظة على نوع وحجم علاقاتنا الخارجية . وأوضح مثال على هذا ، عندما زج الرئيس روزفلت بالشعب الامريكى في الحرب العالمية الثانية ، مع سبق تمنعه عن التورط فيها ، واصراره على الوقوف بعيدا عن جعيمها . ولكن ان كانت الاحداث الداخلية خاصة بنا ، ومن حقنا تعديلها

وتحويرها حسب عهدنا . فليس الامر كذلك في علاقاتنا الدولية . والاسلوب
الأنف الذكر يصبح مشرلا في مثل هذه الاحوال ، ولا يمكننا عندئذ جعل
السهولة المتادة أن نتصدى لكثير من القضايا المصرية التي يرتبط بها وجودنا
من أساسه بصورة حيوية . ففي مثل هذه الاحوال ، يصبح اسلوبنا السابق
عاجزا كل العجز عن التصرف حيالها أو تعديلها حسبما تهوى أنفسنا وتحقق
مصالحنا . ويصبح من الضروري جدا أن نبتكر وسائل جديدة تختلف كليا عن
وسائلنا التقليدية لمعالجة مثل تلك القضايا المصرية . ونتيجة لهذا سنقف
حيارى حيال مبادئ النزاهة والاستقامة التي ألفناها منذ زمن بنيامين فرانكلن .
ونبقى مضطرين الى سلوك مسالك جديدة لا نتورع فيها عن استخدام كل
وسائل الغدر والخداع حتى يذهب مواطنونا الى أسرهم ليلا وهم على يقين تام
باننا نقابل الغدر والخداع السوفييتي بمثله أو بأبشع منه . وعندنا تصبح كل
مقاييسنا النزاهة الثابتة ، في بناء علاقاتنا الدولية، هباء منثورا عند أولئك الذين
يضمون الساعات الطوال في قاعات البيت الابيض متظاهرين بالدهشة حيال
الغدر الروسي . ويصبح على حكومتنا سلوك طريق لا مفر منه : ففي الوقت
الذي ترفض فيه علنا التدخل بشؤون الدول الاخرى ، نجدنا نتبجح عن أساليب
مبتكرة خارج جهازها التقليدي لتفعل ذلك . وليس على الحكومة عندئذ الا أن
تشرع بتحديد معالم وحدود القضية المعنية، ومن ثم تقوم باطلاق العنان لعدة قوى
خفية ، تتكفل بتصفيتها كليا ، أو ازالة اخطارها ، دون أن تتورط الحكومة
رسميا في أي جانب من جوانبها . وتبدأ اللحظة الحرجة عندما يبدأ الصراع
المستتر بين هذه القوى ومثيلاتها في الدول الاخرى وكلها تعاني من نفس المشكلة
المشتركة بينها ألا وهي : اظهار النزاهة والاستقامة ، واضمار الغدر والخداع
ونية التلاعب بالامم والشعوب . وهكذا نصل الى موضوع كتابي هذا وهو ما
سميته « لعبة الامم » .

ولئن كان معظم هذا الكتاب يدور حول منطقة الشرق الاوسط عامة ،
والدولة المصرية خاصة ، فان مرد ذلك الى بضعة عوامل ، منها : أن هدف هذا
الكتاب كهدف كلية ادارة الاعمال - في أية جامعة - عندما تقوم بتدريس تاريخ
احدى الشركات الناجحة لطلابها ، كمثل حي على مادة ادارة الاعمال . ومنها أنه
قد أتاحت لي الفرصة تمضية زمن لا بأس به ، امارس كثيرا من تلك الادوار
المستترة بصفتي وسيطا طارئا لن يكون بين المدعويين ثانية ، وهذا هو ما يسمى
بديبلوماسية ما وراء الكواليس . ولهذا النوع من الديبلوماسية أثر كبير ، ظهر
في سلوك حكام تلك المنطقة في علاقتهم بالغرب ، وعلاقات الغرب معهم ، والذي
كان يبدو لأول وهلة ، أنه سلوك يمحه الذوق السليم ويرفضه المنطق الصحيح ،

ويبدو في ظاهره خطوط متقاطعة متباعدة لا يتوازي منها اثنان .

واعتبر هذا الكتاب نموذجا حيا للتاريخ يهدف الى ازالة الستار عن حقيقة ارتباطات الدول الكبرى بالدول المحدودة الامكانيات التي نجحت احيانا في احراز نصر دبلوماسي على بعض الدول الكبرى ، وتمكنت مع الايام من ممارسة دور اكبر من طاقاتها في السياسة العالمية . وأوضح مثال على هذا دور عبدالناصر رئيس الجمهورية المصرية .

وأرجو ان لا يتبادر الى ذهن القارىء أن الاخطاء والهفوات التي طرأت على علاقاتنا الدولية ، كانت نتيجة قرارات حمقاء ، ولكنها في الحقيقة ليست اكثر من سوء فهم عند بعض كبار المسؤولين لجوهر الامور ، أو سوء استعمال للوسائل المتكررة لمعالجة أمور استعصت على الوسائل التقليدية ، وهذا واضح من معاملة الحكومة الامريكية للرئيس عبدالناصر .

وليس هذا الكتاب أكثر من مجهود شخصي ، استعنت لاجراجه بالكثيرين من اصديقائي المتخربين في السلك الدبلوماسي أو أجهزة المخابرات لدول عديدة حتى أتأكد من بعض منسياتي . ولكن ذلك لا يعني اطلاقا أنني أحاول القساء بعض التبعات على كواهلهم نتيجة فضلهم هذا - وقد يجد القارىء ، ومؤرخو تاريخ العالم ، بعض المتعة في قراءة هذا الكتاب . وسوف ترسم ابتسامة السخرية على شفاههم عندما يتفحصون الوسائل التي اتبعتها حكومتنا في اقامة علاقاتها مع الدول الاخرى ، وفي النتائج التي انتهت اليها على مسرح العرائس والتي لا يزال ينظر اليها الرأي العام العالمي على أنها أحداث ووقائع هامة .

وحتى لا احيد عن هذه الغاية الموضوعية من كتابي ، فانني لم أت على ذكر المعلومات التي تتعارض واعتبارات الامن في كل من امريكا وبريطانيا ، الا ما تسرب منها الى الدول الاخرى عن طريق بعض العملاء المزدوجين (من أمثال كيم فيلبي ، الذي شغل منصب مسؤول في جهاز المخابرات البريطاني ، وهو يخدم المصالح الروسية) . وكذلك ذكرت كل ما تسرب الى الصحفيين ونشرته صحفهم ومجلاتهم .

وسأبقى - ما استطعت الى ذلك سبيلا - صادقا في وصفي للاحداث ، بطيئا عند منعطفات تاريخ الشموب ، مبتعدا عن اختلاق الاخبار مهما كانت واجباتي وارتباطاتي .

المؤلف

الأنظمة الثورية ومشاكل السلطة

رفع هذا التقرير الى الحكومة المصرية في
عام ١٩٥٣ جيمس ايغليزيمر خبير وزارة
الخارجية الامريكية بالانظمة العسكرية في الدول
النامية .

- ١ -

مقدمة

ان جوهر الحكم هو القوة . فالحكم ليس مجرد اقتراح اجراءات عامة أو
اصدار احكام قضائية ، ولكنه « اضطلاع » بهذه الاجراءات و « تنفيذ » لتلك
الاحكام . ولهذا كانت المحافظة على السلطة هدفا في حد ذاتها ، لا يختلف في
هذا نظام عن نظام ، مهما تعددت الاسماء وتبدلت الصور . وأما النجاح فسي
تحقيق ذلك فيبقى رهينا بانتقاء أكثر الوسائل ملاءمة وأضمنها نتيجة .

ففي الانظمة الدستورية تلعب التقاليد و « القوانين الاساسية » دورا هاما
في فرض القيود على الوسائل المتبعة للمحافظة على السلطة . فالحكومة فسي
النظام الدستوري لا تملك أن تقوم بالقضاء القبض على زعماء المعارضة لمجرد أسباب
سياسية . ولكن الانظمة السائدة ليست كلها من هذا القبيل . فهناك أنظمة
لا تخضع في تصرفاتها لقيود واضحة المعالم محددة المعاني . بل ولا تجد حرجا
في اتباع كل المسالك التي تضمن لها السلطة ، وتؤكد لها البقاء . ويشتهر
هذا النوع باسم « حكومات الثورة » أو « الانظمة الثورية » .

ويعرض التاريخ لمبدأين أساسيين للمحافظة على السلطة وتجميعهما في يد
الحكومة .

● فالبدأ الاول يقول باعتماد السلطة في بقائها على اجراءات القمع والارهاب،
أو باعتمادها على سياسة البناء والاصلاح . ويتجسد هذان القولان في شكلين
متناقضين من اشكال أنظمة الحكم . فالقول الاول يتمثل في نظام ظالم وحكم

مستبد ، يفرض نفسه على الشعب عنوة ، ويرسم للمواطنين ما عليهم أن يسلكوه وينجزوه ، دونما رأي منهم أو مشورة . وأما القول الثاني فيتمثل في نظام شعبي وحكم مقبول (دون اشتراط الشكل الديمقراطي له) ، يستمد قوته في التنفيذ من رضى الامة به وتأييد المواطنين له .

الا ان القولين السابقين لا يمثلان سوى نوعين من انواع الحكم التي هي على طرفي نقيض . بل واننا لا نجد في التاريخ ذكرا لنظام حكم التزم حرفيا بواحد منهما واتخذ سنة له وهديا ، دون شذوذ أو خروج . ولذا فان من أولى المهام التي تواجهها أنظمة الحكم الثورية ، هي انتقاء مسلك معتدل لا افراط فيه ولا تفريط . فاختيار أنسب المسالك وأضمن الوسائل مهمة غير يسيرة ، وعلى أهداف الثورة وغاياتها أن تحدد ذلك وتقرره .

فالثورة التي لا تطمح أن تكون مجرد نظام حكم ديكتاتوري ساذج ، والتي تطمح ، في الوقت نفسه ، أن تكون أكثر من مجرد دسائس ومؤامرات تحاك في ردهات القصور ودهاليزها ، يتوجب عليها أن تحدد أهدافها على أسس من النقطتين الرئيسيتين التاليتين :

- (١) فمن واجبها أن تجد الحلول لكل المشاكل السياسية والمعضلات الاجتماعية الملحة ، التي اقتضت قيام الثورة نفسها ، وجعلت نجاحها ممكنا . وبهذه الطريقة ، دون غيرها ، تتمكن الثورة من ازالة آثار نظام الحكم السابق ، الذي أخفق في تشخيص الداء ووصف الدواء .
- (٢) ومن واجبها أن تكون قادرة على تطوير نظام دستوري جديد يخلد منجزاتها ، ويحافظ على مكتسباتها ، دون خوف من ردة ، أو خشية من عودة الى سيئات الماضي وآثامه .

فعندما تتوفر هذه الغايات ضمن الاهداف الاصلية للثورة ، فان النظام الثوري لن يجد نفسه مضطرا الى الاعتماد كليا على وسائل القمع والارهاب لبقاء حكمه اذا ما تبنى وسائل الاصلاح وسياسة البناء ، ما استطاع الى ذلك سبيلا . فالقمع - بكل ما يعني من مخابرات ومباحث وأمن عام - لا يمكنه البقاء طويلا ، وان كان أحيانا ضروريا . ويجب أن تحل الاصلاحات محلّه تدريجيا وان تطرده أعمال البناء امامها نهائيا ، دون رجعة أو عودة .

● والمبدأ الثاني الذي يذكره التاريخ لنا ضمن وسائل المحافظة على السلطة وبقائها ، هو أن كافة اجراءات الحكومة ومنجزاتها تؤثر - عاجلا أم آجلا - على « قاعدة الحكم » التي تتخذها أساسا لها ومرتكزا . فمن ناحية أولى ، فإن عبارة « قاعدة الحكم » تعني مدى قدرة الحكومة على الصمود في وجه المعارضة وكسحها لجماعها ، ومن ناحية أخرى ، فإنها تعني مدى رضى الشعب بالحكومة وتأييده لها . وتتجسد قدرة الحكومة في الوقوف ضد المعارضة في قاعدة القمع والارهاب التابعة لها . في حين يتمثل رضى الشعب بالحكومة وتأييده لها في قدرتها على ممارسة حكمها عليه دون اللجوء الى وسائل القمع والارهاب . وبعبارة أخرى ، فإن قبول الشعب بالحكومة يتجسد في قاعدة الإصلاح والبناء التابعة لها . وهكذا يتضح الآن ما ذكرناه سابقا من أن كافة اجراءات الحكومة ومنجزاتها تؤثر - عاجلا أم آجلا - على « قاعدة حكمها » . فسياسة الحكومة وأعمالها الادارية تقرر - مباشرة أو غير مباشرة - مدى حاجتها الى استعمال وسائل الشدة والارهاب وتحدد كل زيادة فيها أو نقصان .

ان الاجراءات الحكومية التي لها تأثير مباشر على « قاعدة الحكم » تهدف أساسا الى المحافظة على السلطة وعلى ضمان استمرارها . وكمثال على الاجراءات المباشرة التي تخص قاعدة القمع والارهاب فإننا نذكر تلك الاجراءات التي من هدفها زيادة فاعلية الجيش ، ورفع درجة ولائه ، وضمان اخلاص أجهزة المخابرات والامن العام ، وغيرها من الاجهزة الحكومية التي لها صبغة عسكرية . وكذلك تلك الاجراءات التي تنص على اعتبار بعض اصناف النشاط السياسي غير قانونية وبالتالي يتعرض العاملون فيها الى الاضطهاد والتعذيب . وكمثال على الاجراءات المباشرة التي تتصل بقاعدة البناء والإصلاح ، فإننا نذكر تلك الاجراءات التي تشجع على ممارسة بعض اصناف النشاط السياسي ، مثل تشكيل المنظمات الشعبية والاحزاب السياسية الموالية للحكومة ، ويعتبر من هذا القبيل أيضا اصدار بعض التسهيلات الدستورية مثل قانون الانتخابات الذي يجب أن يمنح بعض الميزات والمنافع للفئات والطبقات الموالية لنظام الحكم لقائم والمؤيدة لاهدافه .

ان كل ما يتخذه نظام الحكم القائم من تدابير ذات اهداف بعيدة - مثل

تقوية الحالة الاقتصادية عامة - له تأثير غير مباشر على « قاعدة حكمه » . كما لا ينكر مدى تأثيرها على الوضع السياسي العام في البلاد . فعندما تقوم الحكومة بوضع الصعاب في طريق احدى الفئات المتمتعة بوضع اقتصادي قوي بغية شلها او تصفيتها ، فان هذه الفئة تصبح بحكم الواقع منبوذة ، بل وخارج « قاعدة الحكم » الموالية للنظام القائم . كما تصبح أيضا مرتما خصبا لنمو الشعور المعادي له . وبالمقابل فان أي تحسن في الوضع الاقتصادي لاجدى الفئات أو الطبقات نتيجة تدابير حكومية (سواء تحقق ذلك آنيا أو كان على شكل وعود مأمولة الانجاز) فان تلك الفئة أو الطبقة تنتقل تلقائيا من صف المعارضة الى صف الموالين « لقاعدة حكم » النظام القائم حتى ولو كانت منبوذة سياسيا في العهد السابق ومعادية له . ومع أن الغاية الرئيسية من انشاء المشاريع العامة ليست سياسية ، لكنه لا يجوز اغفال ما لها من آثار سياسية هامة ، فتكتيلها للفئات الشعبية في المناطق التي تنفذ فيها حول النظام القائم يعتبر مددا حساسا « لقاعدة حكمه » ودعما جيدا لوضع حكومته . ولا يقل عن هذا أي اصلاح أو تعديل في نظام فرض الضرائب أو في الانظمة الادارية الاخرى . ولا يخلو أن يكون لبعض الاجراءات تأثير مباشر على « قاعدة الحكم » ، وفي الوقت نفسه ، تأثير غير مباشر ولكنه مضاد للاول . فمثلا ، وجود أعداد كبيرة من أفراد الجيش والامن العام ، أعضاء في تنظيم سياسي غير قانوني ، له تأثير مضاد وغير مباشر ، على متانة ولاء أجهزة القمع والارهاب للنظام القائم .

وعلى وجه التقريب ، فان كافة التدابير الادارية والاجراءات الحكومية تتمخض عن نتائج سياسية مهما كانت غايتها الاساسية . ولذا فان عبقرية زعماء الثورة وقادتها تنعكس دائما في الدقة المتوخاة عند محاولتهم تقرير سياسة الحكومة حسب حاجات الشعب الذي يبقى دائما وأبدا مصدر الدعم الرئيسي للثورة . ومع أن زعماء الثورة لا يميلون الى اتساع سياسة غير سياسة البناء والاصلاح ، فانهم لا يتأخرون لحظة واحدة عن اللجوء الى أقصى وسائل البطش والارهاب حال احساسهم بضرورة ذلك .

فاذا استوعبنا ما سبق ذكره ، وأدركنا مقاصد معانيه ومراميتها ، وجدنا ان الاحتفاظ بالسلطة وضمان بقائها يتطلب الالتزام بقاعدتين أساسيتين هما :

- (١) على حكومة الثورة أن لا تضع سياسة ما ، أو تزعم على اتخاذ اجراء ما ، حتى تحدد تأثير ذلك المباشر وغير المباشر على « قاعدة حكمها » .
- (٢) وعلى حكومة الثورة أن تعطي الاولوية لانشاء « قاعدة حكم » متينة لدعم سلطتها ، حتى لا تجد نفسها مضطرة ، تحت ضغط الجماهير ، لاتباع سياسة الانجراف والمساومات .

ومن الصعب العثور على أية نظرية محددة المعالم ، مضمونة النتائج ، لتساعد قادة الحكومات الثورية في معرفة الاجراءات والاعمال التي لها تأثيرات سياسية مطلوبة ، أو لتساعدهم في تكوين « قاعدة حكم » تلائم النظام القائم وتحافظ عليه . ان نجاح الحكم الثوري في خطواته وامتلاكه « قاعدة حكم » متينة ، يرتبط ارتباطا وثيقا بالوضع السائد في داخل البلاد ، كما يعتمد على بعد نظر القادة أنفسهم ، واتساع أفقهم ، وخصوبة مخيلتهم . وفوق كل هذا وذاك ، فان سر نجاحهم في هذا كله ، يكمن في قدرتهم على الاخذ بزمام المبادرة . وفي مواجهة المواقف بجرأة وشجاعة . ومهما كان فالمرء لا يعدم أن يرسم بعض الخطوط المريرة العامة ، ومنها :

- (١) ان اللجوء لاساليب القمع أمر لا بد منه ، وخاصة في المرحلة الاولى للثورة .

(٢) يجب أن لا يكون من ضمن أهداف النظام الثوري مجرد الحصول على التأييد الشعبي . فالتأييد الشعبي أمر مؤقت بل وزائل . ودخول النظام القائم في ميدان منافسة كهذا ، مع بعض الفئات (أو حتى الافراد) الذين لا يمدون فرص دخوله ، سيجعل الثورة في خطر ان تجد نفسها تابعة غير متبوعة . ان الشهوة الجارفة في نفوس قادة الثورة لمجرد الحصول على تأييد الجماهير وضمان هياجها لصالحهم ، تعتبر بادرة خطيرة ، بل وقاتلة . فهي لا ترمز الا الى الضعف والانهياء في « قاعدة الحكم » التي يعتمد عليها النظام القائم .

(٣) ان نظام الحكم الذي يود كسب تأييد الشعب له ، بناء على سياسته في الاصلاح والبناء ، يجب أن يعتمد على دقة تخطيط سياسة الحكومة وعلى حسن تطويرها (وهذا عكس مجرد الحصول على الشهرة

الشعبية) ، مستخدمة في ذلك كل وسائلها وأجهزتها ، مباشرة وبصراحة ، لاثارة عواطف العنات والطبقات الكبرى من الشعب لصالحها ، والظهور بمنظر الحريص على مصالحها والمحافظة على حقوقها .

(٤) ان لاجراءات السلطة تأثيرات غير مباشرة على قاعدة حكمها ، لا تقل أهمية عن تأثيراتها المباشرة عليها .

(٥) ان للتنظيمات الشعبية ، غير التابعة مباشرة لنظام الحكم ، أهمية خاصة في انشاء وتكوين قاعدة الحكم ، المؤيدة والعاملة في سياسة الاصلاح والبناء اثناء عهد الثورة القائم ، واثناء مرحلة الانتقال الى الشكل الدستوري للدولة .

(٦) ان الشكل الدستوري الجديد للنظام يجب أن يعتمد مباشرة على قوة سياسة الثورة في الاصلاح والبناء .

(٧) ان قوة أجهزة المخابرات والمباحث ، وحسن تنظيمها ، وابتعادها عن الارتشاء والعبث ، عوامل جد. أساسية لتنفيذ تدابير قمع فعالة ، وللقيام بتحليل دقيق للقواعد الجماهيرية المؤيدة لنظام الحكم .

- ٢ -

العهد الثوري

بعد كل هذا الاستعراض للخطوط العامة ، أصبحنا الآن في وضع ملائم لبدء تفحص المشاكل التي تواجه النظام الثوري في احتفاله بالسلطة واستمراره بالحكم كما هي على الطبيعة حقيقة . ولا مانع من القاء نظرة عميقة على المعطيات التي يحاول النظام الثوري الاعتماد عليها في تصرفاته المباشرة ، أو غير المباشرة . ولقد سبق أن أبرزنا أهمية هدفين أساسيين لكل ثورة تطمح أن لا تجمل من نفسها مجرد حكم ديكتاتوري ساذج ، وهما :

(١) عليها أن تقوم بايجاد الحلول للمعضلات السياسية والاجتماعية الملحة التي قضت بوقوع الثورة .

(٢) وعليها أن تطور وضعا دستوريا جديدا ليحافظ على منجزات الثورة
ومكتسباتها أو ليخلدها .

ومع ان هذين الهدفين يقتضيان وجود مرحلتين للثورة ، فمن المستحيل
تحديد نهاية الاولى وبداية الثانية . وبوضوح أكثر ، فالتمييز بين هاتين
المرحلتين لا يتضح الا من خلال التباين في طريقة اظهارهما والتشديد عليهما .
فنهاية العهد الثوري تتداخل بصورة غير ملحوظة مع بداية عهد النظام الدستوري
الجديد . والحقيقة انه لا فائدة من تحديدهما بوضوح الا لهدف المناقشة
وتحليل الأحداث . وسنقترب من هذا (في سياقنا تقريرنا) دون أن ننسى أن
مرحلة وضع الدستور الفعلي تبدأ مع أول مراحل سياسة الإصلاح والبناء التي
تقوم بها الثورة ، وان استمرار بعض اجراءات القمع والارهاب ، لفترة طويلة
بعد تدشين العهد الدستوري الجديد ، أمر لا بد منه . وسنرمز الى المرحلة
الأولى للثورة باسم « العهد الثوري » ، وللمرحلة الثانية باسم « عهد ما قبل
الدستور » .

ولا بد للثورة من أن تقوم بالقضاء بعض أو كل المؤسسات السياسية المنتشرة
في البلاد التي ثبت عدم قدرتها على حل المشاكل السياسية والاجتماعية الملحة
التي اقتضت قيام الثورة . وهذا هو أنسب الاوقات وأصلحها لاحداث تطورات
سريعة ، تفقد بموجبها بعض الفئات والطبقات قوتها كمؤسسات سياسية ،
وتوضع في موقف حرج تضطر معه الى الدفاع عن نفسها وذلك بسبب
التيار الجارف لطبيعة الانقلاب الجديد التي تقف وراءه القوات المسلحة . كما
أن النجاح السريع لنظام الحكم ، في تكثيل الجماهير الفوغائية المؤيدة له تحت
شعارات الإصلاح والبناء ، له أكبر الأثر في تدعيم الخطوة السابقة . ثم لا تلبث
مرحلة « التدعيم والتميز الثوري » أن يأتي دورها بعد تلك الخطوات السابقة
وبعد أن يكون الحكم الثوري قد اتخذ شكلا أوليا يؤهله لان يخوض هذه المرحلة
بكل ما يكتنفها من صعاب فعلية في نواحي الادارة وتخطيط السياسة .

وفي أثناء هذه المرحلة ، تبرز الاخطار المضادة للثورة في أقوى مظاهرها ،
وتنتج من أحد المصادر الثلاثة التالية :

(١) من أولئك الذين كانت لهم مصالح ضخمة في نظام الحكم السابق ، أو

من مؤيديه ، أو ممن تطنى عليهم عاطفة جامعة في تأييده ،

(٢) من أولئك السياسيين الانتهازيين الذين يحاولون الاستفادة باستمرار من الاتجاه الطبيعي نحو الاضطراب وعدم الاستقرار الكامن في الوضع الثوري .

(٣) من أولئك الساسة الهدامين الذين يحاولون سرقة الثورة وتسخيرها لاهدافهم ومآربهم ، كالشيوعيين مثلا .

ومن هذه المصادر الثلاثة - مجتمعة أو منفصلة - تبرز الاخطار الثلاثة التالية :

(١) انقلاب عسكري يقع نتيجة ارتباطات بين عناصر في الجيش وقوى الامن الداخلي ، وبين بعض الزمر والجماعات الموجودة داخل حكومة الثورة نفسها .

(٢) انقلاب عسكري مضاد يحدث نتيجة ارتباطات بين بعض العناصر من الجيش وقوى الامن الداخلي ، وبين القوى السياسية في الخارج وخاصة تلك التي تملك القدرة على اثارة هياج ومظاهرات شعبية .

(٣) تسلسل عناصر مناوئة لاهداف حكومة الثورة ، ونجاحها في الوصول الى احدى النتائج التالية :

أ - تحريف خبيث لبرنامج حكومة الثورة .

ب - ائتلاف كامل ل برنامج حكومة الثورة .

ج - اضعاف قدرة الحكم على الاحتفاظ بسلطته وبالتالي التحضير للاطاحة به نهائيا .

وبالضرورة ، فليس هناك من وسيلة لمجابهة مثل هذه الاخطار ، سوى استخدام سلطات الحكومة - علنا ودون تحفظ أو تقصير - لقمعها أو الحيلولة دون وقوعها واستفحال شرورها . ولقد نوهنا سابقا ، أن اللجوء الى اجراءات

القمع والارهاب أمر لا بد في المرحلة الاولى للثورة ، على أن تحل سياسة الإصلاح والبناء محلها فيما بعد كأساس لاستمرار سلطة النظام القائم . وهذا هو التعاقب الصحيح لمراحل تقدم الثورة وتطورها . ومن العجب أن يتبع عدد غير قليل من الثورات عكس هذا الاتجاه . فمن الخطأ أن تعتمد الثورة ، في مرحلتها الاولى بافراط على سياسة الإصلاح والبناء ، ومن ثم تلجأ الى اجراءات القمع والارهاب كعامل حاسم لسحق أعدائها . ان هذا السلوك ، بعينه ، هو ذلك المرض الخبيث الذي تعاني منه الثورات ، وهو الكفيل بالقضاء عليها قضاء مبرما .

والتحليل الموضوعي لما سبق ذكره هو كما يلي : يضطر قادة الثورة الى انتهاج سياسة الانجراف والمساومات شيئا فشيئا ، لان الثورة لا تتمكن من احكام قبضتها على أجهزة الدولة في بداية عهدها ، ولانها لا تملك منح ثقتها لاجهزة القمع والارهاب لشكها في كفاءة تلك الاجهزة ونفوذها . وستحاول قيادة الثورة أن تحافظ على السلطة عن طريق كسب الشهرة الشعبية ، واثارة أزمة نفسية لا تنتهي حيال طريقة توجيه شؤون الدولة ومصالحها . وهكذا تكون الثورة قد وضعت أهدافها جانبا ، أو تركتها تحت رحمة الظروف والمناسبات نتيجة جهودها الخاطئة في المحافظة على السلطة وفي ضمان بقائها ولكن سرعان ما تفقد سيانسة الانجراف والمساومات فرصها كلما اتضح افلاس الثورة ، وبان للعيان فشلها . وهنا تضطر حكومة الثورة الى اللجوء الى وسائل القمع والارهاب ، كما تضطر الى تشكيل الاجهزة المنفذة له وتطويرها بسرعة وطيش . ولو افترضنا أن التطوير السريع لاجهزة القمع والارهاب كان ناجحا ، اضطرت الثورة عندها للاعتماد على القمع والبطش بافراط . ولكن يحدث ذلك في الوقت الذي يجب على الثورة أن تكون منصرفة فيه نحو منح البلاد عهدا دستوريا جديدا . وهكذا تكون الثورة قد تفسخت حقيقة ، وانقلبت الى مجرد نظام ديكتاتوري وحكم مستبد . اما في حال عدم نجاح قيادة الثورة في تطوير اجهزة للقمع بالسرعة الضرورية وبالكفاءة اللازمة (وهذا ما يحصل عادة بسبب التأخير) ، فان حكومة الثورة ستجد نفسها مضطرة الى الانتقال انقلابيا الى نظام دستوري جديد ، دون أن تكون قد استكملت بعض أو كل مقوماته ، أو حققت بعض أو كل أهدافه . وهذا هو أهون الشرين وأخف الضررين . أما اذا جرت

الرياح عكس ما تشتتبه الثورة وتمناها ، فان النظام الثوري بأكمله سيقع ضحية ثورة مضادة لا تبقي ولا تذر .

ويتضح من هذا كله ، أن سياسة الانجراف والمساومات هي حليفة الثورة المضادة ، كما أنها جرثومة فتانة في داخل جسم الثورة نفسها . فعندما يتذكر المواطنون أن سياسة حكومة الثورة لا تختلف عن سياسة حكومة العهد البائد التي كانت السبب المباشر لقيام الثورة ضده والإطاحة به - هذا ان لم تكن نسخة مماثلة له - فانه يصبح مؤكدا أن سياسة حكومة الثورة الحالية ستشكل دافعا مشجعا لكل أولئك الذين يتطلعون الى نسف الثورة وسحقها دون رحمة أو هوادة .

ان قاعدة القمع والارهاب التي يجب على حكومة الثورة أن تلجأ اليها عند الضرورة تتألف في هيكلها مما يلي :

- ١ - الانظمة والقوانين
- ٢ - قوى الامن الداخلي
- ٣ - أجهزة المخابرات والمباحث ذات الكفاءة العالية
- ٤ - وسائل الدعاية
- ٥ - قوة عسكرية بكفاءة عالية أو الجيش .

● الانظمة والقوانين :

ان الاستعانة بالانظمة والقوانين لتحقيق الاستقرار السياسي خلال الفترة الاولى من حكم الثورة أمر ضروري لا بد منه . وليس الهدف من ذلك تحريم النشاطات السياسية المنظمة التي لا ترغب السلطة الحاكمة بها فحسب ، بل الهدف منها أيضا اصفاء صبغة اللاشعورية على كل النشاطات الهدامة والداعية الى الشغب والفوضى . وأفضل الاجراءات في هذا المضمار ، هي مراجعة كافة الانظمة والقوانين القائمة التي لها علاقة بتلك الموضوعات ، وتعديل ما يلزم منها حسب الظروف الجديدة ، ثم توضيحها وجمعها في مرسوم واحد (أو مجموعة مراسيم) وتعميمها على أوسع قدر ممكن . وهكذا تصبح هذه التشريعات أساسا للمحافظة

على أمن الدولة . كما أنها تقوم بتحديد مهمة قوى الامن الداخلي وأجهزة المباحث (وزارة الداخلية) ، وتوضح كذلك واجبات المواطنين وحقوقهم . وفي الوقت الذي يجب أن تكون هذه التشريعات واضحة قدر المستطاع ، فإنها يجب أن تبقى أيضا عامة حتى لا تميمق الحكومة نفسها ، وتسلب رجال السلطة حرية التصرف المطلوبة . كما يجب أن لا تظهر هذه التشريعات على أنها لصالح فئة - أو طبقة - وضد أخرى ، أو أنها تعطل بعض الحريات العامة كحرية التعبير والانتقاد وغير ذلك . ولكنها بنفس الوقت يجب أن لا تكون عقبة كأداء في وجه سلطة النظام القائم ، أو أن تحول دون اتخاذها الاجراءات اللازمة لحماية نفسها . وعلى هذه التشريعات أن تحقق غايتها المرجوة ألا وهي اعتبار كافة أعمال التآمر - كقلب نظام الحكم ، أو تأييد الذين يفكرون بهذا والدفاع عنهم ، أو ترويح الشائعات الكاذبة ، أو بث الذعر بين الناس ، أو اشاعة جو الكآبة مما يحرض الناس على أعمال العنف ، أو الادلاء بأسرار الدولة الرسمية ، أو القيام بأعمال التجسس والتخريب - أعمالا غير قانونية تستحق العقوبة والجزاء . كما يجب عليها أن تمنح قوى الامن الداخلي الحق في تحريم الاجتماعات العامة والتجمعات التي تبلغ حد الخطر في الشوارع ، وتفرض الحصول على اذن مسبق لاقامتها . ومن المسلم به جدا ، خضوع السلطة القضائية برمتها - دون استثناء - لارادة حكومة الثورة . كما ان كافة الاحكام الصادرة بحق المخالفين لانظمة أمن الدولة ، يجب أن لا تكون - بأي حال من الاحوال - مخالفة لرغبة حكومة الثورة وانسراح صدرها .

● قوى الامن الداخلي :

يجب على قادة حكومة الثورة اعطاء أجهزة قوى الامن الداخلي (الشرطة والمباحث والامن العام) الاولوية على سائر الاجهزة الاخرى في الدولة . فقوى الامن الداخلي تعتبر بمثابة الدرع الحامي لنظام الامن في الدولة وضمان استتباب الامن والنظام في الازمات التي لا تبلغ حدا خطيرا يتطلب معه استدعاء الجيش . ولهذا يتوجب القيام بتفحص وتحري كامل هيئة قوى الامن الداخلي وعملياتها باستمرار حتى يضمن ولاؤها ، ويحافظ على حسن أدائها لمهامها . وعلى قيادة الثورة منح رئيس قوى الامن ومساعديه نقتهم التامة ، كما عليهم أن

يولوا تطوير فاعلية تلك الاجهزة في حفظها للامن عنايتهم الشخصية والمباشرة ، وهذا يعني بالضرورة اضعاف الصبغة السياسية على كافة اجهزة قوى الامن الداخلي ، لتكون عند الضرورة يدا موالية لحكومة الثورة بصفة شبه عسكرية .

ان من مهمات اجهزة المباحث التابعة لقوى الامن الداخلي ما يلي : تجميع كافة المعلومات الماسة بوضع الامن في الدولة عن طريق انشاء شبكة واسعة للتحريرات ، واجراء التحقيقات السريعة في قضايا الامن بممارسة الطرق العادية للمراقبة والاستنتاج والتسلسل الى المستويات الدنيا لكافة الجماعات المشكوك في ولائها للثورة . كما أن عليها القيام بتطوير جهاز فعال ضد المظاهرات والاضطرابات .

● اجهزة المخابرات :

ان دماغ كافة اجهزة الامن لنظام حكم ثوري (أو حتى لاية دولة اخرى) ، والمركز الحساس لها ، هو ذلك الجهاز الذي هو على غاية من السرية ، والذي لا يعرف تفاصيل وجوده سوى رئيس النظام الحاكم ومن حوله من زعماء الثورة القياديين . ويطلق على ذلك الجهاز اسم « المخابرات » . وتقع على عاتق هذا الكيان المتفعل في كافة أرجاء اجهزة الحكومة ودوائرها (وحتى خارج اجهزة الحكومة) مسؤولية تزويد رئيس الدولة بالمعلومات الهامة والضرورية للقيام باجراءات فعالة وفورية ضد الاخطار المضادة للثورة . كما يجب على هذا الكيان أن يزود رئيس الدولة وكبار رجالها بالمعلومات الكافية لتخطيط سياسة أمن عامة . ومن مهام هذا الكيان ايضا معرفة كامل النشاطات المعادية للدولة والضارة بأمنها ، سواء القائم منها فعلا أو المبتدىء حديثا ، وسواء الواقع داخل نطاق الحكومة أو خارجها ، وسواء لشامل منها لوزراء الدولة أو لضباطها في القوات المسلحة والامن الداخلي .

ولتحقيق هذه الاهداف وانجاز تلك المهمات لا بد لهذا الكيان ان يتمتع بالحرية المطلقة في الاطلاع على كافة انتاج اجهزة الامن الداخلي و اجهزة المباحث والمخابرات الاخرى (ويسمى عندئذ هذا الكيان باسم الجهاز الخاص) . كما يجب أن تكون لديه القدرة على الاشراف - عن طريق وسائله ، المعروفة منها أو السرية - وبصورة خاصة ، على أهم اجهزة الامن الداخلي . وفوق كل هذا

وذاك ، فان من أخص مهام أجهزة المخابرات عامة امتلاك المعطيات اللازمة والقدرة الكاملة بغية التسلل الى أعلى المراتب والمناصب في كافة النشاطات المشكوك في ولائها للثورة .

● الدعاية والإعلام :

من الخطأ اعتبار الدعاية سلاحا أساسيا لضمان أمن الثورة . فالدعاية في حد ذاتها لا تعدو كونها سلاحا مساعدا لاستمرار السلطة وبقاء النظام . كما أن الاعتماد على الدعاية كليا يعتبر مخاطرة غير قليلة ، وذلك لأنها تدفع بسياسة الحكومة الى وضع تجد معه نفسها موجهة من قبل احتياجات الدعاية بدلا من أن يكون العكس . وهذا هو أقصر الطرق المؤدية بالثورة الى سياسة الانجراف والمساومات . وعلى حكومة الثورة أن تقوم بشن حملات دعائية مركزة تهدف الى اعطاء تبرير مقنع لاستمرار استخدامها لوسائل القمع والارهاب . كما أن من أهداف تلك الحملات كشف النقاب عن أعداء الثورة وفضح النشاط اليساري .

ويجب أن تستحوذ مسألة الدعاية المضادة - التي تقوم القوى المعارضة للثورة ببحثها - على اهتمام خاص ، بسبب ما يمكن أن تنيره من مشاكل ، مثل مطالبتها بحرية الصحافة والتعبير عن الرأي . كما انه يتعذر ايجاد حل لمشكلة مراقبة الصحافة داخل العهد الثوري دون أخذ بعض المشاكل والظروف الأخرى بعين الاعتبار . ومهما كان ، فعلى حكومة الثورة أن تكون مستعدة لفرض المراقبة على الصحافة حال احساسها بضرورة ذلك . الا انه يمكن ضبط الصحافة في غالب الاحوال من خلال ممارسة بعض الضغط من قبل الحكومة ، بأشكال عديدة ، ودون اللجوء الى المراقبة الصريحة . فيكفي مثلا تعيين مستشار لكل هيئة من هيئات تحرير المجلات والصحف ، وذلك بقصد ابداء الرأي بكل ما هو معد للنشر كالقصص والابحار ، ولاعطاء النصيحة والتوجيه بخصوص المواد الصحفية التي تمالج القضايا العامة المهمة . ويمكن اصدار بعض المراسيم - التي يمكن أن توصف بأنها مرتبطة بوضع الامن داخل الدولة - بغية تدعيم سلطة أولئك المستشارين عند الضرورة . كما يمكن تحقيق ذلك عن طريق التهديد بتنفيذ بعض الانظمة المتعلقة بآثار الشغب وتهديد الامن ، وكذلك

بالتهديد بزيادة الضرائب والرسوم على الصحف والمجلات ، وفرض غرامات مالية
كبرى عليها .

● القوة العسكرية :

في الوقت الذي لا يجوز التقليل من أهمية وجود قوة عسكرية ذات
كفاءة عالية وولاء تام للنظام الحاكم ، فإنه لا يجوز أيضا اعتبار وجودها ذا
أهمية مسلم بها جدلا . فمن أكثر الامور أهمية ، توفر جهاز فعال جدا
للمخابرات ضد التآمر والنشاط الهدام في داخل القوات المسلحة . ومن
المستحسن وضع برامج ثقافية سياسية وتلقينها لكافة أفراد الجيش . ومن
المهم ، فوق كل هذا وذاك ، ادخال التحسينات على أسلحة ومعدات وتدريب
القوات المسلحة ، كما يجب دفع المرتبات بانتظام وسخاء حتى تكون أحسن
المرتبات في الدولة ، وحتى يصبح ذلك الجيش - باختصار - جيشا مواليا
تملا الفبطة قلوب افراده ، ويفخر السرور نفوس ضباطه .

ان اجتماع كل هذه الاجهزة التي استمرضناها آنفا ، يعطي الثورة جهازا
ضخما لحماية أمنها ، وتأمين استمرارها . واذا ما تم استخدامه بحكمة كافية
وعقل راجع فإنه لا يوفر حماية كافية للثورة ضد أعدائها فحسب ، بل ويزود
حكومة الثورة برصيد مهم يؤمن لها حاجتها من الاستقرار السياسي ،
والضروي للبدء بتنفيذ سياسة الاصلاح والبناء . وفي مثل هذه الظروف فقط ،
تتمكن الثورة من ارساء قواعد جديدة للحياة السياسية في الدولة ، وذلك على
اساس من تلك الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية الهامة التي تنجزها نتيجة
اجراءات مباشرة أو غير مباشرة . وهكذا ، فان ارساء مثل هذه القواعد للحياة
السياسية المقبلة - ويمكن أن تبدأ الثورة هذا الارساء منذ أيامها الاولى - هو
بمعنى « فترة ما قبل العهد الدستوري » الذي تطمح الثورة لبلوغه بصحة
ونشاط .

عهد ما قبل الدستور

يجب على زعماء الثورة أن يتطلعوا منذ اليوم الاول لحركتهم الى تطوير الثورة وتحويلها الى نظام دستوري جديد . فالثورات الاصيلية والمنبثقة من ضمائر الشعب لا تنوي اطلاقا اقامة أنظمة ديكتاتورية مستبدة ، بل تعمل جاهدة لاعادة الوضع الدستوري والحيوي لاستقرارها ، في اقرب وقت ممكن - وعلى الاقل - عن طريق اعطاء المهود وبذل الوعود . ولكن تبقى هناك مشكلة التعاقب بين العهد الثوري والمهد الدستوري ، والطريقة التي يخلف العهد الثاني الاول بها ، ويحل محله دون تقهر أو هزيمة . فزعماء الثورة لن يخلدوا ، وحماسة الشعب للثورة لن تبقى للابد بل ستضعف وتذبل . ولهذا كانت أنجع الوسائل لاجراء عملية التعاقب بشكل منتظم ومستقر (ودون الحاجة للقيام بشورة أخرى) ، هي تلك التي تستخدم أي نوع من أنواع « الانتخابات النيابية » ، التي غالبا ما تقود الى عهد ذي صبغة دستورية مهما كان مشوه الحقيقة ممسوخ الفاعلية .

وبما أن زعماء الثورة والمؤيدين لها ، يرغبون في تخليد منجزاتها ، فمن الضروري اذن ، التنبؤ بمصادر الخطر الجديدة والتنبه لها . ويحدث ذلك ، كنتيجة لمحاولة اعداء الثورة التسلط ثانية على السلطة السياسية في العهد الدستوري الذي يعقب العهد الثوري . وغالبا ما يتم هذا بسهولة تامة اذا ما أخفقت الثورة في تدعيم دور تلك الفئات والطبقات - التي حققت الثورة خدمات ومنافع لها - وتقوية فاعليتها . كما يقع نفس الشيء اذا ما عجزت الثورة عن تطوير نظام دستوري جديد ، يضمن لتلك الفئات والطبقات أكثرية عظمى . وها هي بعض تلك الاخطار :

(١) ان الاحزاب السياسية القديمة سوف تتمتع ثانية ، ولا يستبعد ان تملك القدرة اللازمة لاعادة اعداء الثورة الى السلطة .

(٢) ربما تظهر الى الوجود احزاب سياسية جديدة ، وعن طريقها ستعود الشعارات القديمة والاهداف السابقة للتداول ، وعندما تمتلك هذه

الاحزاب القدرة اللازمة لاعادة اعداء الثورة الى السلطة ، فانها لن تتأخر في فعل هذا أبدا .

(٣) ربما تتم السيطرة لبعض السياسيين (الذين يخالفون الثورة في اهدافها) على أي حزب ثوري يمتد وجوده الى العهد الدستوري . وذلك نتيجة ما لديهم من قدرات وخبرات سياسية فائقة تخلفت عندهم من العهد البائد قبل الثورة أو اكتسبها حديثا . وهكذا ، فمع وجود حزب ثوري على رأس السلطة فان مصالح أتباعه وأشياعه لن تكون موضع اهتمام حقيقي أو تنفيذ بناء .

(٤) ويجب على النظام الدستوري الجديد أن لا يتخذ شكلا يشجع ظهور عدة احزاب متعادلة القوة تقريبا . ذلك أن وضعا كهذا ، لن ينتج عنه سوى عدم الاستقرار السياسي لوجود احزاب بشعارات قديمة ولكنها في موقف قوي لا يجار غيرها على اتباع سياسة المساومات والحلول الوسطى . وبهذا يتحقق لها الانقراض على بعض منجزات الثورة أو كلها .

ومن الممكن تفادي كل هذه الاخطار اذا قامت حكومة الثورة بالاستفادة من الميزات الفريدة - التي يمنحها اياها احتكارها الكلي للنشاط السياسي القانوني في أوائل عهدها - في وضع أسس لنظام دستوري جديد ، يسود فيه حزب واحد ، هو وحده وريث الثورة الشرعي في العهد الدستوري الجديد ، وله وحده الدور الحاسم في تسيير دفة الامور .

وللوصول الى وضع نموذجي كهذا ، يتوجب على حكومة الثورة أن تخلق منظمة شمبية تتدرج بدقة وانتظام حتى تصبح نهائيا حزبا سياسيا ، وهي بنفس الوقت ، توفر للمنتخبين لها من المقترعين والسياسيين الثوريين مجالا جيدا لاجراء التمرينات والتجارب على الحياة السياسية ومعضلاتها . وعندما يحين الوقت لمنح البلاد الدستور الجديد ، فان على حكومة الثورة أن لا تنسى أن تصوغه بصورة تعطي الحزب الثوري فرصا مطلقة لا منافسة فيها .

المنظمة الشعبية

● ماهي :

مهيا تمددت الاسماء واختلفت ، فان النوع الذي يعيننا في مجال المنظمات الشعبية هو ذاك النوع الذي يبقى خارج نشاط الحكومة الرسمي . ففي هذا النوع من المنظمات الشعبية يقوم زعماء الثورة ، بالتعاون مع بقية موظفي الحكومة ومستخدميها ، بانشاء منظمة شعبية تشترك فيها جماهير غفيرة من المواطنين غير الرسميين ، وتدعي هذه المنظمة اهدافا وشعارات مثل تلك التي تنادي بتدعيم الثورة والمحافظة على مكتسباتها وزيادة منجزاتها . وعمل هذه المنظمة أن لا تظهر بمظهر حزب سياسي اثناء الفترة التي تكون الانتخابات فيها مغلقة ، والاحزاب السياسية منحلّة ومحرمة قانونيا ، دون أن يؤدي هذا الى اغفال تنظيمها على غرار حزب سياسي ، لتكون مستعدة لانتخابات تجري في المستقبل عاجلا ام آجلا . وكنتيجة لهذا يجب أن تكون لها قيادات محلية ، اقليمية وقطرية ، ومسؤولون متفرغون لرسم مختلف احتمالات سيرها وتخطيط سياستها . كما يجب أن يتوفر لها جهاز اداري عامل وآخر للانضباط . وعلاوة على كل ذلك ، فان قيام امانة عامة لها ، متفرغة لشؤونها ، مع لجان متعددة لمختلف المهام ، مثل الدعاية والنشر ، أمر حيوي لبقائها في الطليعة متماسكة ومهيمنة .

● غايتها :

لا يجوز الانصاح عن الغاية الحقيقية لانشاء مثل تلك المنظمة . وكل ما يشاع عن اهدافها هو أنها وجدت لتوثيق الروابط الاخوية بين العناصر المؤيدة للثورة واهدافها . ولكن هدف انشائها حقيقة ، ايجاد جبهة للدعاية لصالح النظام الحاكم ، ومن ثم تطورها الى حزب سياسي - الحزب الثوري - يمارس مهام الحكم في المستقبل . ويتم ذلك عن طريق استقطاب قواعد وطبقات جديدة من الشعب ، وغمسها في نشاط سياسي مدعم وبدون انقطاع ، وتوفير التدريب الضروري لها على هذا النوع من النشاط ، ومحاولة اقناعها بفائدته وباهميته في

حصول الفرد على أحسن مردود لحياته (داخل مجتمعه ودولته) عن طريق
تطهير وقائع عملية ملموسة لتلك الفائدة والأهمية .

● كيف يمكن تحقيق هذه الغايات

ان سر نجاح هذه المنظمة هو بقاؤها بقرب السلطة الحاكمة .، واستمرار
اشراف الثورة عليها ، اشرافا غير رسمي . كما أن مفتاح بقائها هو عدم سماح
الثورة بظهور أي منافس لها . فهي وحيدة في الميدان ، عزيزة على قلب الثورة
التي تصبر عليها ، وتتقبل النقد منها بكل رحابة صدر وسعة . أما كبار قادتها ،
فيجب أن يكونوا نموذجا طبق الاصل عن كبار زعماء الثورة ، وقادة الحكم ، في
معظم نواحي تفكيرهم وحياتهم . وعندما تتوفر مثل هذه الظروف في المنظمة
الفتية ، فإن جماهير الشعب ، التي قامت الثورة برعاية مصالحها ، وتأمين
حاجاتها ، ستظهر عواطف جياشة تنم عن ولاء تام للثورة وقادتها . ثم لا تلبث
أن تجد نفسها تحت تأثير اغراء متزايد يجذبها للانضمام الى عضوية المنظمة
والانخراط في سلكها . وتشكل الخدمة المدنية معيننا لا ينضب للملاكات
(الكادرات) العاملة في هذه المنظمة . وكمثال على هذا ، فإن التحاق موظفي
الدولة ومستخدميها بالنشاطات التابعة لهذه المنظمة ، كشرط لاستمرار خدمتهم
في سلك الحكومة ، يمد المنظمة بأفواج ضخمة من المنتسبين اليها والعاملين
فيها . وعلاوة على كل هذا ، فإن ما تتمتع به الحكومة من حرية ادارية واسعة ،
وسلطات غير محدودة في مجال انجاز المشاريع العامة ، توفر لها طاقة ضخمة ،
سهلة التسيير والتسخير ، لخدمة أهداف المنظمة الشعبية وغاياتها ، (كما
تعتبر هذه فرصة رائعة للعمل غير المباشر في مجال بناء المراكز الشعبية
للثورة) . ويجب أن تكون المناصب في المنظمة بمثابة المكان الذي توضع فيه
الجماعات والافراد الراغبون في التأثير على النظام القائم موضع المراقبة والامتحان
- ضمن حدود ادارة فعالة وسياسة وطنية صحيحة - وحتى تعرف طريقة
تعاملهم مع كبار الرسميين المسؤولين عن الشؤون العامة ونوعية الصفقات التي
ينوون الدخول مهم فيها .

ان الحكومة تملك نمعا كثيرة تستطيع من خلال تسييرها لشؤون الدولة

الادارية الروتينية اسبابها على العاملين في مثل هذه المنظمة ولا سيما عندما يقع بعضهم في ورطات يصعب التخلص منها اثناء تنفيذ القوانين والانظمة المختلفة، ولهذا يجب أن يكون واضحا (دون أن يعلن عن ذلك رسميا) أن التأييد النشط للمنظمة والدعوة المتواصلة لها هما من ضمن الطرق للحصول على المغانم السالفة الذكر . وفي مقابل الخدمات التي تقدمها تلك المنظمة الشعبية ، فإن أنظار العديد من أفراد الشعب ستتجه اليها ، وستستحوذ على اهتمام اولئك الذين قلما يثير فضولهم أمر ما . وعن طريقها أيضا يمكن الحصول على التبرعات المالية بسهولة أكثر ويسر أوفر . وعندما يتضح المفهوم الاساسي لمثل هذه المنظمة الشعبية في الاذهان فإن الشكل الدقيق لنشاطها ، بحدوده العملية كلها ، سيكون مناظرا تماما لحالة الثقافة العامة داخل البلاد . كما سيكون وجه النشاط في انسجام مع الحالة الاقتصادية والاجتماعية للفئات والطبقات التي تؤيد المنظمة وتساندها . وسيتصاعد نشاط المنظمة اطرادا مع مدى تشرب أفرادها أفكار الثورة السياسية ، ومدى انفعالهم عاطفيا معها ، ومع التسهيلات التي تقدمها والمساعدات التي تبذلها الحكومة لهم . ان قائمة نشاطات منظمة كهذه ستحيط بعدد كبير من المشاكل والواجبات . ويشمل ذلك النشاط الثقافي (كإلقاء التوجيهات الاولية في الحقوق المدنية والتربية الوطنية والاجراءات الانتخابية وتنظيم جهاز الحكومة والتاريخ السياسي السخ) واصدار الصحف وتنظيم المظاهرات والمؤتمرات الجماهيرية . كما يشمل تقديم العون المباشر للحصول على وظيفة في سلك الحكومة ، والى غير ذلك من النشاطات التي لا عد لها ولا حصر .

ويجب أن لا تغيب عن البال قطعا تلك الحقيقة الهامة وهي أن هذه المنظمة الشعبية جزء من المرتكزات الشعبية لنظام الحكم الثوري ، وأنها ستبقى على المسرح بعد انتقال امتيازات الحكم الخاصة بحكومة الثورة الى النظام الدستوري الجديد . كما أن هذه المنظمة ستصبح الحزب السياسي الوحيد ، الذي سيفضطلع بحمل تقاليد وأعراف الثورة للأجيال المقبلة التي لن تنظر اليها بعين الرضى، ولن تتردد بمعاكستها على شكل ردود فعل ضدها .

الدستور الجديد :

ان نفس الصعوبة التي برزت سابقا عند محاولة شرح وتحديد هيكل ونشاط المنظمة الشعبية بالدقة اللازمة ، ستبرز ثانية عند محاولة رسم صورة دقيقة للنظام الدستوري المثالي الذي يجب أن يخلف عهد الثورة . ولكن هناك ظاهرتين هامتين جدا يجب أن تتوفرا في الدستور الجديد اذا كانت القاعدة الشعبية لنظام الحكم الثوري راغبة بالبقاء لمدة طويلة ودون نقص في فاعليتها ، وهما :

(١) يجب أن يتألف الدستور الجديد المدون من نصوص ومبادئ عريضة، مع ترك الترتيبات الجزئية للقوانين العادية لتوضيحها والتفصيل فيها . وحيث أن الحزب الثوري سيكون القوة السائدة والمسيطرة ، فمن الضروري اذن ترك المجال واسعا امامه لكتابة الدستور وتمديله حسب مقتضيات زمانه وخبرة زعمائه ، وترك مرونة كافية للمواجهة الظروف والحالات الطارئة حديثا .

(٢) ويجب أن يفسح الدستور المجال أمام ظهور سلطة تنفيذية قوية ، تتمتع بشعبية واسعة نتيجة انتخابها من قبل الاغلبية ، كما يجب على الحزب الثوري أن يتأكد من سيطرته على السلطة التنفيذية كشرط أساسي لاستمرار تفوقه العددي وفاعليته التنظيمية الى أقصى الحدود الممكنة . وبالوقت نفسه فعل السلطة التنفيذية أن تكون في مركز قوي تجاه السلطة التشريعية .

ومن المستحسن التذكير ثانية بأهمية الاقتراحين السابقين : اولهما أن الدستور المدون يجب أن لا يتضمن اكثر من مبادئ عامة وخطوط عريضة ، وثانيهما أنه يتوجب على الدستور أن يتبع ظهور سلطة تنفيذية قوية . ان الدستور المدون يجب أن يبقى وثيقة دائمة هدفها تحديد وتنظيم طبيعة وشكل النظام السياسي للبلاد . ويجب على النظام القائم ، بعد الموافقة على الدستور وتبنيه رسميا ، أن يضفي عليه صبغة من القدسية يصعب معها التغيير فيه والتبديل . ان لم يكن هذا مستحيلا . وعندما يتضمن الدستور مجموعة من التفاصيل الدقيقة الى جانب المبادئ العامة ، فمن الواجب عندئذ اظهار تلك

لتفاصيل ايضا بنفس مستوى قدسية المبادئ العامة . ومهما يكن ، فان لهذه النقطة خطورة خاصة لسببين: اولهما، يجب أن تتمتع تفاصيل نظام الحكم بمرونة كافية تبيح تعديلها عند تغير الظروف . وثانيهما فعندما يتضمن الدستور المدون هذه التفاصيل ، فان هذه الاخيرة تكتسب صفة ديمومة الدستور نفسه مما يجعلها صعبة التغيير والتعديل . وعلاوة على هذا ، فان وجود فقرات مفصلة ونصوص مشروطة في الدستور يترك سلاحا في يد الاقلية غالبيا ما تتمكن به من هزم ارادة الاكثرية وخاصة في بعض القضايا السياسية الحيوية . والمثال التالي خير توضيح لما سبق ذكره . فغالبا ما يظهر انثناء مناقشة الدستور للموافقة عليه وتبنيه رسميا اتجاه نحو اشتراط تأمين اغلبيية ثلثي الاصوات بدل الاكتفاء بالاغلبية البسيطة في المجلس النيابي (البرلمان) عند التصويت بالموافقة على اصدار بعض أنواع خاصة من القوانين . والتشريعات . ولكن قد يحدث ، مع مرز الزمن وتبدل الظروف ، أن نوعا من انواع تلك القوانين والتشريعات لم يعد يتلاءم والاضاع الجديدة ، وأن هناك ضرورة لتعديله أو تغيير . ولكن ، في حالة كهذه قد تنبري الاقلية البرلمانية (وربما بدافع أهداف خاصة) لتتقف في وجه ارادة الاغلبية محتجة بتفاصيل الدستور وشروطه . فلو كانت تلك التفاصيل مجرد قوانين لا أكثر - وليست نصوصا في وثيقة الدستور - لما كان هناك داع لظهور مثل هذه المضلات .

ان الاعداد لقيام سلطة تنفيذية قوية وقادرة - بحسب الدستور - له أهمية فائقة . ان اشد الارزاء التي تصيب الحكومات ، التي تواجه سلطة تشريعية متفوقة عليها بسلطاتها وصلحاياتها ، هي عدم الاستقرار السياسي ، الذي ينتج عن تشرذم البرلمان الى عدة احزاب وتكتلات صغيرة . وحيث أن الحزب الواحد (ولو كان الحزب الثوري) لا يتمكن من فرض سيطرته على كل شيء باغلبية مطلقة الا نادرا ، فان السلطة التنفيذية تبقى دائما تحت رحمة اتجاهات الائتلافات البرلمانية ، والتي غالبا ما توصل الى سياسة الانحراف والانجراف . وبالمقابل ، فعندما تكون السلطة التنفيذية أقوى من السلطة التشريعية - أو على الاقل بقوتها (وهذا ما يحدث في الحالات التي تكون السلطة التنفيذية منتخبة انتخابيا مباشرة وليست مميّنة من قبل البرلمان ، مثل انتخاب رئيس الجمهورية من الشعب مباشرة) - فان الوضع يكون عمدئذ متوازنا . وعندما تتوفر

سلطة تنفيذية قوية كتلك ، فان الحزب الذي يملك أغلبية أصوات الناخبين
يمكن عندئذ من السيطرة على كل من السلطة التنفيذية والغالبية البرلمانية .
وبهذه الطريقة ، دون سواها ، يتهيأ للبلاد جو من الاستقرار السياسي ، ملازم
لطبيعة النظام السياسي وتركيبه .

وخلاصة الكلام : ان على نظام الحكم الثوري تقديم دستور للبلاد يتصف
بالواقعية . فالوثائق الرسمية الصادرة عن لجان وضع الدستور والمؤلفة من
اساتذة الجامعات والقضاة ، غالبا ما تُسوّد فيها وجهات النظر المعروفة في كتب
القانون التي تهتم بالمفاهيم المعقدة لأجهزة الحكومة ، والتفاصيل الدقيقة لنظريات
القضاء . الا أنها نادرا ما تتطرق الى النواحي العملية والواقعية للحياة السياسية
الحقيقية في داخل البلاد ، والتي لأجلها ، دون سواها ، تسن الانظمة ، وتوضع
الداستير .

٤

الخاتمة

لقد كان واضحا تماما منذ بداية هذا التقرير، أن المحافظة على السلطة هي
هدف في حد ذاتها ، لا يختلف في هذا نظام عن نظام . ولكي يتيسر هذا فلا بد
من توفير القوة السياسية لهذا النظام ليصبح حكما ذا فاعلية جيدة . وتتوفر
عادة هذه القوة السياسية في كل المجتمعات مهما كان وضع تنظيمها وحالتها ، الا
أنها اما أن تكون علنية ، أو تبقى كامنة في المجتمع مدخرة فيه . ولكن النقطة
الحاسمة في هذا المجال هي أن القوة الكامنة تبقى في معظم مراحل الحكم أكثر
بكثير من تلك التي تظهر علنا وتصبح أمرا واقعا . ففي الدولة الدستورية، تحدد
اعتبارات الشرعية أو القانونية نشاطات الحكومة في تشكيلها للقوة السياسية،
بنفس النسبة التي تحدد نشاطات أولئك الذين تتعارض مصالحهم مع النظام
القائم . أما نظام الحكم الثوري ، فإنه لا يقيم وزنا لمثل تلك الاعتبارات ، وذلك
لان اسم « الثورة » نفسه وتعريفها لا يملكان أيا من معاني الشرعية أو القانونية .
وهذا هو مصدر ضعف الثورة باستمرار ، وكما أن عدم شرعية الثورة وقانونيتها

لا يضمنان أي قيود لنشاطها لتوفير القوة السياسية اللازمة لها ، فان كل مسا عجزت الثورة عن تجنيده وتسخيره من القوى السياسية المدفونة في المجتمع لا يخضع اطلاقا في نشاطه وتفجره لاعتبارات الشرعية أو القانونية ولذلك يبقى بحقيقته خطرا كامنا يهدد باستمرار أمن الثورة وبقامها .

وهكذا يبقى أمام نظام الحكم الثوري طريقان لا ثالث لهما لمعالجة هذا الخطر المهدد لكيانه . فأول هذين الطريقين ذو نهاية خطيرة ، مع أن بدايته تبدو للوهلة الاولى على أنها أساس النفعية ، والنزوع الى جر المغنم باية وسيلة كانت وهذا ما أطلقنا عليه آنفا اسم « سياسة الانجراف والمساومات » التي غالبا ما تحرض عليها بعض الحكومات الثورية ، بغية توطيد أركانها عن طريق الظهور بالمظهر الشعبي ، الذي تلتف حوله الجماهير الفوغائية ، وذلك بدل جعل قوتها السياسية أمرا واقعا ومحققا .

وثاني الطريقين هو ذاك الطريق الذي نصحنا آنفا باتباعه ، وهو الذي يقود حقا الى ثورة فعلية تدرك بعمق كاف النظرية الاساسية التي يقوم عليها الحكم الثوري . وبعبارة أخرى ، فان على نظام الحكم الثوري أن يتخذ كل ما يراه ضروريا من التدابير لايجاد قوة حقيقية له سواء أكان ذلك باللجوء الى اجراءات القمع والارهاب أم الى سياسة الاصلاح والبناء . وعليه كذلك ان لا يفغل عز تلك القوة الكامنة في المجتمع ويتركها دون السيطرة عليها وتجنيدها له .

ومن المأمول أن يكون هذا التقرير مفيدا ومساعدًا للثورات في اتقان عملها ، وأن يكون مقدمة لها الى ما يسمى « الضرورات » وفن تنفيذها .

مركز « لعبة السلم » في واشنطن

لا يمكنك ان تربح المباراة دون ان تكون لاعبا ضمن الفريق

بعد ظهر أحد الايام الباردة في أوائل عام ١٩٥٦ ، انتشر خبر في واشنطن مفاده أن جهاز ارسال كهربائي صغير على شكل « صدفه » قد اكتشف «دسوسا» تحت احدى مناظير الاجتماعات في دوائر وزارة الخارجية الاميركية في واشنطن . كان ذلك في يوم جمعة ، وكانت السماء تنذر بعاصفة ثلجية ، والموظفون يستعملون للانصراف باكرا بتشوق ولهفة . وفجأة صدرت الاوامر لأقل عدد ممكن من الموظفين بالبقاء في الاقسام التي تضم معلومات سرية لمساعدة رجال الامن الذين أخفوا يجوبون جميع غرف الوزارة بحثا عن المزيد من هذه الاجهزة الحساسة . وأثار هذا الحادث موجة من القلق والحذر . فالجهاز المكتشف لا يتجاوز في حجمه علبة عيدان الثقاب ويعمل دون الحاجة لتمديد أي أسلاك كهربائية . كما يمكن لصقه تحت أي منضدة من قبل أي من اولئك المستخدمين أو صفار الموظفين الذي لا يعيرهم الانسان أي اهتمام أو انتباه .

جرى تفتيش « مركز اللعب » (١) عند حوالي الساعة الثامنة مساء وهو وقت انتهاء الجلسة المبكرة . فالدوام الرسمي في المركز يبدأ من الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر ويمتد حتى منتصف الليل . وفي تلك اللحظات كان المشتركون في تلك الجلسة المبكرة ينظرون من خلال نوافذ الطابق الثاني عشر الى تلك الصفوف من السيارات المتلاحقة في شارع « كونيكتيت » ، وهم مرتدون لباس السهرة ، ويتبادلون أطراف الاحاديث التي تدور أثناء سهراتهم في جورج تاون . وفي تلك الاثناء أيضا ، كان أفراد الفريق الآخر الذين وصلوا لتوهم لحضور الاجتماع المتأخر لمركز اللعب ، يخلعون معاطفهم ، ويشمرون عن سواعدهم استعدادا لمساء حافل بالعمل المضني والجهد المستمر . وفي خلال ساعة من الزمن كان رجال الامن قد أنهوا تفتيش كافة أرجاء بناء الوزارة دون

(١) مركز التخطيط السياسي

أن يمشروا على أجهزة أخرى • إلا أن احتمالية العثور على أنواع منها بقيت قائمة •
وأثار هذا الحادث - العثور على جهاز الإرسال تحت المنضدة - فينا ميلا إلى
التندر حول تلك المعلومات التي يحرص أحد أجهزة المخابرات الأجنبية على
الحصول عليها ، عن طريق دس ذلك الجهاز المرسل تحت تلك المنضدة بالذات
- لا غيرها - وما عساه أن يستفيد منها •

كانت الأوراق مبعثرة بين الملفات الكثيرة التي غطت سطح المنضدة •
وحول تلك المنضدة بالذات ، كان يجلس مجموعة من الموظفين تملكتهم السأم
والملل • تارة يهسون في أذان بعضهم البعض ، وأخرى تهز أصواتهم أرجاء
القاعة وهم يتبادلون الأدلة والبراهين • كما تجدهم أحيانا غارقين في صمت
عميق ينصتون بشغف وذهول إلى أحدهم وهو يلقي عليهم بعض البيانات أو
التقارير • وفي زوايا القاعة انتشرت أجهزة الهاتف بعيدا عن المنضدة
الاجتماعات ، بعضها ترن أجراسه دون التفات من أحد أو انتباه ، وأخرى تمسك
أيدي بعض الرجال بساعاتها وهم يرتدون أكماما إضافية على سواعدهم ،
ومجموعين أكفهم حول الجزء اللاقط للكلام منها علّهم يتمكنون من اسماع المتكلمين
معهم وسط ذلك الهرج والمرج • كما ترى المساعدين وأمناء السر مقبلين ومدبرين
وبين الفينة والأخرى تجد أحد المجتمعين يدعى للرد على الهاتف أو يضطر لمفاداة
القاعة ليحل محله آخر ما يلبث أن ينزلق في مقعده وينثر الأوراق أمامه بكل
خفة ورشاقة •

ولن تتعدى المقتطفات التي تتسرب من القاعة عن طريق ذلك الجهاز
اللاسلكي المدسوس تحت طاولة الاجتماعات النماذج التالية :

« هل قام أحد منكم بمراجعة تلك الامور مع اولاد الكرملين ؟ »

« أين ذلك السمج ديقول ؟ كان يجب أن يكون حاضرا هنا منذ ساعة من
الزمن » ، « سنكون قد اضعنا نصف أوروبا قبل أن يفتن تيتو الى آثار
زيارة ناصر لموسكو » •

ومن الصعوبة بمكان أن يفتن اولئك الذين ينصتون الى ما ينقله اليهم هذا
الجهاز الى أن « تيتو » هذا ليس أكثر من انسان يرتدي بذلة أمريكية الصنع ،
ويقص شعره على طريقة البحارة ، وله في ياقة قميصه بكلة أمريكية الشكل
والصنع • كما أن « ديقول » هو انسان اسمه « بيتر سيلسر » ، و « انتوني
ايدن » هو « سيدني غرين ستريت » ، و « كونراد أديناور » هو تلك الفتاة

الجميلة التي تسرح شعرها للخلف ، وتمعده بشكل حزمة ورد أو كمكة جميلة ، وتضع على عينيها نظارات واسعة ذات إطار عريض . وأما أولاد الكرملين فقد وصلوا مؤخرا وفي أيديهم حقائب جلدية فاخرة ، وهم أفراد من الجوقة الموسيقية لجامعة « بيل » ، وعلى وشك أن يحجزوا غرفا في فندق « ستاتلر » بغية تفضية عطلة الاسبوع في مشاهدة احدي مباريات كرة القدم .

كان كافة العملاء والجواسيس الاجانب متشوقين للتقصص على ما يدور في جلسات « لعبة السلم » ، وسرعان ما قاموا بعد سنوات بمحاكاة تلك الاجتماعات والمناقشات ولكن بشكل مضحك وهزيل وتحت اسم « تقرير من جبل الحديد » . وفي « مركز اللعب » ، كانت هناك مجموعة منتفخة من أبرع الخبراء الذين تعاقدت معهم حكومة الولايات المتحدة للقيام بتمثيل اتجاهات السياسة العالمية وأزماتها ، محاولين معرفة نتائجها وتقييمها على حقيقتها . وبالاستعانة بالتقارير والمعلومات التي كانت تصل تباعا من وزارة الخارجية ، والمخابرات المركزية ، والبنتابون (وزارة الدفاع) ، وغيرها من المؤسسات والوكالات الاميركية ، كانت عدة مجموعات من الخبراء ، كل يمثل دولة من دول العالم ، تحاول تحديد مرافق تلك الدول ، والخروج بحلول مناسبة للزمة الطارئة على الموقف بشكل اقتراحات عمل على مستوى الامة والدولة . وتنقل تلك النتائج والاجراءات المقترحة بشكل مذكرات تذكر أن ذاك اللاعب (خبير أو مجموعة خبراء) الذي يمثل دور تيتو أو ديغول أو عبد الناصر يظن أن تيتو الحقيقي (أو ديغول أو ناصر) سيتحركون تحت ظروف مماثلة في هذا الاتجاه أو ذاك ، وستكون ردود أفعالهم في الشكل هكذا أو كذلك . ويحاول ذاك اللاعب (الخبير) أن يذكر أيضا في سياق تقريره ان كان يتوقع أكثر من حل واحد للقضية الواحدة مع احتمال أسبقية حل على آخر . وتوضح هذه الاقتراحات والحلول ضمن ذلك السيل من المعلومات الواردة لتوزع بدورها اما الى العقول الالكترونية ، أو تترك فوق مكاتب بعض المسؤولين الذين أتقنوا دراسة صفات الشخصيات العالمية ، وأجادوا تمثيل أدوار الزعماء والقادة الى الحد الذي لا يخطنون في توقعات أفعالهم وردود فعلهم الا نادرا جدا .

أما القواعد والاسس المتبعة في هذه « اللعبة » فهي :

أولا : الالتزامات الاخلاقية التي تؤخذ بعين الاعتبار هي تلك التي لا

تعارض مع القواعد الاخلاقية لمختلف الدول المثلة في « اللعبة » . أما قواعدنا الاخلاقية فلا نغيرها اهتماما الا عندما نحاول تحديد اتجاهات حكومتنا وردود فعلها . وليس للقاعدة الشهيرة « ان الخير هو الخير اينما ذهبت ، وان الشر هو الشر اينما حللت » التي يرددها رجال الكنيسة أي اعتبار في تخطيلنا هذا . لقد انفقنا الساعات الطوال محاولين التعرف على الاسس الاخلاقية التي كانت تكمن حقا خلف اتجاهات وتحركات أي من الزعماء الوطنيين ، فما كنا لتتكلم فقط على أقوال رجال الدين والسياسة أو تكهنات رجال الصحافة . ومع كل هذا فلم نكن لنهتم بهذا كثيرا كما لم نكن لنفكر في نعمت هذا « بالخير » ووصم ذلك « بالشر » .

ثانيا : وكان الرأي السائد ان اول اهداف أي زعيم وطني هو البقاء في السلطة ، وفي حال تعذر ذلك ، فانه يحاول أن يمتزل الحكم بأقل ما يمكن من التضحية بسمخته وشهرته الشخصية . الا أن هذا المقياس لا ينطبق على تلك الحفنة من الزعماء المخلصين الذين يضخون بأرواحهم ، وحتى بشهرتهم ، دون تردد في سبيل مصلحة أوطانهم العليا . الا انهم نزر يسير لا يسبب لنا أي ارتباك في دراساتنا وتقديراتنا . وغالبا ما تعطينا النظرة الواقعية لزعامة الانسان نتائج أفضل من تلك التي تعطينا اياها النظرة المثالية لها .

ثالثا : ونفترض - الا اذا ثبت العكس - أن تصرفات أي زعيم وطني تصدر عن اعتقاده المطلق أنه بهذا انما يخدم وطنه ويحقق أهداف أمته . كما يظن مخلصا أن قضيته قضية عادلة ومحقة ، وعليه أن ينقلها للعالم الذي سيصفي اليه باهتمام وانتباه . ولعل القاري يذكر أحد أعضاء الكونغرس الاميركي عندما طفت العاطفة الوطنية عليه وهو يقف احدى خطاباته ، فأتهم ويقول بأنه « غير اميركي » . وهكذا يجب أن يكون العرف السائد حول ديفول ونحن نمارس « اللعبة » . ان نعمت ديفول بهذه الصفة لا يعني تصنيفه في عداد « الاخيار » أو « الاشرار » . فمفاهيم الخير والشر لا تحظى بأي اهتمام منا ، إذ ليس عندنا رجال « اخيار » وآخرون « اشرار » . وكل ما يراه المرء هو مجموعة من خبراء التخطيط (اللاعبين) ، منهمكين في رسم خططهم ، واحراز النجاح بالطريقة التي تملئها عليهم ظروف تلك الدولة الممثلين لدورها أو مفاهيم ذلك الزعيم الذين يلعبون دوره في « مركز اللعب » .

ولا أظن أننا نحتاج لقواعد أكثر من ذلك . فالخبير الممثل للدوار (اللاعب) يزود بكافة الحقائق والمعلومات - التي يفترض معرفتها من قبل الدولة التسييمثل نورما - حول وضع ما . وبناء على هذه المعلومات المتوفرة لديه ، وضمن القيود المفروضة عليه ، فإن الخبير الممثل سيقترح اجراءات محدودة واضحة لاتخاذها في مثل تلك الظروف . وقبل أن يصدر الخبير رأيه النهائي ، فإن عليه أن يكون قد أَلَمَّ تماما بنقاط القوة والضعف عند ذلك الزعيم ، كما يكون قد أدرك تماما خفايا سلوك ذلك الزعيم ، وتقصى جميع الحقائق اللازمة لانتحال دوره في « مركز اللعب » . وتصدر الآراء النهائية بشكل تقارير ومذكرات ، ومن ثم تخضع للتنسيق مع المعلومات الاخرى الواردة باستمرار من وزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية ، ووزارة الدفاع ، وغيرها من المؤسسات الرسمية ، لتكون كلها جاهزة بشكل « حقائق ومعلومات للقرارات » يعتمد عليها الخبراء أنفسهم لاستكمال خطواتهم اللاحقة .

ومن الصعوبة بمكان الادعاء بصحة كامل المعلومات والدلائل الناتجة عن هذه « اللعبة » . ان بني الانسان ، ومنهم كبار رجال الدولة والسياسة ، يسلكون مسالك يصعب على الآخرين التنبؤ بها مسبقا ، كما انهم قد يتحولون عن سلوك طرق يتراعى لغيرهم أنه لا مناص لهم من سلوكها . لقد أعطت « لعبتنا » هذه نتائج جيدة حيال توقع وتقرير نتائج تحركات السوفييت في أوروبا، والتحركات المضادة لها من قبل الشعوب الاوروبية . كما كانت « لعبتنا » موفقة في تحديد معالم الصراع الروسي الصيني ورسم أبعاده : هكذا ستتحرك الصين ، وهكذا سيكون الرد السوفييتي عليها ، وهكذا ستكسبون ردود الفعل العالمية تجاه كلا التحركين . وعلاوة على كل هذا ، فإن نسبة النجاح والتوفيق في « لعبتنا » لا تتجاوز ٨٥ بالمئة (وهي نفس نسبة نجاح تنبؤات مرصد غرينتش للتقلبات الجوية) ، وهذه النسبة كافية لتضع دراساتنا في طليعة غيرها من الدراسات التي نحصل عليها بطرق شتى .

كانت كامل دراساتنا لتحركات الدول الاوروبية ، وتوقعاتنا لردود فعلها - ومن ضمنها الاتحاد السوفييتي - سهلة وموفقة . لقد اقتصر عملنا في هذا المضمار على تغذية العقل الالكتروني بكافة المعلومات الحديثة والصحيحة حول الشؤون الاقتصادية واتجاهات الرأي العام السائدة في تلك البلدان ، وحول

بعض العوامل المتغيرة باستمرار ، ثم تركه يتمثل تلك المعلومات ليصدر اقتراحات وقرارات . ولكن الامر كان عكس ذلك تماما بخصوص دراساتها وتخطيطنا للاوضاع في الدول الافريقية والاسيوية . فلم يكن الاعتماد على العقول الالكترونية سهلا ، وذلك لافتقاد عنصر العقل والنظام في هذا الجزء من العالم . وكان اللجوء الى اعبيدات العواطف والنزعات الفطرية لبني الانسان التي لم نوفق للآن الى طريقة تضمها في شكل يمكن نقله للعقول الالكترونية أمرا ضروريا لا بد منه لرسم معالم المستقبل .

لقد كان انهيار نظام نكروما فوق طاقة أي عقل الكتروني للتنبؤ به . فاعتقدنا أن الجيش الغاني أضعف من أن يقوم بحركة كتلك) . وكانت الادلة كلها تشير الى أن حكومة نوري باشا في العراق تتمتع بمناعة ضد انقلاب كالذي قام به عبد الكريم قاسم ، كما كانت تشير الى عدم قدرة الفيتكونغ على الاستمرار في القتال . وظلت النتائج خطأ بخطأ حتى بعد تزويد اللاعبين الممثلين لادوار اولئك القادة – الأنف ذكرهم – بكامل المعلومات المتوفرة حول عواطف ونزوات شعوبهم . ومع أن الدراسات التي أنجزت في « مركز اللعبة » لم تخرج بنتائج صحيحة ، الا أنها كانت من العوامل الرئيسية المساعدة لنجاح محلي وكالة المخابرات المركزية في ايجاد الاسباب الرئيسية لهذه الاحداث . ان رجال وكالة المخابرات المركزية يملكون أدق المعلومات وأحدث التفاصيل السرية حول الكثير من شؤون قادة العالم الحاليين وتحركاتهم ، وحول نيات زعماء المستقبل . الا ان هذه المعلومات السرية لم تكن تحت تصرف اللاعبين في مركز التخطيط ولهذا فلم يكن في وسعهم الوصول الى نفس النتائج الدقيقة التي وصل اليها رجال وكالة المخابرات ، والتي كان ينبغي أن ينتهي اللاعبون اليها قبلهم .

وعلى العموم ، فلقد أخفقت أحسن الوسائل المعروفة لتحليل المعلومات في الوصول الى دراسة عميقة تساعد على التنبؤ الصحيح حيال نيات وتحركات زعماء بلدان افريقيا وآسيا وأميركا الجنوبية . لقد كانت تواجه هذه الوسائل - امثل المخابرات المركزية ووزارة الخارجية وجهاز « اللعبة » وما شابه ذلك - أوضاعا اقتصادية يائسة في تلك البلدان وهوة سحيقة تفصل بين الحقائق والاماني لا يمكن ردمها . كما ان شعوب تلك المناطق من العالم تعاني من خيبة امل مريرة تجعل بقاء الزعماء في الحكم أمرا غاية في الصعوبة ، الا اذا اعتمدوا

على الاساليب الفوغائية ، أو ابتكروا أساليب جديدة لابتزاز المساعدات من الدول الضنية . وباستثناء اولئك الزعماء الذين يعولون كليا على الاساليب الفوغائية وبالتالي يسهل التنبؤ بتحركاتهم فان البقية الباقية من زعماء شعوب تلك المناطق من العالم لا تخضع ممارستها لادوارهم في «اللعبة» لاية قواعد ثابتة وانما يختلقون قواعد خاصة بهم ومميزة لوضعهم . وعلى سبيل المثال ، فان الرجل الذي يمثل دور ديفول في مسرحيات « اللعبة » ظن مرة أنه يلعب الشطرنج (وهي لعبة تعتمد على التفكير العميق والقواعد العلمية الثابتة) مع أحد زعماء الدول النامية (المتخلفة) ، ولكنه أدرك فجأة أن خصمه يلعب معه بعقلية مختلفة تماما . انها عقلية لعبة « التشكن » (لعبة الجبان) وليست عقلية لعبة الشطرنج . ففي لعبة « التشكن » يتسابق الاحداث المراهقون بسيارتين تتجهان نحو بعضهما البعض على طريق واحدة وبالسرع القصى . والفائز في هذه اللعبة هو ذاك المراهق الذي يبقى مسيطرا على أعصابه حتى اللحظات الاخيرة دون جبن أو خوف . وعندما يدرك تصميم الآخر على المواجهة ، ينمطف بسيارته جانبا قبل الاصطدام به بلحظات مغلخا له الطريق بأكمله . ففي هذه اللعبة تنعدم الفرص بالنسبة للاعب الذكي الاستراتيجي ، وتبقى سانحة بأكملها لذك المجنون المعتوه ، الذي قرر أن يركب رأسه ويستمر بالمغامرة حتى لحظات الاصطدام . وهكذا فان ديفول « اللاعب » يبقى حائرا حتى يكتشف هو وأمثاله من المشتركين في « اللعبة » طرقا جديدة للنجاح عندما تكون الاطراف الاخرى (خصومهم) من نوع لاعبي لعبة « التشكن » ، التي - على عكس غيرها من الالعاب كالبوكر والحرب والتجارة - ليس فيها أي مجال لاستخدام فن الخداع والمناورة .

ان السبب السابق كان في طليعة الاسباب التي تقلل من جدوى « اللعبة » كوسيلة فعالة في معالجة القضايا التي تمتُّ بصله الى المناطق الواقعة خارج مجال « العالم الغربي » ، وفي تحديد التحركات فيها . واما السبب الثاني فهو أن سيطرة الحقد والتحيز والجهل على بعض كبار المسؤولين تؤثر تأثيرا بالغا على قراراتهم النهائية ، مما يجعل أفعال حكومتنا وردود فعلها ، صمبة التوقع ، شاقة التحديد ، عسيرة الفهم . فقد يستحيل على جهاز « اللعبة » أن يطرق موضوع النزاع العربي الاسرائيلي أو مشكلة فيتنام أو روديسيا بنفس اعتبارات

الهدوء والاهتمام التي يتدبر بها التحركات السوفياتية في مناطق نفوذها .
وكمثال على هذا ، فإنه من الصعوبة بمكان استخدام العقل الإلكتروني (الذي
يعمل وفق قواعد علمية ثابتة) للوصول الى نتائج واضحة لمباراة تجري ييسن
جون فوستر دالس وجمال عبد الناصر بنفس الطريقة التي يستخدم بها للتنبؤ
بنتائج مباراة تجري بين جو لويس ومحمد علي كلاي (أبطال ملاكمة) .

ومما يزيد في غموض الطريق وتمقيد الأسلوب عند معالجتنا لشؤون
العالم الافريقي والاسيوي هو ازدياد شكنا في طبيعة تحركات حكومتنا وردودها
تجاه ما يظهر من تصرفات زعماء دول ذلك الجزء من العالم والتي لا تخلو من
الحيرة والارتباك . وعلاوة على كل هذا ، فان أسبابا أخرى تمصنا من اتخاذ
المواقف الصحيحة التي تملينا عليها الدراسات التي يقوم بها جهاز « اللبنة »
في مواجهة أمثال المشاكل السابقة الى حد يدفع باعتباراتنا للمصلحة الوطنية
الى المرتبة الثانية بدل أن تكون في الطليعة . ان مسامرة الرأي العام ، والخضوع
لضغوط بعض الفئات الانتهازية ، واضطرار رجال الكونغرس الى كسب تأييد
دوائرهم الانتخابية عن طريق الإباحة بالمعلومات الحرجة أمامهم أو تركها تتسرب
الى رجال الصحافة ، كل ذلك يدخل ضمن عداد تلك الأسباب الموقرة والمرقلة .
ولهذا يجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار كل التصرفات الخاطئة لحكومتنا عند
تحديد نتائج دراساتنا وتحركاتنا المقترحة . ومن هنا ننتقل في تحديد مدى
تأثير تحركاتنا على غيرنا ، وفي التنبؤ بطبيعة ردود فعلهم تجاهها ، وفي اقتراح
الإجراءات المضادة التي على حكومتنا القيام بها ، وبالتأكيد فاننا ننجز كل ذلك
أخذين بعين الاعتبار والاهتمام تلك المفاجآت التي تثيرها الأسباب الأنفة الذكر .
وقاطعين عليها فرص افساد مخططاتنا في اللحظات الأخيرة الحرجة .

ومهما كانت العقبات التي تقف في سبيل كبار المسؤولين من « صانعي
القرارات » (كذلك التي يثيرها الرأي العام الجاهل أو الضبي أو التي تصدر عن
بعض الفئات بدافع من مصالحهم الخاصة أو التي تنشأ عن تمسك رجال
الكونغرس بمناصبهم) فليس في نيتهم على الإطلاق ترك مستقبل وجودنا في
افريقيا وآسيا وغيرها من مناطق العالم تحت رحمة اولئك الزعماء الذين أجادوا
ممارسة لعبة « التشكن » ، وتفوقوا فيها . ان النظام الديمقراطي يضع قيودا
عديدة على سلوك حكوماته تجاه العوائق الداخلية وعلى الأساليب التي تنتهجها

الحكومات لمالجتها ، ولكن ليس هناك أيّة من هذه القيود على السلوك أو الأساليب المتبعة خارج بلادنا . ولا يبقى في هذا المجال سوى قيد واحد ألا وهو « اعتبارات الفاعلية والنجاح » . فكل ما تتوفر له فرص النجاح فعلناه ، والا تخلينا عنه . وعندما يأتي دور « المبادئ الأخلاقية » على مسرح الأحداث ، فإن تعديلات طفيفة تطرأ على ذلك القيد دون أن تقتلعه من جذوره أو تطيح به بعيدا ، وعندما يتخذ التساؤل هذا الطابع : « هل يمكننا أن ننجح بالتنفيذ دون أن نخوض غمار معركة افتضاح وتعري ! » . ان كافة التوجيهات التي يزود بها رجالنا في السلك الدبلوماسي تبرز أهمية اتباع وسائل تعكس المبادئ الديموقراطية والقيم الأخلاقية للأمة كعامل أساسي لنجاح أية محاولة من محاولات الضغط على الحكومات الاجنبية .

ان الكشف عن نياتنا صراحة وعدم الدخول في معاهدات لا نزمع على الالتزام بها يجب أن لا يعني سوى حقيقة واحدة وهي أننا لم نعثر على أية مصلحة لنا في اتباع مثل هذا السلوك . وبالمقابل فاننا سنبتذل المستحيل لكم نياتنا الحقيقية أو للتحايل على نصوص أية معاهدات وقّعناها سابقا اذا ما لمسنا أن ذلك يحقق لنا مآربنا ويوصلنا الى غاياتنا ، شريطة أن ننجح في هذا دون الوقوع في مآزق محرجة أو التورط في مواقف فاضحة .

انني لا أحاول البتة أن أقف موقف المدافع عن مثل هذا النفاق والخداع ، فالحقيقة أنني لا أملك شعورا واضحا حياله وان كنت متأكدا من وجوده تماما . ان كلا من اللعبة التي نمارسها في « مركز اللعب » في واشنطن تحت ظروف مفتعلة ، و « لعبة الأمم » التي يقوم رجالنا في السلك الدبلوماسي وجنودنا بتنفيذها عبر البحار - باستمرار وكيفما اتفق - تعتبران من أبرز الشواهد على صدق كلامي . ولعل أبرز مثال على سلوكنا المزدوج ، واستراتيجيتنا ذات الوجهين « الأخلاقي واللاأخلاقي » هو تلك الطريقة التي تعاملنا بها مع عبد الناصر ، رئيس الجمهورية المصرية .

ان من أول العناصر التي لمسنا ضرورة وجودها في مسرحيتنا توفر شخصية ما مثل عبد الناصر بالذات . وبعبارة أخرى ، فان « ناصرا ما » كان من ضمن العناصر الحيوية للمسرحية التي عزمنا على اخراجها . ولقد تأكد هذا

الشعور جليا عندما بدأنا نؤدي أدوارنا حول طاولة الاجتماعات ، وكنت يومها أقوم بتمثيل دور ناصر نفسه . لقد بان لكل من يملك احساسا مرهفا أن غياب دور ناصر سيفقد المسرحية توازنها ، وستبدو عندئذ كتمثيلية « هملت » وقد اختفى منها دور « بولينوس » .

كان يملكني شعور خاص ، وأنا أجمع شتات قصة ناصر وأعمل جاهدا لوضعها في صيغة قوانين ذات تطبيق عالمي ، ان نموذجا كجمال عبد الناصر كان من الأهمية بمكان بخصوص « اللعبة » واننا كنا ملزمين بالبحث عن مثيل له فيما لو لم يكن على قيد الحياة . أو أن زعيما مثله ، لا محالة ، سيبيرز الى الوجود عاجلا أم آجلا ، وعلى الأقل ، لاستكمال أدوار « اللعبة » . ولقد تملك ناصر نفسه هذا الشعور بالذات عندما تحدث في كتابه « فلسفة الثورة » عن « دور على المسرح ينتظر لاعبا ليؤديه » ، وعن محاولته لتأدية ذلك الدور . . وسألته مرة عن رأيه في نتائج محاولته تلك فأجابني : « انني لم أنجح بعد في تأدية ذلك الدور » . ومع أن جوابه كان صحيحا فان المهم هنا ليس نجاحه في تأدية الدور قدر نجاحه في تحديد معالم الدور نفسه . ولقد قطع ناصر شوطا بعيدا في محاولته لتحديد معالم ذلك الدور بالرغم من اعطائه وصفا مضللا في كتابه « فلسفة الثورة » . ومهما كان فان معالم الدور قد أصبحت الآن في وضع لا ليس فيه ولا ابهام .

والامر الثاني هو أن « ناصرا » واحدا لم يكن يكفي لسد الفراغ على المسرح . فقد كانت « اللعبة » تقتضي ظهور أكثر من زعيم واحد من « طراز ناصر » وذلك لتأدية جملة أدوار في عدد من الدول الافريقية والآسيوية . ولم يخامرني شك في أن أي تقدم نحززه في مسرحيتنا سيبقى رهينا لمدة غير قصيرة بتوفر لاعب من هذا النوع . فقد كانت النتيجة الطبيعية لهذا التخلف المريع في جميع أبعاد الحياة في البلدان الافريقية الآسيوية هي أما ظهور قائد وطني رافعا نوايا التحرر من الاستعمار ، معتمدا على الفوغاء لضمان البقاء في السلطة في الوقت الذي تتجه كافة الأوضاع داخل القطر نحو الانهيار والخراب ، أو ظهور قائد من النموذج العملي فيحاول الاعتماد على المساعدات والحماية الأجنبية له . الا ان الفوغاء ستنتعته بشتى الصفات وأبسطها « أنه عيسيل للاستعمار » أو « صنيفة لموسكو » . ومنذ عام ١٩٦٠ ، كان يستبعد بقاء أي زعيم من هذين

النوعين السابقين في الحكم لمدة طويلة . فيعد أن شهد العالم سقوط نكروما وسوكارنو وفشل العديد من القادة السوريين والعراقيين ظهر أن العامل المؤثر في صعود أي من أولئك القادة في ظروف قاسية كالظروف السائدة في أقطارهم يعتمد على النسبة المثوية لتشابه أنظمتهم مع « طراز ناصر في الحكم » . وكمثال على هذا ، فإن ناصر نفسه كان ممثلاً « لطراز ناصر في الحكم » بنسبة تسعين بالمائة وهي نسبة أعلى من تلك التي تتطلبها ظروفه الخاصة التي كان يحاول الصمود فيها . وأما نكروما فلم يتمثل أكثر من سبعين بالمائة من « طراز ناصر في الحكم » . إلا أن ظروفه كانت في حاجة إلى نسبة أعلى من تلك ، ولهذا لم يتمكن من الصمود أمامها . ومن هذا النوع ، كان كل من سوكارنو في اندونيسيا ، وعبد الكريم قاسم في العراق ، وكثير غيرهم . وأما الملك حسين في الاردن فإنه لم يحاول أن يتمثل أكثر من أربعين بالمائة من « طراز ناصر في الحكم » ، إلا أن ذلك كان أكثر مما تتطلبه ظروفه الخاصة ، وهذا ما ساعده على البقاء في السلطة حتى كناية هذه السطور . ومع أن المثال الذي يتمثل مائة بالمائة من « طراز ناصر في الحكم » لم يتحقق بعد على الإطلاق ، فقد أظهرت الدراسات (التي شملت ناصر نفسه) أن مدى تمثل الزعماء « لطراز ناصر في الحكم » يؤثر كثيراً على قدرتهم على البقاء في الحكم ، وعلى استمرار مشاركتهم الفعالة في « لعبة الأمم » . والأهم من ذلك أن طريقة ممارستنا للعبة مع ناصر نفسه (وحتى هذه اللحظة) يجب أن تلقنا دروساً قيمة في استراتيجيتنا لمعاملة أمثاله .

والامر الثالث هو أنه بالرغم من الاعتراض الذي أظهره الوزير جون فوستردالس على الزعماء الذين عليهم مسحة من « طراز ناصر في الحكم » ، فقد اقتنعت حكومتنا أخيراً أن وجود هذا النوع من الحكام في السلطة أخف ضرراً على مصالحها من وجود أي نوع آخر منهم مهما كان شكله .

لقد اعتادت حكومتنا على احترام استقلال الدول الأفريقية والآسيوية إلى حد كانت تتفاضى في كثير من الأحيان عن سلوك بعضهم الطائش ما دام ذلك لم يمس مصالحنا بسوء . أما إذا كانت نتائج التزامنا بالمبادئ الأخلاقية خسارة مصالحنا وضياعها فإن موقفنا سيكون العكس ، وستكون التضحية ، بدون شك ، على حساب تلك المبادئ الأخلاقية وليست على حساب مصالحنا .

وبصراحة أكثر ، فعندما كنا نضطر في بعض الأحيان لازاحة حاكم ما ثبت أن وجوده يفق حجر عثرة في سبيل تنفيذ مخطط لنا في أحد تلك البلدان الإفريقية أو الآسيوية (وهذا ما كان يحصل فعلا في مركز « اللعب » في واشنطن في أحوال تفرض حتمية وجود جميع أولئك الحكام الأصدقاء منهم والخصوم) فإننا كنا لا نتردد في اللجوء لمثل هذه التدابير مهما كانت فداحة المخالعات الأخلاقية .

ومن البديهي جدا أن يكون خليفة الحاكم المخلوع على استعداد تام للسير وفق الخط الذي يضمن مصالحنا هناك . ولقد اتفق الأمريكيون والبريطانيون على معالجة شؤون الدول الإفريقية والآسيوية من خلال هذه النظرات والمواقف . فكان الحكام من « طراز ناصر » يعطون الأولوية على غيرهم لأن استيلاءهم على السلطة يوفر أفضل الفرص - أو أقلها سوءا - لنجاح « لعبتنا » . فكننا لا نعتبر نجاحنا في استمالة أي من أولئك الحكام الفوغانيين الذين جاؤوا الى السلطة في سوريا أكثر من مجرد نصر اجوف ، ذلك أنه سرعان ما يطاح به ليعقبه من هو أسوأ منه . الا أن ناصراً كان من نوع آخر تماما . لقد اعتاد أن يتأقلم الى حد ما مع كل « ربح » نجنيه لصالحنا من خلال عدم اعتباره على أنه « خسارة » له . وعلاوة على هذا ، فإن لدى ناصر القدرة على أن يتخذ قرارات حاسمة في المواقف الحرجة ، تحقق لنا وله ، بعض المكاسب والمغانم دون أن يدع المجال لجماهير شعبه أن تراها على حقيقتها . وكمثال على هذا ، احتمال التوصل الى اتفاق ما مع الاسرائيليين . فالمبدأ القائل إن عدوا عاقلا (كيفما كان ذلك) خير من صديق جاهل هو ذلك المبدأ الذي نحرص عليه كل الحرص بل ونعصُّ عليه بالنواجذ .

لقد أثار تمثيل دور ناصر في اهتماما وتملقا وليس فقط بالشكل الذي كنت أؤدِّيه في ناطحة السحاب بواشنطن (وزارة الخارجية) بل وبالشكل الذي كان ناصر يؤديه بنفسه على الطبيعة في العالم . لقد قمت بتمثيل دوره في « مركز اللعبة » في واشنطن مرارا وتكرارا وعلى فترات امتدت من صيف ١٩٥٥ وحتى ربيع ١٩٥٧ ، وكنت أثناءها أزاوول مهام منصبى كمستشار للجنة تخطيط السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط في وزارة الخارجية . ولقد أتاح لى منصبى هذا أن أقوم بزيارات عديدة الى القاهرة وبعض عواصم الشرق

الأوسط ، توفرت لي خلالها الفرصة لمقابلة ناصر نفسه - وبغيره من زعماء المنطقة المعجبين به - واستعرضت معه تحركاته وتصرفاته . الا أن صلتني بناصر كانت أقدم من هذا التاريخ . فقد كان لي معه صلات عديدة في ظروف جيدة كما كان لي نفس الشيء مع عدد من زعماء الشرق الأوسط بنوعهم الموالي لناصر والمنأوى له . ومع أن ناصرًا كان يتصف بمسحة من الفوغائية (كغيره من باقي زعماء الشرق والغرب) الا أنه كان يتمتع الى جانب ذلك بموهبة أخرى جعلته يفوز في « اللعبة » على جميع اللاعبين بما فيهم الولايات المتحدة نفسها والاتحاد السوفياتي ، باستثناء اسرائيل .

وكانت تعتريني الدهشة عندما كنت أقارن بين القرارات التي اتخذتها في « مركز اللعبة » بواشنطن وبين قرارات ناصر نفسه التي كان يصدرها على الطبيعة فعلا ، فأجد أن الأولى « أسوأ » من الثانية من وجهة نظر المحافظة على المصالح الغربية . وحدث هذا فعلا قبل أسبوع واحد من بدء أزمة قناة السويس عام ١٩٥٦ . فقد استشارني يومها نائب مدير المخابرات المركزية فيما اذا كنت أتوقع أن يقوم ناصر بتأميم قناة السويس اذا أقدمت الولايات المتحدة على سحب عرض تمويلها لبناء السد العالي . وأجبتة يومها أنني قد قمت بتأميم قناة السويس منذ بضعة أشهر استنادا الى دور ناصر الذي كنت أمارسه في « جهاز اللعبة » ، الا أن ناصرًا الحقيقي لم يفعل ذلك حتى ذلك الوقت ، ولهذا لا أدري ما الذي سيفعله ناصر حقيقة في تلك اللحظة ! وعندما أتيت لي الفرصة مؤخرًا أن أبحث مع ناصر نفسه قضية قناة السويس ، تبين لي أنه كان يتوقع ردود فعل انكلو - أمريكية على مستوى أقسى بكثير من التي راودتنا نحن فعلا في واشنطن . لقد كان بإمكان ناصر أن يكون أجراً بتحركاته لو أنه كان يحتل مكاني في مركز اللعبة في واشنطن وقد تجمعت أمامه على طاولة الاجتماعات كل المعلومات والدراسات التي كانت تحت تصرفي يومئذ .

لم تكن نهتم بالعثور على صيغة لمعادلة توصلنا الى نجاح مستمر الامع « طراز ناصر » من الزعماء . فلو أننا اكتشفنا فعلا طريقة محددة للتعامل مع ناصر فسيعني هذا أننا قد أحرزنا تقدما ملموسا في مضمار علاقاتنا مع كثير من حكام دول افريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية ، بل ومع كثير من الزعماء المتوقع ظهورهم حتى أواخر هذا القرن . ولا مانع الآن من أن نحاول اعطاء تفسير واضح لمسا

نمّنيه بعبارة « نجاحنا » .

كان ناصر وضباطه يميلون للاعتقاد أن « لعبتنا » هي من النوع السفي حاصله دائما مساويا للصفر . وعبارة أخرى ، فإن أي ربح يجنيه الطرف الأول انما يعني خسارة تكبدها الطرف الثاني بالتأكيد . وعليه فإن حاصل عملية الجمع يكون دائما مساويا للصفر . ففي لعبة البوكر - وهي من النوع الذي حاصل الجمع فيه مساويا دائما للصفر - يكون حاصل جمع الأرباح (كمية موجبة) والخسائر (كمية سالبة) لكل اللاعبين وفي أية لحظة من لحظات استمرار اللعبة مساويا للصفر تماما، وبنفس الطريقة ، فعندما بدأت الحكومتان الأمريكية والمصرية لعبتهما حول المساعدات المالية ، كانت الأولى تظن أن المبلغ سيكون في حدود أربعين مليونا من الدولارات ، في حين كان ناصر يحلم بمبلغ أكبر من ذلك . فلو أن ناصر أنجح في الحصول على ستين مليونا من الدولارات من الحكومة الأمريكية ، فيكون في هذه الحالة قد حقق ربحا صافيا في حدود عشرين مليونا من الدولارات . وبنفس الوقت تكون الحكومة الأمريكية قد تكبدت خسارة محققة في حدود نفس المبلغ . وهذا ما كانت عليه نظرة ناصر لمبدأ الربح والخسارة ، وللحاصل المساوي للصفر دائما .

الا أنه حقا لم يكن يخطر ببالنا مثل هذه الهواجس . فقد كان اعتبارنا لهذا النوع من « اللعب » على أنه شبيه بحالة مجموعة من رجال المظلات ، الذين هبطوا خلف الخطوط وفقدوا الاتصال فيما بينهم ، ويحاولون إعادة تنظيم تشكيلاتهم باجراء حساب للسلوك والتفكير المحتمل لكل منهم . كما يمكن اعتبار هذا النوع من « اللعب » على أنه مماثل لحالة رجلي أعمال يتفاوضان على صفقة يستفيد منها الطرفان معا .

ولا تقتصر « اللعبة » على هذا النوع من التشبيه وضرب الأمثال . فقد عبر أحد رجال الأعمال الأمريكيين عن طبيعة هذه « اللعبة » عندما خاطب وزير صناعة ناصر بفظاظة قائلا : « انها شبيهة بالصراع الذي يقوم بين الأم التي نحرص على أن يشرب طفلها الحليب ، وبين الطفل الذي يأبى ذلك ويرفضه بأصرار » . الا أننا لا نعتبر « لعبتنا » سوى من ذلك النوع الذي ، مهما اشتد واحتد ، تخرج منه جميع الأطراف في النهاية غانمة سالمة .

ان أي تقصّ موضوعي لسلوكنا في « لعبة الأمم » يظهر بكل سهولة أن

الحقيقة ليست الى جانب أي منا . فعندما منحننا ناصرًا أربعين مليوناً من الدولارات كمساعدة مالية له ، فاننا لم تكن لنبخل عليه بأكثر لو كان ذلك في استطاعتنا . لقد فكرت وزارة الخارجية برفع قيمة المساعدات الى حدود المئة مليون دولار ، الا أن تحوفها من هبوب عاصفة من الاحتجاجات ضدها في الكونغرس قد أثنى عزمها هذا .

وبنفس الوقت ، لم تكن نظرتنا الى موضوع حصول ناصر على مبلغ الستين مليوناً أو الأربعين مليوناً من الدولارات على أنه خسارة لنا وزبح له ، بل كانت نظرتنا للمساعدة على أنها فائدة للطرفين معا . ومن جهة أخرى ، فان دفع مثل هذه المبالغ ما كان ليتم لولا أملنا في أن يحقق لنا بعض المصالح ولو خسارة محدودة يتكدها الشعب المصري . ومع أن هذه الخسارة لن تكون فعلاً جسيمة ، الا أننا قد اصررنا على اخفائها بل وانكارها لضرورة دبلوماسية . فالحقيقة الكامنة وراء كل هذه المساعدات هي تحقيق مصالحنا بالدرجة الأولى ، وهذا ما نأخذه دوماً بعين الاعتبار عند تخطيط استراتيجيتنا في أبراج وزارة الخارجية في واشنطن . ان أية مغانم يحققها الطرف الآخر ، سواء أكانت خيالاً أم واقعا ، لن تكون مقصودة أبداً ، كما أنه لا يستبعد أبداً أن تكون طعماً في يد صياد يغري بها فريسته حتى تقع في شراكه .

لا أن زكريا محي الدين (وهو أذكي رفاق ناصر وكان قبل فترة قصيرة نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة) دافع عن مبدأ « اللعبة » ورأى أنه حتى في الحالة التي يكون فيها حاصل مجموع الخسائر والارباح مساوياً للصفر ، فان فوائد كثيرة تجنيها كل الأطراف المشتركة في اللعبة . فالجميع راغبون في تجنب الحروب ، وفي تحسين الأوضاع الاقتصادية وتنمية العلاقات الاخوية بين شعوب بني الانسان . وهم في حالتهم هذه يشبهون الى حد كبير مجموعة من لاعبي البوكر الذين تجتمعهم الرغبة العامة في تسلية أنفسهم والترفيه عنها ، متجنبين اتباع أساليب الغش والخداع ، أو الاحتكام الى منطق القوة عند نشوء خلافات بينهم . كما قال أيضاً ان البشرية المتحضرة تشترك بأهداف جامعة واحدة . الا أن اجتهاداتها المختلفة حول الطرق الموصلة الى تلك الأهداف هي التي أوجدت التفاوت بينها في وجهات النظر . (وقد ألقى هذا الكلام على طلابه في كلية أركان الحرب المصرية) . وهكذا حقا كانت طبيعة الخلافات المصرية

الأميركية وطبيعة « اللعبة » التي دارت بين الزعماء المصريين والأميركيين .
ومهما تحدثت الزعماء المصريون عن طبيعة النزاع بينهم وبين الأميركيين
ومهما أضفوا عليه مسحة من الأخلاق والسيرة ، وصوروه على أنه يضم فسي
طياته كثيرا من المصالح المشتركة للشعبين معا ، فإن حقيقة الأوضاع كانت على
عكس هذا تماما . لقد لمس هذا عديد من رجالنا في السلك الدبلوماسي ورجال
الأعمال الأميركيين الذين كانوا على احتكاك مباشر مع المصريين أنفسهم . فلم
تكن النظريات التي وضعتها ككل من أجهزة توماس شيلنغ ومورتن كابلان
وغيرهما (لتستخدم في رسم قواعد لعبة الشعوب واستراتيجية الصراع)
تنطبق على هذا الجزء من « لعبة الأمم » . فالنزاع المصري الأميركي هو من
النوع الذي يظهر فيه بوضوح لا إبهام فيه ، تضارب المنافع ، وإصرار كل
طرف على تقديم مصالحه على الآخر ، واتباع أكثر الوسائل حيلة ودهاء للوصول
الى الغايات والقيام بتضليل الآخر ما استطاع الى ذلك سبيلا . وهذا ما دفعني
الى نشر هذا الكتاب . ان كل ما كتبه الأميركيون والبريطانيون حول علاقاتهم
بالدول الأفريقية والآسيوية غير المستقرة لم يلق ضوءا على خفايا هذه العلاقات
أو على أساليبها المتنوعة والمتنوعة لاستمالة حكام تلك البلدان ، وسبب ذلك
هو تعارض هذه الأساليب مع ما اعتادت حكوماتنا أن تطرحه على شعوبها ،
وعليه فان هدف نشر الكتاب هذا هو محاولة سد النقص في كتابات غيري وتلافي
عجزهم في عرض الوقائع والأحداث .

وفي ختام هذا الفصل الأول أرجو أن لا ينظر الى هذا الكتاب على أنه
يختص بعلاقاتنا مع ناصر بالذات دون سواه . فالكتاب مليء بالعينات التاريخية
لتعطي دروسا ذات تطبيق عام في العلاقات بين الولايات المتحدة وبين أي زعيم
خارج العالم الغربي يتوقع أن يلعب دورا ليس قليلا في العلاقات العالمية في
المستقبل . ومع أن الحديث حول ناصر قد شغل مساحة لا بأس بها من صفحات
هذا الكتاب ، فانني قد بذلت قصارى جهدي في معالجة نواحي سلوكه التي
أتوقع أن تكون مشتركة مع غيره من الحكام في الأقطار الأفريقية والآسيوية
شريطة أن يكونوا « النموذج الناصري » ، وأن تكون الظروف السائدة في داخل
أقطارهم اقتصاديا واجتماعيا كذلك الظروف البائسة السائدة في مصر ، وأن
يتفاعلوا بالضرورة مع التحركات التي تقوم بها كل من الولايات المتحدة وبريطانيا
ضمن نطاق « لعبة الأمم » .

مخطاتنا قيد التنفيذ في سوريا

١٩٤٧ - ١٩٤٩

اذا لم تريح المباراة ففتح اللاعبين

بعد ظهر أحد الأيام الباردة من شهر شباط (فبراير) سنة ١٩٤٧ اتصل
بـ «لوي هندرسن» مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى وإفريقيا وطلب
منه مقابلة لسبب هام . وقد حدث هذا قبل سنه واحدة من تأسيس « مركز
اللعب » في واشنطن . وفي تلك المقابلة ، قام سيشل بتسليم هندرسن رسالتين
على جانب من الأهمية صادرتين عن « القسم الأجنبي » في السفارة البريطانية .
وكانت الأعراف الدبلوماسية تقضي أن يقوم السفير البريطاني نفسه بتسليم
أمثال تلك الرسائل الى وزير الخارجية مباشرة . الا أن جورج مارشال وزير
الخارجية يومها كان قد غادر مكتبه مبكرا لقضاء عطلة الأسبوع خارج واشنطن
ولهذا فقد اقترح سيشل أن يقوم بنفسه بتسليم هاتين الرسالتين الى هندرسن
ويتباحث معه بشأنهما حتى يكون أمام موظفي وزارة الخارجية وقتا كافيا
لدراسة الرسائل خلال عطلة الأسبوع ، وتقديم لمحة عن مضمونها لوزير
الخارجية قبل التقائه بالسفير البريطاني صباح الاثنين .

وصل سيشل الى وزارة الخارجية والموظفون يستعدون للانصراف لقضاء
عطلة الأسبوع . واعتاد هندرسن أن يبقى لوحده في مكتبه حتى ساعة متأخرة
من المساء . وهكذا كان الهدوء المخيم على جو المكتب ملائما تماما لتسليم أمثال
تلك الرسائل اللتين كانتا تتضمن أنباء صاعقة .

وهذا ما حدث فعلا . فقد كانت أخبار الرسائل تشير الى عزم بريطانيا
على إنهاء وصايتها (التي دامت ما لا يقل عن قرن من الزمن) على بعض أرجاء
العالم . فحكومة جلالة الملك تواجه أزمة مالية ، ولهذا فانها لن تتمكن من تحمل
عبء مقاومة المد الشيوعي في كل من تركيا واليونان ، والتي تقدر ماليا

بخمسين مليوناً من الدولارات . وتخشى بريطانيا في الوقت نفسه أن يتمكن الشيوعيون من فرض سيطرتهم على اليونان عن طريق حرب العصابات ، وعلى تركيا عن طريق هجوم عسكري مباشر . وكان على الولايات المتحدة الأمريكية أن تبادر الى سد هذا الفراغ قبل أن يسبقها الاتحاد السوفياتي اليه . الا أن هندرسن لم يكن ليحتاج الى أيام عطلة الأسبوع حتى يدرك ما تعنيه أنباء هاتين الرسالتين وما يترتب عليه أن يفعله بعد ذلك . فالخطر الشيوعي لا يهدد بالزحف على اليونان وتركيا فقط بل وعلى كل أوروبا الجنوبية خارج الستار الحديدي وعلى شمال افريقيا والشرق الأوسط . ومع أن أخبار الرسالتين قد سببت بعض القلق لهندرسن - وقد اعتذر سيشل له على ذلك - الا أنها قد أشعلت الضوء الأخضر أمام الحكومة الأمريكية لتصبح دولة ذات تأثير فعال في شؤون العالم . كما أظهر الاتحاد السوفياتي على أنه سيكون مصدر تهديد متزايد للسياسة العالمية ، وربما سيفوق ألمانيا النازية في هذا .

لم تكن بروكس ذلك اليوم بسبب رداءة الطقس فحسب ، بل شاركت في ذلك رداءة الأحوال الاقتصادية التي باتت تهدد فرنسا وإيطاليا الى جانب بريطانيا بسيطرة الشيوعيين . ففي شتاء ١٩٤٧ عانت بريطانيا من نقص فادح في موارد الفحم بسبب سوء الأحوال الجوية ، وتراكمت الثلوج الى حد أعاقت وسائل النقل كليا ، وتسببت في اتلاف محصول الشتاء من القمح . ونتج عن هذا كله توقف معامل عديدة عن العمل ، وترك حوالي خمسة ملايين عامل بدون عمل . وزادت مشكلتنا التأمين الاجتماعي وتخفيض ساعات العمل الحكومة البريطانية ارهاقا ففدت أعجز من أن تعالج مشاكلها الداخلية . وكانت نتيجة كل ذلك أننا أصبحنا وحيدين على مسرح الأحداث العالمية نواجهها بالطريقة التي تتطلبها « لعبة الأمم » حديثا . ولم يكن بمقدور بريطانيا أن تقدم أكثر من اسداء النصح لرجائنا في السلك الدبلوماسي وفي مجموعة المخابرات المركزية .

ومن عجيب المفارقات ، أن وزير الخارجية جورج مارشال كان قد قصد برينستون ليلقي أول خطبه، أمام حشد من الشباب الأمريكي ، موضحا الدور الذي بات على الولايات المتحدة أن تلعبه في العالم بعد أن تفلضت في كل أركانه جغرافيا ، وماليا ، وعسكريا ، وعلميا . ودعا الأمريكيين ، حيال وضع كهذا ، أن يرتفعوا الى مستوى مسؤولياتهم لضمان أمن وسلامة العالم . وانتهى

الوزير مارشال من القاء خطابه صباح ٢١ شباط (فبراير) ١٩٤٧ وهو لا يدري شيئا عن مضمون تلك المذكرتين الدبلوماسيتين اللتين أرسلتا الى وزارته في اليوم السابق . وفي اثناء ذلك ، اتصل لوي هندرسن بوكيل وزارة الخارجية « دين اتشيسون » واستدعاه من مأدبة عشاء في احدى سفارات دول أمريكا الجنوبية ليعرض له مضمون الرسالتين ويتباحثا في الامر . وأمضى الاثنان وقتا طويلا في دراسة القضية وبقيتا حتى وقت متأخر من الليل . وفي صبيحة اليوم التالي عقدا اجتماعات ومباحثات مع معظم رؤساء دوائر وزارة الخارجية وكبار موظفيها . وعندما حل يوم الاثنين ، كان مرؤوسو وزير الخارجية جورج مارشال قد أمضوا يومين من العمل المضني في دراسة مختلف جوانب القضية . وقام بعدها وكيل الوزارة دين اتشيسون بدعوة « جورج كينان » الى وزارة الخارجية ليقوما معا بتشكيل لجنة خاصة مهمتها وضع الخطط التي تتناسب والظروف الجديدة المفروضة عليهم . وكان جورج كينان يومها يمضي بعض الوقت في الكلية الحربية الوطنية بعد مهمة رسمية موفقة في موسكو احتل فيها منصب نائب رئيس البعثة الدبلوماسية الأمريكية هناك .

لم تهتم وزارة الخارجية بإبلاغ أبناء الأزمة هذه الى مجموعة أجهزة مخابرات أسلحة وزارة الدفاع (الجيش ، البحرية ، سلاح الجو) والى جماعة المخابرات المركزية (التي انبثقت منها وكالة المخابرات المركزية فيما بعد) الا بعد مضي ساعات طوال كانت كفيلا بتسرب بعض أخبارها الى الصحافة . وكان هذا التأخير سببا في احتدام الصراع ثانية بين مختلف أجهزة الدولة . فمنذ مدة قام البنتاغون (وزارة الدفاع) بحملة مركزة على طبقة رجال المخابرات الذين التحقوا بالمجموعة الجديدة بعد انتهاء خدمتهم من « دائرة الخدمات السرية » السابقة والتي أسست للعمل في أوروبا أثناء الحرب العالمية الثانية . وقد نعتهم وزارة الدفاع بانهم زمرة رجال فاشلين اضطروا للبقاء في سلك المخابرات بعد أن أخفقوا في العودة الى مقاعد الدراسة لرفض الجامعات لهم . ووجهة نظر وزارة الدفاع أن أمورا وأزمات كهذه لا يمكن مواجهتها الا على مستوى عملي هائل ، وهذا لا يتوفر الا ضمن الذين يخضعون الى نظام عسكري قدير .

ولا أزال أذكر جيدا المشاكل الإدارية التي كانت تثار خلاف في المعركة التي دارت رحاها في واشنطن ، وفي شهر شباط (فبراير) بالذات . فقد كنت

يومها عضوا في اللجنة الاستشارية للشؤون الادارية التي أوكلت لها مهمة السيطرة على الفوضى السائدة آنئذ في سلك أجهزة المخابرات واقتراح الحلول لها . كما أنني أذكر تماما ذلك التصريح شبه الرسمي الذي أدلى به أحد كبار المسؤولين عن جهاز المخابرات العسكرية التابع للجيش ويذكر فيه أن الضرورة المفاجئة لتدخل الولايات المتحدة كطرف في الحرب الباردة قد خففت من خطر ابتلاع وكالة المخابرات المركزية الجديدة للعاملين في أجهزة مخابرات الحكومة لما وراء البحار ، وعلى أية حال ، فإن الاميرال سيدني ساورز ، مدير المخابرات المركزية ، قد ربح المعركة في مجال التنظيم الاداري وملاكاته الى حد أن الجهاز الجديد للمخابرات المركزية قد اضطلع بكافة المسؤوليات ، وحصل على كل الصلاحيات . بشكل أصبح معه يتمتع بقدرة جيدة على القيام بكل الأعماء التي توكل وزارة الخارجية له تنفيذها .

ويسهل على من يؤرخ حادثة بعد وقوعها بعشرين عاما ، أن يلم برعونة كل من كان طرفا فيها . فالجميع يقرون بأن الحوادث التي كانت تعتبر في الأربعينيات ذات أهمية تاريخية انما كانت تعالج من قبل أشخاص مدفوعين باعتبارات اقليمية . كما يقرون أيضا بأننا لو لم نظهر ضعفا في مؤتمر يالطا ونسحب قواتنا من أوروبا قبل اتضاح نيات السوفييت ومخططاتهم، لكننا الآن في غنى عن جميع مشاكل الحرب الباردة الحالية . ولكن جميع الأشخاص الذين كانوا مسؤولين عن اتخاذ مثل تلك القرارات بعد الحرب – والتي تبدو الآن وكأنها تصرفات طائشة حمقاء – يتذكرون أنه لم يكن من المستطاع سلوك غير ذلك الطريق تحت وطأة تلك الظروف . ولقد بدأت الآن تتضح معالم لعبتنا ، مع السوفييت بعد قرار البريطانيين بالانسحاب من تركيا واليونان الذي أبلغنا عنه في حينه . الا أن قضايا عديدة ما تزال غامضة لمؤرخي تلك الحقبة من الزمن مع أنها هي التي كانت تحول دون اتخاذ القرارات المناسبة .

فمن جهة أولى : كان هناك تناقض ضروري بين سياسة حكومتنا انظاهرة للرأي العام في القضايا الدولية ، وبين وجهات نظر اولئك الذين يقيمون خلف جدران وزارة الخارجية والدفاع . لقد أرسل جورج كينان نائب رئيس بعثتنا الدبلوماسية في موسكو رسالة الى وزارة الخارجية في أوائل ١٩٤٦ لخصت بدقة فائقة معالم وحدود الحرب الباردة التي بدأت تستمر يومها . ولقد منحت

تلك الرسالة كل اهتمام وتقدير ، واعتبرت تحليلا دقيقا لنيات السوفييت ولواقفهم وسلوكهم المحتمل .

وفي خطاب القاه في فولتن بولاية ميسوري ، عبّر ونستون تشرشل عن هذا الوضع بوضوح عندما استخدم فيه عبارة « الستار الحديدي » . وكان حضور الرئيس ترومان لتلك المحاضرة اشارة الى موافقة الحكومة الأمريكية على الموقف البريطاني . وبالرغم من هذه الهفوة فقد بقيت حكومتنا تتظاهر بسياستها الرسمية التي تشير على هدى « روح التفاهم التي سادت مؤتمر يالطا » ، وكانت ترى أن الأمم المتحدة تتمكن من حفظ الأمن في جميع أنحاء العالم بتعاون وتفاهم القوى العظمى المحبة للسلام . الا أن كافة تقارير الحكومة المهوررة بخاتم « سري للغاية » تشير الى عكس ذلك تماما . وبدأ للميان أننا نتجه بخطى واسعة نحو حرب باردة مع السوفييت . وبدأ هذا ينعكس على جميع نواحي حياتنا الى الحد الذي اضطررنا معه أن نطلق أسماء مفايرة على الدوائر المختصة بشؤون الستار الحديدي اخفاء لها وتمويهها .

وكانت العقبة الثانية هي النقص الفادح الذي كنا نعانيه في عدد الاشخاص المؤهلين لخوض غمار حرب أطلق عليها الاميرال « ساورز » ، مدير المخابرات المركزية ، اسم « الحرب التي لا كالحروب » . وقد واجهنا هذه العقبة فعلا عند محاولتنا الحلول محل المخابرات البريطانية في اليونان وتركيا مع أننا كنا نملك رصييدا ضخما من هذه العناصر في أوروبا . وبقي قسم الشرق الأدنى وإفريقيا في وزارة الخارجية ركيكا وضعيفا جدا . ولم يكن وضع المخابرات المركزية ووزارة الدفاع أصلح من هذا ، فكافة رصيدهم لم يتعد بعض علماء الآثار والمبشرين من مختلف الجنسيات الذين كانوا يتلقون التوجيهات من قبل أساتذة الجامعات المتقاعدين . وكان هناك خليط من رجال الاعمال الذين ينتدبون لبعض مهمات المخابرات الاعتيادية أو لبعض مهمات ديبلوماسية ما وراء الكواليس . وكان علينا اذن أن نبدأ بحملة تجنيد واسعة وسريعة حتى تتمكن من تحمل مسؤولياتنا في تلك الأرجاء من العالم . الا أن تحديدأ واضحا وصريحا لما نثري تحقيقه وتنفيذه يجب أن يتصدر قائمة الواجبات الأساسية . وعلى وجه التحديد : كان سد الفراغ الذي نتج عن انسحاب البريطانيين من اليونان وتركيا والذي بالتالي أوجد فراغا في كل

رجاء الشرق الأوسط من ضمن أهدافنا الرئيسية . وقد اقتضى هذا أن نبدا
« لمبتنا » التي كانت حكومات دول المنطقة الشاغرة من النفوذ اطرافا فيها .
وسبب ذلك أن السوفييت لم يكونوا بعد قد اتخذوا مقاعدهم حول طاولة اللب
(لم يكن التدخل السوفياتي قد بدأ يومها) . وكانت هذه «اللعبة» لعبة تعاون
من جهة ونزاع من جهة أخرى ، واصبحت قراراتنا مرتبطة بأهدافنا في
المنطقة ومثارة بمدى تعارض مخططاتنا مع تطعنات كل من تركيا واليونان وبقية
دول الشرق الأوسط . وانتقل هذا التعارض والخلاف الى داخل وزارة الخارجية
واللجان المشرفة على التخطيط فيها . فلا أزال أذكر عندما خاطبني أحد المسؤولين
عن التخطيط في وزارة الخارجية وهو في أوج غضبه قائلا : « اننا لا نملك أية
أهداف وأننا لا نواجه هناك سوى مشاكل » ، فمن هذه المشاكل ما كان مصدره
النوايا الصهيونية لخلق دولة اسرائيل واصرار العرب على رفضها . ومنها ما
مصدره الخلاف مع الحلفاء حول الدور الذي يجب أن تلعبه دول الشرق الأوسط
في خطط الدفاع للمستقبل ، والدعم السياسي لشركات البترول الأمريكية
التي كانت في نمو مستمر واتساع متزايد هناك . ومهما كان ، فلقد برزت
أهدافنا أخيرا في شكل محدد وكان منها ما يلي :

- ١ - تجنب أي احتكاك مباشر بيننا وبين السوفييت نتيجة اشتباكات اقليمية
في المنطقة .
- ٢ - تقوية حكومات المنطقة عسكري وسياسيا الى حد تمكن معه من المساهمة
الفعالة في مجهود العالم الحر للوقوف في وجه الشيوعية الدولية .
- ٣ - خلق ظروف ملائمة تفسح المجال أمام التقليل التجاري والتوظيف المالي
للأمريكيين .

لم تكن نواجه في سنة ١٩٤٧ سوى مشكلة النزاع العربي الاسرائيلي .
وكنا والسوفييت نرى أنه ما نزال في وضع مبكر لظهور تأييدنا لطرف دون
آخر . وفي الوقت الذي كانت الظروف السائدة في منطقة الشرق الأوسط تبدو
مناسبة جدا للاستثمارات المالية والتجارية الأمريكية ، بدأ يساورنا القلق حيال
احتمال رفض الحكومات العربية لتوجيهاتنا السياسية والعسكرية . ولهذا فان
«حارب سكان المنطقة معنا كان عاملا مهما لاحتراز أي تقدم في مجال تحقيق

وغيابنا وكان يجب أن يتوفر هنا منذ زمن بعيد لولا وجود عجز في قيادات دول
الشرق الأوسط .

كانت مشكلتنا الرئيسية في دول الشرق الأوسط فقدان القياسات
الذكية التي تتمتع بقسط وافر من الخبرة والحكمة في ادارة الأمور وتقدير
مصالح بلدانها والتي هي على مستوى رفيع من النزاهة والشجاعة الكافيتين لتحقيق
كل ذلك . وبهذه الطريقة دون غيرها يمكننا أن نحقق أهدافنا مهما كان لونها
وشكلها . ونتيجة لذلك فقد بدأ تركيزنا على فسخ المجال أمام وصول « النوع
الملائم » من القيادات الى السلطة وتسليمها مقاليد الحكم في داخل أوطانها بينما
نكون قد انجزنا دراسة مخططاتنا وحددنا أهدافنا في المنطقه بكل دقة
ووضوح .

كانت قواعد « لعبة الأمم » تلمي علينا أن نبذل قصارى جهدنا لاحتراز
التقدم والنجاح ضد المناوئين لنا ولكن لصالح الموالين لنا . فاذا تصمرت الخطوات
وسدت المنافذ كان لا بد بعدها من تعديل اعتباراتنا لأسباب النجاح وطبيعته .
فاذا لم تكف هذه الخطوة كان لا بد بعدها من النجوه الى تغيير اللاعبين الذين
يشكلون حجر عثرة في طريقنا واستبدالهم بآخرين أكثر انسجاما مع الظروف
الراهنة . ومذكرات الحكومة الأمريكية عام ١٩٤٧ أشارت بوضوح وتأكيد الى
أن أجهزة المخابرات والسلك الدبلوماسي كانت على وشك القيام بتغييرات في
قيادات بعض دول الشرق الأوسط . والمؤرخون الذين يحاولون الوقوف على
الدوافع التي كانت خلف مخططاتنا أثناء تلك الفترة من التاريخ كانوا يتغاضون
عن الحقيقة التالية : ان التفكير المثالي ومحاولة الالتزام بالمبادئ لم تختف
نهائيا ليحل محلها الأسلوب الواقعي للعمل الذي يتمثل في التجسس والاستفادة
من التسهيلات التي يقدمها العمل السياسي السري وذلك لمجابهة الروس بنفس
طريقتهم في العمل . ان أي تفحص لوثائق وزارة الخارجية ووزارة الدفاع
ومجموعة المخابرات المركزية (التي أصبحت بعد ذلك وكالة المخابرات المركزية)
تظهر مثاليتنا في العلن وانتهازيتنا في السر . ولكن كل من شارك في « لعبة
الأمم » يذكر أننا لم نكن فعلا انتهازيين كما تصوره تلك الوثائق ، وأن عنصر
المثالية كان لا يزال التفكير السائد والصفة الطاغية وذلك في كلا نشاطينا
السري والعلني .

وبدأنا العمل بتجنيد العناصر المتبقية من مكتب الخدمات الاستراتيجية بعد الحرب العالمية الثانية . ثم ضمنا اليها اركان قيادة السلك الدبلوماسي الى جانب احتياطيين من الرجال الذين كانوا في الخارج ببعثات ثقافية واعلامية . والتحق بنا بعض الدبلوماسيين المنتظمين رسميا في وزارة الخارجية . ومعظم هذه العناصر التي هي من البعثات التبشيرية أو من اصحاب الفكر ، وبعض الهواة كانت تعتقد ان تغيير القيادات في دول الشرق الأوسط عامة والدول العربية خاصة لا يستلزم اكثر من مجرد ازالة بعض الدعائم والقوى التي اوصلت كثيرا من الزعماء الى سدة الحكم دون ان تتوفر لديهم اية كفاءات أو ميزات . وتستمر في مساندتهم ، طالما امتلكت البغرة على هذا . انني لا ازال اذكر تلك المحاضرة التي القاها أحدهم في اجتماع توجيهي مشترك لوزارة الخارجية ومجموعة المخابرات المركزية وقال فيها يوما : « يظهر في كل من سوريا ولبنان ومصر والعراق ، أن السياسيين الحاكمين قد استلموا مقاليد الحكم نتيجة انتخابهم من الشعب ، ولكننا نتساءل اية انتخابات تلك ! كأن الفائزون بالانتخابات من مرشحي القوى الأجنبية ، ومن مرشحي الاقطاعيين الذين يلزمون الفلاحين والمستخدمين بانتخاب من يخدم اقطاعهم ، ومن الرأسماليين الجشعين الذين يشتررون أصوات الشعب لحساب أعوانهم بنفس طريقتهم المعتادة في الحصول على ما يريدونه عن طريق الخداع واللصوصية . ان العرب يرزحون تحت نير أولئك الحكام المرتشين وهم يستصرخون الجميع لرفع هذا الاضطهاد عن كواهلهم . ان لهم ميولا طبيعية نحو السياسة وهم ليسوا أقبياء مففلين »

لم يكن ذلك المحاضر لينقل سوى وجهة نظر كل أولئك الذين كانت لهم خدمات سابقة في سلك الخارجية أو المخابرات . كما ان هذه النظرة قد حظيت بتأييد كل المسؤولين الجدد الذين جاؤوا من خارج سلك الحكومة مثل رجال الأعمال ورجال الجامعات وغيرهم من الذين اعتادوا أخذ دلاء الانسان وحدود طاقته العملية بعين الاعتبار والاحترام .

وفي ١٢ آذار (مارس) ١٩٤٧ ، وبعد ثلاثة أسابيع من العمل الدائم لموظفي وزارة الخارجية والبيت الأبيض ، أعلن عن « مبدأ ترومان » الذي كان يومها بمثابة جواب على المذكرة البريطانية المرسلة الى وزارة الخارجية في ٢١ شباط (فبراير) ١٩٤٧ . ولم يمض زمن طويل على اعلان مبدأ ترومان حتى أعلن عن مبدأ آخر وهو « مشروع مارشال » . ومع أوائل تموز (يوليو) ١٩٤٧ بدأ سيل من التعليقات والافتتاحيات يظهر في الصحافة الأمريكية ، كما بدأ

كبار المسؤولين سليمة من المحاضرات في الجامعات الأمريكية ، وكلها تتحدث بصراحة عن الحرب الباردة وكيف السبيل الى إيقاف الزحف الروسي ، ومع أن عديدا من الكتب الجيدة قد ظهرت في الأسواق تعالج هذه القضايا ، وتفصل فيها ، إلا أنها لم تنطرق الى الحملة التي قمنا بها سرّيا بقصد سد الفراغ . وسأولي هذا النوع من النشاط السري كل اهتمامي في كتابي هذا لعجز بقية المؤرخين عن أن يقوموا بهذه المهمة التي لا يمكنهم الوقوف على أسرارها ولا معرفة خفاياها ، فلقد وصفتها وكالة المخابرات المركزية بأدق العبارات وقالت « انها حرب لا كالحروب » .

بدأت « الحرب الباردة » قبل انشاء وكالة المخابرات المركزية بشكلها المعروف الآن . . . وضم الفريق الذي بدأ العمل خليطا من الدبلوماسيين ومن دبلوماسيين ما وراء الكواليس (١) الذين تم استخلاصهم من وزارة الخارجية ووزارة الدفاع. ومن جملة دوائر رسمية أخرى كانت في معظمها من بقايا الحرب العالمية الثانية أو من التي أنشئت حديثا للعمل في الفترة الانتقالية بين فترة الحرب وعهد السلم . وقد برز في هذا الخليط الذي لا ينسى اتجاهان متباينان في فرط الثقة وفي المبالغة في الحذر . فقط تجسد الاتجاه الأول في أولئك الذين كانوا يوجهون نقدا لاذعا للسابقين من « أرباب العمل » - وهم البريطانيون - وتجسد الاتجاه الثاني في أولئك الذين أظهروا ميلا شديدا للتعاون الوثيق معهم وللاعتماد على خبرة كلتي المخابرات والدبلوماسية البريطانية لأكثر حد ممكن . إلا أن الاتجاهين قد توصلا الى حل وسط عندما اتفقا على الرأي الغالب : « خير لنا أن نحاول السير قبل أن نفكر بالركض » . وكان القرار الأخير أن تكون أولى مفاوضاتنا محاولة للتدخل في الشؤون الداخلية لدولة مستقلة ، وأن تكون المحاولة متواضعة محدودة ولكنها مؤيدة بتبسيرات كافية ودون مساعدة البريطانيين - بل ودون درايتهم بها .

ولكن أين نبدأ ؟ لا يمكننا أن نبدأ في تركيا أو اليونان ، فالبلدان حليفان لنا ويريدان ما نريده نحن ، وقيادتهما تسهران على رعاية أهدافنا المشتركة . ولو كان هناك أي مجال لأن نكون في « لعبة » معهم فستكون « لعبة تعاون »

(١) . الدبلوماسيين السريين Crypto Diplomats

وليس لعبة صراع واختلاف ، كما أننا لا يمكننا أن نبدأ في إيران لأنفسنا في انسجام وتفاهم مع قيادتها ، وكانت نسبة التعاون في « لعبتنا » معها أكثر من تسعين بالمائة (وهذا في البداية على الأقل) ونسبة الخلاف أقل من عشرة بالمائة . وبالتالي فلم يبق أمامنا سوى العالم العربي الذي بدأت الأمور تتفاقم بيننا وبينه ، وزادت شقة الخلاف اتساعا غير قليل . وكان ثانيا أن سبب هذا وجود قيادات طائشة مضللة على رأس السلطة في تلك الأقطار ، وأن استلام مقاليد الحكم من أشخاص ذوي ثقافة أوسع وإدراك أعمق سينقل هذه الأقطار العربية من صف المناوأة الى صف الموالاتة لنا . كما أن حذر العرب البالغ من السوفييت سيجعل الحماية الأميركية لهم موضع ترحيب . فشركات البترول الأميركية ستجمل منهم أغنياء قريبا . كما أن التوصل الى أية تسوية حول مشكلة فلسطين ستجعل منهم المستفيد الرئيسي لكل ما يتأتى منها . إلا أن اصرار حكامهم يومها على رفضهم النظر في الأمور من خلال هذا المنظار (المنظار الأمريكي) كان قد اعتبر مبررا كافيا للإطاحة بهم - أو على الأقل تحريك شعوبهم وحثها على الإطاحة بهم . وهكذا فقد كان وضع القيادات العربية في عام ١٩٤٧ مبررا كافيا للتدخل بشؤون العالم العربي

كان المفروض أن يكون العراق أول أهدافنا ، فحكومته بوليسية مكروهة . وكان من السهل علينا يومها أن نقنع أنفسنا أننا نقوم بعمل فيه خير كثير للعراق عندما نفسح المجال لمجيء حكومة أكثر شعبية وتأييدا . إلا أن الفريق المكلف بالتنفيذ في العراق لم يستطع مباشرة ذلك دون علم البريطانيين وموافقتهم . ورفضت حكومة المملكة العربية السعودية كافة اقتراحاتنا لتفسير طريقة الحكم فيها ، وهكذا لم يعد لنا أية فرصة للدخول فيها . كما أمقطنا من حسابنا التدخل بشؤون لبنان والأردن ومصر لاعتبارات شتى . وبحساب البواقى فإنه لم يبق أمامنا إلا سوريا . فقد كانت في وضع اقتصادي مريح ، كما أن الحكيم التركي والفرنسي لم يفلحوا في إذلال شعبيها وترويضه . ولهذا فقد كانت ظروف سوريا ملائمة جدا لاجراء انتخابات ديموقراطية ، تفسح المجال أمام مجموعة من الزعماء على شيء من الذكاء والحنكة والتعاون للوصول الى سدة الحكم واستلام مقاليد الأمور . وأخيرا ، فقد ظهر لنا جليا أن الركانز التي تدعم

بقاء المجموعة السابقة من السياسيين في الحكم ، وهم لا يمثلون الشعب حقا ،
لا تقوى البتة على مجابهة الوسائل التي عزمنا على اتباعها هناك .

وفي الحقيقة لم يكن هناك مجال لاستخدام أي من أسلحتنا التي علّمتنا
التجارب والمحن بعد حين استعمالها لعمليات أكثر دقة وأعمق أثرا . فقد كان
الوضع أضعف مما توقعنا ، وكان يكفي القيام ببعض الوكزات اللبقة هنا وهناك
لتشجيع بعض السياسيين المفضلين ليسيلكوا طرفا نزيهة في حملاتهم الانتخابية ،
الى جانب القيام بمراقبة عامة غير رسمية على اجراءات الاقتراع ، وضبط الأسماء
على اللوائح ، بنية كشف حوادث الضغط والاحتيال واخبار المرشحين بهسا
لفضحها والحيولة دون وقوعها . ولم يكن من الممكن توفير كل هذا بواسطة
رجال السلك الديبلوماسي (مع أنه كان لهم القدرة على ممارسته ضغطا كبيرا
بقصد التنبيه والتحذير) . ولذلك حاولنا أن نوفر ذلك عن طريق رجال
الصحافة الأجنبية الذين وجهت لهم الدعوات بهذا القصد . وقام فريق من
العملاء السريين بالمساعدة في هذا المجال دون الظهور بمظهر المؤيدين للمرشحين
الموالين لنا ، وكان جيل دورهم حث الشعب على انتخاب الرجال الوطنيين
المخلصين . ولقد فوتنا الفرصة على الحكام السوريين بخصوص توجيه انتقادات
لتدخلنا هنا وهناك عن طريق قيام القائم بالأعمال الأمريكي بزيارة الى وزارة
الخارجية السورية ، ولفت النظر الى اعتقادنا أن الانتخابات السورية المقبلة
ستكون محط أنظار جميع الأقطار المستقلة حديثا ، ولهذا فاننا لا نتوقع وجود
أي مائع من مراقبتنا لها . وقامت الشركات الأميركية الخاصة ، بالتعاون مع
أفراد الجالية الأميركية وبعض الإرساليات التبشيرية هناك ، بتوجيه تحذير
لاولئك السياسيين الذين اعتادوا اللجوء الى الضغط والاكراه لحمل المواطنين
على الادلاء بأصواتهم لصالحهم (صالح السياسيين) من مغبة مثل هذه الأعمال ،
أو من الوقوف في وجه اجراء انتخابات حرة نزيهة يصوت فيها المواطنون لمن
يريدون . كما وجهت تحذيرات مباشرة وغير مباشرة الى كل من الاقطاعيين
وأصحاب المعامل وزعماء الأحياء ، وحتى رؤساء مخافر الشرطة ، من اعاقبة
الشعب عن الادلاء بأصواتهم بحرية تامة ، ومن القيام بأي اضطهاد داخلي أو
نحيز لن يترتب عنه سوى استنكار واسع النطاق لا يقل عن ذاك الذي لاقاه
كل من الظلم التركي والتعسف الفرنسي . وتمكن رئيس إرساليات طائفة

الكنيسة الإصلاحية (ميثودية) أن ينتزع وعدا من أكبر اتحاد للمثقفين الأكراد بأنهم وزملاءهم لن يقوموا باستغلال أصوات الأمين الأكراد ويكتبوا لهم على أوراق الاقتراع أسماء مرشحي الاتحاد .

وتضمنت تحركاتنا النقاط التالية :

١ - حملة قامت بها إحدى شركات البترول الأمريكية التي تأسست حديثا وذلك بلمصق اعلانات دعائية ضخمة في الأماكن العامة تحضُّ السوريين على الإدلاء بأصواتهم واختيار المرشح الذي يريدونه لينعموا بالحرية بعد بضعة قرون من السيطرة الأجنبية . ومما أثار دهشة الشعب السوري أن تلك الدعايات لا تدعو الى مرشح دون آخر .

٢ - ترتيبات أعدت مع بعض مكاتب سائقي السيارات العمومية (التكسيات) ليقوموا بنقل الناخبين مجانا الى أماكن الاقتراع شريطة أن يترفعوا عن أية هبات مغرية من المرشحين للتأثير على ركبهم من الناخبين أو لنقل المقترعين لصالح مرشح دون آخر .

٣ - تزويد مراكز الاقتراع الرئيسية في المدن بآلات اتوماتيكية لتسجيل الأصوات بعيدا تام على أحدث طراز أمريكي ، حتى تفقد الانتخابات السورية كمشيولاتها في أمريكا تماما .

ومع كل ذلك ، فإن الاجراءات الانتخابية لم تكن مخيبة للأمال . ففي حمص ، لم يكن هناك أية محاولة مكشوفة للتدخل . فقد أوعز الاقطاعيون الى فلاحهم أن يبتعدوا عن الدعايات الشيوعية والامبريالية المنتشرة في الساحات العامة ولا يصمقوها ، وأن بدلوا بأصواتهم حسب التوجيهات المعطاة لهم سابقا . وكانت تلك الانتخابات الحرة الأولى من نوعها في سوريا التي كان يعتقد شعبها أن الحكومة ما هي سوى مطية يتخذها الأجنبي لتحقيق مآربه والوصول الى أهدافه عن طريق الرشوة والافساد التي تملؤها نزعة الفطرية عليه . ومع أنه وقمت بعض المصادمات الدموية وسقط بعض القتل والجرحى الا أن الناخب للمادي قد وجد في تلك الانتخابات فرصة جديدة لرفع سمع «صوته الانتخابي» أو وجدها فرصة لدعم قريب له عل وصوله الى النيابة يطلب له مكاسب ومغانم . وشكل سائقي السيارات اتحادات باعت خصماتها للمرشح

الذي كان يجزل لهم العطاء أكثر من غيره . ونكت اتحاد المثقفين الاكراد بالوعود التي أعطوها لرئيس الارسالية الاصلاحية . وتعطلت آلات تسجيل الأصوات الانتخابية كلها ما عدا اثنتين بسبب عدم انتظام التيار الكهربائي . غير أن المرشحين المنهزمين قد عزَّ عليهم أن يهزموا على أيدي التكنولوجيا الامبريالية فرفضوا النتائج التي أعطتها الآلات الالكترونية واعاد لهم الكتبة فرز الأصوات نانية بصورة حققت لهم الفوز والنجاح . وكانت حكومتنا الوحيدة من بين حكومات الدول الكبرى التي لم تدفع مساعدات مالية للمرشحين الموالين لها مما دعاهم الى الالتجاء الى الفرنسيين والبريطانيين بل والسوفييت أيضا . فقد كانت الاطراف الأتفة الذكر على شيء من الدهاء جعلها تتحايل على القيود التي فرضناها على الانتخابات . ان النزاهة الساذجة التي ظهرنا بها - نحن الاميريكيين - لم تجد لها قبولا في نفوس الفرنسيين والبريطانيين والروس ، بل ولقد اثارنا شكوكهم حولنا . فلقد اعتقدوا أننا نعد في الخفاء حلولا جديدة ومبتكرة للسياسة السورية وأن تلك البساطة المصطنعة ليست سوى مقدمة لإحليل ومؤامرات أخرى ولكنها من نوع جديد لم يعتد العالم القديم على فهمه وتصوره .

لم يكن الاميريكيون ، رسميين وغير رسميين ، بتلك الساذجة وذاك الغباء حيال الانتخابات السورية عام ١٩٤٧ ، ولكنهم كانوا حديثي عهد في هذا الحقل . وفي الوقت الذي لم يكن أي من رجال الحكومة أو رجال الأعمال الذين رحلوا الى الشرق الأوسط ذا خبرة في هذا المضمار ، كان هذا الامر شيئا روتينيا للروس أو الفرضيين أو البريطانيين . ونتيجة لهذا بدأت وزارة الخارجية الاميريكية بتعليم أحسن موظفيها اللغة العربية وقامت بإطلاعهم على ثقافات الشرق الأوسط وعلى كل ما يمت لهذا الموضوع بصلة . كما قامت بتمشيط الولايات المتحدة بحثا عن أميركيين ذوي خبرات سابقة في هذا المضمار - وكان باركر هارت ورودجر دافيز وهاريسون سايمس من جملة الموظفين الضليعين بمثل هذه الخدمات والذين كانوا على وشك ترك الخدمة في الوزارة لما أصابهم من سأم وملل . وعندما شعرنا بالحاجة الى أمثالهم في عام ١٩٤٧ - ١٩٤٨ دفعنا بهم الى مناصب ذات مسؤوليات حسام . واستدعسي تشارلز فيركسون الخبير في التعليم السريع للغات - من جامعة هارفرد ليبدأ فصولا دراسية في اللغة العربية لبعض الدبلوماسيين الشباب . وكانت نتيجة

هذه الفصول أن قارب عدد الدبلوماسيين الأميركيين المتكلمين باللغة العربية عند المتكلمين بهما من البريطانيين وأربعة أضعاف المتكلمين بهما من الروس . وأصدرت وزارة الخارجية أمرا بتعيين ارتشيبالد روزفلت (حفيد الرئيس تيودور روزفلت) كمنسق لنشاطنا السياسي الخاص وأرسلته الى بيروت . وكان روزفلت هذا قد أمضى عدة أشهر مع قبائل عربية وكردية وفارسية وكان يتكلم اللغة العربية والكردية والازبكية والروسية والفرنسية والاسبانية ويضع لغات أخرى . وخدم في الماضي في مراكز أظهرت قدرته الفائقة في الجمع بين الثقافة الواسعة والتنفيذ الدقيق . وبحلول عام ١٩٥٢ ، كان رجائا في السلك الدبلوماسي في الشرق الاوسط من خيرة ما بمقدور حكومتنا تقديمه .

كانت الأعوام بين ١٩٤٧ و ١٩٥٢ أعواما هزيلة بخصوص نشاطنا فني « لعبة الأمم » . وبعزى ذلك لجملة أسباب منها ذلك الاستقلال المفاجيء لعدة دول بقيت تزوج قرونا تحت بير الاستعمار، وهذا الأمر قد أظهر بعض المشاكل التي لم يكن تتوفر أية خبرة عندنا لمعالجتها . ومن جملة الأسباب غضب العرب لاعتقادهم أننا كنا نساند الصهيونية . وهذا صحيح مهما كان المرز لذلك - ومن ثم إسرائيل بشكل مفضوح لا تحرج فيه ولا حياء . كما أن سوء التفاهم وقلة التجاوب الذي حصل بين رجالنا الدبلوماسي وواضعي الخطط في واشنطن كان من ضمن تلك الأسباب . لقد كان الرجال القابعون خلف الجدران في وزارة الخارجية بواشنطن تحت تأثير انجاعات رجال الكونغرس ورجال الصحافة الذين لا يظهرون أي أكثرات أو اهتمام للعالم العربي . في حين كان رجالنا في السلك الدبلوماسي تحت رحمة مشاهداتهم اليومية واحتكاكهم المباشر مع المواطنين في العالم العربي مما أدى الى تباعد وجهات النظر واقتراق طرق التفكير حيال الأوضاع في المنطقة .

لقد غشت الدبلوماسية الامريكية في العالم العربي بين ١٩٤٧ - ١٩٥٢ ، مجرد مجموعة علاقات روتينية مع حكومات دول المنطقة . وتجسد جل عمل رؤساء بعثاتنا في تسليم الرسائل التقليدية حول قلق حكومتنا من الاوضاع السائدة . كما كانوا يبذلون قصارى جهدهم لاقتناع وزارات الخارجية في دول المنطقة أن الحكومة الامريكية ليست واقعة تحت تأثير الضغط الصهيوني . واقتصر نشاط الدبلوماسية السرية الامريكية على تقديم بعض المساعدات - كما

يفعل البريطانيون والفرنسيون والروس - الى من تختارهم من المرشحين في كل من سوريا ولبنان والعراق ومصر . وكانت وجهة نظرنا يومها ملخصة بعبارة : « دعنا ننتظر حتى يتبين لنا ما يجب أن نفعله » . وفي « لعبة الامم » كنا أشبه بلعبة البوكر الذي انضم حديثا الى طاولة اللعب التي يحيط بها وجوه لم يأنفها ، فجلس ينتظر لفترة دون أن يجازف بأكثر من مبلغ رمزي بسيط عسى أن يتعرف الى تلك الوجوه فتزول الحيرة والغربة وتفتح الآفاق الواسعة أمامه .

الا اننا لم نلتزم بهذه القواعد في سوريا . لقد جئنا الى طاولة اللعب وبدأنا نخوض المغامرات قبل أن نألف الوجوه التي حولنا ونألفنا . وكانت العملية الثانية التي قمنا بتنفيذها في سوريا غريبة عن القواعد السابقة الذكر وجديرة بدراسة خاصة ، ذلك لسببين :

(١) لقد أضحت هذه العملية فيما بعد شغلنا الشاغل ، ومثالا يحتذى في كل الحالات التي ننوي أن نفعل فيها ما نريد دون أن نظهر بمظهر المتدخل بالشؤون الداخلية للدول المستقلة . ولقد أكسبتنا هذه العملية خبرة فائقة في هذا المضمار ، وجنبتنا أخطاء فادحة في تنفيذ مشيلاتها .

(٢) كما أن هذه العملية قد ألفت ضوءا ساطعا على مدى أهمية اختيار الافراد المنفذين (أو عدم أهمية الاختيار) بالمقارنة مع صعوبة إنجاز العملية أو سهولة ذلك .

وفي تلك الايام ، كان الاعتقاد السائد عند كبار موظفي وزارة الخارجية أن الفراغ الذي حدث نتيجة الانسحاب البريطاني من المنطقة ، بالإضافة الى موقعنا المؤيد للصهيونية في فلسطين (والذي لا مفر منه) ، قد حصر أهدافنا هناك ضمن حدود « بذل قصارى جهدنا لتقليل الخسارة وتخفيف حدة الفشل » ، (١) . وبالتالي فقد كانت التعليمات الصادرة من واشنطن الى مختلف البعثات الديبلوماسية غامضة (غموض ردود الكاهن اوراكن في دلفي على أسئلة الاغريقين حول المغيبات) ، وذلك بقصد ترك الحرية لرؤساء البعثات لتفسيرها كما يشاؤون ويرغبون ، متحملين نتائج أخطائهم لوحدهم . في حين كان يقع

(١) يعني المؤلف أن النجاح الكلي أصبح عسيرا ان لم يكن مستحيلا .

المسؤولون السياسيون خلف الجدران في واشنطن منتظرين نجاح عمل من الاعمال (دونما قصد أو تصميم) حتى ينسبوه لانفسهم . وهكذا تغدو اصالة المسؤولين الموجودين في الميدان لوحدهم ودهاؤهم وجرأتهم أمورا فائقة الاهمية في مثل هذه الظروف .

كان رئيس بعثتنا في دمشق رجلا برتبة وزير مفوض اسمه جيمس ميكائيل كييلي . وقد انتدب لهذا المنصب لكونه رجلا يعتمد عليه في الملمات ، وكان يتصف بحيوية فائقة ويتمتع بقدرة عجيبة على اتخاذ القرارات دون الحاجة للرجوع الى المراجع العليا في واشنطن للوقوف منها على التفاصيل والجزئيات . وأما المسؤول السياسي في البعثة فقد كان الشاب دين هنتون الذي لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره بعد . وكان على جانب كبير من الاصالة الفريدة والفراسة النادرة وهو يشابه بهذا رئيسه جيم كييلي . رأما رجل التنفيذ في السفارة فكان الميجر ستيفن ميد الذي سيشتهر باسم « الكولوتيل ميد » في الفصول التالية . أما المسؤول عن الدبلوماسية السرية (دبلوماسية ما وراء الكواليس) في البعثة الامريكية في دمشق فقد كنت أنا - مؤلف هذا الكتاب .

وصلت دمشق في أيلول (سبتمبر) عام ١٩٤٧ حاملا تعليمات تقضي أن أحقق اتصالا غير رسمي مع الرئيس القوتلي وغيره من الزعماء الرئيسيين في الحكومة السورية . وكان عليّ أن أبذل قصارى جهدي حتى أفلح في اقناعهم بمنح المزيد من الحريات السياسية - ومن تلقاء أنفسهم - حتى يقدو النظام السياسي في البلاد أكثر تحررا وتقدما : وكان القسم الاول من مهمتي يسيرا . فقد أفلحت في اقامة علاقات شخصية مع الرئيس القوتلي ومع أصحاب الشأن حوله من الذين لا مفر من اقناعهم بالفكرة حتى يساعدوا في تنفيذها الا أنني سرعان ما اقتنعت أنني :

« كناطح صخرة يوما ليوهنتها فلم يهتها وأوهن قرنه الوعل »

وعندما وصل كييلي الى دمشق ليتسلم مهام منصبه (وكان ذلك بعد وصولي بسنة أشهر) رفعت له تقريرا عن نتائج جهودي أقنعه بالحقيقة المرة وهي أن الوضع يتجه نحو انفجار سياسي بدأت معالمه تلوح في الافق لاصرار القوتلي وأعوانه على موافقهم ورفضهم القيام بأية خطوات تحررية . وبعدها خاطبني كييلي قائلا : « انه لم يبق أمامنا سوى طريقين أحلاهما مر » . وكان كييلي يعني بذلك انه لا بد لتلك الاوضاع السياسية المتدهورة أن تنتهي الى

نتيجتين : فاما الى ثورة مسلحة دموية يقودها بعض الانتهازيين بدعم سرى من السوفييت او الى حركة يقوم بها الجيش السوري بدعم سرى منا (أي الامريكين) بفصد الاطاحة بالنظام القائم والمحافظة على النظام والهدوء حتى يحين الوقت لقيام ثورة سلمية تتمكن من تسيير دفة الحكم واستلام مقاليد الامور .

ولم يكن اشمئزاز كييلي من النتيجة الثانية أقل من اشمئزازه من الاولى ، الا أنه قيلَ بها مرغما حتى لا تضطر البلاد الى سلك طريق سفك الدماء وازهاق الارواح . كما أن الاطاحة بالنظام القائم على أيدي رجال الجيش سيفسح المجال أمام العناصر الصالحة في المجتمع لتتقدم الصفوف وتضطلع بأعباء الحكم بعدما منعتها نزعة العنف في نظام حكم القوتلي من القيام بدورها الفعال في الحكم والمجتمع .

كان انقلاب حسني الزعيم يوم ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٩ مسن اعدادنا وخطيطنا . فقد قام فريق العمل السياسي بإدارة الميجر ميد بانشاء علاقات صداقة منتظمة مع حسني الزعيم ، الذي كان رئيسا لأركان الجيش السوري ومن خلال هذه الصداقة أوحى الميجر ميد لحسني الزعيم بفكرة القيام بانقلاب عسكري اضطلعنا - نحن في السفارة - بمهمة وضع كامل خطته واثبات كافة التفاصيل المعقدة . الا أن تحركاتنا هذه لم تثر أكثر من شكوك عند الساسة السوريين فقد كانت كلها سرية ومتفنة الوضع والتخطيط . وأثارت هذه الشكوك - فيما بعد - فضول رجال الصحافة الغربيين وفئات من الطلبة فقاموا بإجراء مقابلات مع من كان لهم ضلع في العملية كما قاموا بفحص الوثائق التي لها صلة بالموضوع . وكانت نتيجة ذلك أن اعترفوا بصحة شكوك الساسة السوريين ودقتها . بيد ، أن الانقلاب حافظ على صبغة سورية محضة أمام أنظار العالم الخارجي الى أن بدأت الروائح تفوح منه وأخذت اللسن تتناقل ، ان حسني الزعيم ليس أكثر من مجرد صبي من صبيان الامريكان ،

ومع أنه لا يهمننا هنا استعراض تفاصيل الانقلاب ، الا أنه من الاهمية بمكان سرد بعض الملاحظات العامة التي لها علاقة به ، ومنها :

١ - أخبرت وزارة الخارجية الامريكية بنية القيام بالانقلاب وأنه قد أوشك ان يقع . الا أنها استغفنت عن طلب تفاصيل أخرى ولم تر ضرورة التدخل

بها ، بل تركتها لنا نتدبرها في دمشق • وكان السياق العام لرسائلها كما يلي :
• لا نرى داعيا لتثبيط همة حسني الزعيم وثنيه عن القيام بالانقلاب طالما أنه لا يزال مصمما على إعادة الحكم البرلماني الى البلاد متى ما سمحت الظروف بذلك ،
• الا أن حسني الزعيم كان قد أكد مرارا وتكرارا أنه لا ينبغي العودة بالبلاد الى الحكم البرلماني بل انه عازم على : (١) الزج بالسياسيين الفاسدين في السجون ، (٢) إعادة تنظيم جهاز الحكومة على أسس أكثر فاعلية ، (٣) اجراء الاصلاحات الضرورية في مجال الاقتصاد والحياة الاجتماعية ، (٤) اتخاذ بعض الاجراءات الايجابية ، ٧ إنهاء النزاع العربي الاسرائيلي • وكانت هذه الفكرة الاخيرة بمثابة المخدر الذي ننى وزارة الخارجية الامريكية عن عزمها على طلب الفاء فكرة تنفيذ الانقلاب العسكري •

ويحسن بنا أن نشير هنا الى وجهة نظر وزيرنا المفوض السيد كييلي • كان كييلي من الذين لا يؤمنون بفسر الوسائل الديمقراطية - مثل الانتخابات الحرة وحرية الصحافة وغيرها من الحريات - كما أنه كان لا يشاطر السوريين آراءهم السيئة بأنفسهم • فقد كان السوريون يعتقدون بعدم جدارتهم للاضطلاع بمسؤولية أعمالهم وأن كل ما يقومون به داخل بلادهم من تصرفات شريفة أو دنيسة ، ذكية أو غبية ، يسارية أو يمينية ، إنما يقومون به بناء على ما تملية عليهم القوى الاجنبية • ولكنه مع كل هذا فقد أصر على اعتقاده أن الوضع قبل الانقلاب قد وصل الى حالة من التدهور والفوضى لم يبق معها أي احترام لقانون أو خضوع لنظام وأن إعادة الامور الى نصابها ضرورة لا بد منها وبأي ثمن كان • الا أن كييلي قداخطأ عندما ظن أن سلطتنا على حسني الزعيم ستبقى قوية الى الحد الذي ستلزمه باعادة الحياة الديمقراطية الى البلاد عند أول فرصة ممكنة • وظن أن ذلك امر يسير لما تتمتع به من قوة اقناع ، أو عن طريق الاستعانة عليه ببعض المساعدات العسكرية التي تخفف من حدة تصلبه • وكان كييلي يكن حب خاصا للسوريين ويرى فيهم ميلا فطريا للحياة الديمقراطية • الا أن الاحداث قد أوجدت عندهم عقدا نفسية وهواجس حيال تسلط الاجنبي عليهم • ورأى أن قيام حكم ديكتاتوري لمدة قصيرة سوف يحررهم من النفوذ الاجنبي كما يحررهم من هواجسهم وأوهامهم عنه • وسيساعدهم على اقامة نظام ديمقراطي مستقل جديد دون الاعتماد على أحد أو الاستعانة بانسان •

لقد عبر كييلي عن انطباعاته عندما تكلم بلسان رئيس البعثة في دمشق وقال : « ان معظم السفراء والوزراء المفوضين الذين خدموا في العالم العربي سيشماركون في نفس الرأي وسيقولون لي بصراحة تامة انهم ما كانوا ليقفوا غير الموقف الذي وقفته في دمشق بنفسي لو وجدوا انفسهم في نفس الظروف التي كنت فيها » . وكذلك فقد عبر دين هنتون عن شعوره عندما تكلم بصفته ممثلاً للشباب المؤمن بالمثل والمبادئ والمتخوطين في السلك الخارجي وقال انه لا يزال يعتقد بإمكانية قيام حكومة صالحة في سوريا . وقد طُلب هنتون أن يكون اعتراضه هذا تحريراً وأصر على معارضته لاتباع وسائل غير متالية مع بقائه مخلصاً لقيادة كييلي . لقد كان هنتون حديث السن غمضاً ذا عاطفة مفرطة . الا أن معارضته لكييلي وميد والبقية الباقية من مسؤولي البعثة الدبلوماسية في دمشق بخصوص قضية حسني الزعيم بلغت حداً اضطر معه الميجر ميد أن يطلب من كييلي عزل هنتون عن الاجتماعات المتعلقة بالانقلاب وعدم اعلامه بتطوراته حتى اللحظات الاخيرة . وهذا ما جرى حقاً . فان هنتون لم يعلم بالانقلاب الا يوم وقوعه . ولقد طُلب هنتون ثانية تسجيل اعتراضاته على هذه المخططات تحريراً عندما كنا في جولة استطلاعية في احياء دمشق صباح يوم الانقلاب . ومن بسلة ما قاله هنتون : « انني اعتبر مشاركتكم في عمليه كهذه - عملية حسني الزعيم ... من اشد الامور غباء وسوءاً تركبها بعثة دبلوماسية مثل بعثتنا . لقد بدأنا سلسلة من هذه الانقلابات العسكرية التي لن تنتهي ابداً » . وما لبث ان يبعث اعتراضاته في تقرير ارسله الى وزارة الخارجية بالبريد البطيء حيث يقبع الان في قسم الارشيف الذي تتكدس فوقه طبقات كثيفة من الغبار . ومهما كان ، فان ما تنبأ به هنتون قد حدث فعلاً .

ظن بعض اعضاء البعثة في دمشق أن الباب قد فتح على مصراعيه امام « السلم والتقدم » نتيجة نجاح انقلاب الزعيم . لقد كان حسني الزعيم رجلاً لينا سهل الانقياد قبل الانقلاب ولم يخطر ببالنا أن هذه الصفات الشخصية قد تتغير بعد تغيير الاحوال والازمان . وحتى تاريخ صدور الاعتراف الرسمي الامريكي بنظام الحكم الجديد في سوريا لم يبدُ أي تغيير يذكر على طبيعة سلوك حسني الزعيم . وفي اليوم الثاني للانقلاب ، أمضى الميجر ميد ساعات طويلة مع حسني الزعيم وهو يحدد له أسماء أولئك الذين يجدر أن يكونوا في مناصب دبلوماسية

من يجدر به أن يكون سفيرا بكوني فاعة سان جيبس ن (البلاط البريطاني) وما هي وجبات الطعام التي يجب أن تقدم الى الرئيس القوتلي في صبحته حتى لا تلتهب القرحة في معدته . وما أن أذيع الاعتراف الامريكى بنظام الحكم الجديد حتى بدا حسنى الزعيم وكأنه رجل جديد لا يمت الى الماضى بصلة . فقد أبلغني الميجر ميد في أحد الايام فجأة أن علينا أن نتمثل له قياما كلما دخل القاعة ، وأنه من الضروري تبديل كلمة « أنت » بكلمة « انتم » في سياق خطابنا له (وكان يتكلم الفرنسية) بل ويستحسن استبدالها بكلمة « صاحب الفخامة » . وباستثناء هذه الامور الثانوية فلقد بقيت علاقاتنا معه ودية لآخر أيامه . الا أنه بدأ يتضح لنا أننا قد أغفلنا أمرا ضروريا جدا عند رسم خططنا ، وأن الوقت قد حان لبدء البحث عن رجل آخر يحل محل حسنى الزعيم الذي لا محالة قد اقترب من نهايته .

لقد أكدت حادثة حسنى الزعيم لكل من اهتم بدراستها أن عمالة أي حاكم لدولة عظمى - حتى ولو كانت من أقوى دول العالم - لا تكفي لضمان بقائه في الحكم واستمراره في السلطة . وليس هناك أي سحر أو تن في تقرير هذه الحقيقة ، فما كانت ميكانيكية قيادته لتنطوي على أية براءة أو حسن صنعة مع اصراره على طريقته وتشبثه بها . فلم تتح له فرصة ليلم بالنظرية الحديثة لفن القيادة كما أنه لم يقتنع أن مهمة الحاكم الرئيسية هي أن يضع مرؤوسيه في ظروف لا يجدون فيها مهربا من تأييده واتباع توجيهاته . لقد امضى حسنى الزعيم فترة طويلة آمن حياته في ظل ظروف عسكرية مشابهة للظروف التي تمر بها البلاد يومها ولهذا فقد اعتاد على حياة تنفيذ الاوامر دون اعتراض . لقد عامل مرؤوسيه وحتى أتباعه من كبار الضباط الذين كانوا الدعامة الرئيسية لحكمه بنفس الطريقة العسكرية التي نشأ بها . وما لبثت بعد شهر أن بانث الحقيقة المؤلمة وهي أن حسنى الزعيم أصبح لا يمثل أكثر من نفسه سواء في علاقاته مع مناصريه من الامريكيين أو في طبيعة معاملته للشعب السوري .

وفي صبيحة الرابع عشر من شهر آب (أغسطس) ١٩٤٩ قامت مجموعة من اصدقائه الضباط ، بقيادة سامي الحناوي اسما وأديب الشيشكلي فعلا ، بحاصرة بيته وقتله ثم دفنه في المقبرة الفرنسية . ولقد أخبرني الشيشكلي بعدها أنه كان لبقا معنا ، اذ عامل حسنى الزعيم على أساس أنه عميل فرنسي

وليس عميلا أمريكيا . وبعد أربعة اشهر تماما قام الشيشمكلي بدوره باعتقال سامي الحناوي وبدأ بادارة البلاد من خلال واجهات مدنية متعددة حتى تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥١ عندما ظهر على أنه رجل سوريا القوي . وبقسي الشيشمكلي في سدة الحكم حتى شباط (فبراير) ١٩٥٤ حيث غادر البلاد حربا من وجه أحد الانقلابات العسكرية المديدة التي تعاقبت على سوريا منذ ذلك الوقت حتى أضحي من الصعب على المرء أن يبقى متابعا للاحداث ويعرف من يمسك بيده مقاليد الامور ، فهما كانت معرفته بالسوريين قوية وخبرته بهم واسعة .

ومع أننا لم نتعظ من تجربة حسني الزعيم حق الموعظة الا أن نقاطا هامة قد استخلصناها من تلك المفامرة ومنها :

● أولا : لم تكن القضية مجرد تغيير شكلي في الحكومة ، وانما كانت تهدف الى تثبيت هذا التغيير وجعله يستقر نهائيا بشكل حكمه صالحه وذات كفاءة عالية تحافظ على دفع عجلة التقدم والتطور باستمرار . انني لا ازال اذكر تلك الكلمات التي تفوه بها أحد رؤساء حكومات الاقليات التي تعاقبت على السلطة في سوريا في السنوات الاخيرة متبججا بحضور أحد المراسلين الاجانب وقال فيها انه قد مضت تلك الايام التي كان يتحرك بها أحد الضباط ليحتل العاصمة بضممة دبابات وقيم فيها نظام حكمه . واعتقد ان ذلك الحاكم نفسه لم يبق طويلا في منصبه بعد تصريحه ذلك . فقد كانت نهايته أسوأ من نهاية من سخر منهم في تصريحه ذلك . وما زالت سوريا ليومنا هذا أكثر البلاد عرضة للهزات والانقلابات . وكم يتمنى العالم الغربي أن يرى سوريا تنعم بحكومة مستقرة مهما كان طابعها السياسي بدل أن يراها غارقة في أوحال القلق وغياب الانقلابات . واذا سمحت لنا الظروف لنتدخل ثانية في الشؤون السورية فاننا سنفعل ذلك بنية ايجاد حكومة تحمل في طياتها طابع الاستقرار والبقاء وتملك فرصة البناء والاصلاح .

● ثانيا : ومهما كانت الحقيقة مرة ، فان حكم « الصفوة المختارة » في سوريا (وان كان يتعارض مع ديموقراطيتنا المثالية) أمر لا خيار لنا فيه . ولن يكون هذا متيسرا هناك الا بتسليم مقاليد الامور لمجموعة افراد يتميزون بكفاءات

وقدرات لا يمكن توفرها لقائد فرد مهما كانت الظروف . ولم تكن سوريا بحاجة إلى زعيم يمشى في عزلة عن الشعب حتى تنجح ثورة اصيلة فيها، بل كانت دائما بحاجة الى «الصفوة المختارة» من أبنائها تليهم قاعدة أوسع لها جذور عميقة في عامة الشعب . فكم من عقيد متجرد من أبسط المبادئ والمثل قد تربع على عرش رئاسة الأركان ولم يكن يزل همه سوى إصدار الأوامر للقوات المسلحة للتحرك من مكان لآخر بغية قمع التمردات ضده . لقد أمسك حسني الزعيم بمقاييد السلطة (ولم يدم حكمه أكثر من أربعة أشهر) كما أمسك رئيس عصاة بمقاييد السلطة داخل عصابته . ولقد أضاعها لنفس السبب الذي يفقد رئيس العصاة سلطته . فأفراد العصاة يطيحون برئيسهم عندما يبدأ الشك يتسرب إلى نفوسهم أن رئيسهم قد غدر بهم وخذلهم . ولم يستمر حكم خلفاء حسني الزعيم لمدة أطول إلا لانهم كانوا أكثر مهارة في حفظ توازنهم وهم يسرون على حبل البهلوان المشدود . فقد كانوا يلتزمون الأعداء لأنفسهم فيما كان يثار ضدهم من شكوك وظنون . ولم يتحرجوا أحيانا من إيفار صدور ضباطهم ضد بعضهم البعض بغية تأخير اتفاقهم ضد الذين في السلطة . ولم يتعد التقارب بين بعض السياسيين والعسكريين شكل « زواج مصلحة » الذي يمقد طمعا في منافع سياسية واقتصادية مشتركة بينهم . وكان السياسيون بدورهم يتظاهرون بتعاطفهم مع الأمة بأسرها وبعتمادهم على تأييد الشعب لهم لاشتراكهم وإياه بمقائد سياسية واحدة (لا تمت حقيقة بأي صلة إلى مفاهيم الأمة ودينها وتراثها التاريخي) . وما كان ذلك إلا بقصد الدعاية ليحيطوا أنفسهم بهالة من الشعبية والقدسية . وهكذا فلم يكن السياسيون في سوريا أكثر من مجرد تَبَعٍ للعسكريين . فهم يظهرون على المسرح عندما يظهر العسكريون . فلم يكن بقاؤهم في السلطة في يوم من الأيام رهن قوتهم الذاتية أو تأييد الشعب لهم وإنما كان لسرعة تلونهم واستمرار تذبذبهم . ومن الطبيعي أن نظاما قاسيا من هذا النوع :

- (١) لا يمكنه أبدا أن يحافظ على بقائه واستمراره .
- (٢) ولن يكون في صالح تقدم البلاد وازدهارها .
- (٣) وسيكون مدعاة لقيام « لعبة أمم » متسمة بطابع الفوضى والغموض .

الا انه لن يتمكن في مثل هذا الخضم من احراز أي نصر على أعدائه
اطلاقا . (وأود أن أشير الى أن كل هذا الصراخ قد جعل مباراة الاسرائيليين
بالسوريين أقل من مبارياتهم بالاردنيين) . كما أن بقية اللاعبين في « لعبة
الامم » لن يشعروا بارتياح وهم يؤدون أدوارهم حول طاولة اللعبة
لاستمرار قيام احتمالية تمرد أحد اللاعبين وان كان من الذين اعتادوا الخسارة
دائما .

● ثالثا : ان الشرط اللازم لبقاء أي حاكم (أو مجموعة حكام مثل « حكومة
الأقلية ») في السلطة في سوريا، واستمرار تقدمه في مجال البناء والاصلاح هو
أن يظهر بظهور يستحيل القول معه أنه صنيعة لنا ، وأن يتصرف بطريقة لا
تظهر أي انسجام مع أذواقنا وميولنا . وباختصار ، فإن مساندتنا لاي زعيم
للوصول الى سدة الحكم والبقاء هناك حتى يحقق لنا بعض المصالح التي نريدها
لا بد أن ترتطم بالحقيقة القاسية وهي أنه لا بد له من توجيه بعض الاساءات لنا
حتى يتبهن من المحافظة على السلطة ويضمن استمرارها . كما أن هيكل النظام
السياسي الذي يتبع ذلك الحاكم لا بد أن يكون طبيعيا وفطريا وغير مصطنع
وبالتالي يجب أن يتضمن بعض العناصر التي تضمن عداء لمصالحنا . وهذه
نقطة رئيسية في كتابي هذا . فلقد قصدت من خلاله توضيح استراتيجيتنا في
« لعبة الامم » التي نتبعها مع غير العالم الغربي . اننا نقبل انتساب عدد من
اللاعبين ونرحب بجلوسهم معنا الى طاولة اللعب دون أن يكون سلوكهم كما نحب
ونهور تماما . الا اننا نعتقد أنه بإمكاننا أن نفوز عليهم بمجرد اتباع طرق
والأعيب خاصة ولكنها تختلف كل الاختلاف عن تلك التي نتبعها في « لعبة
الصراع » مع خصومنا كالسوفييت والصينيين ، أو عن تلك التي نتبعها في
« لعبة التعاون » مع اصدقائنا .

فشل في سوريا وأمل في مصر

١٩٥١ - ١٩٥٢

... ولن تكسب الحرب بالائتام وحدهم ، حتى يسود على الجمهور امرهم ...

كان لفشل تجربتنا في سوريا ، اثر كبير على العديد من تصرفاتنا . فقد آثرنا الانسحاب مؤقتا من مسرح الشرق الاوسط ، وفضلنا الانتظار ريثما يتضح لنا الطريق أكثر فأكثر . وخلال الفترة التي امتدت لغاية ١٩٥٢ كان موظفو وزارة الخارجية منهمكين في العثور على أفكار أنضج ، وطرق أفضل ، لضم أحد الحكام العرب الى طاولة اللعب . وفيما عدا قيامنا ببعض أعمال الحاسوبية المحدودة ، والتدخلات الروتينية في الانتخابات البرلمانية ، فقد حافظنا على عهدنا والتزمنا بشعاراتنا طوال تلك المدة . فلم نتدخل في الشؤون الداخلية لاية أمه ذات سيادة . ولا أزال أذكر جيدا ما صرح به أحد كبار موظفي وزارة الخارجية بمد الانتخابات السورية في ١٩٤٧ وأمام مجموعة من المسؤولين الذين انتدبوا لمهمات رسمية في الشرق الاوسط اذ قال : « ان أهدافنا في تلك المنطقة لا تتمدى ايجاد ظروف ملائمة تتوفر فيها حرية تقرير المصير لشعوبها من غير أن يكون لاي ثان ، ضغط عليها أو تأثير ، وبقي هذا الاعتقاد سائدا رغم الأدلة المتزايدة ضده ، حيث كان يظن أن شعوب الشرق الاوسط جادة فعلا في طلبها للشيوعية أو اية عميدة سياسية اخرى . تفتت مراكز القوة الاخرى على حساب المصالح الامريكية . فتعميق بذلك سير المنطقة نحو التقدم والازدهار ، والسلام والاستقرار ، التي كانت ، على اية حال ، الاهداف الحقيقية للولايات المتحدة في ذلك الجزء من العالم وكان غالبية مسؤولي وزارة الخارجية يعتقدون أن نتيجة اية انتخابات حرة في المنطقة ، ستكون ظهور قادة مفكرين لا يتكئون في التعاون مع العالم الحر - وحتى العرب الذين هم أكثر شعوب المنطقة طيشا سياسيا وأهمهم في فوضى الحكم كان بإمكانهم ان يقرروا مصيرهم بأنفسهم اذا ما أتيح لهم ذلك من

خلال ممارسة الشعائر الديمقراطية كما تفهمها نحن في الغرب - وأزيحت عنهم الضغوط الاجنبية والتأثيرات الخارجية .

وعلى الرغم من تعلق وزير الخارجية ديسن اتشيسون :ظاهري بالديبلوماسية التقليدية ، الا أنه لم يخب شغفه بديبلوماسية ما وراء الكواليس في مجالسه الخاصة . بل ولقد دفعه اهتمامه بذلك ، لان يطلب من وكالة المخابرات المركزية ، اعارته كيرميت روزفلت لرأس - وبسرية تامة - لجنة ضمت نخبة من الاخصائيين بالشؤون السياسية في كل من وزارة الخارجية ووزارة الدفاع . كما ضمت أيضا مستشارين من قطاع الاعمال التجارية والجامعات الامريكية . ولم يكن لأحد منهم صلة بوكالة المخابرات المركزية سوى كيرميت روزفلت نفسه . وأوكلت الى هذه اللجنة مهمة دراسة شؤون العالم العربي عامة ، والنزاع العربي الاسرائيلي خاصة ، وأن تقوم بنفس الوقت ، بتحديد المشاكل والصعوبات ، وترتيبها تبعا لاهميتها لاقتراح حلول لها ، من أية طبيعة كانت ، سواء تمارضت مع مفاهيم حكومتنا وقتئذ في احترام سيادة الشعوب وعدم التدخل في شؤونها الداخلية أم لا .

وخلال شهر واحد تقريبا ، كانت لدينا عدة حلول ومخططات جاهزة للتداول والتنفيذ ولكن لم يكن أي منها يتلاءم والاعراف السلمية المتبعة يومئذ . ولا أزال أذكر أنه كان من بينها ، فكرة تحريك الشعور الديني للوقوف في وجه المد الشيوعي . ولكننا أدركنا بعد الخطوة الاولى ، أن الفكرة غير مضمونة النتائج . فأني بعث لامثال هذه الافكار والمشاعر لا يعني سوى الكشف عن سلاح ذي حدين يقف في وجه المد الشيوعي والمصالح الغربية في آن واحد ، وهذا ما دفعنا بعد سنوات الى تطوير دعوة الملك فيصل لبعث الشعور الديني .

كما كانت هناك مخططات أخرى تعرفنا من خلال دراستنا لها على ما يجوز على موافقة العرب وعلى ما يرفضون . ولكن لم تكن هناك أية محاولة لتبني حلولا مثل حل حسنى الزعيم . وفي أوائل عام ١٩٥٢ أنهت لجنة الاختصاصيين وصف الحالة في الشرق الاوسط وحددت امكانيات « لعبة الامم » آخذة بعين الاعتبار خبراتنا السابقة ، وطاقاتنا الحالية ومواقف كل من أعدائنا وأصدقائنا والمحايدين . وفي مخططاتنا لم نخرج عن أهدافنا المألوفة ،

والتي كانت الاطراف الاخرى قد استحسنتها واتخذتها لنفسها اهدافا . كما
أننا لم نستطع تذليل أية عقبة من العقبات السابقة فبقيت كما هي ولكن مع فارق
كبير . فخبيرتنا اليوم لم تعد كما كانت أيام انقلاب حسني الزعيم ، بالإضافة
الى توفر مواهب خلّاقة لعدد من المسؤولين والمخططين ، الجديد منها والقديم .
والى جانب تزايد شعورنا بامتلاكنا قدرات كافية لفتح آفاق جديدة ، فقد بدأ
ضغط الحوادث العالمية يتراكم على كواهلنا ، محذرا ايانا من مغبة التأخير
والتسويف من القيام بعمليات جديدة تميدنا الى حلبة الصراع في الشرق
الاوسط بعدما مضى علينا سنوات ونحن خارجها .

ومع أننا قد قتلنا القضية بحثنا ودرسا ، فقد كدنا نبدأ من منطلقات
خاطئة ، ولكن شامت الاقدار أن لا يكون ذلك ، وكان قرارنا الاخير أن تكون في
مصر أولى خطواتنا الجديدة . وكان لهذا عدة أسباب هامة . فقد وهبت
الطبيعة مصر مكانا يجعل أي تأثير فيها لا ينحصر داخل أركانها بل يمتد
وينعكس في جميع الاقطار العربية الاخرى . ومن الوجهة التنفيذية فقد كان
اعتقادنا أن الخطة مضمونة النجاح ، لا لطبيعة الشعب ومفاهيمه السياسية
فحسب ، بل لاننا كنا نمتلك جهازا تنفيذيا ذا كفاءة عالية ودراية واسعة
بالدولة المصرية . ومن جملة أفراد كيرميت روزفلت الشهير . وكانت دراستنا
للمجتمع المصري تفرض علينا مسلكين لا ثالث لهما . أولهما : أن نستعرض
عددا من المرشحين لأن يكونوا زعماء وطنيين مثاليين لبلد عربي ، ومنتقى منهم
واحدا ذا مواهب خلّاقة وحصافة فائقة ، يستطيع أن يظهر أنه الحاكم الفعلي
ولكنه في الحقيقة ليس أكثر من واجهة لحاكم قوي . بينما نبقى نحن وراء
الكواليس . وبنفس الوقت يتم اختيار صفوة منتقاة من كبار شخصيات بلد
ذلك الحاكم لتكون طرفا في كل ما ننوي انجازه . فلها ستقدم الاقتراحات ،
ومعها ستناقش الاجراءات ، وستجري المساومات ، ولكن عليها أخيرا أن
تنصاع لترتيباتنا النهائية التي نخفيها عادة وراء مساعدات اقتصادية وعهود
نقطعها على أنفسنا بأن نتركها تشرح وتمرح في السلطة ، وتتخذ من الاجراءات
ما يحلو لها لتضمن بقاها في الحكم . ونمدها أيضا ، بأن نستبدل ضغظنا
عليها باقتراحات تتضمن وجهات نظرنا في طريقة ادارة البلاد ، وحفظ أمنها ،
بعد استلامها مقاليد الامور .

وفي المسلك الثاني : كان علينا أن نواجه بشجاعة وحنكة حقائق ووقائع عجيبة تتعلق « بفن السلطة السياسية » . ولقد تطرق الى هذا كثير من فلاسفة علم السياسة المشهورين ، ابتداء من برتراند رسل ، وانتهاء بجيمس بونهام الذي عمل مع كيرميت روزفلت سنة ١٩٥٣ . وكانت هذه الوقائع تتلخص كما يلي :

١ - لقد كنا بحاجة الى حاكم عربي يجمع بكلتا يديه سلطات تفوق كل ما تيسر لحاكم عربي آخر من قبل ، سلطات تمكنه من اتخاذ قرارات تنفر منها الشعوب وتآبها . وكان علينا أن ننشد ضالتنا في رجل متمطش الى تسلّم السلطة ، لا يدفعه الى اليها الا حب مطلق وشغف فريد بها . وقد ثار جدل في وزارة الخارجية حول هذه النقطة بالذات ، واستدل بعضهم انها كانت سبب انهيار حكم حسني الزعيم . ولكن دراسة نفسية مجردة لسلوكه اظهرت أنه لم يكن « مجنون سلطة » الى الحد المطلوب ، أو أنه عشقها لاسباب خاطئة واغراض زائفة . فقد كان يرضى بالمظاهر الخارجية، وما كان ليقلقه أن يبقى تابعا لنا ودائرا في فلك الولايات المتحدة الامريكية ، طالما كنا نتمثل له قياما كلما دخل علينا ، ونخاطبه بلفظ « صاحب الفخامة » . وكان مبتغانا أن ندفع الى سدة الرئاسة حاكما أكثر شغفا بالسلطة . ولكن بإتزان وادراك كاملين لابعادها . ومتى تم لنا ذلك فليس لنا بعدها أي حق في التذمر والشكوى مهما كانت النتائج . وان كنا نفتعل هذا أحيانا ، لاسباب تكتيكية محضة .

٢ - وكنا بحاجة الى رجل يقاسم أتباعه انتصاراته . وقد اعتبر برتراند رسل هذه نتيجة منطقية لمقدمات مهمة ، وهي شعور الطبقة الحاكمة أنهم يؤيدون رئيسهم برغبتهم ، وأنهم يمارسون القيادة الجماعية . ذاتصار أحدهم هو انتصار لهم جميعا . ولم تكن دراسة أوضاع زعيم المستقبل تقي بالفرض لوحدنا . بل كان يلزم الى جانبها دراسة وافية عن أوضاع كل رجال الصف الاول (الصفوة) الذين يلونه مباشرة وكذلك الصف الثاني ، والقاعدة أو الصف الثالث . وهؤلاء كلهم سيؤلفون وحدة متفقة الاهداف بوحدة الغايات والنيات .

٣ - كان علينا الاعتراف بعدم نجاح أي حاكم في قيادة أحد الشعوب العربية ، ما لم يتمكن من توحيد هذا الشعب للوقوف صفا واحدا ضد الاخطار التي تهدده ، فاسلوب « يجب أن أعرف وجهة الغوغاء لانني أنا رئيسها » لم تعد مرغوبة منا . فللمصريين تاريخ طويل امتد قرونا عديدة تسلطت عليهم فيه قيادات أجنبية وفسادة ولكنها كلها لم تحظ بثقتهم أبدا . وينطبق على هذا الجزء من العالم ، قول برتراند رسل « ان الخطر الذي يهدد الجميع هو السبيل الاسهل لتحقيق التجانس بين الجميع . . . » وكان قادة العرب يستغلون فكرة الخوف من اسرائيل ليقبوا شعوبهم في شبه وحدة وطنية . ولم يكن امامنا مفر من استفلال الشعارات ذاتها في مصر ، شريطة أن لا نفقد زمام الموقف فتؤدي اثاره هذا الشعور الى عواقب وخيمة . وعلى كل حال ، فاحتمال وقوع هذا الخطا ضئيل جدا لبشاعة هزيمة الجيش المصري على أيدي الاسرائيليين سنة ١٩٤٨ ، بالاضافة الى فقدان الامل في تبني أي زعيم بنجاح ، ما لم يعتمد الى هذه الشعارات فيطرحها الجماهير لتتلهى بها سنوات طويلة .

وهكذا طفقنا نبحت عن زعيم من النوع الثاني - الذي يكون الحاكم فيه مجنون سلطة - ولكن بادراك واتزان . وعند اليأس ، كنا نعاود البحث عن حاكم من النوع الاول - أي زعيم الواجهة - .

ورحل كيرميت روزفلت في شباط فبراير ١٩٥٢ الى مصر ، كي يشرف على تنفيذ المخطط الاول عن كذب . وكانت بعثته اول من حاول تنظيم ثورة سلمية في مصر ، تحت قيادة الملك فاروق نفسه ، يصنّف فيها النظام القديم ويشرف على ابداله بنظام جديد ، مطوقا بذلك محاولات الثورة المتكررة ضده ، والتي كانت وكالة المخابرات المركزية على صلة بها قبل أكثر من سنتين . وكان روزفلت مفوضا بأن ينتقل الى المخطط الثاني اذا واجهته صعاب في اخراج المخطط الاول الى حيز الوجود . ولم يكن المخطط الثاني يعني سوى البحث عن زعيم من النوع الثاني وهو « مجنون السلطة » ، أو زعيم من النوع الاول (الواجهة) ، أو الاثنين معا ان أمكن ذلك .

وكيرميت روزفلت - حفيد الرئيس الراحل تيمودور روزفلت - مشهور

برباطة جاشه وشجاعته في الملمات . فهو من النوع الذي يستهوي أفئدة الشرقيين ويتمتع بميزة فريدة ، ألا وهي القدرة على دعم كسل من الحكام التقليديين والثوريين مما . وكان مولعا بالمغامرات . وقد دفعه ولعه هذا الى الالتحاق بوكالة المخابرات المركزية التي خيبت آماله فيما بعد . اذ وجد فيها كثيرا من التقييد لاحلامه . ولم يزل برئيسه الجنرال بيديل سميث حتى وافق على انتدابه الى وزارة الخارجية وعمل كمبعوث خاص للوزير دالس لتنفيذ مهمات غير عادية كسلمية آجاكس التي وقعت في آب (أغسطس) ١٩٥٣ ، عندما قاد روزفلت انصار الشاه في ايران ، في مظاهرات صاخبة ضد الدكتور مصدق ، وتخلص من حكمه ، وعاد الشاه من منفاه في روما الى عرشه في طهران . وكان تنظيم الثورة السلمية في مصر ١٩٥١ - ١٩٥٢ أولى مهمات روزفلت الشهر هذا .

كان الملك فاروق معجبا بروزفلت منذ أيام الحرب العالمية الثانية عندما كان البريطانيون يضغطون عليه بالسلاح للتخلص من العناصر المؤيدة للمحور واستبدالها بوجه تختارها بريطانيا . وقد وقف روزفلت ابان تلك الازمة الى جانب الملك ، وتوقع له نظاما مستقلا ذا سيادة بعد انتهاء الحرب الثانية وسيكون الملك اول حاكم مستقل منذ الف عام . ولذلك فقد استقبل الملك فاروق المستر روزفلت استقبالا حارا عندما عاد الى القاهرة سنة ١٩٥٢ . ولكن الملك لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذين كان روزفلت يبحث عنهم . فقد كان الملك فاقدا القدرة على تركيز أفكاره . وكمن من جلسة أبدى فيها تفهما عميقا لما يدور في مملكته ، ووافق على اتخاذ بعض الاجراءات الأساسية في خطة روزفلت . ولكن كان في اليوم التالي يختفي عن الانظار مفضلا ممارسة هوايته في العريضة والجنس ، وضاربا عرض الحائط بكل ما اتفق عليه في اليوم السابق . ولا يتحرج في الاسبوع التالي من اتخاذ اجراء ينسف خطة روزفلت برمتها . وقد أمضى روزفلت في القاهرة الشهرين الاولين من سنة ١٩٥٢ مع الملك يلهوان بتنفيذ مخطط الثورة السلمية ، وذلك بأن دفعا رجلي الحكم القويين : مرتضى المراغي ، وزكي عبد المتعال لخلق أزمة وزارية . بينما أوعز الملك الى البوليس السري لجمع الأدلة والوثائق ضدهما ، ليثبت - حين تعين الفرصة - أنهما عميلين للمخابرات الامريكية . ثم قام الملك بتكليف

نجيب الهلالي ذو الشهرة الواسعة والسمة الجيدة في مصر ليتولى مهام رئاسة الوزراء . ولكن الملك لم يستدعه بلباقة كافية ، مما جعل الهلالي يرفض تسلّم رئاسة الوزارة ، حتى اتصل به روزفلت وأسرّ له أنه لم يتسلّم رئاسة الوزارة ، ويقوم بتطهير جهاز الدولة من المرتشين والفاستدين ، ويكون رائدا للثورة السلمية ، فان الثورة لن تبقى سلمية أبدا . ولذلك فقد قام الهلالي بإبعاد المسؤولين عن الفساد وانفوضى في الحكومة ، استبدلها بأخزين أكثر لموصية ، ولكنهم من انصاره . فكانت النتيجة أن اضطر روزفلت في أيار (مايو) ١٩٥٢ أن يرفع يديه مستسلما وموافقا على إن الجيش وحده هو القادر على مواجهة الموقف المتدهور في مصر ، وعلى اقامة حكم يستطيع الغرب أن يقيم معه علاقات ود وتفاهم . وكان « كافري » أيضا يعرف مصر جيدا فهو أقدم سفير في السلك الدبلوماسي للولايات المتحدة . ولم يبق بعيدا عن مجرى الحوادث ، بل كانت له وسائله الخاصة التي تختلف كليا عن وسائل بقية أفراد السفارة . فقد اعتمد على بعض الامريكيين من أصدقائه خارج سلك السفارة ، كما اعتمد على أحسن اثنين من رجاله ، وهما : الملحق العسكري المساعد العميد دافيد ايفان والمسؤول السياسي وليام ليكلاند . أما بقية أفراد السفارة فقد كانوا يعتبرون القاهرة والاسكندرية اماكن نزهة مريحة للطبقة الارستقراطية وللسلك الدبلوماسي ولكن ليس لهما أي مستقبل سياسي بسبب تدهور الاوضاع ، الى حد اليأس . وقد اضطر كافري في أحد المرات أن يلفت نظر أفراد سفارته الى الكف عن استعمال بعض الالفاظ النابية بوصف المجتمع المصري بها. ومع أن كافري نفسه يرى أن السياسيين القدامى هم وحدهم الفئة الاليفة التي يجدر بها أن تحضر حفلات الكوكتيل الدبلوماسية . وفي خضم مثل هذه الاحداث لم يكن ليدرك مدى أهمية الدور الذي سيلعبه الجيش المصري ويعيره انتباها كافيا الا كافري نفسه وبعض المقربين منه .

ولقد كره روزفلت الانقلابات العسكرية ، وخصوصا بهد ما شاهد بأمر حينه الفوضى التي آلت اليها الاوضاع في سوريا . ولكن كان كرهه هذا قبل اجتماعه ببعض الضباط الذين أشارت اليهم وكالة المخابرات المركزية على أنهم القادة المحتملون لتنظيم الضباط الاحرار الذين يزعمون القيام بانقلاب عسكري . وقد حصل هذا في آذار (مارس) ١٩٥٢ قبل أن يقوم عبد الناصر بانقلابه

باربعة أشهر . وعندما علم عبد الناصر بعرفه وكالة المخابرات المركزية بعظيمه ، وافق على التقرب منها ، وأرسل بعض ضباط التنظيم من المتربة الثانية للالتقاء بروزفلت في البداية . ولكن في الاجتماع الثالث أوفد عبد الناصر أحد أكثر ضباطه ثقة وأمانة كعموت شخصي له . وبومها توصل الضابط الى اتفاق رائع مع روزفلت وجدير بالاهتمام والانتاه .

وتم الاتفاق فورا على ثلاث نقاط جوهرية :

الاولى منها نصت على عدم امكانية جماهير شعب ما القيام بثورة تطيح بالنظام القائم بدافع من سوء الاحوال الاقتصادية . ولقد بذل روزفلت قصارى جهده لاقتناع وزارة الخارجية الامريكية بذلك ، داعما رأيه بشواهد من كتاب كرين برينتون حول « تشريح الثورة » ، وأن العوامل الاقتصادية لم تشكل في يوم من الايام قوة دُفع رئيسية للثورات الكبرى في التاريخ . وأن حكومة الولايات المتحدة لا يمكنها التخلص من نظام حكم قائم بمنع القمح عنه . ولقد استفاد عبد الناصر من هذا الرأي فيما بعد ، عندما هاجم الولايات المتحدة بعد سنوات من انقلابه لانها أوقفت شحن القمح لمصر واتهمها بتجويج شعبه ، وألقى على كاهلها مسؤولية تردي الاوضاع الداخلية وبرأ نفسه منها .

وكانت النقطة الثانية تؤكد عدم امكانية جماهير الشعب المصري القيام بأية ثورة ضد أي نظام قائم مهما ساءت الظروف وتردت الاوضاع . وكان في مصر يومها حركتان ثوريتان ، هما : حركة الاخوان المسلمين والحزب الشيوعي المصري . وكل منهما يعتقد أن الشعب المصري بكل طبقاته المثلة في العمال والفلاحين والمهنيين والموظفين في غليان شديد . أن تفجير الازمة يمكن أن تحدثه نداءات مناسبة للظروف التي تمر فيها الامة . ولكن عبد الناصر لم يوافق على هذا الرأي ، وكان اعتقاد مثليه في الاجتماع أنه بفض النظر عن نوع حكاهم القطر المصري فان احتياجات الشعب المتزايدة ستضعهم ثانية امام التحديات الاقتصادية الملحة .

ولقد قال أحد كبار مندوبيه في أحد الاجتماعات : ان الشعب المصري لا يرغب في الحصول على الكثير وأنه أمضى آلافا من السنين على كفاف العيش وباستطاعته أن يمضي ألفا آخر من السنين معتمدا على موارده الثانوية . كما

أن الشعب المصري غير مهياً لأن يثور بسبب هذه الدوافع . وإن ثار فإنه غير راضٍ في عيشة جد وعمل بعدها . وسوف يبذل الضباط الأحرار قصارى جهدهم لبعث هذه المفاهيم في شعبهم ، ولكنهم لا يجدون الوقت الكافي الآن . ولذلك فالجيش المصري سيقوم بالاستيلاء على السلطة في أول فرصة مناسبة تكفل له تأييداً سياسياً من سكان المدن ومن ثم بقية أنحاء البلاد .

وكانت النقطة الأخيرة في الاتفاق تبحث طبيعة التعابير المتبادلة بين حكومة الولايات المتحدة والحكومة المصرية الجديدة . فإن الجزء الذي سيكشف منها للجماهير ، يجب أن يحتوي على شعارات للاستهلاك المحلي مثل « إعادة الحياة الديمقراطية » و « إقامة حكومة نزيهة حرة » ولكن يجب أن يكون مفهوماً بيننا ، وبصورة أكيدة أنه لا أصل لهذه الشعارات في حقيقة الأمر . وأن الشروط اللازمة لتطبيقها غير متوفرة على الإطلاق . ولن تتوفر إلا بعد سنوات عديدة وجهود مضمّنة تقوم بها الحكومة الجديدة مثل :

- ١ - نشر التعليم وتعميمه .
- ٢ - التشجيع على ظهور طبقة متوسطة كبيرة ومستقرة .
- ٣ - نشر شعور عند الجماهير بأن الحكومة الجديدة هي حكومة الشعب ، منه وإليه ، وليست حكومة مفروضة من قبل الفرنسيين أو البريطانيين أو طبقة الأقطاعيين والرأسماليين المصريين .
- ٤ - كل ما سيسود من المثل والمبادئ، يجب أن يصبغ بالصبغة المحلية الوطنية حتى لا تكون الأنظمة والمفاهيم الجديدة ، محض تقليد لمبيلاتهما في الولايات المتحدة أو بريطانيا . وقد تأكد لروزفلت وممثل عبد الناصر أن عامة الأمريكيين من صحفيين وموظفين وأعضاء في الكونغرس ورجال الحكم وحتى وزير الخارجية بالذات لن يكفوا بسهولة عن ترديد الشعارات القديمة . وبنفس الوقت فلقد أدرك الجميع أن أية محاولة مبكرة لإعادة الحياة الديمقراطية لن تعنى سوى العودة إلى الفوضى والفساد السابقين . فالانتخابات ستجرى بين مرشحين تدعمهم الولايات المتحدة وبريطانيا ضد مرشحين تدعمهم السوفييت . ومن أصل ٢٨ مليون مصري ، كان هناك حوالي ٢٥ مليوناً من الفلاحين المصريين لن يدلوا

باصواتهم الا حسب تعليمات الاقطابيين وتوجيهاتهم . وستلجا الجماهير في المنن الى الاضطرابات كوسيلة وحيدة للتنفيس عن آلامها والتاثير على الوضع السياسي ، ولن يجدوا اهمهم سوى الانضواء تحت راية الاخوان المسلمين او الشيوعيين ، المُتَنَقِّسِينَ الوحيدين في ذلك الوقت لفئات الشعب .

وكانت هناك مشاكل عديدة لم تتمكن من الوصول الى اتفاق صريح حولها . ولكنها ساعدت كثيرا في الوصول الى تفاهم مشترك حول الدرامس الاساسية وراء حركة الانقلاب المقبلة . وقد اشتملت على الامور التي يجب علينا أن نبحث عنها تحت المظاهر السطحية للاحداث . وكان بعض هذه المشاكل ذا أهمية لا بأس بها . الا أن واحدة فقط تستلفت انتباهنا فوق العادة وهي قضية فلسطين . فالجماهير العربية على اختلاف فئاتها وطبقاتها تولي فكرة استرجاع فلسطين الاولوية على سائر شؤون الحياة الاخرى بصورة لا تقبل البحث في هذا الموضوع ابتداء . وعبد الناصر نفسه مع ضباطه الذين خططوا للانقلاب كانوا يعتبرون هزيمة الجيش المصري سنة ١٩٤٨ على أيدي القوات الاسرائيلية ، هزيمة مريرة يصعب تناسيها . وأن شعور الكراهية لاسرائيل من العناصر التي لا يمكن التفاوضي عنها كمبررات لاية ثورة تقع في البلاد .

ولكن لم تمض خمس سنوات على تلك الهزيمة في فلسطين حتى كانت احاديث الشككات ، ومناقشات عبد الناصر ورفاقه مع المثات من الضباط قد انتهت الى رأي معاكس . فقد لمسوا أن حشدهم لموارد الدولة المصرية وطاقت شعبيها سوف يساعدهم على الوصول الى أهداف أبعد من خدمة القضية الفلسطينية . ولكنهم لن يستفتحوا فترة حكمهم بمثل هذه الشعارات التي لن تفيد الثورة اطلاقا . وقد أخبر عبد الناصر كيرميت روزفلت صراحة أنه مع ضباطه لن ينسوا ذلك الاذلال الذي لاقوه على أيدي الاسرائيليين سنة ١٩٤٨ . الا أن نعمتهم ستنصب بالدرجة الاولى على كبار ضباط الجيش المصري ، ثم على بقية حكام العرب والبريطانيين ، وأخيرا على الاسرائيليين . ولقد توصل روزفلت الى نفس النتيجة من خلال محادثاته مع الزعماء المدنيين في مصر ومن بينهم فاروق نفسه . وكان السفير كافرني قد حصل بدوره على نتائج مشابهة . وبعد كل ذلك الاستعراض لجميع التواحي ، وصلنا الى مسألة أكرس

حساسية ودقة ، إلا وهي مشكلة القومية العربية . فلم يكن لدي أي مسن
المسؤولين المصريين يومها ، سواء من العسكريين أم من المدنيين ، أي مفهوم
واضح حول « العروبة والعرب » . وكان أول المبادئ المتبعة في صناعة
الانقلابات ، في أي بلد عربي ، هي أن ترفع شعارات وطنية اقليمية ، فمصر
للمصريين ، وسوريا للسوريين ، والعراق للعراقيين . وكل الكلام عن الاخوة
العربية وشعار « كلنا عرب » لم يكن ليتعدى الحدود العاطفية الضيقة ، ولم
يكن له أي اعتبار في ميزان القوى لأي انقلاب عسكري ، ويبقى الولاء للانقلاب
هو المقياس الرئيسي لنجاحه وفشله . ولقد انطبق هذا الوضع تماما على
المصريين عامة ، وعبد الناصر خاصة . فعندما قام بانقلابه لم يكن يعرف الا
القليل عن العرب ، بل ولم يكن يشعر أنه عربي . وكذلك لم يكن قد زار أي
قطر عربي أو واجه أي شعب عربي . ولكنه أصبح زعيما عربيا بعد أن دخلت
كلمة « عرب » القاموس السياسي لشعوب المنطقة . ولم تفلح معرفته المحدودة
وقتشد بالعرب في تحريك محبته لهم . ولم تساعده زيارته لبعض الدول
العربية منذ سنة ١٩٥٢ على اكتساب أية خبرة جديدة في هذا المجال ، وانما
أكدت له شكوكه السابقة بالعرب . فقد بقي العراقيون في نظره متوحشين ،
واللبنانيون مرتشقين فاسدين ، (ولم تكن بيروت في نظره أكثر من ناد ليلي
مترامي الاطراف) ، والسعوديون قذرين ، واليمنيون أغبياء متخلفين ،
والسوريون مخادعين لا يقدرون المسؤولية ولا يتقنون بغيرهم . ولكن عبد
الناصر بالتأكيد ، ينكر الآن جميع مواقفه وآرائه تلك ، بل وعلى العكس فهو
يعتقد أن في العالم حقيقة ملموسة هي « العالم العربي » (وبدأ هذا بعد عودته
من مؤتمر باندونغ) . كما أنه يتمتع بشعبية لا بأس بها في أوساط السوريين
واللبنانيين والليبيين والاردنيين . . . الذين سيطرت على مشاعرهم فكرة
الوحدة والعروبة وتجاوزت نزعاتهم الاقليمية بعد تخلصهم من انظمتهم الفاسدة ،
ومن الجدير بالذكر أن رفاق عبد الناصر الذين ساعدوه في الوصول الى
السلطة ، ويعود لهم الفضل في بقائه فيها حتى الآن ، لا يشاطرونه رأيه ولا
يسابرونه في مواقفه العربية الا ضمن حدود المصالح المصرية المحضة . وقد
كانت النزاعات المصرية العربية تعكس نوعا خاصا من التصورات داخل قصور
السماسة المصريين ، ساعدت على تأمين توازن مستمر بين الازمات الداخلية

والانتصارات الخارجية . على أن عبد الناصر نفسه سرعان ما يصبح أكثر تعصبا لمصريته وأقل حماسا لعروبه كلما نشبت الازمات داخل مصر . وأما في تخطيطه لاستراتيجيته السياسية فلا يتردد في وضع المصالح المصرية فوق غيرها معتبرا مصالح العرب كلهم تيمًا لمصالح مصر .

ولقد أتيت على ذكر هاتين النقطتين : عدم أهمية موضوع تحرير فلسطين وعدم قيام أية علاقة بين القومية العربية ودوافع الثورة المصرية بسبب مسانرتنا من صموه تفاهم أدى الى تمكيز صفو علاقاتنا معه ، وارتكابنا أخطاء فادحة معه ومع الزعماء العرب الذين لهم نفس الاهداف والغايات .

وقد احتل موضوع عدم رضى المصريين عن وضع البريطانيين في مصر وسخطهم عليه، جانبا مهما من الاحاديث التي دارت بين الضباط الاحرار ومندوب وكالة المخابرات المركزية كرميت روزفلت . ولكن لم تكن النظرة ذاتها تجاه بعض الشخصيات أو التقاليد البريطانية التي كانت تستهوذ على اعجاب المصريين والضباط الاحرار . ولا أزال أذكر استهزاء عبد الناصر ببيزة أمريكية أهديتها له ووصفها بأنها مدعاة للضحك . فسألته أية البزات تفضل ؟ فأجاب : البريطانية طبعًا . ومع أنهم أحبوا الامريكيين لامتراج المساعدة مع الصداقة ، فقد حافظوا على اعجابهم بالبريطانيين وكان عدم تجاوب البريطانيين مع هذه النظرة سببا في جرح شعور المصريين وانكار خدمات البريطانيين لهم . وقد انفضح هذا عندما قام مراسل الاسيوشيتدبرس ، مستر ولتون واين ، بمحاولة انتزاع كلمة مدح أو ثناء للبريطانيين من عبد الناصر بعد تذكيره بجهود المسؤولين البريطانيين ، أمثال اللورد كرومر ، في الاصلاح المالي ، ونظام الحكم ، ونظام المجاري ، وحماية الفلاحين من عمل السخرة . ولكن عبد الناصر أنكر فضلهم قائلا : انهم قد جعلوا منا مواطنين من الدرجة الثانية ونحن لا نزال داخل بلادنا .

ولا بد من التنويه الى نقطة مهمة بهذه المناسبة ، وهي أن عبد الناصر (وأمثاله من الحكام) كانوا في ذروة عدائهم للاجنبي (وهو هنا البريطانيون) يصبون حام غضبهم على طبقة السياسيين القدامى (الطبقة المروضة) التي لولا اتخاذها واستكانتها لما امتد نفوذ الاجنبي وتمادى داخل البلاد . وكان هذا الموقف مشابهها تماما لموقف قادة الحكومة الامريكية عندما سخطوا على القيادة

العسكريين في موقعة ميناء بيرل هاربر ، بدل أن يسخطوا على اليابانيين .
فَسَخَطُ ناصر ورفاقه على طبقة السياسيين القدامى من الشعب المصري كان
متأصلا دينا . في حين كان سخطهم على البريطانيين لا يلبث أن تذهب ريحه
على أثر معاملة حسنة يلقونها من السفير البريطاني . وكان عبد الناصر (وامثاله
من الحكام) مدركا تمام الادراك لهذه العقدة النفسية . كما أدركها من قَبْلُ
السفراء البريطانيون من همفري تريفيليان الى هارولد بيلي . ولكن لسوء
الحظ لم يدرتها الدبلوماسيون الامريكيون أبدا ، باستثناء واحد أو اثنين .

وعندما عاد روزفلت الى واشنطن - قبل شهرين من وقوع الانقلاب في
مصر - قدم تقريرا الى وزير الخارجية الامريكية دين اتشيسون ، تضمن النقاط
التالية :

١ - لم تعد الثورة الشعبية التي كان يسعى اليها كل من الاخوان المسلمين
والشيوعيين - وتخشاهما وزارة الخارجية الامريكية - واردة في
الحساب .

٢ - لم يعد هناك أي أمل في ابعاد الجيش عن القيام بانقلاب قريب ، وإنثائه
عن عزمه على استلام السلطة ، رغم كل التحفظات التي كان يبديها
واضعو مخططاتنا في واشنطن ، من أن تكون النتائج مشابهة لما جرى في
سوريا على أيدي العسكريين .

٣ - ان قادة الانقلاب المحتمل ، يرفعون شعارات قياسية تخالف ما اقترحه
كثير من المراقبين الدبلوماسيين ، وتجعل منهم ، وهم في السلطة ،
طرفا لينا ومرنا في أية مفاوضات نخوضها معهم ، كما أنها تزيد من
فرصتهم في النجاح .

٤ - يجب أن توافق الحكومة الامريكية على إقصاء الملك فاروق ، وربما دفن
النظام الملكي نهائيا في مصر . ولا يمنع هذا من اتباع بعض الشكليات
الدبلوماسية ، وارسال مذكرة احتجاج رقيقة تفسح المجال آمال السفير
كافري لظهار قلقه المصطنع على سلامة الملك فاروق .

٥ - وعلى الحكومة الامريكية أن لا تفكر على الاطلاق ببذل أية محاولة بعد
وقوع الانقلاب لاقناع العسكريين باعادة الحياة الدستورية واجراءه

الانتخابات وما الى ذلك . . . وعليها أن تبني علاقاتها مع العهد الجديد على أساس أن الحياة الديمقراطية ومؤسساتها يجب إعادة بنائها من جذورها ٦ - وعلى الرغم من الاجتماعات التأمرية العديدة التي مهدت للانقلاب ، فمن المستحسن أن لا يحاول أي من المسؤولين الأمريكيين أن يفكر بأن الانقلاب انقلابا ، بل إنه مجرد حدث داخلي متحرر الى حد ما من نفوذنا ، وكل ما علينا أن نقدمه من مساعدة وتأييد هو عدم وقوفنا في طريقه . وأما بشأن الحاجة الى عدد يلتقي الجميع على كراهيته والخوف منه - وفقا لمبادئ برتراند رسل - فان هذا المدو لن يكون اسرائيل ، بل طبقة السياسيين القدماء والاقطاعيين « الطبقة المروضة » في مصر ، ثم البريطانيين سواء رضينا بهذا أم أبناه .

وقد أفاض روزفلت في حديثه عن صفات الحاكم الذي سيبرز على مسرح الاحداث عاجلا أم آجلا . وأول ما تم الاتفاق عليه في اللجنة التابعة لروزفلت هو الحاجة الى حاكم يستطيع أن يضيف على نفسه صبغة القدسية والانقاذ . ولكن الظروف السائدة في مصر وقتئذ لم تكن بحاجة لاكثر من حاكم يرفع شعارات أضييق ومفاهيم أبسط . وعلى هذا الحاكم أن يتمتع بشيء من قوة السلاطة وسحر الشخصية . ليتمكن على الأقل من السيطرة على مجموعة من الرجال تتمكن مجتمعة من ادارة دفة الامور في البلاد . وكان كل ما طلبناه متوفرا في مجموعة الضباط الاحرار . ثم ذكر روزفلت أنه : « سواء بقي الحاكم مسيطرا على زمرة صغيرة تمكنت من حكم البلاد ، أم تحول الى زعيم ذي شعبية كبيرة ، فإنه يبقى دون مقومات الزعامة كما نتصورها نحن الغربيين . وفي أسوأ الظروف ، فان لم نحقق أي نجاح من تفاهننا مع زعيم كهذا ، فلن نخسر شيئا ، وسيكون ذلك درسا نافعا لنا في مواجهتنا لامثاله ، سواء في مصر ، أم في بلاد عديدة أخرى . تمر في نفس الظروف وتعاني من نفس الصعوبات » .

خليفة المستقل : ناصر في الحكم

... ونجاح مخططاتنا وهمين بزعم يتخذ منها اهدالا ومبادئ... .

كان كيرميت روزفلت يخشى رفض لجنة المتابعة في الكونغرس لناوراته . فعندما عاد الى واشنطن لم يفصح امامها عن كل خفايا نشاطه في مصر ، فغدا تقريره لها مريحا غير مخيف . فلم يذكر فيه حقيقة الجهود التي بذلها مع غيره من المسؤولين الاميركيين حتى أمكنهم العثور على زعيم متمطش للسلطة ، بونا برتي الطراز ، ذي قدرة على جمع شمل شعبه حول قضية مما تتوحد فيها مخاوف الأمة وآلامها . أما تقارير روزفلت الشفوية فقد اتسمت بطابع الصراحة والوضوح . فقد اخبر المسؤولين أنه من العسير لرجل ما يتأجج فيه حب جامع للسلطة وحرص بالغ عليها أن يبقى مكتوف اليدين منتظرا أحد عملاء دبلوماسية ما وراء الكواليس الاميركيين ليلهبه حماسا ويدفعه الى تحقيق امانيه . وأوضح أيضا ان صفات كالتى سبق ذكرها لا يمكن تطويرها وابعادها نتيجة بحث طويل واستقصاء شامل لمواهب وكفاءات بني الانسان ، وانما هي محض فطرية وشخصية . وانتهى روزفلت الى النتيجة ان لقاءاته في مصر أفهمته أن لجميع من قابل من الضباط علاقة وثيقة بضابط ما قد استوعب كليا شروط أي استيلاء على السلطة والحفاظة عليها . وأنه لا محالة مقدم على هذا . ومن خلال الملاحظات والافكار التي أرسلها روزفلت الى ذلك الضابط فقد تأكد له أن الاخير أدرك تماما مقاصدنا ومرامينا وقبول التزامنا بتسديد تكاليف تحقيقها . ونتيجة لذلك، فان قيام أي تقاضم متبادل وعلاقات وطيدة لم يعد أمرا عسيرا عندما يحين الوقت المناسب .

ولم تعلم الحكومة الامريكية بوقوع الانقلاب الا من الصحف الصادرة صباح ٢٢ يوليو (تموز) ١٩٥٢ ، ولكن سبق هذا سيل من المعلومات تدفق من خلال تقارير وكالة المخابرات المركزية ، مشيرا الى ان أحداثنا ما ستمتع في مصر بدون

تحديد زمانها أو تحركاتها . وأيدت الصحافة المصرية الانقلاب الأبيض بكليتها ، ووقف الشعب مع رجال الثورة بدون أي أسف أو ندم على الإطاحة بالملك الخليف . وظهر اللواء محمد نجيب وديما أنيسا بجليونه الجذاب كأنه الأمر الناهي ، وإن لم يكن كذلك حقيقة . كما ظهر مساعده من الضباط الشبان بقاماتهم النحيلة وأجسامهم الرياضية على أنهم أمال الشعب واحلامه في بناء كيان الدولة المصرية الحديثة . ولم تردد الاذاعات المصرية أيا من البلاغات المثيرة أو البيانات العنيفة التي كانت ديدن الانقلابات العسكرية في سوريا ، وإنما اكتفت بتعريف الشعب عن عزمها على تطهير الحكومة من الفساد وإقامة حكم قادر فعال ، وأصلاح الأحزاب السياسية ، وغير ذلك . ولكن البلاغات كلها لم تتطرق البتة الى مشكلة فلسطين أو أي ذكر لإسرائيل ولا على الأقل بكلمة واحدة .

وأما السفارة الأمريكية فلم تقف على تفاصيل الانقلاب الا من فم علي صبري، أحد ضباط عبد الناصر الذي أصبح فيما بعد من أشد خصوم الأميركيين . وقد وقع الانقلاب في الساعة الثالثة ليلا . وفي ساعة متأخرة من صباح ذلك اليوم أرسل عبد الناصر السيد علي صبري للاجتماع رسميا بالسفير كافري وتقديم تقرير شامل له عن وقائع وأحداث ليلة الانقلاب الى جانب تأكيد الحكومة الجديدة عن عزمها على إقامة علاقات وطيدة مع الولايات المتحدة . وتلا ذلك تأكيد علني آخر من اللواء محمد نجيب - وكان يعتبر آنئذ أب الانقلاب - أن قضية فلسطين لا تعنيه في شيء . ولكنه سرعان ما قام بزيارة السفير كافري بعد ساعات ، طالبا سحب ذلك التصريح واستبداله بآخر « أقل ، تقبلا للرأي العام في الولايات المتحدة ولكنه أكثر انسجاما مع المبادئ والاسس التي اتفقنا وعبد الناصر على أنها ضرورية وهامة لكسب الرأي العام المصري وبيل تأييده للعهد الجديد .

أما المسؤولون في واشنطن فقد غمرتهم موجة من السرور نتيجة هذا الانقلاب ، وأدركوا جميعا أنه أصبح في حوزتهم على المسرح العالمي لاعب جديد من الطراز الذي بذلوا قصارى جهدهم للثور عليه ، وأن كل ما يصنعونه مما من الخطط سيحظى بنسبة عالية من التماون المتمر واحتمالية ضئيلة من الخلاف والصغار .

كانت التقارير والتفسيرات الاولية تشير الى أن اللواء محمد نجيب كان رأس الثورة وعلى هذا الاساس بنت الحكومة البريطانية والامريكية علاقاتها مع العهد الجديد . ولكن سرعان ما ذاب الثلج ، وانتزع عبد الناصر زمام الامور منه ، ولم يمض بعد أكثر من عدة شهور على الانقلاب . والغريب ان كيرميت روزفلت قد اقتنع عندما أكد له عبد الناصر انه ليس هو رأس الثورة مع أن وليم ليكلاند المسؤول السياسي في السفارة الامريكية في القاهرة وبمضى موظفيها قد أكدوا أن اللواء نجيب لم يكن أكثر من ستار اتخذه عبد الناصر لنفسه حتى يحين موعد ظهوره على المسرح شخصيا . وزادت العلاقات قوة بين ليكلاند والضباط الاحرار عن طريق حسنين هيكل الذي كان صلة الوصل بينهم . وقد أصبح هيكل فيما بعد من أقرب المقربين لعبد الناصر في حين لم يكن آنئذ أكثر من محرر في صحيفة سياسية يملكها مصطفى أمين أحد اصدقاء عبد الناصر . وقد هيا هيكل الجو للعديد من المقابلات بين ليكلاند وقادة الضباط الاحرار بما فيهم عبد الناصر نفسه ، واعتاد ليكلاند أن يستقبلهم في شقته المطلة على النيل بترحاب واکرام زائدين .

وكانت نتيجة هذه اللقاءات أن بدأت سفارتنا في القاهرة ترسّخ علاقاتها مع عبد الناصر نفسه كرجل الدولة الحقيقي والأمر الناهي بلا منازع ، في حين بقى الشعب يصفق للواء محمد نجيب ويهتف له في الشوارع والساحات . ولكن السفير كافري لم يقطع علاقاته الرسمية باللواء نجيب وقام بزيارات تقليدية متقطعة له ناقلا بعض الرسائل الرسمية من حكومته في واشنطن التي لم تنطو على أكثر من مجاملات وتقاليد دبلوماسية . في حين كانت العلاقات الحقيقية للحكومة الامريكية مع الثورة المصرية تتم عبر الصلات الوطيدة التي نشأت بين عبد الناصر وليكلاند بفضل جهود هيكل نفسه الذي أضحي ذا دور رئيسي فيها بعد نجاحه في البلس وجهات نظر كل من عبد الناصر والسفارة الامريكية حلة بهية قبل نقلها الى الطرف الآخر .

أمسك كيرميت روزفلت وأعضاء لجنته الخاصة عن الاتصال المباشر بعبد الناصر بعد الانقلاب ، وقنعوا بمراقبة تطورات الاحداث في مصر بدون الانغماس فيها . فقد تطورت الامور بهدوء تام حسب الخطة المرسومة لها . وكان الكف عن الاتصال المباشر بعبد الناصر ضروري لاستبعاد اية شبهة

لتواطئنا مع النظام الجديد . وكانت رغبة جميع المهتمين بشؤون الشرق الاوسط ترك الحرية كاملة لحكومة الانقلاب،المعالجة مشاكل البلاد وحلها بطريقتها الخاصة . ولم نعث على أي مبرر للكشف عن القوي الحقيقية وراء الانقلاب واطهار اللواء نجيب على أنه ليس أكثر من ستار ما يلبث أن يزاح . ولكن لم يكتب لهذا الوضع أن يعمر طويلا فما لبث أن تبدل في عام ١٩٥٣ بعد مجيء الرئيس ايزنهاور الى البيت الابيض وابداء رغبته في العودة الى ممارسة دورنا مباشرة فيما نزمع تخطيطه وانجازه مع نظام حكم عبد الناصر . وكان الدافع الاول لهذا هو اتقان دراستنا لدور هذا اللاعب الجديد في مسرحياتنا والتأكد من تحركاته وفق توقعاتنا . وكان الدافع الثاني ضمان حصولنا بتحركاته هذه على استراتيجية نصر عند نشوب أول نزاع مع أعدائنا . وأما ثالث الدوافع فكان الاستفادة من هذا التقارب والتفاهم لتحقيق تعاون أوسع وأعمق بيننا قدر الامكان . ومع أننا أدركنا أن مساعدتنا لعبد الناصر سوف تزيد من قوة مركزه في مسرحياتنا الدولية ولكننا لم نستبعد تحوّل دوره فيها الى خصم لنا ومنازع . وكل ما بقي لنا وقتئذ هو الأمل فقط في أن نفلح في موازنة خطر خصومته لنا بزيادة طاقتنا وتوطيد عزائمتنا على أن يكون سلوكنا هذا يخدم أهداف ومصالح كلا الطرفين معا .

وبينما كان وزير الخارجية جون فوستر دالس يحزم حقائبه عشية جولة له في الشرق الاوسط في ايار (مايو) ١٩٥٣ أبلغ كيرميت روزفلت عن رغبته في الوقوف على نيات ومطالب رجال الثورة في مصر بعدما استتبّ لهم الحكم ودانت لهم قطوفه . وانتهى الرأي الى قيام روزفلت باقتفاء رجل عسكري من طراز ضباط الانقلاب وانتدابه لتلك المهمة . وكان اختيار روزفلت موقفا عندما انتزع من زوايا النسيان المستر ستيفن ميد ، حيث كان يمضي وقته في الصين الشيوعية بمهمات كانقاذ العلماء الالمان المعتقلين هناك والتواطؤ مع قادة العشائر الكردية على الحدود السوفييتية لاغراض تجسس على الامور الحربية ومهمات أخرى كالتى عهدت اليه سنة ١٩٤٩ في سوريا (انقلاب حسني الزعيم) وسماها وقتئذ « بالمهد الحزين » . فروزفلت ضئيل الخبرة بشؤون الضباط في الجيوش العربية الناشئة ، في حين أن تاريخ انسان مليء بالمغامرات كستيفن ميد سيكون له انطباع حسن في نفوس « الضباط الاحرار »

في مصر . وكان روزفلت موافقا في رأيه ذلك، فلم يكذب يمضي على وصول ميد الى القاهرة (وقبل زيارة دالس) أسابيع قليلة، حتى حاز على اعجاب ضباط الثورة وملك عليهم لبثهم . كان مظهر ميد شبيها كل الشبه بمظهر الابطل في الافلام الامريكية . فهو من رجال المظليين المتواضعين الذين انضموا الى وكالة المخابرات المركزية الامريكية نتيجة خطأ في جهاز الفرز الالكتروني قضي بارساله الى المخابرات مع احتمال نزوله بمظلة في الاراضي السوفياتية، بدلا من ارساله الى جبهة القتال . ويملك ميد قدرة هائلة على التقاط اللغات الاجنبية المعقدة بسهولة فائقة ومنها اللغة العربية . أما سلوكه فكان سلوك ضابط نموذجي في أي جيش من جيوش العالم وحتى في الجيش المصري . في حين كان تاريخ حياته المليء بالمغامرات يشكل مادة شيقة لاحاديث السهرة وولائم الليل . على أن انتداب ميد اثار حفيظة عبدالناصر الذي رأى فيه أن وزير الخارجية دالس ما يزال ينظر الى الثورة المصرية من خلال نفس المنظار الذي ينظر فيه الى الانقلابات العسكرية في دول امريكا الجنوبية . وحدث مرة أن حاول أحدهم التذليل على قيمة ميد وفعاليته بذكره احدى مناقبه أمام عبد الناصر، وهي أن ميد هو الوحيد من العرق الابيض الذي فاز بمضوية الشرف في منظمة « الما ماو »، فما كان من عبد الناصر الا أن طرده خارج القاعة .

أما وجهة نظر الحكومة الامريكية وراء انتداب ميد فهي تمتعه بموهبة فائقة في معرفة الناس ووزنهم وتحليل دوافعهم ونياتهم دون ارقام نفسه في مناقشة ميولهم السياسية . وبالرغم من صداقته لكثير من العسكريين فسي بلدان مختلفة (بما فيها صداقته لاديب الشيشكلي رئيس الجمهورية السورية)، فانتدابه لم يثر أية شكوك بخصوص التأثير على اتجاهات الثورة المصرية ، الى جانب أنه لم يتم حقيقة بمثل هذه المحاولة مطلقا . وما لبث ميد أن سجل ملاحظات مهمة أثبت التاريخ صحتها وانطباقها ليس فقط على صفوة عبدالناصر المختارة من ضباطه الاحرار ، بل أيضا على أية صفوة عسكرية في بلدان غير غربية ، بما في ذلك فيتنام وافريقيا الغربية واليونان . وبصدد حديثه عن هذه البلدان الناشئة قال روزفلت للوزير دالس مرة : « انه يستحيل صنع ثورة بغير ثوار » وأن الجماهير (على حد زعم بيان كروزيه) لا تتور بدافع سوء أحوالها المعاشية « ولكن الثورة هي التي تولد الثورة » .

وبخصوص استقرار الثورة المصرية ، أخذ ميد يميل - بعد أسابيع من لقاءاته المتكررة مع الضباط الاحرار - الى الاعتقاد أنها لن تكون شبيهة بالانقلابات في سوريا التي كانت تفتقد ميزة الاستقرار والثبات لكثرة الثوار فيها . فالثورة المصرية من تصميم واخراج عبد الناصر لوحده ، وأتباعه ينقادون له بسهولة ويسر . وبعد مدة لغير بعيدة - كتب ميد الى روزفلت يقول : « ان هؤلاء الفتيان يرون انفسهم كأفراد عصابة « روبن هود » المرحة وهم مسرورون بهتاف الجماهير لهم على أنهم أبطال الثورة ، ولكنني لم أجد واحدا منهم قادرا على شرح ما تريده هذه الثورة لي ، فهم لا يكثرثون للسياسة ولعل هذا من حفظنا وحظ عبد الناصر معا . انهم بحاجة الى من يدلهم الى ما عليهم التفكير به وانجازة ، ولست أرى صعوبة في اعادتهم الى نكتاتهم والاحتفاظ بهم هناك » .

ولم تخل مقابلات ميد للضباط الاحرار من فترات حرجة . فقد حاولوا أن يدفعوه بعد أيام قليلة من وصوله للقاهرة الى اقناع عبد الناصر بنصب صف طويل من أعواد المشائق أمام قصر عابدين ، الى جانب سرادق خشبي يتسع لمئات المشاهدين ، لتنفيذ أحكام الاعدام بأعداء الثورة . الا أن عبد الناصر وضع حدا لانتشار مثل هذه الافكار الهدامة عندما طلب من رجاله أن لا يتفوهوا بهذا الموضوع ثانية . نجبر ، بعضهم استمر في ترديد مثل هذه الافكار الى أن تسربت الى الرأي العام . وكان سبب ذلك وجود خليط ضخم من الافراد اتهموا بأنهم أعداء الثورة وباستغلالهم مناصبهم لاغراضهم الشخصية مما اضطر ضباط الثورة الى مراقبتهم والتضييق عليهم . ومع أن الالسن بقيت تلوك مثل هذه الافكار حتى خشي البعض من تطور الاحداث وتدهورها على غرار ما حدث في سوريا ، لكن ، ستيفن ميد ما لبث أن تحول عن مثل هذا الرأي ومال الى اعتبار مثل هذه الوقائع شيئا عاديا في المراحل الاولى التي تلي الانقلابات والثورات ، فقد شهدت فرنسا مثلها عندما دخلتها قوات ديغول الحرة بعد انسحاب الالمان منها .

واستمد ميد كثيرا من آرائه حول الضباط الاحرار من خلال احاديثه معهم حول طريقة التحاقهم بتنظيم عبد الناصر ، وتمكن معها من تحديد أبعاد هذا التنظيم السري الواسع ، وكشف الكثير من المهود والوعود التي قطعها الافراد على انفسهم . ومع مرور الايام وكثرة الاحاديث واللقاءات ، بدأ ميد

يرسم صورة أكثر واقعية - ولكنها أقل جاذبية للعقلية الشرقية - حول ذلك التنظيم للضباط الأحرار . فقد اتضح له أن التنظيم قد أصبح مقتصرًا على البقية الباقية من ضباط الجيش بعدما تم صرف الكثير منهم من الخدمة وتطهير صفوفه من المنتفعين الانتهازيين الذين كانوا وكأنهم خُشبٌ مسندة لهم من القادة العسكريين أشكالهم ، وعقولهم بريئة من الشؤون العسكرية فهما واكثرنا تطبية الجيش لأنهم أولاد الذوات، يرثون مناصب أسلافهم العسكريين . إلا أن عبد الناصر انتقى ضباطه من العناصر الجدية والفعالة الذين شغلوا مراكز حساسة في القطاعات العسكرية . ولم يحدث انقلابه أية فوضى أو اضطراب، بل ساعد على ترسيخ السلطة واستتباب النظام . ولم يدع عبد الناصر انقلابه أن يحمل طابع المصيان المسلح الذي لا يهدف إلا إلى اغتصاب السلطة ، بل عمد إلى تسليم الإدارات المدنية إلى ضباطه المقتنعين بأرائه السياسية والمعاهدين على تنفيذها ليتيح لهم الفرصة لإصدار أوامره وتبليغ تعاليمهم من خلال هذه المؤسسات العامة . وقد حالت رتبته الصغيرة نسبيًا دون تصدّره لقيادة الثورة ، واضطراره لدفع اللواء محمد نجيب أمامه إلى الواجهة . ولكن لم يلبث أن ملك مفاتيح الأمور كلها وانتزعها من يد اللواء نجيب عندما حان الوقت لذلك .

تابع ميد كافة تفاصيل الانقلاب بحذافيرها وعلم أنه لم يخلُ من مضاعفات ومتاعب (شرحها عبد الناصر شخصيًا للجنرال كابل الذي كان يشغل نائب رئيس وكالة المخابرات المركزية) . فقد كان أحد ضباطه المكلفين بالسيطرة على مراكز الاتصالات يحضر عرضًا سينمائيًا مع زوجته عندما وصلتته رسالة التكليف . وأوقف شرطي المرور سيارة عبد الناصر وهو في طريقه لموعده هام بسبب خلل في المصابيح الخلفية ، في حين لم يتعرف قائد إحدى قطعات الانقلاب على عبد الناصر بصفته رئيسًا للضباط الأحرار، بل وكاد يهجمه في الشارع . وتسربت أنباء حركته الانقلابية إلى الملك عن طريق والدته أحد ضباطه في سلك الأمن العام ، فقد غادر الأخير منزله في ساعة متأخرة من الليل مما أثار قلق والدته عليه ، فاتصلت بالشرطة للأطمئنان عليه خشية أن يكون قد ألمّ به مكروه ، ولكن ما إن حانت ساعة الصفر حتى كانت الأجراس تقرع معلنة بدء الثورة . وانقلبت بعض تلك الأخطاء إلى عوامل مساعدة في

النجاح . فقد استفاد عبد الناصر من تأخر احد ضباطه في قطع الاتصالات من الاتصال بالقطعات الصديقة في الاسكندرية واصدر لها اوامره بالتأهب والتحرك . (ولا تزال هذه العقدة لفزا محيرا : فكيف كان سيتصل بالاسكندرية لو قطعت الاتصالات كلها كما كان مخططا لها) ؟ وانقلبت الوحدة العسكرية التي وصلت لاعتقال عبد الناصر الى وحده مؤازرة له في اللحظة التي حاول عبد الناصر اعتقال ضباط القيادة العامة الذين تداعوا لاتخاذ خطوات مضادة للانقلاب بعد ابلاغهم بانباء التحركات العسكرية من قبل والده الملك . فقد اتصلت بمراكز المخابرات والامن العام للهدف نفسه ، فعلمت تلك المراكز وقتئذ بالانقلاب بصورة غير مباشرة وأيدته وأخذت تبلغ عبد الناصر شيئا فشيئا عن التحركات المضادة له .

ان امر تنظيم واعداد قطعات ووحدات عسكرية داخل جيش كبير للقيام بانقلاب عسكري ليس سهلا ويسيرا وخصوصا في التاريخ الحديث . وعبر عبد الناصر عن هذا الرأي خلال لقائه مع الجنرال كابل كما حدثه أيضا عن خطوات الاعداد التي مهدت لقيام الانقلاب ونجاحه . وكان يرى أن الفعالية التامة في العمليات العسكرية لا تكمن دائما في السرية المطلقة ، ولكنه مع كل هذا تبني السرية التامة في التخطيط والاعداد بغض النظر عن عواقبها . واعتقد أنها كفيلة باحراز النجاح اذا ما قورنت باختيار الوقت المناسب ، وترك الشكليات والتفاصيل لانظمة الجيش الروتينية . أما بعض الاخطاء القاتلة التي لا بد منها فان سرعة الاندفاع في تنفيذ الخطة ، وعنف صدمة المفاجأة عند تحرك الوحدات كفيل بتلافيها والقضاء عليها .

وقام ستيفن ميد بجمع شتات أحاديث تلك اللقاءات وما فيها من أفكار مبشرة وبتدوينها وإرسالها لواشنطن بشكل مذكرة قيمة للاستعانة بها كدراسة علمية لانقلابات آتية ، وكان منها ما يلي :

١ - ان قوة اي جيش (دون استثناء جيوش الدول غير الغربية التي لها اهداف غير عسكرية سكم) تعتمد على توفر فرجال اداريين من طراز رفيع حل رأس قيادته ، مدركين كل الادراك حقيقة دورهم في اصدار الاوامر وتنفيذها ، وحقيقة كونهم جزءا لا يتجزأ من قيادته وتركيبه العام . ويمود

سبب انتصار عبد الناصر الى ادراكه هذه الحقيقة وسيطرة رجاله الاداريين
الأكفاء على وحدات الجيش وقطعاته . وسواء اكان عبد الناصر واصحابه الأوائل
ثوارا بحق أم لا ، فان بقية أتباعه من الضباط ليسوا كذلك . وكان أتباع
عبد الناصر للأساليب العسكرية في التحضير للانقلاب وفي انجازه ، ضامنا
لغوزه ، لسهولة المأمونة في اصدار الاوامر وتنفيذها .

٢ - وينبغي أن يكون زعيم الانقلاب من نفس الطبقة الاجتماعية المؤيدة
له ، أو أن يكون قادرا على التظاهر بهذا حتى يتحقق نوع من التقارب والانسجام
بينه وبين أتباعه ليشاركوه انتصاراته ويشاطروه مشاعره . وهذا ما حدث
فعلا : فالانقلاب انقلاب الجميع من الضباط الاحرار وعبد الناصر ، وعبد
الناصر - برأيهم - لم يكن أكثر من منسق لعلاقاتهم ومنظم لتحركاتهم . وخيم
نفس الشعور على علاقات الفئة الاولى من الضباط الاحرار مع الفئة الثانية ،
وكذلك بين الاخيرة والفئة التي تنلوا ، وهكذا دواليك . وكانت هذه طريقة
فنية مكنت عبد الناصر من ضبط أمور الدولة وكسب تأييد ذاك الجزء المهم
سياسيا من جماهير الشعب المصري (والذي لا يتجاوز ١٠٪) وبذلك سلك
أحد الطرق في ادارة أضخم المؤسسات الصناعية ومرافقها فيها .

٣ - وسيستبدل العديد من أفراد الادارة في النظام القديم بغيرهم بغية
اقامة نظام ادارة العهد الجديد على أساس من الانضباط والنظام الدقيقين ،
وليس على أساس الولاء للأشخاص ، ويتوقع أن يتم ذلك حال استكمال قادة
الانقلاب سيطرتهم على اركان الدولة - ولم يكن ولاء أنصار ضباط عبد الناصر
له مباشرة ، وانما كان ذلك من خلال ولائهم لاحد اولئك الضباط الاحرار
فكانوا يعرفون « رجال زكريا » أو « رجال البغدادي » . وكان على عبد
الناصر أن يتخلص من هذه الظاهرة الخطيرة دون اقضاء أعوانه الرئيسيين
الذين كان لبعضهم دور رئيسي في نجاح انقلابه ، ولكنهم أضحووا عالة عليه
بعند (وهذه ظاهرة مشتركة بين جميع قادة الثورات) ، واضطره ذلك الى
تعيينهم في مناصب شكلية . وقام باسناد المناصب الرئيسية الى ضباطه
الموهوبين والموثوقين حتى يشغل عليهم كامل ارقائهم . في حين قام بنقل مسن
يديهم لهم بالولاء الشخصي الى مراكز أخرى . وأدرك ستيفن ميسد أن هذه
الظاهرة التخطيطية التي بدت من عبد الناصر يجب اعتبارها مبدأ اساسيا

يحتفى به، لتثبيت دعائم حكم قادة الانقلابات العسكرية عامة (وهذا ما أخفق
حسني الزعيم في سوريا في تنفيذه بناء على اقتراح ستيفن ميد نفسه) .

٤ - وكان اعتقاد عبد الناصر أن الاعتماد على الجيش ، حتى يقف النظام
الجديد على قدميه ، أمر لا بد منه في كافة أرجاء البلاد ، كما أن استرضاء كافة
السياسيين المتطرفين ، والمفكرين السوريين والمزمتين من كافة الاحزاب
والهيئات ل اظهار تأييدهم للثورة واعرابهم عن أنها أمل الجماهير لتحقيق
الاصلاح والازدهار ، أمر لا يقل أهمية عن السابق . وفي حال منح مسؤولاء
الافراد أي قسط من الحريات فلن يكون هذا سوى هدف لتشكيل واجهة منهم
للراي العام مهمتها تهدئة هياج الجماهير ، وتبرير كافة تصرفات الحكومة
وقراراتها (وعلى أساس اقتصار مهمتهم على هذه الشكليات رفض عبد الناصر
اقتراح قبولهم اعضاء مؤسسين في مجلس الثورة) . واتفقت آراء جميع
ضباط الثورة من رؤساء ومرؤوسين على أن من مهام عبد الناصر تحويل الجيش
الى مؤسسة ذات نظام دقيق وانضباط رفيع (كالتي كانوا يحلمون بها قبل
التحاقهم به) . كما اتفقوا على الوقوف ضد اصحاب الفكر والاضطرابات
العامة وإباحة المحرمات وتفرنج المجتمع والتحلل الجنسي وغيرها من مفاسد
حكم الملك فاروق التي تهدد نظامهم المدلل . أما قيام المظاهرات فقد خشى منه
بعض أتباع عبد الناصر، واعتبروه ظاهرة خطيرة لتحريك المشاعر وتهيجها ،
وبالتالي فتح الطريق امام الهيئات السرية للاستيلاء على الحكم في البلاد . ومع
أن عبد الناصر وقف ضد هذه الفكرة في البداية ولكنه حقيقة لم يشذ عن هذا
المحى من التفكير اطلاقاً .

وفي الوقت الذي اعتبر ميد أن الانقلاب في سوريا في ١٩٤٩ كان قطعة
فنية نادرة من ناحية تنفيذه بدقة متناهية ، فان حسني الزعيم مع الاسف لم
يعثر بعد نجاحه على خطأ الا واستهواه ارتكابه . ولكن الامر في مصر كان
عكس هذا . فلقد نجح انقلاب كان من المفروض أن يفشل لو نفذ في أي بلد
آخر لاطياء عديدة . أما بعد نجاحه فان عبد الناصر التزم بالمبادئ السالفة
الذكر ، وأفلح في توحيد البلاد وإقامة حكومة اتصفت «بالمناعة ضد الانقلابات»
فقد كان عبد الناصر يعتقد أن تقوية مركزه ، وتوطيد سلطة شخصه ، يجنب
اعطاؤهما الأولوية وتقديمهما على أي هدف آخر . وبسلوكه هذا للمسلك ، تمكن

من اتخاذ اجراءات اقلقت يومها المراقبين الغربيين . فدفع عبد الناصر بالعلاقات المصرية - السودانية الى الحضيض مثال لا ينسى على خطته هذه . فقد انتهز بعد ذلك فرصة تردّيها للانقراض على احد ضباطه (صلاح سالم) ، وقام بتحميله تبعاتها ، وتوجيه اتهامات مدمرة لسلطانه ونفوذه ، الذي شعر عبد الناصر بتزايد حدة المنافسة الخطيرة له . واما ستيفن ميد فقد أدرك سلوك عبدالناصر هذا ، ونوّه اليه في أحد تقاريره لواشنطن ، واعتبره أساسياً جدا لبقاء واستمرار أي زعيم انقلاب ناجح ، وعلى الامريكيين أن لا يقلقوا البتة حيال تصرفات كهذه .

ولكن القلق بقي ينتاب المسؤولين عن وضع خططنا في واشنطن بخصوص أفكار عبد الناصر حول « الصفوة المختارة والمؤهلة للحكم فطريا » . وكانت مثل هذه الافكار تصلهم عن طريق هيكل - ليكلاند (بدل طريق ستيفن ميد) ، وتدعي الحق لهذه « الصفوة » في التمتع بنفوذ واسع وامتيازات لا حصر لها ، لكفاءتها العالية ، ولنظرة الشعب اليها على انها « منه واليه » ، فلا يمتقنها بعدئذ ولا يثور ضدها . ولم تكن تطلعات عبد الناصر هذه الى « الصفوة المختارة » في بلده الا على غرار وجود مثلها في كل البلدان المزدهرة والمجتمعات المستقرة ، كما كان يشك بقدرة شعبه على اختيار ممثليه للحكم وتقييم كفاءاتهم . وعودة النظام الحر بدون أي قيد او شرط لا تعني (في نظره) سوى عودة تلك الشرذمة من السياسيين الانتهازيين للحكم ثانية ، التي صبر عبد الناصر عليها كثيرا قبل قيامه بانقلابه العسكري . وتعرّز اعتقاده يوما بضرورة عزلها مهما كانت الامور ، واحلال « الصفوة المختارة » من العسكريين مكانها ، ولكن مع ضرورة ابعاد الجيش عن الشؤون السياسية للدولة . الا أن النمو المطرد لهذه الفكرة كان مصدر قلق لنا ، فهي لن تقلل من فرصة مشاركته لنا كلاعب في « لعبة الامم » (ان لم يكن العكس) ، ولكنها تضعنا في مواقف حرجية أمام الرأي العام الامريكي ، بعد أن اتهمت حكومة الرئيس ايزنهاور بأنها نصيرة الديكتاتوريات العسكرية اليمينية ، واضطرونا يوما للرد على أن تساهلنا معها مؤقتا ريثما يستتب النظام والهدوء في اقطارها ، وأنا لا نفعل هذا الا نتيجة اقتناعنا بزمها على اعادة النظام البرلماني . الا أن تصميم تلك الديكتاتوريات العسكرية الفاشيستية على البقاء ، وتوطيد العزم على ذلك ، كان بمثابة عقبة في

وجه تحركاتنا تمييق مرونة مناراتنا في رسم مخططاتنا . وأما تردد عبد
الناصر في اتخاذ موقف نهائي من شكل التركيب الاجتماعي المقترح لمصر فكان
مصدر ازعاج لنا وخصوصا أنه طلب وقتا أطول للتفكير به ، كما أنه أراد منح
الشعب المصري نفسه فرصة لمناقشته والاعراب عن رأيه فيه . وبعبارة أخرى،
فقد أراد تطوير مكة التفكير عند المصريين في بناء أهدافهم وتحديد مطالبهم
إيجابيا ، ورأى أن منح الشعب حريته قبل الاوان (كما أخبر السفير كافري
بذلك مرة) لا يعني سوى ترك أطفالك في الشارع تحت رحمة الظروف ،
وتحويل البلاد الى ميدان للصراع بين المتطرفين من جهة والسياسيين الانتهازيين
والمرتزقة من جهة أخرى . كما أن افساح المجال أمام المواطنين للتدخل في
طريقة سيره بالدولة المصرية ، بثقافتهم المحدودة وضيق أفقهم في شؤون
الحياة ، لن يسهل له تحقيق أهدافه البعيدة المدى في مجالات السياسة العالمية .
وباختصار ، فقد كان عبد الناصر يطالب بأقصى الحريات لشخصه ، ولأطول
مدة من الزمن ، ليتمكن من تحقيق ما يأمل به، دون أن يمارس الرأي العام أي
ضغط عليه ، أو يفرض أية مراقبة على سلوكه . واقتضى هذا اللون من تفكيره
تركيبا اجتماعيا هرميا : تتمركز « الصفوة المختارة » الحاكمة في القمة نسّم
تليها الفئة الثانية ، فالثالثة ، فالرابعة ، وهكذا دواليك ، على أن تبقى كلها
مترابطة متماسكة مع بعضها البعض عن طريق الوعود تارة ، والمداهنة تارة
أخرى .

وأما ستيفن ميد ، الخبير بدوام الانقلابات وبقاء زعمائها ، فلم تثر هذه
الاعتبارات أي قلق في نفسه أو ازعاج ، ولكنها فعلت عكس هذا في نفس
كيرميت روزفلت ، فعندما أرسل ميد تقريرا الى واشنطن ينوه فيه الى نية عبد
الناصر لاقامة ديكتاتورية عسكرية من وراء تعديل أركان حكمه ، بذل روزفلت
قصارى جهده لاقناع السفير كافري باستدعاء أحد الخبراء في الانظمة العسكرية
في الدول الناشئة وأحد رجال العلوم السياسية فسي وزارة الخارجية
الامريكية لدراسة الوضع في مصر عن كثب ، وكان هذا جيمس ايخلبرغر .
وكان هدف روزفلت أن تساعد دراسة ايخلبرغر للوضع في مصر في تبرير
سياسة عبدالناصر المترعرة أمام الوزير دالس، أو اقناع ناصر بتعديلها ان لم
تخط بموافقة الوزير . وكان هذا مهما لروزفلت بعد أن قدّم توصياته بمنح

مصر مساعدات اقتصادية ضخمة ، وأوشك على تقديم توصيات أخرى بامدادها بالمساعدات العسكرية .

وأما السفير كافري ، فقد طلب من جيمس ايخلبرغر، ان يعمل تحت امرته مباشرة وبمعزل عن كامل جهاز السفارة الامريكية في القاهرة . كما مهد له سبيل الاطلاع على كافة المعلومات الواردة من وزارة الخارجية في واشنطن ومن ملحقى السفارة ومن موظفي وكالة المخابرات المركزية الامريكية ، كما طلب منه أن ينهي دراسته بوضع تقديرات للحالة السائدة في مصر وتقديم اقتراحات بشأن مستقبلها . وبقي السفير كافري يوما ممسكا بزمام الامور ، مراقبا التقارير المرفوعة الى واشنطن بأكملها دون التمييز بين وجهتها (وزارة الخارجية او وكالة المخابرات المركزية او الى بعض المسؤولين فيهما مثل كيرميت روزفلت) ، ومتخذًا بنفسه آخر القرارات والتوصيات .

أما جيمس ايخلبرغر ، فقد عقد محادثات طويلة مع أفراد حاشية عبد الناصر ، العسكريين منهم والمدنيين ، وكان منهم المحرر الصحفي محمد حسنين هيكل الذي قيل انه كان وراء كتاب عبد الناصر « فلسفة الثورة » . فقد برع هيكل في التمييز بين ما يجب أن يكون فلسفة حقيقية للثورة ، وبين ما يجب أن يبقى في حيز الاستهلاك المحلي لالهائ الشعب به داخل حدود البلاد . وسأقت الصدفة ايخلبرغر أخيرا للالتقاء بأستاذ هيكل الصحفي المشهور مصطفى أمين ذي الذكاء المتوقع . فقد كان مصطفى أمين من المعجبين بعبد الناصر ، الا انه أقل افتتانا به من تلميذه هيكل . كما اجتمع ايخلبرغر الى الصاغ صلاح سالم ، وزير الارشاد القومي وقتئذ ، والى كثير من أركان وزارته ومساعديه الذين اتى بهم من الجامعات واتحادات العمال وحتى من بعض الاحزاب السياسية السابقة ، ليُحِثُوا له دراسات حول الرأي العام واتجاهاته . وأخيرا التقى بعبد الناصر نفسه، وتبادلا وجهات النظر حول سلسلة طويلة من المواضيع والمشاكل ، وتمكن خلالها أن يحدد أبعاد ادراك عبد الناصر لسدور القوى السياسية التي تاتمر بأمره وأهميتها في المعركة داخل مصر . وبعد كل هذه اللقاءات والاحاديث، قدم ايخلبرغر سلسلة من التقارير شرح فيها المصاعب والعقبات التي يتوقع أن تواجهها حكومة عبد الناصر ، وحدد الحلول المقترحة لمعالجتها . ونقلت بعض هذه التقارير من الانكليزية الى العربية وأرسلت لعبد

الناصر للاطلاع عليها والعمل بها ، وكان أكثرها أهمية وأجلها شأنًا ما جاء تحت عنوان « مشاكل السلطة والحكومات الثورية » (ويجد القارىء نصه في أول الكتاب) . وبعد نقله للمربية علق عليه عدد من مساعدي عبد الناصر ونقلوه مع الإضافات الجديدة عليه الى الانكليزية ثانية ، وأعادوه لايبخبرغر حتى يعيد دراسته له . وبقي هذا التقرير مدة وهو ينقل من العربية الى الانكليزية وبالعكس حتى انتهى الى صيغة نهائية عرفت في خارج مصر على انها من تصميم واخراج زكريا محي الدين ، اذكى رجال عبد الناصر واعمقهم تفكيراً . ولاقى ذاك التقرير بحالته تلك ، وبالظاهر من معانيه ، قبولا عند رجال النقد والتحليل في وكالة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية وفي بعض الدوائر المختصة التابعة لبعض الحكومات الاجنبية . ومهما كانت قيعة فحواه الفلسفي (وقد استخف ايخبرغر نفسه بالتقرير فيما بعد ، وانكر علاقته به) فقد كان التقرير في حد ذاته ذا اهمية فائقة ، اذ كشف النقاب يومها عن ابعاد تصورات عبد الناصر للعلاقة بين أعمال القمع والشدة في الداخل وبين كسب تأييد الشعب والرأي العام له .

وقد ابلغ السفير كافرّي (وكان كاثوليكي المذهب) ايخبرغر بضرورة مراقبته لمسرح الاحداث في مصر بعين الناقد المحذر . فكافرّي نفسه لم يظهر أي ارتياح لتأكيدات ستيفن ميد أن نظام عبد الناصر أضحى أقوى من أن يطيح به أي انقلاب آخر . وشعر كافرّي أن نظام عبد الناصر قد دخل مرحلة الخطر لمرور عام على وقوعه ، اذ أن الحركات المضادة عادة تظهر بعد مرور عام واحد على الحركة السابقة ، وأن الاحداث تشير الى توقع الخطر من ثلاثة مصادر . اولها : بعض الشخصيات التي عوّلت على النظام السياسي البائد وربطت به مصالحها . وثانيها : بعض السياسيين الانتهازيين الذين يفكرون باغتنام فرصة القلق وعدم الاستقرار . وثالثها : العناصر السياسية الهدامة والمكشوفة كالشيوعيين الذين تظاهروا بتأييد عبد الناصر ولكنهم اخفوا يتحينون الفرصة للانقضاض عليه وتحقيق آمالهم في الحكم . ومع هذا فان اخطارا ثلاثة محددة بالوضع الراهن يومها في مصر ستوقف أي ناقد يتعمد كشف العيوب وانتحال انتشاؤم وهي :

(١) انقلاب عسكري شبيه جدا بانقلاب عبد الناصر يقوم به المارضون

والمنشقون من أفراد حاشيته بالتعاون مع بعض ضباط الجيش والبوليس من ذوي المراكز الحساسة ، (٢) انقلاب عسكري ، ولكنه مضاد للثورة ، يعتمد على عناصر من نوعية شبيهة بعناصر الانقلاب المتوقع آنفا ومدعومة بعناصر سياسية من خارج الضباط الاحرار ، وببداها قدرة السيطرة على الشارع ، وتآليب الجماهير ضد النظام القائم . (٣) تغفل بعض القوى داخل حكومة عبد الناصر تحت ستار الصداقة ومظاهر التأييد ، ولكن بأهداف وغايات على نقيض أهداف وغايات عبدالناصر .

كانت الدلائل والمعلومات الواردة من نظام مخابرات عبد الناصر ، الى جانب المعلومات الواردة في كل من وكالة المخابرات المركزية الامريكية والمخابرات البريطانية ، تشير الى أن الخطر الاول ذو احتمالية ضئيلة . في حين كان الخطر الثالث يدفع كلا من السفير كافري واينلبرغر الى اعتباره الخطر الوحيد الذي يجب الاحتياط له ، كما أنهما أثارا الانتباه الى الاحتمالات التالية : تحريف خبيث لبرنامج الحكومة الجديد يرتكبه أحد كبار الشخصيات الموالية لشخص عبد الناصر ولكنها تعارض آرائه وافكاره ، أو تخريب عام لمخططات الحكم يقوم به رجل من نفس الطبقة والمستوى ، ولكن من الذين يشك في ولائهم لعبد الناصر ، أو تسلل الى جهاز الحكومة ، وتغفل فيه ، لا للضغط عليه والتأثير على خطواته بل لاضعاف قدرته على الامساك بزمام الامور ، والسيطرة على أركان الدولة ، مما يؤدي الى قيام حركات ضده بهدف الاطاحة به .

ولم تكن نزعات ضباط عبدالناصر للشهرة ، وحبهم للظهور ، أقل خطرا من العوامل السابقة . أما اينلبرغر فقد أشار في أحد تقاريره المرفوعة للسفير كافري الى ما يلي :

« ان عبد الناصر نفسه غير واضح الافكار والاتجاهات . وأدركت من خلال أحاديثي مع كل من صلاح وجمال سالم وغيرهما من أعضاء مجلس الثورة أنهم يسلكون في سياستهم مسالك الانحراف والمساومات . كما أنهم فقدوا اقتناعهم بقدرتهم على السيطرة على أجهزة الدولة أو استمرارهم بسياسة القمع والشدّة . ومع أن نزواتهم لا تتعدى حب الهتاف والتصفيق لهم ، فإن الطرق

التي يسلكونها لتحقيق هذا ، سوف تثير في النهاية أزمة نفسية مستعصية في ادارة شؤون الحكم . أما اذا حاولوا أن يبسطوا سيطرتهم على الحكم من خلال ارضاء فئة حيناً ، وأخرى حيناً آخر ، فان العاقبة ستكون وخيمة جدا . وستوضع على الرف أفكارهم ومبادئهم حول تقدم البلاد وازدهارها وستبقى الاوضاع تحت رحمة الاقدار وفي مهب الرياح . ولن يمضي وقت طويل حتى يدرك الجميع افلاسهم الفكري وفشلهم الذريع ولن يحالفهم الحظ بعد ذلك في مغامراتهم وسيجدون أنفسهم بعد فوات الاوان مضطرين الى اللجوء الى أساليب القمع والشدّة التي طالما يتندر بها عبد الناصر . وأما النتيجة الحتمية لكل هذا فهي قيام حكومة مستبدة تتسكع أمامنا بكل بشاعة وقذارة .

ولكن ايخبلرغر لم يقدر عبد الناصر حق قدره، ولم يدرك أن الاخسير قد فهم خطورة « الشعبية الزائفة » وزيفها ، فلم يَسَح لها الا بعد ان رسخ دعائم سلطته ووطد أركانها . ولم يتخذ عبد الناصر طوال سنين حكمه (وحتى عندما كان في أوج شعبيته) عن شعوره بضرورة الاحتفاظ – على الاقل – بالقدرة على استعمال وسائل القمع عندما تقتضي الضرورة ذلك . وفي أواخر أيام (مايو) ١٩٦٧ اعترف عبد الناصر أمام أحد الدبلوماسيين الاجانب بقدرته على حكم البلاد وادارتها بنفس الطريقة التي يحكم بها « بابا دوفاليه » جزيرة هايتي (في الكاريبي) اذا ما اضطر لذلك ، ولكنه يأمل أن لا يضطر الى سلوك تلك المسالك .

أما ظهور الانحرافات ، وازدياد المساومات ، في نظام الادارة بعد الانقلاب ، فلم يكن نتيجة شكوك عبد الناصر بأهدافه وغاياته بقدر ما كان نتيجة تروده حيال انجازها والوصول اليها . ولم يدرك مراقبو عبد الناصر يومها حقيقة أهدافه حيال شكل حكومته . فهو لم يفكر اطلاقا في أن يطور حكومته الديكتاتورية الى أخرى برلمانية ، وانما أراد تجاوزها عن طريق الادعاء بوجودها ومن ثم ينتقل الى صيغة بونابرتية يحكم فيها بتفويض من الشعب يحصل عليه عن طريق الاستفتاء أو ما شابه ذلك . وفي بلد كمصر ، فان تحقيق هدف كهذا يستلزم وضع مخطط معقد ، لكنه على جانب كبير من الخبث والدهاء ، حتى ليبدو للناس الساذج مضطربا ، وغير واضح الا أنه يكون في حقيقة الامر لهي منتهى الجلاء والتركيز في مخيلة عبد الناصر وتفكيره .

وفيما يخصنا نحن الامريكيين ، فكل ما نطمح اليه لا يتعدى المشور على لاعب ملائم وماهر ، يشاركنا الجلوس الى طاولة « لعبة الامم » ويؤدي دوره بكل انسجام وهدوء . فعلى صعيد السياسة الداخلية ، لم تكن لتتدخل في قرارات عبد الناصر وتصرفاته اطلاقا ، ولم تكن تعيننا شيئا طالما انها لا تضع مخططات سياسته الخارجية موضعها يتعارض مع سياستنا الخارجية ، ويعرض مصالحنا للخطر . وليس لنا أن نوجه أي انتقاد لعبد الناصر بخصوص طريقة توطيده لدعائم سلطته الداخلية ، واتباعه أساليب بونابرتية . فقد كانت وجهة نظره حيال أصدقائه الامريكيين ترتكز دائما على قوله المشهور : « اذا كنتم تعاونون وسائلتي للوصول الى أهدافي فلا تتلكنوا في اقتراح وسائل أفضل . . انني - على الاقل - سأصفي الى ما ستقولون . . » ولم نفكر أبدا بامتحان اخلاصه هذا سوى لانه لم يخطر ببالنا طرقا أفضل ، ووسائل أنجع ، ليسلكها بدل وسائله ، ويستخدمها لتحصيل ما يخططه لنفسه .

الطراز الناصري للحكم ووسائل القمع

... وكان بقاءه على مسرح الاحداث معنا أول اهدائه ، مهما كان الثمن .

كم طرح علي ذلك السؤال عبر السنين والايام ، ولم يتغير جوابي عليه او يتبدل : « لنفترض جدلا، أن القدر أحاط عبد الناصر بظروف ما ، وأوصدت دونه جميع الابواب الا اثنين : اما بقاءه في السلطة ودمار البلاد ، او خروجه منها ونجاة البلاد ، فايهما يختار ؟ » ولم يكن جوابي دائما سوى : « ليس لنا خيار في الجواب ، ففي تحليلنا لواقع أي زعيم من فئة عبد الناصر ، يمشق السلطة حبا في التسلط ، يتبين لنا أنه سيفعل كل ما في وسعه للبقاء فيها ولو أدى ذلك الى انهيار البلاد اقتصاديا ، أو دخولها حربا خاسرة متقطعة مع عدوتها (اسرائيل) » . و اذا كان الحاكم يونابرتي الطراز ، فان مبررات استئنائه بالسلطة ستبقى قوية على امد الدهر ، ولن يتزحزح قيد أنملة عن اعتقاده بأن أسوأ الكوارث والنكبات لن تفلح في طي صفحة ذلك التفويض الذي منحه اياه الشعب في يوم من الايام . ولن يجرا انسان على تجريده من السلطة والاطاحة به . وهذا ما حصل تماما أثناء الحرب العربية الاسرائيلية في عام ١٩٦٧ : فلقد كانت اسوأ كارثة عرفتتها مصر في تاريخها الطويل ، كما كانت أعظم فرصة لاعداء عبد الناصر لينقضوا فيها عليه ويطيحوا به . ولكنها مرت ، وانقضت ، وخرج منها عبد الناصر أقوى مما كان عليه في أي يوم مضى .

ولربورت ميشلز كتاب طريف حول « ظاهرة عقدة السلطة عند الزعماء » أو ما يسمى باليونابرتية . وفيه يسرد بعض خصائصها مثل « الاستمالات النفسية » التي يمر بها بعض القادة مثل عبد الناصر . فنتيجة لتمتعهم بسلطات واسعة ، يمتلكهم شعور جامع بازدياد أهميتهم وقيمته أشخاصهم ، وحاجة الجماهير الملحة لقيادتهم . وهذا يورثهم نوعا من الشعور بالتفوق والعظمة . والحقيقة أن كل من يتربع على عرش السلطة ، يشعر بالحاج

مستمر لتجميع أقصى ما يمكنه منها في قبضة يده ، ولبسط نفوذه على أوسع رقعة من الأرض ، ولضاعفة الاسوار التي تحميه ، والنجاة بنفسه بعيدا ما استطاع عن رقابة الجماهير .

ولقد كان احتكاكي بعبد الناصر على مر السنين أكثر من أي انسان غربي آخر . ومع أنني لا أزال أملك حرية زيارته ، والتحدث اليه ، حتى الآن في ظروف مريحة ينطلق فيها على سجيته مرة كل شهر أو شهرين ، الا أن الظروف لم تعد لتسمح بتكرار تلك الزيارات العابرة التي اعتدت أن أفاجئه بها حيث كنت نتناول معا طعام الغداء . ومع أنني كنت أزوره أحيانا لانجز مهمة لرفيق، أو تكليفا - رغم أنني - من طبيب نفساني أو عادي أو مسؤول في وكالة المخابرات الأمريكية لأتحري لهم أية بوادر انهيار في صحته أو انحراف في تفكيره ، فان الطابع العام لزياراتي له كان طابع صداقة وألفة . ولم أكن في يوم من الايام هاويا لادراك ما وراء الوجوه التي اعتادت أن تخفي ما يجول في خاطر أصحابها وتظهر بغير حقيقتها . وان كان في نفس أي انسان حاجة ليعرف رأيي عن نفسية عبد الناصر وحالته الراهنة ، فلن أتردد في القول انه - بعض النظر عن سياسته معنا - لا يزال يتمتع بكامل قواه العقلية ، ولم يفقد شيئا من قوتها ومرونتها . أما بخصوص سياسته معنا ، فرأيي صريح : أن ما يحل - عاجلا أم آجلا - بالزعماء من طراز عبد الناصر لا بد وأن يحل بعبد الناصر نفسه . فمهما كانت قوة تحمله الشخصية لضغط التملق والمداهنة ، أو الولاة الاعمى والخوف منه ، فإن الاسوار الفاصلة بينه وبين العالم الخارجي غدت أكنم من المعتاد ، فلا ينفذ منها في هذه الايام الا ما يشهد عصمته وخلوده ، ويؤكد ضرورة بقائه حاميا لامجاد الثورة والتحرر . وحتى لو كان ناصر من أكثر الناس عبرية ، وأقواهم شخصية ، وأشدهم متانة ، وأحد هم ذهنا ، فمن المستحيل عليه أن يبقى محتفظا بنفس مركزه السابق بينما يمثل أدواره في مسرحيتنا « لعبة الامم » ، أو أن يبقى دون أن تكتفه الاشواك التي قلما تترك زعيما من نوعه بدون أن تتشابك حوله لتطويقه والقضاء عليه . وفي الوقت الذي يفترض خصومه أنه يقوم بمناقشات معتزلة محسوبة على ضوء ادراكه لما يجري على رقعة اللعب ، الا أن ادراكه هذا قد زاغ وضل حقيقة . أما كيف حصل ذلك فانه سيبقى لغزا محيرا . ان عبد الناصر لن يتمكن على الأرجح ،

بعده اليوم ، من رؤية مفارق الطرق عند وصوله اليها : مجد شخصي ودمار للبلاد ، أم تنح عن السلطة ونجاة للبلاد .

وكان اول ما يبدأ به لضمان الحكم واستتباب السلطة هو توفير وسائل القمع ، - كما جاء في تقرير ايخلبرغر . فلو كان تصور عبد الناصر للقيادة ليس أكثر من مجرد بقاء في طليعة الفوغاه اينما حلت وارتحلت ، فان الامر ليس صعبا . وعندها تعتمد حلول القضية على تحركات وتنقلات مزخرفة أكثر مما تعتمد على دور القيادة الحقيقية . الا أن عبد الناصر قد رأى أنه - ببركاتنا ورضانا - سيتمكن من البقاء في القيادة طويلا وبدون صعوبة . وكل ما كان عليه أن يفعله وقتئذ هو أن يتعرف على آمال الجماهير وأحلامها ثم يهتف بها بأعلى صوته دون منافسة احد له . ولكن « لتكون زعيما صالحا » فان الامر أكثر مشقة وعسرا . انه عليك هنا أن تدفع الجماهير الى أن تتشوق وتطمح الى ما يفيدها ويصلح أحوالها . وعلينا أن نتذكر ، للمرة الثانية ، نقطة مهمة في مقامنا هذا وهي : ان الهدف الرئيسي من دعمنا لعبد الناصر هو رغبتنا في توفير زعيم في بلد عربي رئيسي يتمتع بنفوذ قوي على شعبه وعلى بقية العرب وله من القوة ما يمكنه أن يتخذ ما شاء من القرارات الخطيرة وغير المقبولة عند الفوغاه - مثل عقد صلح مع اسرائيل . واستنادا الى قواعدنا المدروسة وقواعد عبد الناصر ، فان استتباب النظام ورضوخ الامة أمر يجب تحقيقه ولو اقتضى الامر استخدام القوة واتباع أساليب البطش والارهاب .

ولم تكن هذه مواقف وقرارات مطلقة وقطعية لا تقبل الاخذ والرد على طريقة « الكولونيالات » اليونانيين (بعد عدة سنوات) . فقد كان عبد الناصر يفكر بالقضية ويناقشها مع ضباطه وكبار سياسيي عصره ، ثم لا يلبث أن ينقل اهتمامه هذا وقلقه الى أصدقائه في الغرب الذين كانوا سرعان ما يتجاوبون معه بخصوص اصراره على ضبط النظام واحترام القانون . وكان تفكيرنا يعزى الى رأي عبر عنه الديبلوماسي الليبرالي جون دافيس بقوله : « ليست المشكلة مشكلة كون الحكومة ديكتاتورية أو برلمانية دستورية ، ولكن المشكلة هي قدرة الحكومة مهما كان نوعها على توحيد المجتمع وجعله متماسكا متراسا بصورة تتمكن من الانتقال معه الى مراحل متقدمة للرقى والازدهار » . ولكن الجزء الآخر من تفكيرنا كان ضعيفا وركيكا . فلقد ظننا أن جميع وسائل القمع

والبطش بما فيها الجيش والبوليس وأجهزة المخابرات ستكون بجانبنا ، في حين ستتجه القاعدة الشعبية لعبد الناصر وجهة يسارية لعدة أسباب . والتقرير الشهير بـ « مشاكل السلطة والحكومات الثورية » يشرح كيف حققنا بعض التوفيق بين وجهات النظر المختلفة .

واستنادا الى هذا التقرير (أو بعبارة أخرى ، استنادا الى « الذوق العام ») فقاعدة القمع التي تعتبر ركيزة الحكومات الثورية للبقاء ، يجب أن تعتمد على المؤسسات التالية : التشريعات ، البوليس (قوى الامن الداخلي) ، أجهزة المخابرات الدقيقة ، أجهزة الدعاية ، القوة العسكرية أو الجيش . ومن الأهمية بمكان اعطاء لمحة عن تطورات هذه المؤسسات وكيفية تصميمها .

● التشريعات :

لا يختلف اثنان ليبراليان على ضرورة بقاء الاحكام العرفية لفترة ما بعد استلام الحكم نتيجة انقلاب عسكري . كما أنه من الضروري اتخاذ الخطوات اللازمة لاستئصال شأفة الفساد واقتلاع جذورها من جميع مؤسسات الدولة واداراتها ، لان ذلك هو السبب الرئيسي لقيام مثل ذلك الانقلاب . ولهذا ، فللنظام الجديد اذن الحق في ممارسة السلطات التشريعية ليتمكن من كشف الخطر وتحديد مواطن الفساد ، وبالتالي ليتمكن من فرض اجراءات رادعة وعقوبات زاجرة . وهذا ما فعله عبد الناصر بتشريعاته : فقد حدد مهمة البوليس وأجهزة المخابرات والمباحث وأعطاهما حرية التصرف المطلقة والاخذ بزمام المبادرة في الكشف عن كل مؤامرات الاطاحة بنظام الحكم والتحريض على أعمال العنف ، والاباحة بأسرار الدولة ، وكل ما يشتبه بأنه ميول لارتكاب مثل هذه الجرائم . وكانت هذه التشريعات تصدر على الامة بشكل مراسيم وأوامر صادرة من مجلس قيادة الثورة وفي صياغة جيدة واسلوب محكم . ولقد وصفها المستشار القانوني للسفير كافري بأنها من الدرجة الاولى ، وفريدة من نوعها في مثل هذه البقعة من العالم . وقد فاقت مثيلاتها في فرنسا . ولكن الطريقة التي اتبعت في تنفيذ التشريعات قد وضعت نظام عبد الناصر في مهب رياح النقد والتشهير التي ما تزال صاحبة حتى يومنا هذا . ويوجهها بعض المصريين المنفيين في سويسرا وأماكن أخرى . وقد كان الافراد يعتقلون

بدون أن توجه اليهم أية تهمة ، وكانت الممتلكات تصادر ، وخضعت المطبوعات كلها للمراقبة . وقد نفذ كل ذلك بطريقة منتظمة ولكن بدون أن تكون العلاقة بينها وبين التشريعات واضحة بينة . وقد أطلق سراح بعض المعتقلين ، وسمح لهم بمزاولة نشاطهم السياسي السابق ، بل وشُجعوا على ذلك . ورفضت أوامر المصادرة عن بعض الاملاك ، ورفضت المراقبة عن الصحف عندما لم يعد ثمة حاجة اليها . ولكن لم تمض أسابيع قليلة على موجة اطلاق الحريات هذه ، حتى عاد الاضطهاد والكتب مرة ثانية ، وعادت الاعتقالات بصورة أكثر ، وكذلك مصادرة الممتلكات ومراقبة المطبوعات . واستمر عدم الاستقرار : مرة اطلاق للحريات ثم يتلو ذلك موجة من القمع والشدة ، حتى اضطر بعض أصدقاء عبد الناصر من المراقبين الغربيين للاعتقاد بأنه يمارس نشر الرعب والفرع في أرجاء البلاد بصورة تهدد نظامه كما لم يكن شك هناك أنه قد ولد تأثيرا سيئا على العالم الخارجي . وبدأت غالبية السفارات الاجنبية تردد شكوكها حيال احتمالية قيام ديكتاتورية عسكرية فاشستية في مصر . ولم يكن قلق (وخرج) السفارة الامريكية يسبب اشمئزها من أعمال الاعتقال ومصادرة الممتلكات وتكليم الصحافة ، بل ، كان بسبب الطريقة التي ترجمت بها الحكومة تلك الاعمال للشعب . وهكذا نشأت علاقة متردية بين الحكومة وشعبها . وقد تجلّى الخلاف بين المفهوم الليبرالي للتشريعات ومفهوم عبد الناصر في أن المفهوم الليبرالي يعتبرها وسائل سلبية ومجموعة أنظمة يبقى الانسان خارج السجن اذا لم يتحدّها . في حين كان عبد الناصر يعتبرها شيئا ايجابيا ، بمعنى أنها المبررات لتصرفاته وقراراته - التي ستطيل عمر ولايته على الشعب - ضد بعض العناصر المعروفة في المجتمع المصري ، تلك العناصر التي لا يمكن أن تبقى مسالمة له ومهادنة لنظامه ، ولن ينتهيها عن عزمها على الاطاحة به مهما كانت ميزات ناصر وحسناته وسببى عداؤها لنظامه قائما وان تظاهرت بعكس ذلك . وكان يعلم هذه الحقيقة المؤلمة السفير كافري ، وبعض أعضاء سفارته ، لما كان لهم من صلوات مع بعض تلك العناصر . كما كان يعلم هذا تمام العلم عبسد الناصر وجميع الجماهير المصرية . وهكذا فان التطهير الذي قام به عبد الناصر لم ينشر الذعر والخوف . ولقد قال مرة أحد ضباط الامن المواليين له « ان اولئك الذين لهم العذر في أن يخافوا قد عزلوا مدنيا » .

● البوليس - قوى الامن الداخلي :

لم يكن للبوليس أي دور في الانقلاب ، ولم يكن الا لواحد أو اثنين من كبار ضباطه علاقة بسيطة مع زكريا محي الدين رئيس جهاز المخابرات العسكرية . ولكن رجال زكريا قد تغلغلوا في البوليس جيدا ، وساعدوا في القيام بحملة تطهير بعد الانقلاب مباشرة . وقد استلم عبد الناصر وزارة الداخلية واعتنى بالبوليس بشكل خاص بعد تسريح ثلاثين أو أربعين ضابطا ، وحوالي مئة من رجال البوليس المشكوك في ولائهم . وفي غضون أسابيع أصبح البوليس جهاز أمن قوي أحسن من أي وقت مضى ولم يعد مصدر خطر على النظام الجديد .

ولم يكن جهاز المباحث في وزارة الداخلية يدار من قبل أحسن العقول في البلاد وأنظفها ، بل كان (كثيره من أجهزة الامن الاخرى) يعاني من عقلية ذاك الصنف من البشر الذي تقوده نزواته للالتحاق بأجهزة الامن عامة . فقد أخبرني مرة أحد ضباط عبد الناصر في أجهزة الامن قائلا : « اننا نتصرف على أساس أن الشعب كله موال للنظام وذلك ليعلم الجميع أننا على استعداد للمعاملة من يشك بولائه وإخلاصه بمنتهى القسوة » .

وعندما يعلح انسان ما ، في استنباط وسائل تقنع بعض الرجال من ذوي حساسيات الطف ليصبحوا ضباطا في الامن العام ، فسوف تختفي كل الوسائل البشعة ولن يفد ليسمع بها عبد الناصر أو مستشاريه الامريكيين . وأكثر ما كنا نامله هو تحقيق القسوة في اجراءات الامن وزيادة المراقبة والمتابعة .

أما المراقبة (عمل المباحث) فكانت تجري عن طريق نظام « عيسون المدينة » الذي ورثه عبد الناصر عن المهدي البائد وقد مضى على وجوده في مصر عدة قرون . لكنه نظام غير فضولي . فقد قام أحد رجال وكالة المخابرات المركزية - وسابقا أحد رجال مكتب المباحث الفيدرالي - وهو خير في شؤون المراقبة المباحثية ، بالتجول من أقصى مدينة القاهرة الى أقصاها ، وأقسم أنه لم يكن تحت المراقبة ولا حتى لدقيقة واحدة . ولكن أحد ضباط الامن طمأنه الى أن جميع تحركاته ومكالماته الهاتفية وكل اتصالاته قد سيجلت وضبطت .

والسر في هذا بسيط : فالبوابون ، وسائقو التوكسيات ، وعمال التلغرافات ، والشحاذون ، والبايعون الجوالون ، وغيرهم يعلمون أنهم سيتمنحون بضممة قروش مقابل اعطائهم أية معلومات لرجال الامن الذين يستفسرون منهم عن اجنبي عبر منذ لحظات . ان اشخاصا كهؤلاء يشغلون الاحياء المتفرعة حول احسن الفنادق وبعض الاماكن الاخرى حيث يتجمع الاجانب عادة ، ولقد احسن اليهم كثيرا في الماضي ، واجزل لهم المطء ، حتى أن مواهبهم قد تحسنت ، وقويت ملكة الملاحظة والمراقبة عندهم الى جانب نمو ذاكرتهم وقدرتها الفائقة على تمييز التفاصيل التي عادة ما يهتم بها البوليس السري .

● اجهزة المخابرات اللقية :

لم يشفا عبد الناصر منصب وزير الداخلية اكثر من اربعة اشهر . وقبل أن يتركها لخليفته زكريا محي الدين ، اذكى وامهر ضباطه ، والذي كان وقتئذ رئيس المخابرات العسكرية ، نظم كلا من جهاز المخابرات والمباحث العامة ووضع كافة التفاصيل لهما . ثم ادخل عليها زكريا بعض التحسينات ووضعها قيد العمل . وقد كان قسم المخابرات العامة يقبع في قمة الهرم (وقد أسس على غرار وكالة المخابرات المركزية الامريكية) والحق به بعض الضباط الاحرار الذين كانوا تحت امره زكريا أثناء فترة ما قبل الانقلاب . وكان عديد منهم من ذوي الكفاءات العالية والقدرة التنظيمية الفائقة ، ولم تقل اهميتهم بعد الانقلاب عنها قبله ، (ومنهم حسن بلبل وكيل وزير الخارجية للشؤون الادارية ، وفريد طولان محافظ بور سعيد ، وحسن التهامي السفير في النمسا سابقا ، وسعد عفرة السفير في بولندا ، وغيرهم كثير) . واتباعهم الاساليب الامريكية في هندسة الادارة فقد بنوا الوكالة الجديدة على أنها الرأس والمهيمن المنسق ، وبعدها المباحث العامة لوزارة الداخلية ثم مخابرات الجيش على أن يكون كل واحد متمماً للاخر رساعده الايمن . واخيرا انشأوا (النظام الخاص) للمخابرات والتحريرات المتصل مباشرة بالمخابرات العامة العليا . وكان بعض هذه الدوائر يختص بالمسائل الخارجية مثل تدريب رجال حرب العصابات ، والتجسس على اسرائيل ، وخطف العملاء المزدوجين ، الذين يعملون مع اسرائيل او مع العربية السعودية ، مخدرين في صناديق ، من روما الى القاهرة ، وغير

ذلك • ولكن اغلب تلك الدوائر كانت بهتم بمعالجة شؤون الامن الداخلية •
والى جانب أجهزة « عيون المدينة » ذات الفعالية الجيدة ، فقد اضافوا الى ذلك
أدوات وطاقت علمية للمراقبة • كما أنهم اشتروا سلسلة كاملة من الاجهزة
الاليكترونية صنعتها المنظمات الامريكية للتجسس ومكافحة التجسس •
واستعانوا بعدد من ضباط المخابرات الالمان النازيين (وزاد عددهم فيما بعد)
ليدربوهم على استعمالها • ولكنهم غرقوا في طوفان من المعلومات والأخبار ،
وأضحى تصنيف ذلك والاستفادة منه بطيئا جدا ، ان لم يكن بدون فائدة •
وعندما أدركوا أن مراجعة ومراقبة الاشرطة المسجلة يحتاج الى وقت يساوي
تماما الوقت الذي استغرقه تسجيل المحادثات عليها مع كل التفاصيل المملة ،
كان قد تكسب عندهم أكواما كبيرة من الاشرطة - دون مراجعة - في أقبية
المخابرات العامة ومباحث وزارة الداخلية ، ومضى وقت طويل حتى تعلموا كيف
يهتمون بالخطر ويشركون الفتح الضعيف • وفي عام ١٩٦٠ أصبح لديهم من
الوسائل ما يمكنهم من تركيب الميكروفونات الدقيقة في أي من الفنادق أو موائد
الضباط ، في البيوت الخاصة أو السيارات الخاصة ، في القاهرة والاسكندرية •
كما أتقنوا التنصت على المحادثات في الشارع عن بعد ، والتصوير عن مسافات
بعيدة وفي الليل • ولكن بناء على العاح وزارة السياحة ولعقبات كثيرة من
الناحية العملية (مثل الوقت الطويل لمراقبة الاشرطة وقدرة المترجمين) فقد
اقتصرت استعمال هذه الفنون على الحالات الخاصة والهامة والى حد يكفى للكشف
عن مصادر الخطر على العهد الجديد •

● وسائل الدعاية :

كان موضوع الدعاية مجال خلاف كبير بين الامريكيين - وخاصة السفير
كافري واينخلبرغر - وبين عبدالناصر • فعبد الناصر نفسه لم يكن ذا ماض
عسكري عريق حتى يشكل عنصر دعاية • ولم يكن حتى ليدرك العقبات التي
تعترض اتصاله بالشعب مباشرة • ولكنه بنفس الوقت أدرك حذر نشره دعايته
في أوساط شعبه ، كما أدرك مدى تقصيره فيما كان يجب عليه فهمه منذ حين ،
وما يجب عليه أن يتصرف به من حذر وخبت تجاه الرأي العام الخارجي •
فاينخلبرغر (الذي كان يوما ما المسؤول عن تنفيذ التقارير في أضخم مؤسسة
للدعاية والعلاقات العامة في العالم والتي يملكها « ج - والتر طمسون ») قد

توصل الى أن الانسان يجب أن يتقرب الى غيره أو الى الجماهير عن طريق مصالحتهم هم وليس عن طريق مصلحته الشخصية . ولقد اعترف عبد الناصر يومها بأنه جاهل بأصول التقرب الى الجماهير المصرية . ولكنه كان مقتنعا بأن ذلك يجب أن لا يتم عن طريق مصالحة الخاصة . وكان يشك في أن يكون عامل التقدم الحضاري ذا نتيجة جيدة في تقرب الثورة من الجماهير .

وكوسيلة للقمع في الفترة التي كان فيها عبد الناصر يجمع قوى الانقلاب ، كان التفكير منصبا على خط ثانوي ، وهو مسألة مراقبة المطبوعات . وسرعان ما ثارت المشاكل بسبب انعدام خبرة المراقب العسكري التابع لعبد الناصر - وهذا ما كان متوقعا . فقد أثار ذلك حفيظة المراسلين الاجانب لايقاف رسائلهم وحذف كل ما يثير الشك من عباراتها . وكان ذلك في غاية الازعاج للامريكيين الاصدقاء الذين حرصوا على أن يكسب العهد الجديد الصحافة الى جانبه . وكان هذا مثبطا لعزائم المراسلين المصريين الموالين لنا وذوي القدرة الكبيرة على صياغة وسبك التقارير . فقد كانت مساعدتهم لنظام الحكم ضرورية لايراز صورة الثورة جذابة ومشوقة للرأي المحلي ، وللعالم العربي ، بل وللعالم كله . وكان هذا عملا صعبا وعلى جانب كبير من الدهاء والخبث .

ولقد عولجت المسألة على الطريقة التي اعتاد أن يسلكها أي نظام من طراز نظام عبد الناصر فقد جرى تصنيف المراسلين الصحفيين في قائمتين : الاولى ، تحوي الموثوق بهم والذين سيرسلون تقارير لصالح الثورة . والثانية ، تحوي الصنف المعاكس للاولى . وبناء على ذلك فقد أعطيت اللانحة الاولى مطلق الحرية وحرمت الثانية من أي منها . وانتبهت الحكومة الى مشكلة المراسلين الاجانب الذين لم يتخذوا بعد مواقف صريحة من الثورة ، فعمدت الى الاحتفاء بهم ، ومن ثم زودتهم بمعلومات لها تأثير لا بأس به عليهم ولصالح الثورة . وهكذا انقلبت قضية مراقبة النشر والصحافة الى مسألة روتينية امتدت حتى الحرب العربية الاسرائيلية في عام ١٩٦٧ ، باستثناء بعض الشطط العارض بسبب عدم كفاءة المشرفين عليها . وهكذا فلم تكن مراقبة المطبوعات جزءا من وسائل القمع عند عبد الناصر سوى مدة وجيزة وذلك لاتباعها بعدئذ القاعدة الروتينية المبينة

على

اما الدعاية الموجهة من قبل الحكم ، فقد كانت منصبةً وبكثرة على اعداء النظام لكشفهم ، وتسليط الاضواء على مساوئهم ، ولتبرير الاجراءات التمسفية التي كانت تتخذ صدهم . ومن أبرز الامثلة على ذلك اقدام الاخوين علي ومصطفى أمين (اللذين كانا يملكان أضخم دار للنشر في القاهرة ، اخبار اليوم) على نشر اعلان وعدا فيه بتقديم المكافآت للذين يخبرون عن قصص الفساد في الحكم البائد أو في حياة البلاد السياسية . ولقد أتاحت هذه القصص للاخوين أمين وحسنين هيكل وغيرهم اغراق صحفهم بمثل هذه القصص الدراماتيكية ، مظهرين شرور النظام البائد مع ذبوله ، والحاجة الى اجراءات قاسية لاستئصاله وطمس آثاره نهائيا .

وبارك الامريكويون هذه الخطوات الى الحد الذي دعا السفير كافرني الى اعادة النظام المصري اعظم الاختصاصيين في الدعاية السوداء والرمادية (١) وهو « باول لينبارغر » الذي كان مسؤولا عن الدعاية في مكتب الخدمات السرية الامريكي أثناء الحرب العالمية الثانية . وكان يذيع ما كان يظهر أنه المانسي ولصالح الالمان ولكنه في الحقيقة كان مثبطا لعزائم الالمان ومحطما لهمسم . وقام لينبارغر بتعليم المختصين بالدعاية من المصريين كيف يقومون بتحطيم الشخصيات المحبوبة (ومنها اللواء نجيب على سبيل المثال) بطريقة مدسهم والثناء عليهم . ولا يزال هذا الاسلوب متبعا حتى اليوم من قبل الغربيين في سياسة العالم العربي .

● الجيش :

اننا في غنى عن القول أن الجيش المصري كان حصن عبد الناصر

(١) الدعاية البيضاء : مصدرها معروف وغالبا أجد الاجهزة الحكومية .

الدعاية الرمادية : لا توضح أي مصدر .

الدعاية السوداء : تدل على أنها تنبعث من أي مصدر غير المصدر الحقيقي ، ويشترك هذا النوع من الدعاية مع عمليات الحرب النفسية السرية المضطاة .

الحسين وقاعدة قمه المنيعه . وقد تمكن عبد الناصر من ذلك عن طريق تاكده من عدم وجود أي شخص ذي طموح سياسي أو اتجاهات ثورية في مركز حساس (أو في أي مركز على الاطلاق) . أما ضباط عبد الناصر ذوو الطموح السياسي المعروف فقد أخرجوا من الجيش واسندت اليهم مناصب مدنية ، اما شكلية أو مهمة . ولكنهم في كلتي الحالتين اما أن يكونوا أهلا للمنصب الجديد أو أن يتحطموا ويظهر عجزهم عن الادارة . اما الضباط الذين ما زالوا ينوون القيام بانقلاب جديد ، أو أولئك الذين أظهروا امتعاضهم لاقتصاصهم عن مراكز القيادة في الثورة ، أو أولئك الذين ما زالوا يدينون بالولاء للنظام القديم ، فقد أعطوا الفرصة تلو الفرصة كي يتآمروا ، وبالتالي ليحكموا على أنفسهم بالاجرام أو أنهم كانوا يستدرجون الى ذلك عن طريق بعض المحرضين المدسوسين ليقتلوا بعد ذلك من قبل البوليس السري .

وبقي هناك الضباط الذين لا غبار على سلوكهم ، ويمكن أن يخضعوا للنظام ويضمن ولأهم عن طريق ارضاء رغباتهم ، كمنحهم بعض الامتيازات لرفع مراكزهم وبعث الفخر في نفوسهم ، الى جانب بعض العلاوات والتسهيلات التي لا تضر وطالما أنهم غير ناثرين ضد علاقة عبد الناصر بأصحاب الفكر واليساريين وأشخاص آخرين غير مرغوب بهم (أو بالاحرى طالما انه لا يترك لهم الوقت الكافي ليفكروا بمثل هذه المسائل) فلا مانع من اعتبارهم قوة موالية يعتمد عليها إذا ما دعت الحاجة لذلك . أما بحث موضوع المساعدات العسكرية الغربية والسوفييتية فسيكون في فصل لاحق . وتجدر الإشارة هنا الى وجهة النظر الامريكية بخصوص استخدام عبد الناصر للجيش كقوة للقمع فهي تقول : عندما طلب عبد الناصر في الايام الاولى من حكمه مساعدات عسكرية ، لم يكن هناك أي بحث في أن تكون هذه المساعدات لاهداف قتالية عادية مثل قتال الاسرائيليين أو اليمنيين أو غيرهم كما لم يكن هناك أي بحث في أن تكون كميات السلاح ضخمة أو فوق المتطلبات الداخلية المحضنة . فلقد أكد عبد الناصر بوضوح لجميع السفراء الامريكيين أن نظامه يعتمد على الجيش لضمان بقائه . وأنه يعتبر أي جيش رث الثياب مهلهل المظهر جيشا تفوح منه رائحة العداة والتوتب . وقد طالب عبد الناصر في أيامه الاولى بأربعين مليوناً من الدولارات كمساعدة عسكرية وما لبث أن اختصرها الى عشرين مليوناً

دولار ، ثم مسخت الى مليون او مليونين من الدولارات لتغطي شراء أجهزة
والهواتف للاستعراضات العسكرية كالخوذ وقرابات المسدسات الجلدية وقطع
براقة من مختلف الانواع تكفي لاطهار الجيش بمظهر جميل عند استعراضه في
شوارع القاهرة وبحيث تعكس على الضباط والجنود الشعور بالاعتزاز والفخر .
وكما سأشرح فيما بعد فان تلك وزارة الخارجية في الموافقة على منح مثل هذه
المعونات المحدودة هو الذي دفع بعبد الناصر للاتجاه نحو السوفييت والحصول
منهم على مساعدات ضخمة تفوق الاربعين مليون دولار (التي طلبها في البداية)
مرات عديدة .

ولم يني أجد نفسي مضطرا للخروج عن موضوع هذا الكتاب وأذكر بعض
الملاحظات حول دورنا في ادخال المستشارين الالمان الى الجيش المصري ، حتى
تتكمّل صورة مساعدتنا في استكمال وسائل القمع عند عبد الناصر .

فقد كانت الاشاعات الضخمة التي نشرها الحلفاء في الحرب العالمية
الثانية حول قوة المخابرات الالمانية وعلمها بكل شيء ، من قبيل خدمة أهدافهم
ولكي يتظاهروا أنه ما من مواطن يختلي بصديق له ليتبادل أطراف الحديث
في أي مقهى كان حتى تكون المخابرات الالمانية قد التقطت حديثه وأبرقت ملخصه الى
مركزها في برلين .

ولقد شكّت المخابرات البريطانية والامريكية وقتئذ (وتؤكد هذا فيما
بعد) بأن يكون للمخابرات الالمانية وجود حيوي كشبكة واسعة الانتشار .
ولكنها كانت موجودة على مستوى بعض العمليات معتمدة على بعض كبار
الموظفين الغربيين المدسوسين والذين كانوا يستخدمونها لتزويد برلين
بالمعلومات المضللة الزائفة . وكنتيجة لدراسات عميقة وتمعّب في فترة ما بعد
الحرب العالمية الثانية ، فقد ثبت لدينا بالتأكيد أن العملية الوحيدة التي قام
بها الالمان للتجسس في الغرب هي العملية الشهيرة باسم « سيسيرو » الذي
سرق الاسرار من الصندوق الحديدي للسفير البريطاني في تركيا . ولكنها لم
تكن ذات أهمية لمقر الاركان في برلين ، لكثرة الاخبار المتضاربة التي غطت على
هذا التقرير الصحيح ، والتي كان يرسلها لهم عملاؤهم الذين كانوا تحت نفوذ
الامريكيين والبريطانيين .

وكان ازدرأونا للمخابرات الألمانية يشاطرنا اياه عدد غير قليل من ضباطها أنفسهم وقد قام العديد منهم بعقد صفقات مع عملاء مخابرات الحلفاء عندما شعروا بانتهاء الحرب وان كان بعضهم قد فعل هذا قبل انتهاء الحرب بكثير .

كما أن عددا آخر من الذين لم يفكروا بالتعامل مع الحلفاء ابدا قد وطدوا أواصر الصداقة مع بعض الحلفاء وبالتالي فقد حصلوا على عناية خاصة قبل فوات الاوان . ولكن مع وجود أشخاص مرموقين في الولايات المتحدة وبريطانيا (ولا نذكر فرنسا أو بلجيكا أو هولندا أو حتى ألمانيا نفسها) متعاطفين للدم النازي ، فانه لم يكن هناك صابط أمريكي أو بريطاني واحد يتمتع بعقل « موزون » يتوقع منه أن يدافع عن أي من النازيين السابقين على أساس أنه كان ضابط مخابرات أو - على الأقل - أنه مفيد كمعصر في المخابرات في حرب مقبلة مع الاتحاد السوفيتي . وعندما قام السوفييت باحتجاز أحسن الادمغة الألمانية (وكان بعضها من النازيين المتزمتين الذين أقسم الروس على الانتقام منهم) ولم يفرطوا بأي منها ، لم يعد أماننا - نحن الاميريكيين - الا ادخار كل ما كان متوفرا لدينا من الالمان الذين لم تعرف عنهم ميول نازية . وقد عبر عن هذه الحقيقة أحد عمداء المخابرات الامريكية في الفرع ج - ٢ قائلا « ثق تماما أن بعضنا لا يزال يضع مصالح أمريكا في المستقبل فوق لذة الانتقام » . ولو قال هذا علنا فانه كان سيطرده من الخدمة حتما .

وعلى أية حال ، فان وزارة الدفاع (ولربما بالاشتراك مع وزارة الخارجية) كان منوفرا لديها (ما بين ١٩٤١ - ١٩٤٧) بعض الالمان الذين لم يكونوا من مجرمي الحرب . ولحسن حظنا فقد تمكنوا بأقل ما يمكن من الاحراج والانزعاج أن يختفوا في دول مختلفة ، وتمكنوا من مزاوله أي عمل لكسب معيشتهم بدون أن يظهروا علانية . ولقد بذلنا جهودا كثيرة نقلب أضيائهم محاولين الكشف عن بعض المواهب للاستفادة منها في الولايات المتحدة أو في غيرها من بلدان العالم (كما استفدنا من وارنر فون براون عالم الصواريخ الشهير في هونستفيل في الاباما) . وقد أثمرت بعض هذه الجهود في الوقت الذي طلب فيه عبد الناصر مساعدات خارجية لجهاز مخابراته ودوائر أمنه . وكانت حكومتنا تجد حرجا في مساعدته مباشرة . ولاسباب تتعلق بسياسته ، فقد ألح ناصر على طلب خبير عسكري يتفن ادخال النظام البروسي الى جيشه

الحديث ، واقتراح الملحق العسكري الامريكى اسم الجنرال « ويلهام فارمباشر » الذي كان يجد صعوبة في العودة الى المانيا لميوله النازية السابقة . كما ان فقدانه لاية مواهب خاصة تناسب ورتبته العالية لم تجعل منه شخصية مرغوبة في أي مكان آخر . الا أن جراته التي ذاع صيتها في الحرب العالمية الثانية قد جعلته مؤهلا للاضطلاع بمسؤوليات كتلك التي كانت في مصر يومها - على حد رأي بعض ضباط المخابرات الامريكية . (وهذا ما حدث فعلا . فقد كانت اولى مناورات الجيش المصري تحت امرته . ولكن لم تحظ القوات « الخضراء » بالقوات « الحمراء » طيلة المناورة في الصحراء ، لان « فارمباشر » كان قد اعطى كل فئة خرائط الآخر بالخطأ . وكانت التعليمات والوامر معقدة لدرجة أن القوات لم تتمكن من ملاحظة الخطأ) . وعلى كل حال فقد كان ذا رتبة عالية جدا مما نال اعجاب عبد الناصر وزادنا حظوة عنده . وبعدها كانت قصة « اوتو سكورزني » الذي اشتهر بخطفه لموسوليني من معتقله الحصين . وكان اوتو من المفضلين عند الهيئة الامريكية للعدل ضد مخابرات الاعداء وقد اقام صداقات قوية مع الذين أسروه قبل أن يفلت من قبضتهم . وكان من المعتقد أنه يصلح للسير مع عبد الناصر من ناحية طباعه وشخصيته . وجرى الاتصال معه روتينيا ، ثم على مستوى أعلى ، وبعد ذلك عن طريق زيارة شخصية قام بها لواء في الجيش الامريكى له ، وأخيرا بواسطة والد زوجته الدكتور هيجلمر شاخت ، وزير مالية هتلر . ومع أنه كان قد فقد شغفه في اعمال المخابرات والامن وكان يدير أعمالا أكثر ربحا ، فقد وافق أخيرا على زيارة مصر ليقف بنفسه على مدى ما يمكنه تقديمه في زيارة قصيرة . ومهما كانت النتائج فقد قيل (وهذا غير صحيح) أن سكورزني مكث في مصر عدة أشهر كمساعد لعبد الناصر للشؤون العسكرية ولشؤون الجغرافيا السياسية . الا أن طول المدة التي مكثها سكورزني في القاهرة قد أثارت موجة اتهامات ضد نظام عبدالناصر وأظهرته على أنه يدار خنسة من قبل نازيين متعصبين . ولم يكن باستطاعة سكورزني مغادرة مصر بسرعة تخفف من حدة الهجوم على ناصر . الا أنه أخيرا عاد الى مزرعته التي اشتراها في ابرلندا ومن ثم التحق ثانية بمقر عمله في شركة هندسية في اسبانيا كانت تدر عليه ربحا وافرا .

وقد فكر سكورزني بشيء من الاخلاص برسالة حوالي مائة من الالمان

الى مصر كانوا سبب الضجة المعادية لناصر يومها . وحقيقة هؤلاء انهم : (١) كانوا - باستثناء واحد أو اثنين - من ذوي المناصب المتواضعة ، (٢) ولم يكونوا من النازيين المتزمطين بدليل سرعة تأقلمهم مع التفكير اليساري لحكومة ناصر وقد اضطرتهم لهذا حاجتهم لكسب عيشهم وليس غير ذلك ، (٣) لم يحاول المصريون الاعتماد عليهم رئيسيا بل اكتفوا بسماع بعض نصائحهم كما كانوا يعاملونهم بشيء من عدم المبالاة وخصوصا عندما يضطر أحد الامان الانتظار لساعات لمقابلة أحد المسؤولين المصريين للدلاء ببعض النصائح امامه ، (٤) لم يدفع المصريون أية مرتبات مغرية للامان على عكس ما كانوا يدفعونه للخبراء من الجنسيات الاخرى كالبريطانيين والامريكيين . فالجنرال فارمباشر (كمنال) لم يكن يتقاضى أكثر من خمسين جنيها مصريا في الشهر الى جانب بيت قريب للسكن . في حين كان يتقاضى بعض المستشارين الامريكان أكثر من ٥٠٠ جنية شهريا الى جانب مسكن فخم وسيارة مع سائقها . وقد بذل سكورزني قصارى جهوده لخدمة عبد الناصر تحت تلك الظروف . ولا يزال على علاقة وطيدة به الى يومنا هذا . كما ان له علاقات حسنة مع اصدقائه الامريكيين الذين كانوا وراء استدعائه الى مصر . هذا وتجدر الاشارة الى أن سكورزني قد برئت ساحته من اية تهمة بارتكاب جرائم حرب .

والحق يقال إن عبد الناصر وزكريا ، بالرغم من كل المستشارين الاجانب قد بنيا أجهزة المخابرات والامن بدون أية مساعدة خارجية تذكر . وعلى حد زعم أجهزة المخابرات الغربية - عن طريق تسللها الى هذه الاجهزة - ان هذه الاجهزة تتمتع بكفاءة عالية وافية بالفرض .

واخيرا : فبالقوانين والمراسيم ، وبالبوليس وأجهزة المخابرات ، وبالدعاية والجيش ، شكل عبد الناصر قاعدة للقمع تمكنه حقا من حكم مصر بنفسس الطريقة التي حكم بها بابا دوفاليه جزيرة هايتي - دون أن يستعمل كل تلك الوسائل دفعة واحدة . وقد أعطته مركزا قويا يستطيع أن يصدر منه أية قرارات ايجابية بدون أن يخاف ويخشى أية انتفاضات شعبية . ولقد قيل الكثير عن اتباع عبد الناصر للأساليب البوليسية في الحكم والادارة مثل منع ممارسة حرية الراي والتعبير ، ولكن الحقيقة أن عبد الناصر لم يفعل أكثر من التخلص من بعض الصحف التافهة التي اعتادت أن تستقي أخبارها من الاذاعة

البريطانية والاسرائيلية . ولذلك لم تشعر طبقات الشعب المتوسطة أنها قد سلبت أية حرية من حرياتها بتصرفاته تلك . أما المصريون أعداء عبد الناصر فهم أعداؤه سواء منحهم إية من هذه الحريات أم لا ، وعلى هذا فإتة سيخسر بمقد إية صفقات صلح أو مساومة معهم ، ولن يربحهم اطلاقا .

وكان أمرا محرجا وكريها للمراقبين الغربيين أن يروا حجز الممتلكات واعتقال الناس لجرد الشبهة ، مع تكميم الصحافة ومعاملة المراسلين الاجانب برعونة وفظاظة . ولم تكن هذه الاعمال محببة الى نفوس أصدقاء عبد الناصر الذين كانوا في السلك الدبلوماسية ، وكان لهم علاقات اجتماعية متشعبة مع طبقة المصريين المروضة (اليورجوازية) والتي عانت الكثير . . ومن جهة أخرى فان اجراءات عبد الناصر في الشدة والقمع – بفض النظر عن مطهرها أمام العالم الخارجي – كانت تخطط بهدوء ولم تكن لتتخذ اعتباطا . وهذا يعني أن عناصر محدودة هي التي عانت من ذلك وليست عامة الشعب . وقد كان عبد الناصر يبرر أعماله القمعية بحجة (الدفاع) عن النفس تماما كما يفعل اليهود بمنعهم الهيئات غر اليهودية من العمل في بلادهم . وكان يمتقد بضرورة اخضاع الفرد الى الدولة في جميع مظاهر الحياة وان كان لا بد من الاعتراف بالحقيقة أن هذه السيطرة ستمارس بنفس التخلف الذي ندار به شؤون الدولة الاخرى . كما أنه من طبيعة الاشياء أن يكون البوليس في بلد شرقي أكثر غباء من أماله في الدول الغربية .

ومن جهة أخرى فلا مانع من القول بأن المصريين قد حصلوا على نتائج أفضل فيما يختص بقضايا الامن ، وبتبناه وعجرفة أقل من السائدة في بقية دول الشرق الاوسط . ومع مرور الاعوام فقد حافظ عبد الناصر على وسائله في القمع بشتى الطرق ، مع أن الناظر المديد الخبرة لن يراها من وقت لآخر الا الغازا محيرة . وذلك أن عبد الناصر كان يدفع الى المسرح عملاء جددا ذوي أهداف وغايات تظهر بانها للقمع . ولكنها كانت انتهازية ميكبائيلية مثل « بوليس ضد الاقطاع » ومحققى الانحاد الاشتراكي العربي وغيرهم من الذين كان يحركهم ضد بعضهم البعض ليحصل على فوضى منظمة ومحسوبة ، في الوقت الذي يريده ويحتاجه في سياسة العنف والشدة .

ان أهم ما يجب أن يفهمه المراقب الدبلوماسية من أسرار تصرفات

وسائل القمع عند عبد الناصر هي :

أولا : بالرغم من بعض المظاهر الآنية المعاكسة (مثل اخبار الاحتكاك بين عبد الناصر والجيش) فان وسائل القمع كانت دائما على أهبة الاستعداد ، ولها المقام الاول في اهتمام عبد الناصر واعتناؤه . كما أن كثيرا من تحركات عبد الناصر على المسرح العالمي ، من التي اعتبرها المراقبون الاجانب مخالفة للمزاج المصري ، تفسر على أنها احدى حاجات عبد الناصر للاحتفاظ بوسائل القمع في داخل بلاده .

ثانيا : وبالرغم من أن كثيرا من الرسميين الغربيين الذين يكرهون عبد الناصر قد هاجموه ونعتوه بأنه ديكتاتور فاشيستي (وكان معظمهم مسن المسؤولين في الحكومة الامريكية والبريطانية) الا أنهم كانوا على علم تام بكل خطواته عندما كان يبني وسائل القمع واجهزته متجاهلين عمدا كل تصرفاته في هذا المجال .

وفي كتابه « مصر الجديدة وعبد الناصر » ، يشرح « كيث ويل لوك » وجهة نظر يعتبرها ممثلة لوجهة نظر المراقبين المطلعين في الخارج في الثورة المصرية . وفيها يشير الى ذلك « التردد » الذي كان يتصف به عبد الناصر ، كما يشير الى « تذبذب » مجلس قيادة الثورة الظاهر بسين النظام البرلماني والدكتاتورية العسكرية . ويتأسف ويل لوك على تلك المبادئ التي هجرتها حكومة الثورة في مصر بعدما رفعتها عاليا وانتهى أخيرا الى أن أي مؤرخ يحاول أن يدون تاريخ تلك الفترة المضطربة في مصر سيكون معذورا ان كالم لعبد الناصر وجماعته القذف والإتهام .

الا أن الحقيقة لم تكن كذلك (وسنرى هذا لاحقا) . فلقد كان عبد الناصر أبعد ما يكون عن التردد والتقلب طوال تلك الفترة .

وان تذبذبه الظاهر بين الحكومة البرلمانية والدكتاتورية العسكرية كان موضع دراسة عميقة وعناية فائقة من قبل الرسميين الامريكيين وغيرهم من بعض الشخصيات المدنية الشهيرة بميولها الليبرالية . ولكنهم كانوا كلهم

ينظرون الى الاوضاع في مصر نظرة واقعية وقد ادركوا انه لا طريق آخر امام عبد الناصر ليسلكه غير هذا الطريق . وان أية محاولة مبكرة (وقبل أوانها) للعودة الى تلك المبادئ التي نادى بها الضباط الاحرار سابقا سوف تنتهي الى فوضى واضطراب كاملين . واذا كنا لم نشارك ناصر فعلا في انقلابه وفي توطيد سلطته وفي بناء وسائل القمع في بلاده . فذلك يعود الى رفض ناصر لمساعدتنا له فيما عدا بعض النصائح التي كانت تهم الطرفين معا ، كما أننا لم نبد أية شكوى من سلوك ناصر مسلك الديكتاتورية، لاننا كنا نعتقد انه سيشرع في أول فرصة مناسبة في ايجاد الظروف الملائمة التي اتفق عليها مع روزفلت كمتطلبات ضرورية لاعادة الحياة الديمقراطية الحقة وهي : محو الامية ، وتقوية وتوسيع نفوذ الطبقة الوسطى ، وانتشار الشعور عند الشعب أن الحكومة منه واليه ، ورسوخ الافكار والقيم الوطنية حتى يصبح من السهل قيام مؤسسات ديمقراطية وطنية وليس مجرد تقليد أعمى لما هو في الولايات المتحدة او بريطانيا .

وبغض النظر عن كيفية نمو وسيطرة وسائل القمع ، فعلينا ان نقرر في تعاملنا مع ناصر أن وجودها مهم بالنسبة لبقائه . ويجب أن لا نعتبرنا الدهشة عندما نرى أن عبد الناصر وضباطه جلسوا بعد أشنع هزيمة في التاريخ العسكري الحديث (حرب ١٩٦٧) لا ليتباحثوا في طريقة اعادة بناء مصر من جديد بل لينسقوا خططهم حيال طريقة اعادة الثقة الى الجيش . وستبقى هذه الفكرة ذات المنزلة الاولى في التفكير المصري وللسنوات طويلة مقبلة .

الطراز الناصري للحكم ووسائل البناء .

• وهذه الثاني توطيد سلطته بالبناء والاصلاح .

في اوائل عام ١٩٥٦ قضيت مع الرئيس عبد الناصر والسفير المتجول اريك جونستون امسية طويلة في حديقة قصر الاول نتباحث حول ما يستطيع عبد الناصر تقديمه من مساعدة لعرض مشروع نهر الاردن على زعماء الدول العربية الاخرى . وكان مشروع جونستون يهدف الى اغراء العرب للدخول في تعاون محدود مع الاسرائيليين على الاقل . ولم يكن المشروع أكثر من فكرة من الدرجة الثالثة ، ارتفعت الى الدرجة الثانية لمجرد اختيار مفاوض من الدرجة الاولى لها ، هو اريك جونستون . وأما فرصة نجاح المشروع فهي وجود شيء من المنطق فيه . ففي حالة تنفيذه سيستفيد السوريون واللبنانيون والاسرائيليون والاردنيون من اصلاح ٣٠٠ ألف فدان من الاراضي الصحراوية مع توفير القوة الكهربائية للصناعات اللازمة لتشغيل اللاجئين الفلسطينيين الذين سيتعرضون للفاقة والجاعة لسنتين طويلة قادمة ان بقوا دون موارد ثابتة . وقد تأثر عبد الناصر كثيرا بحجج جونستون العملية ، غير ان العقبات السياسية كانت أكبر من أن يتحداها بنفسه ويتخطاها .

ومع ذلك فقد بقي الموضوع شيقا ومغريا لاستمرار المناقشة ، فقد قضينا النصف الاول من الامسية نتلمس الطرق المؤدية الى انشاء هيئة نهر الاردن على نفس منوال « هيئة سهل تينيس » ، التي يمكن لها أن تحل محل خطط مشاريع التنمية الاقليمية التي تزمع الجامعة العربية وغيرها اخراجها الى حيز الوجود . (وفي هذه المرحلة من حكمه ، كان عبد الناصر يشك في جميع مشاريع التنمية الاقليمية . وبالسوق العربية المشتركة ، وبالآراء الاخرى التي تدور حول التعاون الاقتصادي العربي ، وان كان لا يمانع من تضييع الوقت يبحثها) . وأمضينا القسم الاخير من الامسية نستعرض المضاعفات السياسية

المفخرة من المشروع . فقد أبدى عبد الناصر عطفه الشديد عليه عموما ، ولكنه قال لجونستون : « لقد جثنتي في وقت لا أملك فيه القدرة على الاقدام على أي عمل لا يحظى بموافقة الجماهير الشعبية » . واندفع بعدها في محاضرة كانت تفيض « بتوابل » الفلسفة الليبرالية ، مثل « المرونة السياسية » و « اطارات التسامح » ، بصورة جعلته يعتقد أنه كلما زادت شعبيته فإنه يصبح أكثر حرية في تفكيره فيما يعود بالفائدة على مصر . أما أثناء شعوره بضعف مركزه وشعبيته فإن عليه أن يسلك طرقا يتوقع مناصروه أن يسبقهم إليها ، بغض النظر عن نتائج ذلك على مصر نفسها .

وكان جونستون يصفي بصبر متزايد ما لبث أن نفذ ، فقال لناصر انه قد أمضى الاسبوع الفائت وهو يصفي الى عديد من المقترحات البديلة التي اقترحها الزعماء السوريون واللبنانيون ، ولكنه أصيب بخيبة أمل عندما سمع زعيم العالم العربي بلا منازع يتحدث عما يمكنه ، وما لا يمكنه فعله بنظير الفوغاء (الديماغوجيين) . ووقف جونستون مهما بالانصراف . وصافح عبد الناصر واتجه نحو الباب . ولكنه ما لبث أن التفت بطريقة دراماتيكية (مديفة بالحركة والانفعال) وقال : « سيدي الرئيس لقد تذكرت الآن كلمات مأثورة لزعيم الثورة الفرنسية « الفوغاء في الشارع ، وعلي أن أعرف الى أين وجهتها وذلك لانني أنا زعيمها » . وهنا ارتسمت ابتسامة الابتهاج على شفطي عبد الناصر وقال : « تماما ، هذا صحيح بالضبط » .

كان قبول عبد الناصر للملاحظة البليغة التي أبدتها جونستون على غاية من الطرافة (وما كان له أن يترك رجل الاعمال الامريكي يفلت منه بهذه السهولة) ، ولكنه في قبوله اياها أراد أن يعيد الى ذاكرة جونستون أن أي زعيم ، في أي مكان وخصوصا في بلد ك مصر ، ليس لديه المام بوجهة الفوغاء وأهدافها ، لا يكتب له البقاء كزعيم لمدة طويلة . وفي اجتماع لاحق بجونستون قال ان المهمة الاولى للمقاتلة على عاتق الزعيم هي أن يدرك أنه هو الزعيم وليس غيره ، ولا يمكنك أن تصبح « زعيما صالحا » الا بعد أن تجتاز المرحلة الاولى ، أي أن تصبح « زعيما عاديا » . ومضى عبد الناصر بثبت أنه كزعيم قد أدرك (أكثر من غيره) أن الفوغاء اذا ما أطلقت غرائزها ، وأفلتت من عقابها فسوف

تدمر نفسها بنفسها ، ولكن لا يعني هذا أن باستطاعتي أن أتجاوز ما تريدني وتقرضه علي .

ويومها لم يتوفر زعيم في التاريخ الحديث يعرف تمام المعرفة ماذا تريد الفوغاء والى أين وجهتها أكثر من عبد الناصر نفسه . وبعبارة أخرى ، لم يكن هناك من أدرك - أكثر من عبد الناصر نفسه - الحقيقة المحزنة بأن الفوغاء لا تدري أنها ضائعة ، ولا تعرف الى أين هي ذاهبة ، ولا حتى على ضوء مصالحها الذاتية . فالفوغاء لا تريد مصالحها الحقيقية التي ان تحققت أعطتها كفاية وراحة ، وليس مجرد تهدئة آنية للآلام . وكانت مهمة عبد الناصر التلاعب بإرواء الرغبات ذات المدى القصير (أو المستعجلة) وذلك لكسب الوقت بينما يسعى لإعداد الوسائل اللازمة لإرواء الرغبات المؤجلة (البعيدة) .

ومن حظ عبد الناصر أن مفاهيمه هذه لم يكن من السهل ادراكها . فم عندما كان يخطط للثورة كانت لديه فكرة عما يجب على الشعب المصري أن يطالب به (وذلك ما كان هو نفسه يطالب به) ولكنه بعد ثورته تأكد عنده أن مطالب الشعب المصري الحقيقية أبعد من أن يحيط بها فهمه ، أو فهم أي زعيم مصري آخر . وبعبارة أخرى ، فقد كانت مشكلته أنه لم يجد الفوغاء المصرية تنتظره في الشارع ، وكان عليه أن يخرجها الى الشارع حتى يدرك الى أين وجهتها . فلدى الشعب المصري دوافع كامنة للتمصب (كما قال باول ليتبارغر) وكانت كافية لتبرير حرق سفارة أجنبية بين الفينة والأخرى ، ولكنها ليست بالقدر الكافي لدفع عجلة النشاط الثوري الى الامام . وكان على عبد الناصر أن يخلق ظروفًا ما يمكنها أن توقظ الدوافع في الشعب بنفس الطريقة التي يتمكن الماء البارد ، أو الساخن ، من التأثير على الاميبا (وحيد الخلية) . وهذا يعني أن عدم الرضاء أو عدم التفوز (وجود ظروف مناسبة أحيانا وغير مناسبة أحيانا أخرى) هي التي توجد عند الشعب حوافز جديدة للتحرك والتهيج وبالتالي يمكنها التجاوب مع زعامة حركة عبد الناصر .

ولم يبخل الخبراء على عبد الناصر بنصائحهم في هذا السبيل . ويشيء من تطفل مستشار أمريكي (لا أملك حرية الكشف عن اسمه) قام صلاح سالم ، وزير الارشاد القومي ، بحملة واسعة لدراسة الرأي العام لتزويد عبد الناصر بأهم المقترحات التي يمكنه بها أن يوقظ الشعب . وقد قامت سيدتان

امريكيان باول الخطوات في هذه الدراسة وهما من مكتب الابحاث الاجتماعية التطبيقية في جامعة كولومبيا . كما قام الباحثون باشراف صلاح سالم بالبحث والتدقيق في جميع أنحاء البلاد، واتصلوا بالفلاحين والعمال والطلاب والحرفيين وغيرهم . وكان الباحثون في البداية ثلاثة مصريين وبريطاني واحد والماني ، واتبعوا طريقة السؤال المباشر (اسلوب كالوب بول في تصور المسؤول انها رغبة السائل) ، فوجدوا أن أفراد الشعب كانوا يجيبونهم بما يودون سماعه ، فللمصري : « نحن نكره الانجليز والاستعمار واسرائيل » ، وللبريطاني : « نحب البريطانيين وقد ساءنا أنهم تركوا بلادنا » ، وللألماني : « اننا نأسف لان المانيا خسرت الحرب » . وبعدها قاموا باستخدام طريقة أخرى تقوم على فهم آراء الناس عن طريق تحريك عواطفهم واثارتهم . فسيتكلم المسؤول عرضا عن أفضل الافلام له ، وأحب الالوان اليه ، ورأيه في المواضيع الاجتماعية غير الاساسية . . وبهذه الطريقة توصلوا الى نتائج أفضل حول حقيقة مشاعرهم تجاه البريطانيين والعرب وغيرهم .

وقد اشتركت وكالة المخابرات المركزية الامريكية في هذه الابحاث . وكان رئيس فرعها في مصر في ذلك الحين يتمتع بتغطية عرقية (عندما يكون المظهر الشخصي واللغة والمعادن وجواز السفر بشكل يساعد رجل المخابرات على الاندماج مع الجو المحيط به دون تمييز) ، وهذه عكس التغطية الثقافية والحضارية (وفيها يستقبل رجل المخابرات على أساس مشاعره السياسية وعواطفه الاجتماعية) . ولقد أنشأ شبكة من المخبرين لهم من الوسائل المؤثرة والفعالة ما لرجال « عيون المدينة » المستخدمين في جهاز الامن المصري . وقد ركز نشاطه حول موضوع « مدى استعداد الشعب المصري لقبول الشيوعية السوفيتية » محاولين التعرف على آراء كل فئة من الشعب مصنفة حسب مهنة الفرد مثل الفلاحين ، العمال ، الحرفيين ، المثقفين . . . وهي الجهات التي يحاول الشيوعيون خداعها والتأثير عليها . وكثيرا ما وضع رئيس فرع الوكالة المركزية نفسه مكان الشيوعيين كي يتعرف على الوسائل التي يحتمل أن يقوموا على اتباعها . ومع أنه محظور عليهم من قبل قيادة وكالة المخابرات المركزية أن يتوسطوا بأي تجسس مكشوف مثل التغلغل في الحكومة المصرية، والحصول على أسرار الحكومة الرسمية ، أو اغراء مواطن مصري بصراحا

لخدمة سلطة أجنبية . فان جهازه الذي نشط تحت ستار ما ، قد تمكن من الاستماع الى احاديث صريحة (في كل المناطق) وادراك آراء ما ، لا يمكن الحصول عليها بطريقة مخبري صلاح سالم ، أو حتى التقاطها بطريقة الاستفسار أو التحري بواسطة رجال « عيون المدن » .

وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٥٤ قام باول لينبارغر ، خبير البنتاغون الفريد بفن الدعاية السوداء ، بزيارة للقاهرة ، وكان صلاح سالم قد استبدل بالمعيد عبد القادر حاتم الذي بقي في منصب وزير الارشاد القومي (وأصبح بعدها نائب رئيس الوزراء لشؤون الثقافة والارشاد القومي) لمدة عشر سنوات أخرى . وقام لينبارغر بتدوين نتائج دراساته ، وقدمت في شكل تقارير للمعيد حاتم ، الى جانب ما أنجز من أبحاث على عهد صلاح سالم ، وقام عبد الناصر بتوسيعها بعد تدوين ملاحظات ذكية جدا عليها نتيجة خبرته في السنة السالفة . وبعدها جمعت كلها في دراسة موحدة احتفظ بها عبد الناصر نفسه في درج مكتبه وأقلع عنها . وكما سنرى فان عبد الناصر قد أدرك أن المراكز المختلفة التي عليه شغلها في مسرحيات « لعبة الامم » تتطلب أن يكون لدى العالم فكرة عن الدوافع والاهداف المصرية غير الحقيقية . (إن عقدة التوفيق بين الرأي المصري الخاص والرأي المصري الرسمي الذي يحرص ناصر على عرضه للعالم جعل ثانيهما مقبولا عند أولهما لا تزال قائمه الى يومنا هذا .

في فصل لاحق ، فان احدى المحاولات الصريحة لاطهار الرأي الخاص والتي جرت في عام ١٩٦٨ انتهت الى النتيجة أن الشعب المصري لا يملك سوى حماس ضعيف (ان لم يكن معدوما) لاسترجاع هيبة العرب الضائعة في فلسطين . كما أنه لم يكن متحمسا أبدا لتحسين مكانة حزب ناصر السياسي الوحيد في البلاد . وقد عرّفت هذا عن طريق جمع الاحاديث المتداولة في المجالس والسهرة الخاصة التي اظهرت أيضا رغبة الشعب في أن يرى ذلك الحزب ممزقا اربا اربا . وقد اضطر ناصر للدعاء أن الجماهير تطالب بصخب والحاح استمرار الحرب ضد اسرائيل ، وذلك حتى يتمكن من رص صفوف الاتحاد الاشتراكي العربي ثانية ، وليضيق الفرصة أمام الانهزاميين وأمام أولئك الذين فتنتهم دعاية العدو ، وليبقى محافظا على بعض الاهداف التي ما زال في نفس الشعب المصري بعض المطف عليها) .

وأراء ناصر في موضوع التوفيق بين فن القيادة وبين طريقة طرح
الاهداف غير الحقيقية امام العالم ذات أهمية خاصة . ونضطر هنا لمناقشة بعض
جوانب التاريخ حديثة العهد بنا (وان كانت بعيدة الصلة عن موضوع كتابنا
هذا) وذلك بسبب سوء تصوير المؤرخين للعلاقات بين ناصر واللواء محمد
نجيب ، والذي لم يكن لهم الخيار في تصويرها بغير ذاك المظهر الذي يتناظر
مع ما سمعوا به وقرؤوا عنه . وحتى البروفسور « ليرنر » في كتابه الدقيق
« ذهاب المجتمع التقليدي » يقارن بين نمط نجيب ونمط عبد الناصر كطريقة
لشرح امكانية التقبل عند الشعب المصري لوسائل الاعلام العامة كطريقة للتغيير
الاجتماعي . وكانت جميع النقاط التي بيّنها صحيحة وجديرة بالملاحظة .

والحقيقة فان نجيباً لم يكن ذا طراز مستقل عن ذلك الطراز من الرجال
الذين يظهرون في دعايات التليفزيون . وقد قابلت امرأة انجليزية نجيباً مرة
وأخبرت السفير كافري بعد ذلك بأنه « شيطان بصورة مبهجة ، وبشع المظهر
ولكن بقدسية » ، ويفطى ذلك بابتسامة حارة . انه مظهر الاب المثالي
للمصريين » . وقد شعرت بنفس الانطباع خلال اللقاءين الطويلين مع نجيب .
فكان نجيب يحاول أن يضفي على نفسه صبغة المهدي ، أو صاحب الكرامات ،
وينشر هذا في ربوع الشرق الاوسط . وخاصة أن المصريين سيستهجون
بخيالات وتصورات من هذا القبيل ، وهي صورة المحتال الودود . وكان نجيب
من نوع المعبودين الذين يلتجئ اليهم المصريون في لحظاتهم الهادئة التي تتخلل
فترات العنف التي يدفهم اليها المتزمتون من قاداتهم . ولكن نمط كلامه
وتفكيره لم يكن من ذلك النمط الذي وصفه به البروفسور ليرنر .

وأما كتاب اللواء نجيب ، فقد كتب بقلم أحد الامريكيين الاذكياء مستر
ليه وايت ، الذي كان أيضاً مصمم الاقوال البليغة التي اشتهرت عن اللواء
نجيب . فقد طلب ليه وايت اجازة لمدة سنة يسافر خلالها خارج البلاد لاسباب
شخصية (ولم يكن بوسعه أن يعطي عذرا أوضح لتغطية مركز انطلاقه في
العمل) ووصل - ولربما فجأة - الى مصر في وقت كان نجيب فيه قد أصبح
شخصية بارزة في الصحافة العالمية . وقد استطاع أن يؤمن سلفة مالية من
صاحب دار النشر التي يتعامل معها وحصل على موافقة نجيب للمشروع
(وكذلك موافقة عبد الناصر الضرورية ولكن بعد جهد) ومكث في القاهرة سنة

من الزمن يقتضي أثر نجيب في أوقات طلعه ويطيل الجلوس في غرفة الانتظار، ولم ينس أن يشاركه حتى في العديد من اجتماعاته كما اغراء بمناقشاته وأحاديث طويلة .

كان ليه وايت من أشهر من برع في سرد القصص وروايتها . وقد أبهج السفير كافرني بالقصص التي تدور حول نجيب ، كما أعطتنا تلك القصص صورة رائعة لعمدة قرية ماكر ، لكنه محبوب ، ولديه من الوقت ما يكفي لمقابلة كل انسان يواجه متاعب ومشاكل في حياته: مثل زوجة تشتكي من زوجها المدمن على الخمر ، وزجل دين رأى رؤيا وعليه أن يجمع مالا لبناء مسجد في الحال ، واقطاعي يشتكي من مستأجري اراضيه . . . ولكن عندما تكلم الكتاب عن فلسفة نجيب فقد كان يتكلم عن « ليه وايت » ، بدون أدنى التباس ، وكأنه ليبرالي أصيب بخيبة أمل ولم يجد مصرفا لطاقاته منذ انتهاء الحرب الاهلية الاسبانية . وكان وايت ومدير فرع وكالة المخابرات الامريكية الاقليمي (والذي كان كما ذكرنا انفا تحت تغطية عرقية) يكرهون بعضهم البعض (مع أنني أشك في أن يكون « ليه » قد عرف أن ذلك الرجل عميلا لوكالة المخابرات المركزية) . وبنت الاحاديث والمسامرات التي جرت بين « ليه » ونجيب (والتي كان يغلّب عليها الطابع الديموقراطي) لاول وهلة على أنها ردود « ليه » في الدفاع عن نفسه أمام مدير فرع وكالة المخابرات المركزية الذي كان مؤيدا لناصر من رأسه حتى أخصص قدميه . وقد حاولت مرة أن أجرب نجيباً الى احدى مقطوعات حكمه البالغة وسرعان ما ظهرت لي الحقيقة أنه ليس لديه حتى فكرة بسيطة عما كنت أتكلم عنه .

ولقد أتاحت لي الفرصة لكي أسمع من كبار الضباط ومن ضباط الصف الثاني الروايات الحقيقية حول ادخال نجيب ضمن مجموعة ضباط الانقلاب . وكان هناك ثلاث نقاط تبدو مشتركة بين هذه الروايات كلها :

١ - عندما كان عبد الناصر وأعوانه يصدد تنظيم شبكة الضباط الاحرار ، شعروا بحاجةهم الى قائد برتبة عالية : « انسان كدكم تعرفوه وتولوه احترامكم ، ولكم الشرف والسرور أن تنضوا تحت لوائه حال سماعكم باسمه . وقد امتنعوا عن الانصاح عن اسم معين ، الا أن الحقيقة لم يكن لديهم أي اسم محدد يومها .

٢ - لم يكن نجيب هو الاحتمالية الوحيدة ، بل كان واحدا من جملة اشخاصي للانتقاء منهم . وحتى اللحظة الاخيرة عندما أفلح عامر باقناع عبد الناصر بأن نجيباً هو الاختيار المنطقي ، لم يكن نجيب لتللا، اللحظة على رأس القائمة .

٣ - مع أن لنجيب ماض ناصع في الشجاعة ، وله شعبية واسعة عند الضباط ، فقد كانت ميزته الرئيسية فقدانه للطموح أو رغبته في السلطة . وقد اعتقد الضباط الاحرار أن بإمكانهم التعامل معه وتسييره .

وفي الحقيقة فقد استطاعوا ذلك، فقد قام خالد محي الدين العضو الشيوعي في بطانه عبد الناصر مع أصدقائه بالتلاعب بسلسلة من الاحداث أدت الى اختيار نجيب لسدة الرئاسة ، ظنا منهم أنهم أقدر على سياسته والسيطرة عليه من عبد الناصر نفسه ، وانه بالامكان أن يحل محل عبد الناصر فيما اذا شق الاخير عصا الطاعة عليهم . وكان عبد الناصر بالتاكيد مدركا لهذه الغايات . وعلى أية حال ، فإن لم يكن كذلك ، فناصر يدعي الآن أنه كان يعرف ذلك . ولكنه لم يكن يخشى أيا من خالد وأصدقائه ، بل تركهم يمتقنون أن عليهم قائدا من اختيارهم . ومهما كان فبعد نجاح الثورة واعتلاء نجيب سدة القيادة لم يكن أنصار نجيب - الذين يستطيع عبد الناصر أن يسوسهم - هم الذين أخذوا يوحون له أنه هبة التاريخ لمصر ، ولكن كان ذلك الايحاء من « له وايت » . ومع أن أحد الضباط كان يكتب لنجيب خطاباتة فان « له وايت » كان يقوم بتجميلها وتزيينها (بعد أن تكون قد ترجمت له الى الانجليزية) مدعيا بأنه يجعل منها أكثر ملائمة للاجيال القادمة كلها ، او بعبارة أخرى حتى تصبغ مادة مناسبة لكتابة ترجمة حياة نجيب التي كان « له وايت » بصدها .

وأما مفاهيم عبد الناصر حول مركز القيادة في الثورة - سواء قيادته أو قيادة أي فرد آخر أو أي رئيس صوري وضعه عبد الناصر نفسه أو غيره في مركز صوري لقيادة الثورة - فإنها مفاهيم مهمة وشيقة . وليس ذلك لإظهارها ناصر على أنه شخصية تاريخية لكفاءاته ومواهبه ، ولكن لانها حازت أيضا قبول واعجاب المستشارين الامريكيين ممن كانوا حول ناصر يومها .

وكان ذلك دليلا على نوعيّة مفاهيم وتصورات رجال دبلوماسية ما وراء الكواليس الامريكيين حول دور القيادة في المجتمعات غير الغربية .

ومع أن كيرميت روزفلت والمستشارين الذين أرسلهم الى مصر (مثل ستيفن ميد وجيمس إيخليبرغر وباول لينبارغسر ، وغيرهم) لم يتمكنوا من مياسة عبد الناصر أكثر مما يفعله الروس به اليوم ، الا أن مفاهيمهم حول موضوع القيادة وانطباقها على مفاهيم عبد الناصر نفسه بهذا الخصوص قد جعلت فلسفة ناصر في فن القيادة موضع عطفنا وتقديرنا ، مع أن كثيرا من النقاد الغربيين قد أخفقوا في ادراكها وفهم مفزاها . ولا يهمننا ما كان بقدره عبد الناصر انجازه سواء رضي الغرب عليه أو سخط ، ولكن يهمننا اثبات الحقيقة أن كل ما أنجزه عبد الناصر قد حظي - وعلى الاقل وقتئذ - بتأييد الغربيين الذين كانوا حريصين كل الحرص على مصالح بلادهم دون أن يتبتوا مبادئ تتعارض ومبادئ العالم الغربي .

كان عبد الناصر يعتقد في البداية أنه لا يمكن حمل فرد واحد ، أو أمة كاملة ، على فعل شيء معين باتباع أسلوب الترغيب والترهيب وانما يخلق ظروف معينة تحمل الموجود في خضمها على أن يطالب بفعل ما يراد منه أن يفعله . فرغبات الجماهير ومنطلقاتها هي التي تحفزها على التحرك وليست رغبات قائدها أو طلباته . فالقيادة بمعنى آخر هي مهنة ، خلق الدوافع والحوافز ، . فمليك ، أولا ، أن تحرك الشعب وتهيجه بخلق حافز عنده لشيء ما ، وبدءا توجهه لهذا الهدف بأن تريه طريقة الحصول عليه والوصول له . وان كنت لا تستطيع هذا (وهذا ما يحدث عادة في البلدان الناشئة التي تتلهد للوصول الى الازدهار والرقي) فحاول أن تريه ما تظنه ، ويبدو لك ، انه الطريق الصحيح . فإن هذا يجعلك تبقى في سدة القيادة حتى يكتشف الشعب خطأ ذلك ويقرر غيره ، أو حتى يبرز انسان آخر بحلول أفضل وآراء أصوب .

وعندما دقق عبد الناصر قبل الانقلاب في أوضاع بلاده وحالتها، اكتشف أن الشعب فاقد الحوافز والرغبات ولا يود التحرك في أي من الاتجاهات . ولهذا رأى عبد الناصر أن عليه أن يحيط الشعب بظروف وأجواء تساعد على

تحريك الحوافز في نفسه وتوليد الرغبات عند أفرادهم . وما القائد الا جزء لا يتجزأ من هذا المحيط . وليس من الضروري أن يكون عبد الناصر هو القائد بنفسه طالما باستطاعته أن يخلق تلك الاجواء ويبقيها تحت سيطرته . وبعد استلام عبد الناصر علنا لمقاييد الامور بدلا من بقاءه يوجهها من وراء الكواليس أضحت هذه الفكرة مدعاة للشك والتحقيق . فاما الذين يعرفون عبد الناصر عن قرب فيصدقونها . ويعتقدون أن السبب الذي أدى الى تغيير الاحوال ليس تلهف عبد الناصر للسلطة بقدر ما هو تزايد نهم نجيب لها وشراسته ائيبها . فقد كان عبد الناصر يريد قائدا شكليا للثورة فقط . وكان بإمكان نجيب البقاء هكذا الى أبد الابدين طالما بقي اقتناع عبد الناصر بهذا الموضوع قائما . فعبد الناصر من الطراز الذي يهتم بخلق الظروف وايجاد الاجواء المناسبة بدلا من اهتمامه بتفرد بالسلطة على النمط الهتلري . وانني - والذين يعرفون ناصر - أشك أن تكون رغبته في أن يصبح معبود المعجبين به كانت رغبة دفينه في نفسه متصلة فيها منذ قيامه بالانقلاب ولبست مجرد حدث طارىء تملكه يومئذ .

لقد اختير نجيب للمء منصب القيادة بسبب ميزات معينة أدرك عبد الناصر معها صلاحية نجيب للمرحلة الاولى من المراحل الثلاثة لتطوير البلاد . فقد كان الشعب المصري تحت ظل حكم الملك فاروق ساخطا ومستاء - بدون تطرف - وبدأ بنفسه عن كربه بالتذمر والدمدمة ، وكانت تلك الفترة أكثر الاوقات ألما في التاريخ المصري ، حتى الحالي منه . فالاطارات الاجتماعية للشعب لم تنفسخ بعد ، والمواطن المصري العادي كان لا يزال يشعر بأنه جزء من عائلة وعسيرة ومجتمع . ولكن الفرد في أفقر العائلات بقي قائما بحرمانه لانه لم يكن وحيدا في آلامه وعذابه ، ولانه اعتاد على العاقبة والحرمان حتى أضحى ذلك عادة في حياته وطبيعته لا مجال للتشكي منها . ولم يكن يشعر بتأثير الثقافة الغربية واهتمامها بحرية الفرد واستقلاله الا بعض الضباط والمفكرين وبعض من نبذهم المجتمع وشردوا . وقد كان عند هؤلاء فقط استقلال شخصي واطلاع وتصورات كافية لتوليد الشعور بالنقمة وبالاضطهاد وكان عبد الناصر مقتنعا بضرورة تفتيت المجتمع الاقطاعي الموروث ، وإعادة تنظيم هيكل السلطة وأنظمة الحكومة كلها . (وكان هذا شبيها بما فعلت

القوى المستوطنة (أو المستعمرة) في بلاد عديدة في إفريقيا وآسيا ولم يتحقق ذلك الا جزئيا في مصر) . وبعد ذلك عليه أن يستعد لمواجهة نتائج الاستيلاء السريع عند الامة . ثم بتصرف مدروس وباتزان وهدوء سيثير شعور السخط والاستياء عند الشعب ويشير نغمته ضد التقاليد المتفسخة ، وبعدها ينشر بينه التلهف للتطور والازدهار . ولن يفعل هذا حتى يكون في مركز يمكنه من تحقيق هذا التشوق والالاح . ففي « الحالة الاولى » - ويكون على رأسها نجيب - اعتقد عبد الناصر أن بإمكانه ازاحة العناصر التي يخلد وجودها بقاء المجتمع القديم مثل الاحزاب السياسية السابقة والاقطاعيين المقيمين بعيدا عن اراضيهم والشركات الاجنبية المتحكمة بالتجارة . بينما يدع التركيب الاجتماعي سليما حتى يشعر بالثقة والطمأنينة الكافية فيبدأ عندها بغمزه في جنباته ليرى ردود فعله . وعلامة على صفاته السلبية (مثل رغبته بالبقاء زعيما شكليا) فقد وقع عليه الاختيار لمظهره كالآب المطوف بالشكل القديم وبدون دوافع ثورية .

لقد تخيل عبد الناصر أن « الحوافز للبناء والازدهار » هي المرحلة الثالثة في مراحل توعيته للشعب والنهوض به . وكان يعلم أنه ربما كان هناك بعض الوقت قبل الوصول اليها . ولم يكن ليسلم بتفسير تشاؤمي للفرص التي أمامه حتى أخبره أحد أفراد فرق الاستشارة الامريكية التابعين له (آرثر ليتل كومباني في بوسطن) بما يلي : « حتى لو حصلت على مليار من الدولارات التي تحتاج اليها في خطتك الخمسية ، وحتى لو نجحت خطتك الخمسية نجاحا كاملا بدون أي تعثر وتوقف ، وحتى لو بذل كل فرد في المجتمع المصري قصارى جهده وغاية طاقته مستخدما كل الخبرة والمعرفة الاجنبية ، فان أفضل ما تستطيعه حينئذ هو المحافظة على الوضع الراهن والحيلولة دون تفهقر أكثر الى الوراء » . وبعبارة أخرى ، فان على عبد الناصر أن يمارس أقصى مهارته لحث شعبه وتحميسه ، وعلى الشعب أن يستجيب له كليا وبفعالية مائة بالمائة حتى يتمكن فقط من المحافظة على الحالة كما كانت سابقا دون أي انهيار . ومع كل هذا المجهود فلن تتوفر لقمة واحدة من الخبز كزيادة لاي فلاح ، كما أنه ان تزداد وسائل الراحة للفرد العادي في المجتمع . ولن يكون هناك تعليم أفضل أو أي تحسن في أي شيء على الاطلاق . وذلك لان الزيادة القصوى في الانتاج القومي تعادل زيادة عدد السكان سنويا . ولم يكن ثمة أحد على الاطلاق يدون

استثناء عبد الناصر نفسه أو آرثر ليتل كومباني أو أي انسان ينظر نظرة واقعية الى المجتمع المصري ليعتقد أن تحديد النسل سيكون موضع ترحيب الى الحد الذي يظهر اختلافا واضحا ، وتعديلا جذريا ، للوضع المتدهور .

ولم يكن عبد الناصر ليقبل هذه النظرة المتشائمة للحالة في مصر ، حتى أنه قال مرة لاريك جونستون : « يجب أن يكون هناك طريقة أخرى للعيش على وجه هذه البسيطة تتمكن بها الدول المائلة لمصر من احراز بعض التقدم الذي لن يحوز على اعجابكم أنتم الغربيون ، أو على اعجاب أفراد شعبنا الذين يشاهدون الافلام السينمائية الغربية ، ولكننا نعتبره نحن (من وجهة نظرنا) تقدما حقيقيا » . وعلى أي حال ، فقد أدرك ناصر أن شعبه يشاهد الافلام السينمائية الغربية ، وأنه حال تحرره من ربة الحنين الى المجتمع الذي اعتاد عليه وألفه ، فإن شهية أفراداه وتلفهم ستتخطى الطريقة الجديدة التي يحاول عبد الناصر ابتداعها للعيش على وجه هذه البسيطة ، والتي لا يزال يلزمه وقت طويل لاستنباطها والتعرف عليها . وهكذا فقد أدرك عبد الناصر أن عليه التوصل الى حل وسط (أو مرحلة متوسطة) وهو ما نسميه « بالحالة الثانية » . وهي حالة تطوير البلاد بالبحث وبالترغيب ، والتي يمكنه فيها أن يخفف من شدة التباين بين الرغبات وبين فرص تحقيقها باللجوء الى أشياء أخرى بديلة .

« والحالة الثانية » هذه هي أكثر مراحل حكم ناصر أهمية لنا ، وذلك لأنها تساعد في فهم سلوك الحكام من النموذج الناصري *Nasser Type Leader* الذين تزدهم بهم طاوله « لعبة الامم » ، وتغلب نوعيتهم على حكام الدول غير الغربية الذين يواجهون باستمرار أزمة الاختيار عند مفارق الطرق . وتتضمن هذه المرحلة المقومات التالية : (١) رفض القيم الغربية وكذلك النظرة الغربية لمستقبل العالم ، (٢) نكران الذات في سبيل القضية ، (٣) الثورة على النظام القائم والاطاحة به دون اعطاء أي فكرة عن النظام الجديد البديل ، (٤) تفضيل الموت على الانصياع لقواعد أساسية وذات مغزى تتطلبها اعتبارات « الحالة الثالثة » كالأزدهار ومضاعفة الدخل القومي ولكي ندرك أبعاد الرعب الذي تنطوي عليه هذه القواعد فمن الضروري أن نتصور الاوضاع العالمية في سنة ٢٠٠٠ م (كما تصورتها مؤسسة هدمسون في كتاب جديد أصدرته حديثا) التي

سحبوا لسكان الشرق الاوسط بصورة توجب عليهم بالضرورة البقاء في
• الحالة الثانية •

ان المصري (أو الباكستاني أو الافغاني أو اليمني) السذي أثيرت فيه
كوا من ،) يرى أن عام ٢٠٠٠ سينطوي على نقص فادح في الغذاء والمساكن
الاولية ، وزيادة كثيفة في السكان تتنافس لاجل الحصول على تلك الحاجات
الحيوية ، وعلى القوة التي ستقرر من سيفوز بما ينتجه العلماء بتزايد من
اكتشافات لاساليب ذات مردود أفضل وبمادة أقل • وللغرد المصري في أوائل
عصر نهضته ، فان ظاهرتين اجتماعيتين لمجتمع « أساطير العلم » تلوحان في
الافق وهما تتوعدان وتتهددان ، أولاهما : الهيمنة المستمرة للصفوة المختارة ،
في الغرب التي تمارس شبه سيطرة احتكارية كاملة على المعرفة العلمية ،
وثانيهما : ازدياد سطوة « الصفوة » الغربية الظالمة على كل فرد آخر من الغالبية
المظلمى لبني الانسان ، حتى تتمكن من تأمين توزيع عادل للفضاء والغذاء ولكن
من الحاجات الضرورية الاخرى بغية الابقاء - على الاقل - على أقل حد أدنى من
الحياة • ولعبد الناصر عقل حاد وبصيرة نفاذة حيال الامكانيات العلمية •
فهو - أكثر من أي انسان غير غربي - يعترف بحتمية الوصول الى مثل تلك
الظروف والاحوال (الآنفه الذكر) وأن الغرب هو الوحيد الذي يملك امكانية
معالجتها • ويتصور ناصر أيضاً أن « الصفوة » الانكلو سكسونية ستبقى منيعة
ومسيطرة على لعالم وستكون حياتها شبيهة بالطراز الامريكي الذي يراه في
أفلام السينما وفي التلفزيون ، في حين ستقتات البقية الباقية من العالم بما
ستقدمه لها الليبرالية الغربية من هبات ومنح (ما عدا اليابان التي لم تجر
ذاكرته في ارجائها بعد ليفكر في مصيرها) • وبالْحَقِيقَة ، فان ناصر يتصور
العالم كما يتصوره اولئك الطلبة المشاغبون • فهو لا يتمكن من اعاقه مجيئه ،
ولكن مع هذا فلا يزال يصر على رفضه ويحرض شعبه المهمل واللامبالي على
العمل عن طريق تخويله بما يخبيء له مستقبل العالم من أخطار وأحوال •

وخلال « الحالة الثانية » فانه يجب على القائد أن : (١) يشوه سمعة
النظام القديم الى حد يشمر معه الشعب بالخجل من أن يبقى ذاك النظام جزءاً
من كيانه ، (٢) يقدم ويعرض منافع ومكاسب مادية ومعنوية كان الشعب
محروم منها بسبب « العدو » مع أنها حق طبيعي للشعب لا ينازعه فيه أحد ،

(٣) يحشد ضد « العدو » كل القوى والطاقات التي عانت من الحرمان والفشل وخيبة الامل . وكان كل من ناصر ونكروما وسوكارنو وغيرهم يجرون حساباتهم على القاعدة التالية : في « الحالة الاولى » يمنح الشعب من امداد طاقاته وينصح بتوفيرها لاستعمالها في « الحالة الثانية » ، وفي « الحالة الثانية » تحشد الطاقات ضد العدو مع استمرار الشعب بتوفيرها دون توقف . وطالما ان الشعب لا يستعمل هذه الطاقة ضد النظام القائم فان هناك بارقة امل ان يتمكن القادة من اعادة توجيه هذه الطاقة في « الحالة الثالثة » واستخدامها في سياسة البناء والاصلاح .

ومن مستلزمات حشد العواطف وتهييج المشاعر في « الحالة الثانية » نكران الذات . ان الفرد العادي من اهالي الشرق الاوسط يرى نفسه شخصا من الدرجة الثانية (وهو في نظره هذه أكثر وضوحا من اهالي الغرب الذين ينظرون اليه على أنه من الدرجة الثانية لاسباب عرقية - عنصرية) وبالتالي فلا يمكن انارته عن طريق التلويح له بالمنافع والمكاسب الشخصية كما تفعل نحن الغربيون في الخطابات السياسية وافتتاحيات الصحف والاعلانات التجارية . ولقد ادركت هذه الناحية من أحد ضباط عبد الناصر الذي سمعني أكثر من مرة وأنا أعرض أفكارى بنفس الطرق التجارية التي تعرض بها البضائع في « اوكازيونات » شارع ماديسون في نيويورك والتي بصراحة تبرز المصلحة والكسب الشخصي . فقد قال لي : « انك في هذه الثورة لن تفلح في حملنا على فعل ما نريدنا أن نفعله بأن نرغبنا بمكاسب نحصلها لاشخاصنا ، فنقد تخليتنا عن هذا منذ زمن بعيد . اننا كلنا خدم لقضيتنا فأغرننا على فعل ما نريد بالوسائل التي تخدم قضيتنا » .

ان « المتزمت » هو الذي يضحى بمصالحه الشخصية في سبيل هدفه . وبالتالي ، فان تحديد هدف ما ، مثل أن يكون « عدو مشترك » ، يضمن التضحية ويحقق الانقياد الاعمى . فالانسان الذي يضمن بحياته في سبيل تحقيق بعض المصالح الشخصية الآنية يسترخصها ان كان الهدف ساميا وجديرا بذاك المستوى من التضحية والبذل ، كالتضال ضد « العدو » .

ان الطلاب الذين يتظاهرون للحصول على اوضاع أفضل والذين لديهم

فكرة واضحة عما يسمونه « أوضاعا أفضل » هم نوع مختلف تماما عن ذلك النوع من الطلاب الهائجين الذين لا هدف لهم سوى تحطيم أنظمة الحكم بدون ان يكون لديهم اية فكرة عن النظام البديل الذي سيحل محل الانظمة القديمة . وعليه فان الحكام من طراز عبد الناصر يفضلون النوع الثاني لهدف واحد لا لسواه . وهو ان اولئك الهائجين الثائرين ليس لديهم أفكارا واضحة محددة بخصوص الاوضاع الافضل (ولهذا يقبلون بأي شيء) ، الى جانب ملاحظة اخرى وهي ان الصنف الثاني هو أكثر النوعين استعدادا ليصبح متمزتا ومتعصبا ، في حين يصعب التلاعب بالنوع الاول لوضوح مفاهيمه ودقتها .

وهكذا فلامهداف « الحالة الثانية » كان عبد الناصر بحاجة الى شيء من التزمّت الموجه الذي يكفي فقط لابقاظ أفراد الشعب من سباتهم وليس أكثر من هذا وذلك خشية أن يفلت الامر من سيطرته فيصبح خارج نطاق وسائله لتصرفه وتفريغه . وهذه هي النقطة التي بدأ عبد الناصر عندها يواجه الصعاب في الشؤون الداخلية . فكما سنرى لاحقا ، فان تحركات عبد الناصر المثلثة حول طاولة « لعبة الامم » كانت تتطلب شيئا من التأييد المطلق والاعمى في داخل البلاد (وهذا معناه « التضحية » بالمكاسب الشخصية في سبيل الاهداف) . ولكن الفرد المصري لا يمكنه ان يمنح هذا بسهولة . وبالتأكيد ، فمن الصعب أن يقتنع الفرد المصري بهذا النوع من التعصب عن طريق زعيم أو حاكم لا يؤمن هو نفسه بهذا النوع من التعصب والتزمّت في داخل بلاده ، بل يؤمن به فقط عندما يُستخدم في اراضي اولئك الزعماء الذين يناصبونه العداء بغية ارهاقهم واحراجهم . كما أن ذلك الزعيم يرفض أن يكون هذا التعصب نتيجة عقائد متأصلة (أو غوغائية مطلقة التي لها نفس الاخطار) بل يسأل يريده ان يكون نتيجة منافع ومكاسب آنية وشخصية .

ان رجل الشارع في مصر لا يتمتع بفهم سريع أو بثقافة واسعة كابن عمه السوري(الذي يتصف بسرعة تجاوبه مع مثل تلك الاغراءات) ولكنه أكثر هدوءا وأقل انفعالا ولا يميل الى تصديق كل ما يقال له .

ويجب على عبد الناصر أن يكسب مقدارا أدنى من التأييد الشعبي لدعم تحركاته التي يقوم بها في « لعبة الامم » والتي هي في الحقيقة من النوع الذي

يتطلب تأييدا شعبيا « متعصبا » . وكان عليه وعلى حكومته ان يبذلا اضماف الجهد الذي يبذله القادة السوريون للحصول على مثل هذا التأييد . ويمجيز المراقبون الغربيون عن فهم ضرورة توظيف عبد الناصر لقسط هائل من الجهد القومي فيما يسمى بالاتحاد العربي الاشتراكي (وهو حزب عبد الناصر الوحيد المسوح له بالعمل في البلاد) بسبب عدم ادراكهم « لنوعية » ، ذاك التأييد الشعبي الذي يحتاج له (وهو من النوع « المتعصب ») الذي يتطلب انفاق مقدار مدهش من الجهد القومي لتأمينه وضمانه .

ومع اننا سنعالج « الحالة الثالثة » بشكل اوسع واعمق في فصل لاحق ، الا انه لا مانع من القول ان هنا كافة المفريات التي كان ناصر يقدمها للشعب في « الحالة الثانية » ، انما كانت تخدم تماما اهداف « الحالة الثالثة » ، وهذا هو السبب الكامن وراء عدم تجاوب الشعب معها واضطرار ناصر للصحيا بملء شذقيه داعيا لها . ولقد اثار المستشارون الامريكيون الى ان مصر لن تشكل مصدر خطر وقوة الا اذا تركت معتمدة على مواردها المحلية فقط . ولهذا فان المساعدات الخارجية تشكل منطلقا حيويا لها . ولقد أدرك عبد الناصر نتيجة خبرته مع حكومة الولايات المتحدة ومع السوفييت ان حصوله على المساعدات الخارجية يتناسب طردا مع مدى اقتناع « هاتين الدولتين » بأهمية دوره وانها قوة لها وزنها في « لعبة الامم » . والسبيل الوحيد للوصول الى هذه المرتبة لا يستلزم سلوك طريق نموذجي في البناء والاصلاح وانما يستلزم تطوير قضية تسبب قلقا وخوفا للدول الكبرى التي - على الاقل - لن يكون لها الخيار في ان تنظر اليها بعين الجذ والاهتمام . وكان بإمكان ناصر ان يستحث جهود شعبه عن طريق وعده بحياة اقتصادية أفضل ، الا انه: (١) لن يمر زمن طويل حتى يكون الشعب قد اكتشف زيف هذه الوعود ، و (٢) لن تكون يقظلة الشعب كافية لان تجعل من ناصر عاملا حاسما في « لعبة الامم » حتى يتمكن من الحصول على المساعدات الاجنبية بفيية تدعيم وضعه .

ان مشاكل ناصر في « الحالة الثانية » تستدعي سلوكا غوغائيا مطلقا . وكما قلت سابقا ، فان ناصر ينطوي على قسط كبير من الغوغائية لا يقل عن ذاك الذي يتصف به كثير من السياسيين الناجحين ومنهم المرشحين لرئاسة الجمهورية الامريكية . الا ان هناك فارقا واحدا : فالزعيم الغوغائي الصادي

يحاول أن يحدد وجهة الجماهير وذلك ليتصدر بعدها المسيرة بنفسه . الا ان الزعيم الفوغائي الناجح هو الذي يفلح في اقناع الجماهير أن تطالب من نفسها بالتوجه الى بيت يرى الزعيم أنه المكان الذي يتوجب عليها أن تتوجه اليه . وهذا ما يفعله الحكام من الطراز الناصري بوسائل غير مباشرة ، حيث يدفعون الجماهير لان تطالب بالتوجه الى المكان الذي يريدونه لهم ، ومن ثم ليتصدروا مسيرتها بطرق لا تختلف عن تلك التي يسلكها الزعيم الفوغائي العادي . ولعلنا نستطيع القول أيضا ان عبد الناصر بوسائله غير المباشرة يخلق عند الجماهير ميولا واتجاهات تجعلهم يمارسون الضغط عليه لاتخاذ اجراءات طالما تمناها وسمى لها . واتباع ناصر لكل هذه الاساليب لا يخرجها عن القواعد العامة المطبقة في « لعبة الامم » . وقد قال ناصر مرة لاحد السفراء الامريكين : « انني أفعل ما أفعله لان الرأي العام لا يسمح لي بفعل غير ذلك » . الا أن السفير الامريكي كان أكثر دهاء وخيئا عندما أجابه قائلا « ولكن سيدي الرئيس ، من هو الذي دفع بالجماهير الى هذه الحالة وتلك المواقف ! ؟ » . وهنا ارتسمت على شفطي الرئيس ابتسامة كلها رقة وعدوبة .

وبعدما مررنا مرور الكرام على هذه الطرق غير المباشرة ، يجدر بنا الآن أن نعطي ملخصا عنها . فهي .

● الدعاية :

ان الدعاية التي كانت احدى أركان جهاز القمع ، قد اعتبرت أيضا من ضمن وسائل اكتساب التأييد الشعبي وأصبحت احدى أركان سياسة البناء والاصلاح . وأما أهدافها فهي :

١ - تشويه سمعة الاعداء داخل البلاد باظهارهم مظهر المفسدين والمستهترين بأبسط فيم المجتمع واعتباراته الحقيقية . ومع أن المصريين يدعون أنهم ضد الفساد المالي الا انهم حقيقة عكس ذلك . ولهذا فان ثبوت الرشوة على أي سياسي لن يكون له سوى تأثير بسيط على حياته السياسية . ولكن اظهاره بمظهر الخليع الداعر غير المتدين يعني شيئا آخر أكثر تأثيرا . فالحملة التي سمح بها ناصر خلال سنتي حكمه الاولى والثانية كانت مليئة بالقصص البذيئة والروايات الفاحشة . ولقد شنت هذه الحملة لانها كانت

الوسيلة الوحيدة المجدية لجر أفراد الطبقة الحاكمة المصرية القديمة خارج
أبراجهم العاجية وتعريتهم أمام الشعب .

٢ - وكان هدف الدعاية الثاني الاطاحة بكل الامتيازات الإجتماعية التي
كانت تحمي الطبقات الارستقراطية ، والتي بقيت الى ما بعد تعريتهم من
الاخلاق والقيم الفاضلة . فلقد كان الخوف والرغبة من أفراد الطبقات
الارستقراطية متاصلا في نفوس أفراد الطبقات الفقيرة الى حد اعتبر فضح
الاسرار الجنسية للارستقراطيين أقل ما يمكن فعله لنزع خوف الطبقات الفقيرة
منهم . فقد كان أحد موظفي سفارتنا يقول : « ان المصريين يحبون « البكوات »
(ولهذا السبب فقد أحبوا الديبلوماسيين البريطانيين ولم ينل أمثالهم من
الامريكيين احترام المصريين) ، لكن عبد الناصر قام بتحطيم هذا
الخنوع لحاملي القاب « البكوات » التقليدية في مصر بشتى الوسائل الخبيثة ،
ومنها الافلام السينمائية وتمثيلية التليفزيون التي تمثل رجلا عاديا يطالب
بحقوقه ويضرب الاقطاعي صاحب الارض . ان مشاهد كهذه في قاعات السينما
المحلية قد اثارت الاشمئزاز في البداية ولكن سرعان ما أفتها الجماهير .
فمشاهدة عامل على المسرح الآن تثير على رب العمل ، أو مجموعة من الفلاحين
تلقي الاحجار على ملاك اقطاعي سابق لن تثير سوى موجة من الهتاف عند النظارة،
مع أن أعمالا حقيقية كهذه غير مقبولة اطلاقا في الحياة العامة خارج المسرح .

٣ - وهدفها ايضا احداث موجة من الخوف والذعر في الطبقات
الارستقراطية (طبقة البكوات) عن طريق اثارة الشكوك حولها واتهامها باجراء
اتصالات سرية مع فئات أجنبية تنوي غزو البلاد واحياء النظام البائد وانزال
العقوبات بالطبقات الشعبية البائسة لمصيانها وتمرداها . ونظرا لانه لا يتصور
وجود فئة أجنبية فاقدة العقل والتفكير الى الحد الذي يخطر ببالها الاعتماد على
فئة البكوات المصرية للقيام بانقلاب ضد حكومة عبد الناصر ، فقد كان لزاما على
الحكومة اذن أن تقوم بتزييف الادلة ضد المتآمرين المزعومين ، ونشر خطط
خيانتهم المصطنعة والمختلقة . وكانت بعض القصص المنتقاة بعناية والممزوة
بالاشاعات ، تنشر بمهارة كافية للغرض ذاته . وفي خلال أزمة السويس (التي
اعتبرتها الغالبية الجاهلة برهانا على وجود طاوور خامس موال للاستعمار) ،

قام فريق من الخبراء الاجانب باجراء استفتاء للرأي العام (بعد الحصول على موافقة عبد الناصر) ووجد انه كان هناك فعلا خوف من الطبقة الارستقراطية المطرودة من المجتمع المصري وخاصة اولئك الذين يشك باتصالاتهم الاجنبية . ولم يكن هذا الخوف كافيا فقط لتمرد قسم كبير من المجتمع المصري على الروابط الاجتماعية التقليدية التي كانت تحول دون قبولهم بالثورة ، بل كانت كافية ايضا - بالاضافة الى عوامل الخوف الاخرى - لان تشكل عنصر الخوف الرئيسي الموحد للامة حول رئيسها - كما سبق ان تكلمنا عن ذلك .

● الحزب السياسي الواحد :

استغرب كثير من الدبلوماسيين الاجانب ورجال الصحافة الاذكياء اعتماد عبد الناصر الحزب الواحد في النطاق السياسي ، واضطربوا من القيسود المفروضة على الحريات المدنية . ولكن بما انهم كانوا مطلعين على اهداف عبد الناصر للمرحلة الثانية، فانه من العجيب أن يدرك الانسان انهم كانوا يتوقعون من عبد الناصر اي شيء غير تلك الاجراءات . فكيف يمكن لنظام فيه حزبان سياسيان ان يخدم تلك الاهداف وينجزها ؟ وكيف يمكن عندئذ تمادي حدوث أي تشويش أو اضطراب ، وذلك ما يجب على عبد الناصر أن يتجنبه بأي ثمن كان ؟ وان كان من الطبيعي بالنسبة للغربيين أن يدافعوا عن فكرة المعارضة الحرة كأساس لتطوير المجتمع السياسي المتمدن ويناقشوها مع دى توكوفيل (كاتب مشهور) فان مناقشتهم لعبد الناصر وتوقعهم اياه أن يفعل ذلك يوحى الى أنهم سذج وبسطاء جدا . وسواء كان ناصر على صواب أم على خطأ ، فمن الطبيعي له وعلى الاقل أن يعتقد أن نظام تعدد الاحزاب السياسية سوف يتخسر - كما اخبر عددا من الزوار الغربيين - عن استمرار المنافسة بين الحزب المدعوم من قبل الامريكيين ضد ذلك المدعوم من قبل الانكليز وكذلك ضد الثالث المدعوم من السوفييت . وهكذا تبقى البلاد عرضة للتنافس بين هؤلاء الثلاثة الا اذا كانت لدى الحكومة القدرة المالية على منافسة هؤلاء الممولين الثلاثة الكبار لتدعم حزبا من افكارها وآرائها . وأكثر من هذا فهو مدرك تمام الادراك قابلية انجذاب العناصر المتفوهة من المجتمع المصري نحو الحركات المتطرفة ، وكذلك نزعة هذه الحركات المتطرفة في أن تكون ضد

الفئة الحاكمة مهما كانت نوعيتها وطبيعتها . واخيرا ، وبدون الموافقة لو المعارضة ، يجب على المراقب الغربي أن يدرك تمام الادراك أن مرحلة عبد الناصر الثانية - كما يراها بنفسه - تتطلب فترة من الانضباط والخضوع السياسي والاقتصادي والاجتماعي . وفي اثنائها يتمكن من حشد افكار وطاقات الشعب لدخول « الحالة الثالثة » الشائكة المرعبة . ان عبارة « الشعب الحر » ، كما يراها عبد الناصر ويفهمها ، بإمكانها أن تفعل وتنجز كثيرا في دولة غربية مثالية . ولكنها لا تعني ، في دولة عربية نموذجية ، الا هدر الطاقات في طرق معطلة للاتناج ومعوقة له .

انني اوصي القارىء المهتم بالموضوع بقراءة كتاب « الجيش المصري في السياسة » ، لمؤلفه د- ج . فاتيكوتس ، للوقوف على تفاصيل أكثر وأدق . وللاستمرار في موضوعنا فانه يجب علينا أن نقرر ما يلي : استنادا الى نظرة الحكام من الطراز الناصري الى الامور ، فان كل ما تحتاج اليه الجماهير - على حد رأيهم - هو حرية التصويت وليس حرية مناقشة أو معارضة ما هم مدعون للتصويت عليه (الا ضمن حدود الحزب الواحد الحاكم) . ففي الديموقراطيات الغربية يعتبر الحزب أداة يستعملها أفراد للضغط على الحكومة وحملها على أن تفكر بطريقتهم . الا أن الحزب في مصر هو أداة الحكومة لحمل الشعب على أن يفكر بالطريقة التي يريد لها حاكم الدولة . ومن السذاجة المطلقة والغباء الصرف أن نتصور مهمة نظام الحزب الواحد غير هذا .

● الآلاف المؤلفة من الموظفين :

عندما ذهبت وفريق من المهندسين في فن الادارة الى مصر سنة ١٩٥٣ ، كانت بعثتنا ذات طابع رسمي وبهدف تنظيم ادارات ومؤسسات الدولة المصرية لتعطي أكبر مردود في الخدمة العامة وبأقل عدد ممكن من الموظفين . وبعبارة أخرى ، جعل الادارة نافعة وفعالة . ولكن سرعان ما أدركت أن النظام الاستعماري البريطاني (أو النظام الذي كان سائدا في امريكا في عهد فرانكلين د . روزفلت) هو المفضل لبلد مثل مصر . ولا تزال ماثلة في مخيلتي صورة رئيس دائرة الجمارك عندما ارتعدت فرائصه أمام اقتراح قدمه أحد زملائي

بخصوص طريقة تصريف شؤون دائرته . فقد كانت الطريقة الجديدة المقترحة تساعد على الاسراع بالاجراءات الجمركية الشائكة ، وتقدم خدمات افضل لشاحني البضائع ، وتقلل من فرص التهريب من تسديد الرسوم المتوجبة . ومع ذلك فقد كانت موضع اشمئزاز وامتناع رئيس الدائرة لا لشيء سوى أنه لا يحتاج تنفيذها لاكثر من عشرة موظفين بدل الثلاثين موظفا المداومين يومها في تلك الدائرة . ولكن دهشتي قد زالت عندما التقيت بصديق بريطاني كنت اسمى حيننا لاسمع بعض نصائحه ، فقال لي : « لو كنت المسؤول عن معالجة الوضع ، فباعتقادي انه يجب علي استخدام خمسين موظفا وليس عصر الثلاثين الى عشرة موظفين » . ان غاية الحكومة في مصر (من وجهة نظر اكثر عمقا) ليست خدمة الشعب وتسهيل مصالحه بقدر ما هي تجنب القسم الاعظم من الشعب التسكع في الشوارع بدل تركه عاطلا عن العمل مشردا ، الامر الذي يجعله يشكل خطرا كاسحا . ولو أن بريطانيا لم تنفذ هذه الفاسفة في مستعمراتها ، فان بلادا مثل الهند والباكستان ونيجيريا وغانا كانت ستحرم من قسم كبير من لابسى الياقات البيضاء الذين يشكلون الطبقة الوسطى فيها . ولن يجد عبد الناصر بعدها من ينتسب الى اتحاده الاشتراكي العربي .

وفي اوائل ١٩٦٧ كان عند عبد الناصر حوالي مليون موظف مدني في جهازه البيروقراطي ، باستثناء ادارات الجيش والشركات المؤممة . ان مؤسسة بوز آلن آند هاميلتن (وهي اكثر مؤسسات الدنيا جدارة في قضايا الادارة العامة) قالت ان الحكومة المصرية لا يمكنها أن تستخدم أكثر من ٢٠٠ الف موظف . ولقد دفع عبد الناصر ثمن فوضى الادارة في بلاده . ان في حوزته مليوناً من لابسى الياقات البيضاء من أفراد الطبقات الوسطى التي يقطن معظمها في مدينتي الاسكندرية والقاهرة ، والذين عليهم أن ينضوا تحت لواء الاتحاد الاشتراكي والا لما خدموا أهداف زعيمهم . أما بخصوص موجة الفساد فذلك نتيجة لا بد منها لظاهرة حشو الادارات بما لا يلزم من الموظفين . وقد استخدمها عبد الناصر كما استخدم دامون رونيون الاتجار بتذاكر السينما (١) لتمويل مشروع مكانحة السرطان . وبدلا من الاكتفاء بملء الجيوب بالطرق غير المشروعة ، فقد عمدت طبقة عبد الناصر البيروقراطية (طبقة الموظفين وخاصة التي

(١) البيع بسعر أعلى من سعر الشراء بقصد الربح - يقصد ان الطريقة تجر ويلات اشد .

هي في تماس مباشر مع الشعب مثل وزارة الشؤون الاجتماعية والداخلية
والتريرية) الى خدمة الامة والنظام تماما بنفس الطريقة التي خدمت بها قاعة
التاماني (١) مرة الحزب الديموقراطي في نيويورك .

● الأسطورة :

كان ناصر طرفا في العديد من الدراسات والمناقشات التي دارت بينه
وبين التأميرين معه من الضباط ، وقد تحل فيهما بالصبر والناة . الا أن تلك
المناقشات لم تكن سوى من النوع الذي يرمز له بأنه « جيد ان كان بساقين
وسيء ان كان بأربع » . وقد أدرك ناصر دائما أنه حتى أقل الناس ثقافة - الى
جانب غيرهم من المثقفين - لا بد من استمالتهم عن طريق تقديم مغريات أكثر
واقعية وحيوية من تلك التي بمقدور ضباطه الاعلان عنها أمام الشعب .

لقد بذل ناصر قصارى جهده للعثور على « باعث ومحرض » يملك
توحيد الامة وتجميع شملها حوله . لقد كان ناصر بحاجة الى « عامل ما » ذي
تأثير شبيه بتأثير الاضراب العام على نقابات العمال في فرنسا ، أو شبيه بتأثير
الثورة الحمراء الذي يريده ماركس . وبعبارة أخرى ، لقد كان ناصر بحاجة الى
ما عبر عنه « جورجس سوريل » منذ أكثر من سبعين سنة ، وحسده باسم
« الاسطورة » وهي : « عبارة عن مجموعة تصورات وانطباعات تملك القدرة على
اثارة كل المواطنين والمشاعر بطريقة غريزية وأن تتخذ طابعا مماثلا لاحد أوجه
الحرب التي تشتتها «الاشتراكية» ضد «المجتمع الحديث» ، الا أننا يجب - في
مقامنا هذا - أن نستبدل كلمة « الاشتراكية » بلفظة « الثورة » وكلمة « المجتمع
الحديث » بلفظة « أعداء الثورة » بغض النظر عن قصد ناصر الحقيقي من وراء
هذه الألفاظ .

وليس من المهم أن يعني ناصر أي شيء محدد من وراء تلك الألفاظ .
فربما تنجح الاسطورة في حشد العواطف ضد أي « مجهول كبير » وذلك لان
الاسطورة لا تعني حقيقة سوى مناشدة العواطف دون العقل والتفكير السليم .
وكل مستلزمات الامر - كما يقول سوريل نفسه - هو « توفر مجموعة من
الرجال ليشاركوا في حركة اجتماعية ضخمة شريطة أن يتوفر عندهم الانطباع

(١) مقر قيادة الحزب الديموقراطي في نيويورك ويعني انها لم تنفعه بشيء .

ان عملهم هذا انما هو المعركة التي سيتمحقق لغضبتهم فيها الانتصار بصورة اكيمة لا شك فيه ولا التباس ، • ولربما تكون الاسطورة على درجة كبيرة من الغموض والابهام ، او انها ناقصة التفاصيل • ولربما تظهر على انها ليست اكثر من مجرد احلام لا وصف لها ولا تحديد • وليس من الضروري ان يكون هناك اي ارتباط بين الحقائق الملموسة وبين الانطباع الذي كونه الشعب لنفسه قبل ان يباشر الصل (ولا يشترط وضوح هذه العلاقة - ان كان هناك أي منها - للرجل المفكر) . فالاساطير ليست شروحا وأوصافا لاشياء محددة ، ولكنها تعابير عن التصميم على العمل والمريية على النضال • ولا يمكن دحض الاسطورة او تكذيبها وذلك لانها تكون في الاساس منسجمة مع اعتقادات المجموعة ، كما ان الاسطورة هي يحد ذاتها تعبير عن تلك الاعتقادات ولكن بلغة العمل والحركة • وبالتالي فانها صعبة التفكيك ولا يمكن ردها الى العناصر التي تكونت منها لاعادة دراستها وتسلسلها التاريخي والتحقق من اصلها • ومن غير ان اكون واقفا من ان ناصرا قد قرا كتاب سوريل ام لا ، وبدون استعمال كلمة «الاسطورة» نفسها، فان ناصرا كان يعبر بين الحين والآخر عن افكار مشابهة للافكار السالفة الذكر مع فارق بسيط • ولم يختلف ناصر كثيرا عن مدير تلك المدرسة التي ينتسب طلابها الى طبقة « اصبحت غنية حديثا » والذي اجتمع بهيئة المدرسة وطلب منها تقرير تقاليد جديدة تتبناها المدرسة وتكون ذا تأثير على عائلات الطلاب • فقد قرر ناصر ان يتخذ لنفسه طابعا مميذا وبالتالي ان « يتبنى اسطورة » معينة • ومع ان ناصرا قد اختار اسطورة لا تمثل أيا من طموح الشعب وآماله الا انه تفاهل ان يتخذ الشعب من تلك «الاسطورة» مبادئ له واهدافا •

ولا ندعي ان عبدالناصر بدأ من الصفر : لقد بدأ بادراك تام لتخيلات واحلام الشباب المصريين بنفس الطريقة التي يحلم بها المراهق الغربي بانقاذ فتاة رائعة الجمال من عمارة تستمر فيها النيران ، او بطريقة الموظف العابسي كثير الصياح الذي يتخيل انه (على طريقة والترميتي) يستطيع ان يسز رب عمله المستأسد ويتفوق عليه • فالفتى المصري يتصور انه بطريقة ما سيتغلب على الاوربيين الذين احتقروه لزمان طويل • ولقد سمعت ضباط عبد الناصر الاحرار وهم يتبادلون القصص المفصلة لساعات طوال من غير انقطاع ، عن

بطولاتهم ضد قوات الاحتلال البريطانية ، وكل تلك القصص مزيفة من غير شك . وكان عبد الناصر مدركا تمام الإدراك للنشء الذي سيجعل منه بطلا في أعينهم . وكما قال دانيال ليرنر : « المتفائلون - فقط - في القرب فسروا استيلاء عبدالناصر على السويس (كمثال) على أساس انه قام به بدافع الحصول على رسوم القناة وعائداتها » . لقد عرف عبد الناصر كيف يصبح رمزا لنهضة الشعب المصري المضطهد . وكما قال مورد برغر : « لقد حاول اذلال كل من أذلّ العرب » . وبعبارة أبسط ، فلقد ظهر على أنه أول « منتصر » ، مندسنوات طويلة خلت ، وفي دولة اعتاد شعبها على أن يعتبر نفسه من الخاسرين دائما . وكونه منتصرا ، فلقد حُفول أن يظهر في مظهر متواضع عندما كان يصف نفسه على أنه مجرد ممثل أعلى للشعب، ولا يستبعد أن يكون ذلك أصيلا في نفسه . وهكذا فهو يشبه كلا من موسى وكرومويل ولينين . ان ثقة ناصر الفائقة بنفسه يشعر بها كل من يقابله، وسبب ذلك أنه - كأولئك النماذج: موسى، كرومويل، لينين - قد ملأ دورا في مسرحية كان يفتش مخرجها عن ممثل ينجح في تأدية ذلك الدور ، كما أنه قد أفصح عن هذا في كتابه « فلسفة الثورة » . ولهذا فإن تأديته لذلك الدور عدل أخلاقي ومثالي بدون أدنى ريب ، كما أنه جزء لا يتجزأ من « الاسطورة » . وأما أتباعه فانهم - شعوريا أو لا شعوريا - يرون علاقتهم بتلك القوة العظمى قد تجسدت فيه ولكن دون أن يكون لديهم أي تحديد لتلك القوة العظمى ، (وبالطبع فان هذا غير ضروري لاستكمال الاسطورة) ، ولكنها - على الأقل - هي تلك القوة التي وضعت المصريين مع الاوربيين حول طاولة واحدة دون تفريق أو تمييز . (ويرى عدد من علماء الاجتماع أن حب المصريين للاوربيين وكرهيتهم لهم في آن واحد جزء هام في التكوين العاطفي للمصريين) . كما أن تلك القوة قد جعلتهم أعلى بمرتبة - أو بمرتبتين - من سائر الشعوب العربية الأخرى . (ولا بد من ادراك حقيقة مهمة جدا وهي أن فكرة « القومية العربية » ليست جزءا من « اسطورة » ناصر ، الا أن مفهوم كون مصر « رائدة العرب » قد غدت جزءا مهما من الاسطورة) .

وبعبارة أخرى ، فان أسطورة عبد الناصر هي مجموعة تصورات وانطباعات تحيط بمركة الرجل الملون (العرب والمسلمين والافريقيين) وهي دوائر عبد الناصر الثلاث (ضد الاوربيين (السوفييت والغربيين) : مركة

يتفق فيها الرجل الملون كل الثقة من أنه سيفوز في النهاية . كما أن استخدام عبد الناصر لرصيده في أجهزة البناء والاصلاح (مثل الدعاية ، الحزب السياسي الواحد ، الآلاف المؤلفة من الموظفين) يهدف الى تخليد تلك « الاسطورة » . ومع اننا سنستعرض في الفصول اللاحقة كيف انتقل ناصر الى مرحلة الحكم البونابرتية (مفوض الشعب) فان نظرتنا حول ناصر وأسطورته ستكون ذات خدمة جلييلة خلال استعراضنا لمحاولات ناصر للربح ولاكتساب التأييد الشعبي وكيف أنها قد أثرت كثيرا على مرونة حركته ومناوراتها في « لعبة الامم » (١) .

(١) ملاحظة للقارئ :

وسائل القمع تمنى : القوات المسلحة ، وسائل الدعاية ، المخابرات ، الامن العام (البوليس) ، التشريعات والانظمة .

وسائل البناء تمنى : الدعاية والاعلام ، الحزب الواحد الحاكم ، الاجهزة البيروقراطية الضخمة (الآلاف المؤلفة من الموظفين) وكلها تخدم تخليد « الاسطورة » .

ونلفت نظر القارئ ان للواكف يعني بكلمة « المرحلة » على انها احدى تلك المراحل التي سبق ذكرها صفحة ٢٣ في « التقرير » . واما كلمة « الحالة » فهي شيء آخر (انظر اسفل صفحة ١٥٤) . (المغرب)

ناصر وأحمد الإيجابي

... أما استراتيجية اللعيف العاجز فهي الإبلاغ بين الاقوياء. عله ينجو بنفسه

في أوائل ١٩٥٣ ، لم يعد خافيا على عبد الناصر أن الاقتصاد المصري لن يقوى على الوقوف دون مساعدات خارجية . ومع أن تقرير آرثر ليتل لم يكن يوما قد نشر بعد فان عبد الناصر كان يطمح بمساعدات ضخمة تفوق تقدير أكثر الجهات احتمالا لتقديمها ألا وهي الولايات المتحدة . وقد حدد عبد الناصر بدقة ووضوح معالم الدور الذي يتحتم عليه أن يلعبه على المسرح العالمي حتى تقتنع الولايات المتحدة باعادة النظر في سياسة مساعداتها الخارجية لصالحه . الا أن ناصرا قد أدرك أن ذلك الدور لم يكن منسجما مع أوضاع البلاد الداخلية ، فهو ليس في « الحالة الاولى » (١) ، وهذا ما اضطره الى الاخذ « بالحالة الثانية » (٢) . وكان المراقبون الغربيون يميلون الى اخذ تصرفات ناصر في « الحالة الثانية » والاهداف التي يعلن عنها على اساس معناها الظاهري ودون النظر الى ما وراءها من دوافع ، ولهذا فقد كانوا يحكمون عليها بالفشل . لقد كسب عبد الناصر الحد الذي يطمح اليه من عواطف الجماهير دون أن يدفع بها

(١) الحالة الاولى (من الفصل السابق) : يحاول ناصر أن يزيل القوى التي تكرس بقاء المجتمع القديم وهي مثل الاحزاب السياسية ، الاقطاعيين ، الشركات تحت السيطرة الاجنبية مع ترك التركيب الاجتماعي دون تغيير .

(٢) الحالة الثانية (من الفصل السابق) : حل وسط ، وهو تطوير البلاد بالبحث والترغيب للتعطيف من شدة التباين بين الرغبات وفرص تحقيقها باللجوء الى اشيء بديلة . وبين مقوماتها : رفض القيم الغربية والاعتبارات الغربية لمستقبل العالم نكران الذات في سبيل القضية ، الاطاحة بالنظام القائم دون تولد صورة واضحة عن النظام البديل ، رفض الخضوع الى القواعد التي تتطلبها « الحالة الثالثة » حالة الازدهار الحقيقي . وتستلزم الحالة الثانية سلوكا موعظانيا .

الى تطرف يفقده السيطرة عليها . الا انه قد ابقاها من القوة بحيث لا يتجرأ
معها اصحاب النظرات الواقعية من المصريين ان يفصحوا عن رأيهم ان «مصر اولاه»
ذلك ان أي احتجاج على أساس من هذا الرأي سيضيق الكثير على ناصر ويجعله
سلاحاً أمضى بيد الوزير دالس . وعندما حان وقت بحث المساعدات المالية مع
الحكومة الامريكية كان ناصر قد هيا مسبقا الرأي العام بصورة مدروسة يظهر
معها امام الامريكيين وكأنه مقيد بسياسة معينة لا خيار له فيها (وهي السياسة
التي يريدنا لنفسه) -

وقد تميزت الرسائل التمهيدية بين مصر والولايات المتحدة ، بخصوص
موضوع المساعدات المالية بامتلائها بالمباراة المبتذلة مثل « السلام والاستقرار
في المنطقة » ، وبيعض المقتطفات من خطابات الرئيس آيزنهاور ، مثل « لقد ولدت
امتنا لان شعبنا سيكرس نفسه للحرية والعدالة » ، ومن مذكرة رسمية للوزير
دالس « اتنا نبغي سلما عالميا وعادلا للجميع » . وقد استمر تبادل مثل هذه
العبارات الى الحد الذي اثار شكوكا مخيفة في نفس عبد الناصر . وظن ان
الامريكيين مهتمون حقا بكل هذا الهراء والسفسطة ، وبدأ يعتبرنا على أساسها
اما مغفلين أو نحسبه - هو - كذلك . وعندما بدأ بحث الامور بالتفصيل ارتد
الامريكيون الى انتقاء الفاظ ومعاني يفهمها عبد الناصر وضباطه جيدا .
فالرئيس ايزنهاور بكل خطاباته الممتازة (والتي كان فيها صادقا من قلبه)
كان يمثل اليانكي الوطني القديم . فلم يكن فهمه للسياسة الخارجية التي
تهدف الى رعاية المصالح الامريكية المحضة فهما اجوفا . بل كان ينظر من
خلال ذلك الى الطموح الشيوعي . فهو كمسكري يرى ان هذا الطموح ممزز
بوسائل عسكرية ، مثل الوسائل التي اجتاحت النازيون بها أوروبا . وان الدفاع
المنطقي ضدهم ، هو الدفاع العسكري ، الذي يبدأ أولا عن طريق منظمة حلف
شمالي الاطلسي (ناتو) ، وتشارك فيه الدول الاوروبية ، ومن ثم بالحلف
شمالية به في بقية اجزاء العالم . واما منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط «ميدو»
فكانت أولى تلك الاحلاف الواجب تنفيذها بعد حلف شمال الاطلسي .

وفي ٥ آذار (مارس) ١٩٥٣ اجتمع انتوني ايدن وجون فوستر دالس مع
الرئيس ايزنهاور ليتباحثوا في أمور الدفاع عن الشرق الاوسط بصورة متكاملة .
وفي الوقت الذي كان يعني ذلك الاجتماع ، بالنسبة للرئيس ايزنهاور ، ضرورة

اخراج « حلف الميدو » الى حيز الوجود فقد كان لا يعني ، بالنسبة لانتونسي ايدن ، سوى الاحتفاظ بالقواعد العسكرية في الشرق الاوسط تحسبا لنشوب اي نوع من النزاع العسكري : من الحرب المحلية التي ربما تعمق استخدام قناة السويس ، الى حرب عالمية ثالثة ، او من حرب بين فرقاء آخرين ، مثل حرب بين العرب واسرائيل ، الى حرب بين بريطانيا وحلفائها وبين الروس . وكان هناك سؤال خاص يتعلق بمصر . فقد كان عبد الناصر ومجلس قيادة الثورة يخشون على انفسهم من الانجليز ، اكثر مما يخشون الروس . وليس الشرق الاوسط برايمهم معرضا لخطر أي هجوم مسلح من الروس . ولم يكن لعبء الناصر أية رغبة بالمشاركة في معاهدة « الميدو » ، كما انه لم يكن له رأي في بقاء أو زوال القواعد البريطانية من الشرق الاوسط لما كان ايا منها لن تبقي في مصر . ومن ناحية أخرى كان عبد الناصر يلح على طلب المساعدات العسكرية من الولايات المتحدة الأمريكية . وكان يطلبها حينئذ لاغراض الامن الداخلي ولجعل من جيشه الرث المهلهل – كما اخبر ناصر ناليس – جيشنا فخورا بنفسه ليصبح الدعامة الأساسية في جهاز الامن داخل البلاد . واذا ما قدر وكان لجيشه أية مهمة عسكرية فلن تكون ضد السوفييت ، أو أية قوة أوربية أخرى ، وانما للدفاع ضد اسرائيل وللتدخل ضد بعض الدول العربية المتأثرة له .

ولم يكن أي من الامريكيين أو البريطانيين مخدوعين بوجهات نظر عبد الناصر . فأراؤه بالدفاع عن المنطقة واضحة لا غموض فيها في تقارير المخابرات الامريكية المعاصرة له يومها . ومع كل ذلك فان اجتماع ه آذار (مارس) كان يدور حول فرضية أساسية وهي : أنه ضمانا لسلم عالمي عادل لجميع الشعوب ، فان الامريكيين يرون ضرورة قيام منظمة دفاعية اقليمية كمنظمة « الميدو » ، أو قيام اتفاقيات (حسب اعتقاد البريطانيين) تخول البريطانيين – بدون أو مع الامريكيين – حق اقامة القواعد في حالة نشوب أي نوع من الحروب أو الثورات التي تهدد القنصة . ولم يكن في صالح عبد الناصر ان نحقق كسبا لأي من هاتين الفرضيتين . ومع أننا كنا على معرفة بموقفه هذا فاننا قد تجاهلناه عمدا . ولماذا تجاهلناه ؟ لان هذه هي الطريقة التي تنجز بها الامور بين دولتين ذات سيادة في محاولتهما الوصول الى اتفاق ، طالما أن مرونة هذا الاتفاق وسهولة تنفيذه هما الهدف وليس الهدف معاني الاتفاق ونصوصه .

وأما الذي حدث بين البريطانيين والمصريين في الوصول إلى اتفاقية حول قاعدة السويس فقد ذكر بأسهاب في مواضع أخرى (وعلى سبيل المثال كتاب انتوني ايدن « الحلقة الكاملة ») . ولكن هناك جانب من جوانب هذه القصة يجدر ذكره في كتابنا هذا لانه : أولا لم ينشره أحد بعد ، ولانه ثانيا ، على علاقة قوية بموضوع دبلوماسية ما وراء الكواليس . ففي كتابه ، قال انتوني ايدن : « رفض المصريون فكرة وجوب مشاركة الأمريكيين في المفاوضات ، بينما رأى الرئيس ايزنهاور أن موافقة المصريين شرط ضروري للمشاركة » . وبعدها بقليل ذكر ايدن : « لقد كان من سوء الحظ أن لا يكون عند الحكومة الأمريكية أو خاصة عند سفيرها في القاهرة ، أي استعداد لممارسة أي ضغط على المصريين للحصول على موافقتهم » . وأظن أن عند اليابانيين مثلا دارجا يقول « اعرف أنني أراه ولكنني أتجاهل ذلك » وذلك للدلالة على ما يقع عندما يجتمع ذكر وأنثى عاريان تماما في بحيرة سباحة واحدة ، ولكنهما يتجاهلان بعضهما البعض لياقة ، في حين أن كلا منهما عنده القدرة الكاملة على رؤية الآخر ، ولكنه يتقاعى - على الأقل - الالتقاء به صدفة . اننا بحاجة لعبارة ماثلة مثل « اننا ندرك ما هو كائن ولكننا نتجاهل علمنا به » لكي نفسر تاريخ حياة الرجال الشرفاء ، الذين كانوا وقت وقوع بعض الاحداث السياسية على اطلاع تام بالاجراءات خلف الكواليس التي كانت تمت المفاوضات بالحياة ، ولكنهم بعد ذلك غسلوا ادمغتهم وتناسوا كل ذلك . حتى أن ذاكرتهم لتحتفظ بالصور التي تناسب فقط مع مبادئ ومقومات أدبهم واحتشامهم . (في كتاب ايدن « الحلقة الكاملة » سيتذكر القارىء كيف يتصل ايدن من أية مفاوضات مع الفرنسيين والاسرائيليين ، سبقت تحركاتهم ضد مصر في سنة ١٩٥٦) .

والحقيقة أنه خلال اجتماع ٥ آذار (مارس) ١٩٥٣ وافسق الرئيس ايزنهاور على ارسال اللتنتانت جنرال ر . آ . هول (ضابط يثق به كثيرا) الى القاهرة ليسانع المفاوضات البريطانيين . ولكن السير انتوني لم يتحمس كثيرا لهذه الفكرة . وبعبارة أوضح ، فان مساعدي السير انتوني لم يتحمسوا لتلك الفكرة خلال جلسات التفاصيل التي كانت تعقد بين الموظفين المسؤولين من كلا الطرفين الذين كان يقتصر عملهم على التقاط الفتات من الارض بعدما يكون رؤسائهم قد جرفهم الحماس في اجتماعات تاريخية اعطوا فيها موافق ، وقطعوا

على انفسهم همودا ، لا يعلمها الا الله . ولم يكن عدم حماس مساعدي ايدين
أقل من عدم حماس السفير الامريكى كافري في القاهرة عندما نقلت اليه انباء
البرق نفس الفكرة الآتفة الذكر ، فقد سارع كافري الى توضيح الحقيقة ان
الحكومة الامريكية قد حققت اتصالا وثيقا مع المصريين ولكنه شخصي وغير
رسمي (وكلمة « غير رسمي » تعني في لغة « دبلوماسية ما وراء الكواليس »
أشخاصا - او نشاطا - يمكن ان يتخذوا طابع الرسمية بعد أن يتحقق النجاح ،
ولكن في حالة اكتشاف الأشخاص فانهم يوصفون بانهم لا يتمتعون بصلاحيات
رسمية) وان هذا الاتصال المذكور سيكون مساعدا للبريطانيين أكثر من حضور
مفاوض امريكى - مهما كانت جدارته - على طاولة المفاوضات . بل وأكثر من
ذلك ، فان مجيء أي من المسؤولين في البيت الابيض بواشنطن سيضعف مركز
كافري في هذه العلاقة . وأخيرا فان المسؤولين في وزارة الخارجية ، الذين
كانوا يلاحقون حينئذ الاقتراح القائل بارسال الجنرال هول ، رفضوا نفس
الفكرة لخشيتهم أن الجنرال هول (مثله مثل ايزنهاور) سينظر الى موضوع
معاهدة « الميدو » على أنها اقتراح جدئي ، وسيجعله مدار بحث مباشر مع عبد
الناصر دون أن يمهده له بغمزات ولمزات يتبادلها معه بالذات .

وبخصوص الطرف المصري ، فقد أدرك عبد الناصر تماما أن المعاهدات بين
دول كبيرة ودول افريقية آسيوية صغيرة ، هي معاهدات سريعة الزوال ،
سهلة النقض ، وبالتالي فباستطاعته أن يتخلص من أي من بنودها التي لا تروق
له بعدما يتسلم المساعدات العسكرية التي تعتبر جزءا من الصفقة . وأما
جنرالاته فقد كانوا أقل حنكة وخبرة . فناصر - مثل كافري ومثل كبار
المسؤولين الأذكياء على طرفي الاطلسي - قد تخيل الجنرال هول جالسا مع
الجنرالات المصريين ، يتباحثون بجدية واهتمام ويتبادلون ما لديهم من أدلة
وبراهين وردود عليها - بخصوص معاهدة دفاع اقليمية - الى الحد الذي يفقدون
فيه صبرهم تجاه بعضهم البعض . وتكون النتيجة ضياع الاتفاقية الانجليزية
المصرية بين الاقدام .

وبدرجات متفاوتة من الضراحة ، فان المشكلة كلها كانت موضع معاش بين
الامريكيين والبريطانيين (على مستوى مسؤولين ومنفذين) ، وبين المصريين
والامريكيين (كافري - ناصر) ، ولربما بين البريطانيين والمصريين . وتحت تلك

الظروف كان الطريق الوحيد لانهاء القضية هو أن يقوم المصريون باعلان رفضهم لها رسميا . وعندما بدأ ايدن يدون مذكراته ، كان قد نسيها . ولكنه اخبر وقتها أن الأمريكين سيقدّمون مساعدة غير رسمية ، ولكنهم (لاسباب يستحسنها هو دون سائر الناس) لا يستطيعون المشاركة في المناقشات فعلا .

ادت محادثات الوزير جون فوستر دالس مع عبدالناصر في القاهرة في ايار (مايو) ١٩٥٣ الى وضع فكرة منظمة « الميدو » على الرف نهائيا . وان لم يكن كذلك ، فلقد حولتها على الاقل الى فكرة للمستقبل بدلا من كونها محتملة التنفيذ في الوقت الحاضر . وأصبح السفير كافرّي حرا لاستئناف مهمته التي اولها كل أهمية كبيرة وهي : التوصل الى اتفاقية عسكرية بين المصريين والامريكين تسهل لحكومتنا تزويد عبد الناصر بالاسلحة اللازمة لحفظ الامن الداخلي ، وبنفس الوقت تمزج الفرص أمام البريطانيين لان يحصلوا على أي اتفاقية من أي نوع يتلج صدورهم ويشفي غليلها . وعلى خلاف ما يتذكر ايدن ، فالامر السابق كان وفقا على الامر اللاحق . وكما فهمها يومها عبد الناصر ، وكما يفهمها اليوم . فان التنسيق بين الأمريكين والبريطانيين فيما يختص بسياسة الدفاع الدولية له الاولوية الكبرى - عند واضعي خططنا - على علاقاتنا مع أي زعيم في الشر الاوسط (منذ عهد الرئيس ايزنهاور الى عهد أي رئيس سينتخب في المستقبل) .

وقد احتجزني السفير كافرّي في آب (اغسطس) لمدة من الزمن ، بينما كنت في طريقي الى تناول طعام الغداء مع عبد الناصر ، ليكشف على مدى استعدادي - بصفتي أمريكيا - غير رسمي ، - لتفهم الموقف النهائي الذي يود عبد الناصر اتخاذه في مفاوضاته مع البريطانيين ، ولاترح طريقا مختصرة متجاوزين كل المساومات لنصل الى ذلك الموقف ، او الى موقف معتدل بين الموقف البريطاني (الذي كان كافرّي على علم به) وموقف عبدالناصر النهائي . وقد قال لي كافرّي يومها : « حاول أن تحدد أقصى ما يطمح اليه عبد الناصر ، وأدنى ما يرضى به ، واقنعه أننا سنحتفظ بجوابه هذا لانفسنا » .

وكانت تلك المرة الاولى التي طلب الي فيها مباحثة عبد الناصر فسي شؤون سياسته الدولية . ولم يكن سهلا تجنب الخوض في السياسة الداخلية ، لانها كانت تمت الى ما اهتم به من بعض مشاكل و العلاقات العامة ، بصلّة

وثيقة . كما انني لم اجد نفسي على استعداد لاختباره بأكثر من اقتراح كافرري
« بان عليه أن يكون واضح الذهن بخصوص « أقصى ما يطمح له وأدنى ما
يرضى به » ، سواء أكان راغيا بإبلاغي ذلك أم لا » . وعندما نجحت في طرق
الموضوع ، ونحن على مائدة الطعام ، قلت له انه ليس من الحكمة اعلامي شخصيا
بموقفه ، لان اطلاعي على موضوع المفاوضات وقتها كان معدوما تقريبا ، ولن
أتمكن من استيعاب أي شيء عن الموضوع . واقترححت على ناصر أن تقوم معا
باختيار رجل أعمال ذي مصالح في الشرق الاوسط ، وبهذه أن يرى الموضوع
منتهيا بطريقة ما ، وان لم تكن لمصالح البريطانيين ، ونستشير همته لانهاء الصفقة
على أحسن وجه ممكن . ولم نثر يومها على رجل أعمال مناسب لمثل هذه
المهمة ، ولذا تباحثنا في صلاحية كيرميت روزفلت لمثل هذا الامر . وقد ظننت
اننا موفقون بالاختيار ، الا أن ارتباط روزفلت بوكالة المخابرات المركزية سيكون
عقبة كأداء في طريق انجاز المهمة . ولكن عبد الناصر خالفني في هذه النقطة ،
ورأى أن روزفلت يمكنه أن يأخذ الصفة الرسمية كما كنا نبغي تماما . واعتقد
ناصر أن موظفا كبيرا في وكالة المخابرات المركزية مثل روزفلت سيكون لديه
نفس فرصة أي مواطن عادي ، ذلك لانه لن يكون ممثلا لحكومة الولايات المتحدة
كما هو معروف ، ولن يكون في موقف يضطره الى اضطلاع البريطانيين على حقيقة
موقف عبد الناصر ، كما أن اشرافه على قضايا الامن الهامة في حكومة الولايات
المتحدة سيمكثنه من فهم الموضوع جيدا . وكذلك فان علاقة روزفلت الوثيقة
بالاخوين فالحس ذات أهمية عند عبد الناصر . كما اطمأن ناصر الى عدم
اعتراض كافرري على هذا الاختيار :

لم يصدق عبد الناصر في قرارة نفسه أن روزفلت لن يخبر البريطانيين
على ما سيطلع عليه . فلم يكن بوسع عبد الناصر أن يصدق أن أي شخص « غير
رسمي » في أي بلد كان - بغض النظر عما يقسم من أيمان مغلظة كأي انسان -
لن يفشي الاسرار ان رأى ذلك مناسبا لمصالح بلاده الخاصة . وقد قادته خبرته
السابقة الى الاعتقاد بأن روزفلت هو من النوع الذي يعلم كيف يتظاهر أمام
البريطانيين بجهله لحقيقة الموقف الذي يساوم عبد الناصر عليه البريطانيين -
والذي لن يخبره عبد الناصر به ولن يخبر غيره كذلك - وبهذا يتمكن ناصر
من الحصول على صفقة رابحة من البريطانيين أكثر من تلك التي يمكن مندوبي

ناصر أنفسهم أن يحققوها . وكما حدث فعلا ، فقد تمكن روزفلت من أن يكون صريحا مع الطرفين . وقد أخبرت كافرني بحديثي هذا مع عبد الناصر حال انتهاء تناولنا طعام الغداء . وقام كافرني بإبراق الفكرة الى واشنطن ، بدون تأخير ، في نفس بعد ظهر ذلك اليوم . ووصل روزفلت الى مصر قبل نهاية الاسبوع بعد توقفه في لندن ليتزود من وزارة الخارجية البريطانية بأخر المعلومات المهمة - أو الثانوية - عن المفاوضات . وفي أول اجتماع له مع عبد الناصر كان قد أصبح على علم تام وفهم عميق بمسألة « الحالة الاولى » و « الحالة الثانية » ، وألمَّ بجميع جوانبها المما كانيا لان يهيه . للامريكيين والمصريين مما أحسن الظروف للوصول الى حل عسكري ، أو الى أي نوع آخر من الحلول بين مصر وبريطانيا وأمريكا . ومنذ ذلك الحين ، انحصر عمل روزفلت في تحديد رغبات المصريين والبريطانيين - وهي عكس ما يعلنون عنه - وفي اعداد الصيغة التي سيقبل بها كل طرف لاحتوائها على النقاط المهمة - والفامضة أحيانا - ويدع كل طرف منها الطرف الآخر يربح ما ليس موهما (وإن كان يظهر أنه مهم أحيانا) . وهكذا ، فان « حيلة » دبلوماسية ما وراء الكواليس ليست في بعض الاحيان أكثر من طرح مطول ومتعمد على الطاولة لمواضيع عديدة ، ومن ثم مناقشتها بصورة صريحة ، وبطريقة لا يمكن أن تكون جزءا من مباحثات دبلوماسية رسمية ، أو أن يحتفظ بها مدونة في مذكرات وتقارير .

ومع انه لا فائدة ترجى من الدخول في تفاصيل تسوية مشكلة قاعسة السويس ، فان أحد أهداف كتابنا هذا هو المساعدة على فهم ما قصدناه آنفا من أن بعض النقاط الواردة في التسوية تعتبر حقا مهمة مع أنها قد أغفلت ولم تعط الاهمية اللائقة بها ، في حين أن نقاطا أخرى كانت تثير اللفظ وترتفع الاصوات لاجلها مع انها في الحقيقة غير مهمة . ففي المحادثات الاولى اقترح البريطانيون ثلاثة حلول لمشكلة قاعدة السويس ليم اختيار أحدها :

(أ) يعطي البريطانيون للمصريين حق السيادة على القواعد - كما تمارس اسبانيا سيادتها على القواعد الامريكية - مقابل السماح لعدة آلاف من البريطانيين بالبقاء في مصر للاشراف عليها وخدمتها . (ب) يقوم رجال الصيانة المصريين بخدمة القاعدة ورعايتها تحت اشراف المراقبين البريطانيين . (ج)

يقوم المصريون بصيانة القاعدة ورعايتها تحت اشراف مراقبين مصريين ، على أن يكون للبريطانيين حق التفتيش عليها من حين لآخر . وقبل أن يتبادل روزفلت الآراء مع عبد الناصر ، كانت المفاوضات عبارة عن مباحكات ومساومات تدور كلها حول الحالة (أ) ، التي كانت تمثل الحد الأقصى الذي لن يتجاوزه البريطانيون في حين كانت مرفوضة كلياً من قبل المصريين ، وحول الحالة (ج) التي كانت أدنى ما يقبل به البريطانيون ، ولكنها نالت موافقة المصريين لأنها - فيما عدا ظاهر القول فيها - لا يترتب عليها شيء ذو بال . ولو أن المفاوضات استمرت على تلك الاسس لقبول المصريون - على ما يبدو - بالحالة (ب) . ولكن روزفلت أكد أن المقترحات الثلاثة المذكورة ليست هي الحلول المقترحة للمشكلة .

ولا أقصد أن أقول هنا ان روزفلت، نفسه، هو الذي أوجد تسوية مشكلة قاعدة السويس - فقد توصل الى التسوية فريق من المفاوضين المهرة باشراف السفير البريطاني في ذلك الوقت وهو رالف ستيفنسن - ولا أن روزفلت كان لول من لاحظ عدم جدوى الحالة (أ) و (ب) و (ج) كحلول للقضية . الا انني لوكد أن روزفلت قد ساعد المفاوضين البريطانيين على تجنب كثير من المباحكات التي لا تمت الى الموضوع بصلة ، وبذلك يكون قد ختم قضية المفاوضات أكثر من مشاركة الأمريكيين المباشرة (التي افتقدها ايدن) ، أو الضغط المباشر الذي كان يود ايدن لو أن السفير كافرني مارسه على المصريين . وان أي شخص في وزارة الخارجية البريطانية لديه المام بسيط بطريقة تنظيم صيفسة الدفاع الانكلو أمريكي عن العالم الحر ، لكان باستطاعته أن يدرك النقاط التالية :

(١) ان منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط (ميدو) كانت من المفارقات التاريخية التي جاءت في غير وقتها . (كما ان منظمة الناتو تكاد تصبح من هذا القبيل أيضا) . والسبب الوحيد الذي دفع بوزارة الخارجية الأمريكية الى بحثها (بجدية متكلفة) هو وزير الخارجية نفسه المستر دالس الذي لم يتمكن من تناسي هذه الفكرة مع أنه رجل لامع ذكي . فاذا كانت الحالات (أ) و (ب) و (ج) تؤخذ بعين الاهتمام، واذا كانت تنال أي اعتبار، فليس لان لها علاقة بمخطط الدفاع عن المنطقة . ومع أن الحالات الثلاث تستأثر بقسط وافر من اهتمامنا ، فإن ذلك لن يجعلها ، بأية صورة ، جزءاً من مخططات الدفاع الانكلو امريكية عن المنطقة .

ولكنها بصراحة ستبقى في خطة الدفاع البريطانية (وليست الامريكية) عن المنطقة شرقي السويس .

(٢) وعلى أية حال فان نقل القوات البريطانية من السويس الى شرقها كانت على وشك أن تكون ضرورية لاسباب لا تمت الى الشؤون الدفاعية بصلة مباشرة .

(٣) لم يكن المصريون على استعداد لان يحافظوا على نصوص أي اتفاق يتوصلون اليه ، كما كانوا يصرون على الحالة (ج) أو ما يبادلها لما تتيحه لهم من دعاية وشهرة . فلو أن المصريين وافقوا على الحالة (أ) فانهم سيبدأون بالصراخ منها بعد شهر واحد من توقيعها ، وربما يشنون موجة تخريب انتقامية ضد القاعدة . أما الحالة (ب) ، فانها ستلوم حتى يجد عبد الناصر عذرا يبرر وضع المشرفين البريطانيين على القاعدة على متن مركب لاعادتهم الى وطنهم ، متحديا الحكومة البريطانية أن تتخذ أية اجراءات مضادة كما فعل معها عندما أمم شركة قناة السويس فيما بعد . أما مصير الحالة (ج) ، وهي الوحيدة التي نالت الموافقة أخيرا ، فقد كان يتوقف على مدى اطلاع الرأي العام عليها . وما تجدر الإشارة اليه هو أن كل اولئك الذين كانت تعنيهم المفاوضات ، من قريب أو من بعيد ، من البريطانيين والمصريين والمتطفلين الامريكيين كانوا على علم تام بكل ما سبق ذكره ، ولكنهم لا يتمكنون من الكشف عنه . الا أن روزفلت - وهو ديبلوماسي ما وراء الكواليس - كان يقدر على كشفه كله . وقد فعل ذلك .

وأما ناصر ، فقد كان على علم بان العلاقات الانكليزية - الامريكية كانت تعاني من بعض الاحتكاكات العائلية ، لنفور شخصي بين دالس وايدن ، الا انها لم تفقد صفة التفاهم والاتفاق كما دتها فيما يتعلق باوضاع ناصر ومشاكله . وكان ناصر يتمجب حيال هذا النوع من المناورات السياسية بين البريطانيين والامريكيين وكيف أنها لوحدما تتكفل في تحديد صلاحيات وسلطات كل طرف . في ادارة وتوجيه منظمة حلف الاطلسي ومنظمة الدفاع عن الشرق الاوسط والقواعد العسكرية الاخرى . وأما بخصوص تحديدات الروس للغرب (على غرار ما فعله هتلر في الحرب العالمية الثانية) فقد كان ناصر يعلم تمام العلم أن الفرص امامهم لفعل ذلك عديمة الاهمية (وأن البريطانيين والامريكيين يعملون هذا أيضا أكثر من ناصر نفسه) . الا ان تصميمنا - نحن الامريكيين - على

يقف هذا الخطر الذي لا وجود له ، سيظهرنا بظهر مثيري الحروب ، وذلك كما كانت الدعاية السوفييتية توصنا به . ورأى عبد الناصر أيضا أن الهجوم السوفييتي على العالم العربي وعلى الشرق الاوسط هو من النوع السياسي التأمري الذي لن يتأخر عن استغلال وجود « الامبريالية » العسكرية في بعض الدول ليزيد من حدة هجومه هذا . ولم يكن لعبد الناصر أن يتصور اهتمامنا الجدي بموضوع المعاهدات . أما نحن فمن المؤكد - نظرا لخبرتنا الطويلة وحكمتنا الدبلوماسية - أننا نعلم بما فيه الكفاية انه في اللحظات التي تنشأ فيها الازمات فان الامم تتصرف على أساس مصالحها المطلقة وقتئذ ، سواء اكانت هناك معاهدات أو لم تكن ، وأن الازمة المتوقعة نشوبها في المستقبل ستكون سياسية بطبيعتها وخارج نطاق ما يحل بالمعاهدات (مع اضطرابات وحروب عصابات وهجمات يقوم بها ما يظهر أنهم « عناصر داخلية » لتقديم العون المادي بدلا من غزو عسكري مكشوف) . وقد اعترف عبد الناصر بصراحة لكيرميت روزفلت أنه اذا « ما تفضل » وأولى فقرات اتفاقية قناة السويس بعض اهتمامه فانه يفعل ذلك من باب مداعبة ايدن ودالس وملاطفتهم . ذلك أن كل ما كان يهجه هو اخراج البريطانيين ، وهو على استعداد لان يعطي أي وعد طالما أن الشعب المصري يعرف أنه ليس بنيتة المحافظة على عهوده وانجاز عهوده .

أما بالنسبة لنا : فانه لم يفهم وجهة نظر عبد الناصر الا البريطانيون والاميركيون الذين اتاحت لهم ظروفهم أن يتتبعوا مراحل الثورة من اولها ، أو الذين لاحظوا مشاكلها المصاحبة لآمالها وتطلعاتها المتزايدة . ولقد فهمنا أن عبد الناصر قد ألزم نفسه بسياسة ترفض فكرة التحالفات مع الدول الكبرى . ولهذا كان ملزما بنقض أية معاهدة بشأن قاعدة السويس - أو غيرها من المعاهدات - يضطر الى توقيعها لاسباب « تكتيكية » . وكما أخبر ناصر كلا من السفير البريطاني والسفير الامريكي وروزفلت ومن أرسلهم روزفلت من الاختصاصيين الى القاهرة ، أخبرني أيضا - من جملة الذين أخبرهم من أصدقائه الغربيين الذين تعاملوا معه بمسائل ادارية واقتصادية ومالية - أن هدفه الرئيسي هو أن يتسلل الى مركز يتيح له أن يقرر المسائل الفردية في السياسة الدولية على اساس موضوعية بغض النظر عن كونها تلائم مصالح دولة كبرى

معينة ٣٠٠٠٠٠ وحين قيام روسيا بشن هجومها على الشرق الاوسط ، فان ناصر كان يرغب بان يتمتع بحرية كاملة في معارضة الدول الكبرى او مخالفتها وفي كيفية انجاز ذلك ، تاركا ايانا نضرب احماسا باسساس بدون ان نعرف ما يريد حتى اللحظة الاخيرة . ومن الطبيعي ان يكون من مخططة ان يفهم الضرب والسوفييت هذا ، ويقبلوا به ، ويعاملوه على اساسه ، بل ويلطفوه ويدهنوه . وبلاضافة الى قوة المساومة التي سيكسبه اياها استقلاله هذا ، فقد كانت تواجهه مشكلة اشباع كبرياء الشعب المصري المتقد حديثا ، والذي دفع عجلته الى الامام برنامج « الحالة الثانية » الذي لا يجوز التخفيف من شأنه . فعندما ينظر المرء فيرى ان اللاجئيين الفلسطينيين (الذين نبعث « الحالة الثانية » من الواقع التعيس الذي يعيشونه وليس من طموح أي زعيم عربي) قد جمعوا خيامهم وأغطيتمهم في احدى ليالي الشتاء القارسة وأشعلوا فيها النار . يبدأ بادراك الحقيقة التالية وهي : ان اشباع كبرياء شعب محروم اكثر اهمية من تأمين الغذاء والسكن له . وبعد ان ارسى عبد الناصر قواعد راسخة « لاجهزة القمح » في نظام حكمه ، وبعد ان بدأ العمل على انجاز « اجهزة البناء » فقد أخذ يعتقد ان اشباع كبرياء شعبه يشكل بديلا مناسبيا عن اشباع حاجاته الاقتصادية التي لم يتمكن وقتها من تحقيق أي منها . ولقد اكتشف عبد الناصر سريما ان الهاء الشعب المصري في « نهضته الحديثة » ، يؤثر اشباع كبريائه في اغتنام أية وحتى اواخر كانون الثاني (يناير) ١٩٦٨ ، وبعد الضربة الكاسحة التي تلقتها مصر من اسرائيل بعدة اشهر ، وفي خضم الصعوبات الاقتصادية التي لم نر مصر مثيلا لها طوال تاريخها ، قال أحد المصريين الذين لا يشك بذكائهم الا وهو مصطفى أمين ، الذي كان قد أمضى حتى ذلك الوقت ثلاث سنوات في السجن) : « ان عبد الناصر قد اساء كثيرا الى والى اصدقائي ، وحتى الى بلادي كلها ، ولكن يجب ان اعترف انه علمني كيف اكون فخورا بكوني مصرية » . وفي الوقت الذي أصبح فيه منصب عبد الناصر « المدى الحياة » (ونستعمل هذه العبارة على غرابة معناها في الشرق الاوسط) كان قد حفظ عن ظهر قلب أن الشعب المصري في « نهضته الحديثة » ، يؤثر اشباع كبريائه في اغتنام أية فرصة لتحسين اوضاعه الاقتصادية .

واما اشباع كبرياء الشعب المصري ، فقد قطع شوطا بعيدا عندما اصبحت

مصر ذؤلة مستقلة حقيقة ، وتمتع بحرية كاملة لتقرير ما يعنيتها من المشاكل الدولية على أساس من حالتها الراهنة ، بدون أن تلتزم بأطار يصنع في لندن أو واشنطن أو موسكو . وقد اعطت عبد الناصر - على الأقل - متطلقا لخطوات أخرى ، تعزز أهدافه الأخرى الأكثر واقعية في الوقت الذي يتابع فيه اشباع جوع الشعب للكبرياء . وكان عبد الناصر بحاجة الى تأييد وطني قوي ليعقد صفقة جديدة في مجال الوحدة العربية ، تعطي مصر فرصا أكبر من تلك التي تقدمها مقترحات البريطانيين مثل فكرة الجامعة العربية ، وفكرة سوريا الكبرى ، والهلال الخصيب .

ان تمتع مصر باستقلال حقيقي بدون أن يكون فيها أمثال لورنس العرب يديرون سياستها من وراء الحجب ، وهم قابعون في غرف خلفية ، هو العامل الوحيد الذي يرسي فكرة القومية العربية على الاسس الجديدة التي يتخيلها عبد الناصر . وقد كان من اهم المخططات عند عبد الناصر هو أن تشير مصر اهتمام الدول العربية الأخرى بالموضوع حتى يتمكنوا من الحكم على قياداته السياسية على اساس المبادئ الجديدة التي تفرضها الغزوة الجديدة . ولم يكن من المهم الوصول الى ما يسمى « بالامة العربية » . وعندما يتحرر عبد الناصر من الاحتلال البريطاني - حسب تعبيره - يصبح واقفا على أرض صلبة يتمكن معها أن يلهب كبرياء المصريين عن طريق رفع راية قيادته للعالم العربي .

أما كيف كانت هذه الفكرة من نيات ناصر الواقعية الغربية ، فان ذلك سيكون موضوع بحثنا في الفصل اللاحق . ولكن يجدر بنا أن نشير هنا الى أن عزمه الحقيقي على هذه الفكرة ، كان معروفا من قبيل الوزير دالس نفسه ومن غالبية الموظفين العاملين في وزارة الخارجية ووزارة الدفاع . وكان هؤلاء الموظفون - بالرغم من ارتباك رؤسائهم - يبذلون قصارى جهدهم لوضي وتطبيق الخطط السياسية التي تأخذ جميع حقائق الحياة - مهما كانت مرعبة - بعين الاعتبار . وكانت حقائق الحياة هذه تميل الى بروز قائد - ناصر أو غيرم - يدرك تماما كيف يستغل نزاع الشرق مع الغرب لمصلحته الخاصة وبالتالي يحرز قوة كبيرة في « لعبة الامم » تتمدى حدود قوة بلاده الاقتصادية والعسكرية .

وقَّع المصريون والبريطانيون اتفاقية قاعدة السويس في تشرين الاول

(اكتوبر) ١٩٥٤ . وبمدها بشهر واحد ارسل البننتاغون اثنين برتبة كولونيل (مقدم) ، هما اليرت جيرهارت وويلبر (بل) ايفلاند ، الى القاهرة ، ليتفقا على الامسى الجديدة للعلاقات المصرية - الامريكية التي ستقوم حكومتنا بموجبها بتزويد المصريين بالسلاح الذي يحتاجونه للامن الداخلي . وكان من الضروري أن تكون في منتهى السرية ولا يدون بها سجل أو يوضع عنها تقرير . وقد طلب أن تكون في منتهى السرية ولا يدون بها سجل أو يوضع عنها تقرير . وقد طلب مني السفير كافرني أن أرتب المقابلة ، وأحضرها بنفسى ، ثم أنقل له ما يدور فيها . ومن الطبيعي أن يكون وجودي كمراقب ودون أية صفة رسمية .

وقد تم اللقاء في الساعة الثامنة مساء في بيت حسن التهامي - كبير اعوان عبد الناصر - في ضواحي القاهرة . وحضرها ناصر وعامر والكلولونيلان الامريكيان وحسن التهامي بالإضافة الي " . كان الجو وديا وبعبدا عن التكلف والشكليات الا أن للمره يخدم بذلك المظهر . فبالرغم من كل الآراء التي تبادلتها حكومتنا مع ناصر شفويا ، فقد كانت تلك الجلسة اولي الجلسات التي يبرز فيها التباين في وجهات النظر بين الامريكيين والمصريين كما بدأ فيها يتحدد شكل رقعة اللعب بين ناصر ودالس . وقد خلع الحضور سترااتهم وعلقوها على مساند الكراسي وراهم ، وأخذوا ينادون بعضهم بالاسماء دون الالقاب مثل « عال » و « بيل » وحتى « جمال » . ثم وضعت وجبة طعام منزلية على مائدة مستديرة تناولها الجميع وكانهم عائلة واحدة . وبعد ساعة من مرح العسكريين ، بدأت الحديث لنتتهي الى ما أطلقنا عليه بعد سنوات اسم « الاحاديث الصريحة التي اعتدنا على تبادلها »

بدأ جيرهارت الحديث بشرح الفلسفة التي تكمن خلف فكرة منظمة حلف شمالي الاطلسي - ناتو - قائلا : « ليطي حلفاءنا فرصة ترتبط بها معا على قدم المساواة قبل نشوب الحرب لكي لا يكون هناك سوء فهم وتباين في المسؤولية . ماذا يدين كل مسا ولمن ؟ » كذلك التي حصلت في الحرب الأخيرة ، - واجابه ناصر بأن فكرة الارتباط معا على قدم المساواة جميلة ومفزية ، ولكنه أبدى شكه فيما اذا كان فرنسا مثلا ، ستبقى مهتمة بالفكرة بعد عشر سنوات !

ثم شرح ايفلاند ، فكرة «المساواة» في الارتباط وقال انها ليست بأهمية «الفعالية» في الارتباط ، وأن كل من شارك في وضع مخططات منظمة الناتو أدرك يومها أن القدرة العسكرية الاجمالية للدول المرتبطة أصبحت أكبر من مجموعها الحسابي وهي منفردة . ثم التفت الى عامر قائلا : « انك كرجل عسكري يجب أن تعترف أن الدفاع الاقليمي عن منطقة الشرق الاوسط هو الاسلوب الوحيد ذو الفعالية في المنطقة ، وأن الطاقات العسكرية الفردية لكل دول الشرق الاوسط ، اذا ما جمعت معا ، فانها لربما تفي بحاجة امنكم ، ولكن لن تقوى على الدفاع عن أي طرف آخر » .

فأجاب عامر : « صحيح ان ترتيبات اقليمية قد تخدم اهدافكم ، ولكن قبل أن احدد ما يخدم اهدافنا علينا أن نحدد من هو عدونا الذي سنقاتله ؟ » وبعد هذه المحاوره جرت مجادله كان كلا الطرفين فيها متحفظا . فالامريكيون لم يذكروا مرة واحدة عبارة « العالم الحر » كما أن المصريين لم يذكروا أبدا عبارة « المستعمرين الامبرياليين » . فقد حاول كل من جيرهارت وايفلاند أن يبرهن على أن فكرة « الوحدة العربية » أو أية وحدة اقليمية أخرى لن تكون ذات مدلول ومغزى طالما أن الدول القائمة في المنطقة تصر على برامج الدفاع الفردية . ولكن عامرا أصر على سؤاله « دفاع ضد من ؟ » وهنا اضطر جيرهارت وايفلاند أن يقرّا بأن « افتراضات التخطيط في واشنطن تظهر أن الروس هم العدو المتوقع ، ولكن لا لزوم هناك لابرار هذه الفكرة في الخطط الاقليمية ، وأن موقف واشنطن هو أن تكون خطط دفاعكم الاقليمية موجهة ضد أي عدو يظهر بعد ذلك » . واختتم جيرهارت قوله : « لنجرب ونرى فيما اذا كان يمكننا معا أن نتعرف الى العدو المشترك لحظة مواجهتنا للخطر الحقيقي » .

أما ناصر فقد أخذ الى الهدوء طيلة فترة تبادل الآراء ، ولكن لم يلبث أن قاطعهم معترضاً على أن كل هذا الغموض في النظريات حول تعريف من هو العدو لا يلائم سوى المناقشات الثقافية المحضه ، ولكنها ستنقلب الى هجود هراء حال وصولها الى واضعي الخطط العسكرية من العرب . ففي لقاءات الاستراتيجيين العرب لن يجد أحد منهم أي صعوبة أو التباس في الوصول الى أن العدو هو اسرائيل بالنسبة لنا ، وروسيا بالنسبة للامريكيين . ثم قال : « ان العرب

سيقولون انكم تحاولون أن توحدوهم ليحاربوا عدوكم ، في حين أن مجرد ظهور نيابتهم في محاربة عدوهم هم - اسرائيل - فانكم ستوقفون مساعداتكم على الفور . وان أية معاهدة دفاعية اقليمية لا تأخذ هذه النظرة بعين الاعتبار فستكون محض احتيال وخداع .

وحدث بعد ذلك تبادل في الآراء حول عبارة أفادت التقارير أن الوزير دالس قد قالها ، ومعناها « على العرب أن يشعروا ان عدوهم الحقيقي هو الشيوعية العالمية » . وقد دافع جيرهارت وايفلاند عن هذه الفكرة بحماس ، مدعين أنها كافية لتحريك الحوافز عند العرب لعقد تحالف يدفع خطر الغزو العسكري السوفييتي . ولكن ناصه ا أجاب بمحاضرة طويلة ، ومملة ، دارت حول التفريق بين خطر التغفل الشيوعي « الذي هو مسألة أمن لكل بلد على انفراد » ، وبين خطر الغزو العسكري السوفييتي الذي - ان وجد - سيكون حافزا لترتيبات دفاع اقليمية . وأضاف ناصر بعد ذلك : « ولكننا في هذه المنطقة من العالم لا نعرف سوى عدوين : أولهما اسرائيل التي لا تزال في حرب معها بحسب العرف والعادة ، وثانيهما : البريطانيون ، الذين ما زالوا يحتنون بعض المناطق العربية . والعرب لا يعرفون شيئا عن الروس ، ومن حماقة أن نحاول لفت انظارهم واخافتهم من الغزو السوفييتي .

وانتهى اللقاء بعدما تبادل الجميع الآراء ، وأفرغوا ما في جعبهم من مقترحات وبراهين . وقد قدم بيل ايفلاند تقريره للامريكيين ، وذكر فيه ، بعبارة خفية ، أنه مهما كانت فكرة ايجاد خطة دفاع ايجابية لمنطقة الشرق الاوسط مقبولة أو مرفوضة فإن ذلك ما يريده المخططون العسكريون في امريكا . وبناء على ذلك فان كل مساعداتنا الاقتصادية والعسكرية لدول الشرق الاوسط يجب أن تتناسب مع درجة حماستهم لفكرتنا هذه .

أما ناصر ، فقد قال للمصريين الشيء الذي أصبح فيما بعد الهدف الرئيسي لسياسته الخارجية ، وموطيء قدمه في مواجهة الدول الكبرى ليحصل على ما كان يريده منها لتأييد اهدافه الاخرى وتعزيزها . ومما قاله مرة في هذا الصدد : « ربما لا يجد نوري باشا أي حرج في اتخاذ قراراته بناء على مدى انسجامها مع استراتيجيتكم العالمية . ولكنني لا أستطيع أن أفعل ذلك » .

وكان نوري باشا رئيس وزراء العراق « بصبح » عبد الناصر في تلك الفترة .
وأضاف ناصر : « وانني عازم على أن اتخذ مواقف من القضايا بناء على ما لها من
الآثار الموضوعية ، وستكون كلها مما يناسب مصر ويخدم مصالحها . ان تمتعنا
بمثل هذه الحرية هو من اهم الاهداف لنا ، ولا يقل أهمية عن الازدهار
الاقتصادي . وانني أعتقد أخيرا أن حكومتك - في النهاية - ستفضل مساعدة
أمة حرة على مساعدة أمة تدور في فلكها » .

وهكذا فقد انتهى اللقاء المذكور آنفا بنفس المواظف التي سادت بدايته
من بشاشة غير متكلفة ، ونكات عابرة ثم ترتيب العودة الى المدينة . ولم يكن
ظاهر الاجتماع أكثر من دعوة لتناول طعام العشاء في سهرة اجتماعية بحثة .
ولم يتولد عندي يوما اي شعور بأنني كنت من حضور الجلسة الافتتاحية
للعبة بين الحكومة الأمريكية وعبد الناصر التي بدأت يومها بداية سيئة ،
واستمرت في ذلك حتى يومنا هذا ، مروراً بأزمة الحرب العربية الإسرائيلية
حزيران (يونيو) ١٩٦٧ .

وفي صبيحة اليوم التالي تكونت لدي فكرة غامضة عن ذلك عندما سألت
بيل ايفلاند : « ما رأيك بما قاله جمال البارحة ؟ » فأجابني : « انها مقلوم
خاسرة ، فليس هناك ما يسمى باستقلال كامل لاية دولة في هذا العالم .
وخصوصا لدولة مثل مصر ، لا يمكنها أن تعيش أبدا بدون الاعتماد على
المساعدات الخارجية . واذا ما اعطيناه المساعدات التي يريدنا فسيشعر أن
من واجبه النظر الى مصالحنا بعين الاهتمام . فاذا كان لا يريد أن يسير معنا
فهناك كثيرون غيره سيفعلون ذلك » . فقلت : « ولكن ما رأيك لو انه شكّل مع
البقية جبهة واحدة كما يقف اتحاد العمال مع العمال صفا واحدا ضد مجلس
الإدارة ؟ » فأجابني : « لقد تأخر كثيرا ، فلقد كسبنا لجانبنا كلا من العراق
ولبنان والاردن وتركيا وايران والباكستان » .

وهكذا فان الوزير دالس قد قرر أن يسلك الطريق الاسهل « طريق اغراء
الامم بالمساعدات » . وقد سنحت لي الفرصة مرة أن اختلس نظرة الى جواز
سفر ايفلاند اثناء ابعاله مع زميله الى المطار ، وتأكدت انه قد زار فعلا لبنان
والعراق والاردن . ولعلمي بعلاقة ايفلاند الحسنة مع كل من الرئيس شمعون

ورئيس وزراء العراق نوري السعيد والملك حسين ، لم يعد عندي أي شك بأنه قد جمعهم بشكل ما لانشاء منظمة دفاع عن الشرق الاوسط . وما اظن أن ايفلاندر كان يهدف الى دفعي لممارسة ضغط متزايد على ناصر . فلو أنه قال : « أرجو منك أن لا تخبر ناصرا بهذا » ، فسأجزم عندئذ انه يحاول أن يخدعني . لقد كان الطيش المدروس في ذلك الوقت قياسيا ولا يزال كذلك حتى يومنا هذا .

ان الطريق الاسهل « لفن ادارة الدولة والديبلوماسية » (الذي كان يعرف عند البنتاغون ووكالة المخابرات المركزية باسم « عمل الجواد ») كان يعتمد على الرأي القائل بأن جميع أمم العالم تطمح بطرق أفضل للحياة اقتصاديا واجتماعيا ، وان طريق انشاء علاقات مشتركة معهم فيها نفع للجميع هي في تقديم مساعدات اقتصادية وتكتيكية بمقادير مغرية . ولكن المؤمن بهذه الطرق السهلة لاستمالة واغراء الامم سيصاب بالذهول عندما يرى جمهورا من اللاجئين الفلسطينيين يجمعون خيامهم وأغطيهم ، التي قدمها لهم الغرب كمساعدات ، في يوم قارس من أيام الشتاء ويشعلون فيها النار . وأعجب من ك عندما يرى ذلك المؤمن المصريين ، بعد هزيمة نكراء أنزلها بهم الاسرائيليون ، تقون مع السوريين والجزائريين ليضعوا الخطط لتجريب عضلاتهم مرة أخرى . وبنفس الوقت يمارسون أشد أنواع الاعمال التي تنفر الدول الغربية التي هم في أمس الحاجة الى مساعدتها . ولقد علق مؤخرا أحد كبار المؤمنين بسياسة الاغراء بالمساعدات على ذلك بقوله : « لا يمكنني أن أصدق أن العرب سيصرون الى الابد على قطع أنوفهم نكاية بوجودهم » . اما الذين يؤمنون بعكس ذلك ، أي بالطريق الصعب ، فيعتقدون أن العرب – ولنفس السبب ، عديد من شعوب البلدان المتخلفة – سيدأبون على مثل هذه التصرفات ، ويعود سبب هذه المواقف الاعتزالية – الكئيبة – الى أن شعوب تلك البلاد تشعر عند انتماها لمثل هذه المخططات أن ذلك لا يمكن أن يكون الا على أساس أنهم مواطنون من الدرجة الثانية ، ومعزولون عن المشاركة في تقرير الامور المشتركة . ولقد أخبرني حديثا أحد السفراء الامريكيين في أحد الدول الافريقية عن انطباعاته فقال ما يلي : « ان هذه الشعوب لن تتمكن أبدا من انتاج ما تحتاجه من أجهزة المذياع الترانزستور أو من الثلاجات بنفس الاسعار الرخيصة التي تشتريها من الخارج .

كما أنه لن يكون لهم أي دور في الاقتصاد الغربي أو السوفييتي أكثر من تصدير المواد الأولية التي تعاد لهم مصنعة جاهزة . ومهما كانت سرعة تقديمهم مع كل ما تقدمه لهم من مساعدات فإن الدول الغربية ستحترز تقدما بصورة أسرع بكثير . وبعد عشرين عاما من مراقبة تأخرهم وحرمانهم فإنه نادرا ما تصيبتني الدهشة عندما أراهم يرفضون المنطق والقيم الغربية حتى مع أنهم لا يملكون ما هو أحسن منها للتمسك به . هذه هي نظرية الطريق الصعبة التي تصل الى حد الاعتقاد أن شعوب البلدان المتخلفة تعاني من الحرمان وخيبة الامل الى الحد الذي فقدت فيه عقلها السليم وتفكيرها القويم . والسياسة الغربية ، التي تظن أن هذه الشعوب ستتصرف بناء على رغبتها في تأمين أقصى ما يمكنها من المنافع المادية ، تبوء بالفشل الذريع .

لقد اختار الوزير دالس « الطريق السهلة » وكان يمكن أن نرى كثيرا من نتائجها قبل انهياره . ولكن مستويات العمل والتخطيط في وزارة الخارجية والبنيتاغون كانت تسير منحدره في اتجاه « الطريق الصعبة » - أي الدفع بدون تجاوب - على مرأى ومسمع الوزير دالس نفسه . ان تنفيذ سياسة المساعدات كان على الغالب متعارضا مع سياسة الوزير الاساسية ، ومع هذا فقد لعب ذلك هورا رئيسيا في تحديد شكل العديد من الوقائم اللاحقة . وبعبارة أوضح، فبعد أيام من تأكيد جيرهارت وايفلانده لناصر ، ان حصوله على المساعدات يعتمد على مدى موافقته على السياسة الدفاعية للمنطقة ، وجاب ناصر الصريح بعدم عزمه على الموافقة . حصل ناصر على أربعين مليون دولار كمساعدات اقتصادية كانت معلقة . وبدأت أيضا المحادثات بين ناصر والحكومة الامريكية حول السماح له بشراء ما يعادل عشرين مليون دولار من المعدات العسكرية بأسعار مقبولة وبشروط دفع مخففة .

ومع أننا سنخرج عن موضوعنا الاساسي فانني أشعر بضرورة الاشارة الى رجل اسمه « هنري هانك بايرود » الذي شغل منصب مساعد وزير الخارجية . وكان في واشنطن في أواخر مدة خدمة السفير كافرني ثم حل محله كسفير لنا في مصر في ٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥ . كان بايرود يبلغ من العمر ٣٩ عاما فقط - نفس سن ناصر تقريبا . وقبل مجيئه الى وزارة الخارجية

كان ضابطا ناجحا جدا فقد وصل الى رتبة عميد قبل الثلاثين من عمره . وكان شخصا متواضعا بعيدا عن التكلف بصورة تكسبه محبة كل من يلتقي به ، وعلى الاخص ناصر . وكان مخلصا صدوقا جديرا بالثقة وخدموا مرحا ، وشجاعا وقورا . وبالاختصار فقد كان من النوع الذي يوصف بأنه سفير نموذجي .

صدر الاعلان عن تقديم الاربعمين مليوناً من الدولارات كمساعدة فسي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤ - وبعد ستة اسابيع نشرت انباء الاتفاقية العسكرية التي تحدث عنها ايفلاندا وكان ذلك في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥ . ووصل بايرود الى القاهرة في الاسبوع التالي . كما ان الاتفاقية العسكرية التي عرفت فيما بعد باسم « حلف بغداد » بدأت كاتفاقية بين رئيس وزراء العراق نوري السعيد ورئيس وزراء تركيا عدنان مندريس ، ثم انضمت اليها فيما بعد الباكستان ، لتشكّل منظمة الصنف الشمالي التي فضلها دالس على منظمة الدفاع الاقليمية كوسيلة للوقوف في وجه السوفييت . ومع أنها لم تضم سوى دولة عربية واحدة فقد كانت مصدر ازعاج كبير لناصر ، لانها افسست عليه خطته في ايجاد جبهة عربية محايدة . وقد قمت مع جيمس ايخلبرغر باطلاع ناصر نبا التوقيع عليها . فقد كان ناصر قد اعتبر كلام ايفلاندا وجيرهارت مجرد خدعة وايهام : فكيف يحذره كل من ايفلاندا وجيرهارت من ان معاهدة كهذه على وشك التوقيع ، وبنفس الوقت تقوم الحكومة الامريكية بدفع (اربعين مليون دولار) كمساعدة اقتصادية له ثم تعطيه تسهيلات بعشرين مليون دولار كمساعدة عسكرية لشراء المعدات !؟ لذلك فقد اضطرب عبد الناصر تماما للامر ، وطلب مني ان اخبر السفير بايرود برغبته الملحة للاجتماع به فور وصوله الى القاهرة . وقد كان تنفيذ طلب كهذا صعبا لان بايرود فضل السفر بحرا ، وكعادته فقد انشأ علاقات صداقة مع كثير من الذين كانوا على ظهر السفينة من سائحين مسنين وبحارة وبعض الموظفين المتجهين الى مراكز أعمالهم ، ومما لا شك فيه أنه دعاهم الى المجيء الى القاهرة في عطلة الاسبوع . وكانت هناك مسألة تقديم اوراق الاعتماد . فحسب الاصول الدبلوماسية لا بد للسفراء من تقديم اوراق اعتمادهم رسميا وقبولها من رئيس الدولة رسميا أيضا ، ليتسنى لهم التكلم باسم حكوماتهم . ومع أن غضب عبد الناصر من نشر أخبار حلف بغداد لم يهدأ ، فانه لم يمانع ان يجري الاحتفال بتقديم اوراق الاعتماد على أن يعقب ذلك

لقاء بالسفير بايرود مباشرة . وللأسراع بذلك فقد دعوت كلا من ناصر
وبايرود بالإضافة الى حسن التهامي وعبد الحكيم عامر لتناول طعام العشاء في
بيتي .

كانت تلك الوليمة بداية العلاقات بين ناصر وبايرود تكونت على أثرها
الحقبة المسماة « ناصر موضة المستقبل » . وعقب ذلك الاجتماع تزمت حضرها
معي كل من ناصر وبايرود والتهامي ، وتم خلالها مراجعة كاملة لكل المسائل
التي تهم البلدين مع اعطاء اهمية خاصة لكل من النقاط التالية :

١ - ان بندا مستقلا حقيقة كمصر جدير بان يؤخذ كصديق ، في حين ان
مصر ان كانت مرتبطة معنا بأية معاهدة فانها ستظهر بمقاييس النهضة العربية .
الحديثة على انها مجرد تابع .

٢ - ان العرب يملكون نفورا فطريا من الشيوعية لكونهم مسلمين ،
بالإضافة الى ان الروس لا يمكنهم تحدي قوة الاقتصاد الأمريكي عند بدء
التنافس على منح المساعدات الاقتصادية . ولهذا لا داعي للخوف من المنافسة
الروسية في المنطقة .

٣ - ستتمكن مصر وهي مستقلة من ان تلعب دورا طبيعيا في حركة
الوحدة العربية بصورة تتناسب واهداف الحرب الباردة (او اي صراع بين
الشرق والغرب) . وستكون هذه الحركة مضادة للفكرة التي يدعها
الوزير جون فوستر دالس بالتعاون مع البريطانيين ، والتي تركز على الوصول
الى شكل الوحدة عن طريق التحالفات العسكرية التي لا تختلف كثيرا عن
انطباع « لورانس العرب » البالي عن العقيلة العربية .

٤ - واكثر من هذا فانه يمكن لمصر المستقلة ، القوية ، ان تأخذ بزمام
المبادرة ، في تخفيف حدة التوتر بين العرب والغرب منذ قيام اسرائيل . وهنا
قال ناصر : « لا يمكنني ان اتخذ مثل هذه القرارات غير الشعبية الا عنهما
اصبح في مركز قوي ! » . ولمح الى انه لربما يستطيع القيام بخطوات ايجابية
لتخفيف حدة التوتر بين العرب واسرائيل اذا ما اصبح في ذلك المركز القوي .
وبالتأكيد لم يكن بايرود مقتنعا تماما بمثل تلك الاقوال . ولكن بعد

تلك النزعة في ضواحي المدينة ، أصبح مقتنعا بأن ما سمعه هو موقف ناصر في الواقع ، وأن ناصرا لن يُجر الى أكثر من هذه النقاط . وقد اعتقد بايرود أن «الموقف» الذي عنده ناصر له ما يبرر تأييد الاول له . وأخيرا فان سياسة ناصر على الأقل أصبحت مفضلة على غيرها من السياسات التي بدأت تظهر فيها موجة القومية العربية التي تنبأ بها كل من بايرود ووزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية وأي انسان آخر يدرك الاوضاع العامة . كما ان لسياسة ناصر ميزة أخرى على سياسة نوري السعيد في العراق ، وشمعون في لبنان ، المؤيدتين للغرب . فهي تملك فرصة البقاء في الايام التي تظهر بها السياسة الامريكية والبريطانية - بطبيعة الاشياء - على انها يشكل متزايد لصالح اسرائيل وضد العرب .

وقد ساند بايرود طلب ناصر للمعدات العسكرية بعدما أخذ موقفه السابق بعين الاهتمام . وكرجل عسكري ، فقد أدرك بايرود أنه ليس هناك ثمة خطر من احتمال استخدام ناصر لهذه الاسلحة ضد المصالح الامريكية . وبما أن بايرود كان مساعدا لوزير الخارجية لشؤون الشرق الاوسط وافريقيا ، فقد أدرك مدى التأثير النافع الذي يمكن أن يحدثه ناصر في المنطقة كلها اذا كان يميل حقا الى فعل مثل هذا الشيء . وقد تولد عند بايرود انطباع أن ناصرا هو القائد الوحيد في العالم العربي الذي يمثل الاتجاه الجديد ، والذي بنفس الوقت يمكن لدبلوماسي غربي أن يجري معه مناقشات مفيدة ومنتزعة ، كما أن ناصرا هو من النوع الذي يمكن للانسان أن يباحثه بأي موضوع - حتى موضوع الصلح مع اسرائيل - دون أن يخرج عن تحكيم العقل ويلجأ الى المواقف عند سوق الحجج وسرد البراهين . ولهذا السبب فقد رأى بايرود ضرورة بقاء ناصر في الحكم ، كما رأى أن تحويل جيشه من رث هزيل الى آخر عزيز وفخور بنفسه هو من اول ما يضمن هذا البقاء ويمرزه .

وكما ذكرت سابقا ، فقبل وصول بايرود الى القاهرة كانت الحكومة الامريكية قد منحت ناصرا أربعين مليوناً من الدولارات كمساعدات اقتصادية له ، كما انها وافقت مبدئياً على أن تقدم له تسهيلات بحدود عشرين مليوناً من الدولارات لشراء تجهيزات عسكرية بأسعار معقولة وبشروط مخففة للدفع . (وبالمناسبة ، فمن المبالغة الظن أن المساعدات الاقتصادية او العسكرية تدفع نقداً وعدا ، حتى ولو أنها قد منحت تحت قيود شديدة . وذلك لان تقديم

المساعدة لاية حكومة ما ، بغية أي هدف ما ، يعني رفع القيود عن مدخرات الحكومة المانحة للمساعدة ، ووضعها تحت تصرف الحكومة الاخرى التي لربما تستعملها لأي هدف آخر غير هدفها الأساسي) وكان كل ما تبقى من القضية هو تحديد التفاصيل مثل نوع التجهيزات وهل ستكون حديثة أم مستعملة وعلى وشك التنسيق من الخدمة ، وكيف سنبنيها ، وكم سنتقاضى ثمنها ؟ ونظرا لان مثل هذه الامور الآنفه الذكر هي تفاصيل محضة ، فقد قام وزير الحربية المصري بتنظيم قائمة بالاحتياجات أرسلها الى واشنطن . ومن ثم قامت وزارة الدفاع الامريكية بإجراء بعض التمديدات عليها ، وأعدت القائمة ثانية لوزير الحربية المصري ، الذي بدوره أعادها ثانية الى واشنطن بعد اضافة تغييرات جديدة عليها . وهكذا بقيت القائمة تتنقلها الايدي بين واشنطن والقاهرة مرات عديدة وبقي الخلاف على أسعار التجهيزات قائما . فالمسؤولون في وزارة الدفاع الامريكية قد وضعوا نظاما مرنا لترتيبات الاسعار ، ولكنني لم استطع فهمه يومها . فهو يتيح الوصول الى سعر ما نتيجة مساومات ومباحثات . الا ان قائمة التجهيزات التي نالت أخيرا موافقة الطرفين لم تتمد ، مع قائمة الاسعار ، مرحلة ما قبل الاخيرة اطلاقا .

وبنفس الوقت ، لم يكن هناك اية بادرة تشير الى أن المشاكل المعلقة - مهما كان نوعها - لن تجد في النهاية حلا مناسبيا . فقد استمر ناصر وبايرود في توطيد العلاقات وتوثيق عرى الصداقة بين المصريين والامريكيين بغية الوصول الى حلول مشرة لجميع المشاكل التي تعاني منها المنطقة بأسرها ، مما يحقق السلام والازدهار للذين بقيا هم مخططى سياستنا المثالية وشغلهم الشاغل . الا أن الرياح لم تجر كما اشتهاها كل من ناصر وبايرود . وشامت الظروف أن تبقى المشاكل مستعصية الحل . وبقيت مشكلة المساعدات العسكرية معلقة دون تنفيذ لعدة أشهر ، مع استمرار التأكيدات المتقطعة من واشنطن : « اننا على وشك أن ننجز دراستها ، الا أن مسائل كهذه عادة ما تستغرق زمنا غير قليل » .

وسأريح القارىء من عناء الاتيان على كل تفاصيل المناظرة التي جرت يومها في واشنطن حول أمر تزويد ناصر بالمساعدات العسكرية أم لا . ولم يخطر ببالنا - ونحن في القاهرة - أن مناظرة كذلك قد دارت رحاها في دهاليز

وزارة الدفاع في واشنطن ، فلقد كان بايرود يتابع بسرور ترتيب أموره على أساس أن بعض شحنات الأسلحة سوف تكون في طريقها الى القاهرة قريبا . وكان بايرود يأمل في أن تتمخض خطط التعاون المصري الأمريكي - على الأقل - عن تسوية مؤقتة (أو تجريد) للنزاع العربي الاسرائيلي ، وبالتالي فان أحد مصادر الاحتكاك الرئيسية بين الأمريكيين والعرب ستنجد طريقها الى الزوال . وفي ١٦ تموز (يوليو) ١٩٥٥ ، أنهيت زيارتي التي دامت عامين للقاهرة وعدت متباطئا الى وطني حيث قضيت شهرا كاملا على الطريق . ولدى وصولي الى واشنطن في أواخر آب (أغسطس) كانت هناك في انتظاري رسائل من بايرود وناصر تستعجلني لبذل ما في وسعي لانتشل مسألة المساعدات العسكرية من مأزقها الذي وقعت فيه ، كما كانت هناك صورة عن الرسائل المتبادلة بين جيم آلن (الذي أعمل برئاسته في شركة بوز آلن اند هاميلتن) وبين هربرت هوفر (وكيل وزير الخارجية) يطلب فيها الأخير استعارتي لوزارة الخارجية ، ولفترة غير محدودة ، لآخدم في فريق أطلق عليه اسم « لجنة التخطيط السياسي للشرق الاوسط » . وكان الهدف الرئيسي من تأليف هذه اللجنة ، وضع الخطط لاستغلال فرصة الصداقة النامية بيننا وبين ناصر .

وكان أول ما قمت به في واشنطن - بشكل مهمة رسمية - هو بحث موضوع المساعدات العسكرية لناصر مع جورج آلن ، الذي حل محل هانك بايرود كمساعد لوزير الخارجية لشؤون افريقيا والشرق الاوسط . وكان جلُّ دراية جورج بالموضوع ، هو أنه معلق لاسباب ادارية ، وطلب مني أن أجد مكانا مريحا في غرفة مجاورة لمكتبه لاطلع على البرقيات المتبادلة بين واشنطن والقاهرة خلال الشهر الذي كنت فيه بعيدا عن العمل . وقد فعلت ، وقنيت نظري في تلك البرقيات جيئة وذهابا ، كما يتابع لاعب التنس بنظراته الكرة في مباراة مثيرة . وسرعان ما اتضح لي أن الامر برمته قد غاص في مستنقع الاجراءات البيروقراطية . ولاحظت أن الملفات الاضائية قد اشتملت على رؤوس أقلام مناظرة واسعة النطاق ، جرت حرث موضوع المساعدات العسكرية لناصر وفيما اذا كان يمكن تقديمها له دون أن نحصل منه على ضمانات أنها لن تستعمل في عمل عدواني ضد اسرائيل . الا أن تلك المحاورات والمناظرات أضحت غير موضوعية ، عندما طلب مني السفير المصري في واشنطن في اليوم التالي ونحن

نتناول طعام الغداء ، أن أخبر جورج ألن أن في وسعنا تخفيف الضغط على ناصر عن طريق تزويده ببعض التجهيزات العسكرية الاستعراضية كخوذ لمامة ومسدسات في قراب جميلة وغيرها بما لا يتجاوز المليونين من الدولارات ، مما يرضي على الجيش بعض مظاهر القوة والاحترام - الا أن المشاكل الادارية (التي لا أزال أجهل كنهها للآن) قد حالت ثانية دون انجاز طلب ناصر الاخير ، وغاص المشروع الاخير في نفس ما غاص فيه سابقه .

الا ان البرقية الاخيرة من الملف كانت تفرض علينا أن نعيد التفكير بموضوع المساعدات العسكرية لناصر بصورة ملحّة . فقد حذرنا بايرود من أن امتناعنا عن تزويد ناصر بالتجهيزات العسكرية سيلزم الاخير بقبول المساعدة العسكرية الروسية (التي أصر يومها جورج ألن على أنها غير ذات بال) ، وأكد ضرورة تزويده ولو بمقادير رمزية منها ، وبسرعة كافية . وكانت وكالة المخابرات المركزية قد أكدت خبر تقديم الروس فعلا عرضا لتزويد ناصر بمثل هذه المساعدات العسكرية . وأضاف بايرود محذرا أن قبول ناصر للمساعدة الروسية العسكرية سيفسح المجال أمام الروس لتحسين مركزهم في المنطقة ولتثبيت أقدامهم فيها . وقابلت لجنة التخطيط السياسي للشرق الاوسط نبا العرض السوفياتي بالدحشة الارتباك ، الا أنها لم تتخذ أي تدبير حياله . وفي منتصف ايلول (سبتمبر) ١٩٥٥ تلقى كريميت روزفلت رسالة شخصية من ناصر تفيد أن الاخير على وشك التوقيع على اتفاقية مع الروس ، وأنه يرحب بروزفلت في القاهرة ان كان عاجزا على الرجوع عن عزمه هذا . وفي اليوم التالي غادرت وروزفلت واشنطن متوجهين الى القاهرة .

وفي مطار القاهرة ، كان أحد اعوان ناصر في استقبالنا . ومن ثم توجهنا برفقتنا الى شقة ناصر في الطابق الاعلى من مبنى مجلس قيادة الثورة . وكان ناصر في مزاج الشامت الساخر ، ولكنه منبسط الاسارير ، وكان لسان حاله يقول : « لقد قلت لك هذا يا روزفلت ، فما عمالك ان تفعل الان ؟ » وجلس الجميع ليمتصوا برؤية روزفلت يتعلم عندما يبدأ محاولا الرد على حبيج ناصر الدامغة . ولكن روزفلت أدهش ناصرا عندما عزف عن اقتناعه برفض الاسلحة (فقد كانت وكالة المخابرات المركزية قد اقنعتنا أن ناصرا قد قبل الصفقة ولا مجال لينثني عن عزمه هذا) وقال له : « ان كانت الصفقة فعلا بهذه الضخامة التي

سممنا بها ، فما عليك الا القبول بها ، لانها وان اغضبت البعض فستجمل منك بطلا عظيما وتكسبك تأييدا فريدا . فلماذا يا ناصر لا تستغل هذه الموجة المفاجئة من التأييد الشعبي لتتخذ بعض القرارات التاريخية حقا ؟! وما اظن ان ذاك التأييد سينحير ان اعلنت مثلا : « ان هذه الاسلحة دفاعية فقط ، وانتي على استعداد لان اقبل مشاركة الاسرائيليين للقيام بمجهود مشترك بغية الوصول الى صلح دائم في المنطقة ، ان هم ارادوا ذلك فعلا » . ولم يتمالك ناصر نفسه عند سماع هذا الاقتراح ، فقد طار لبه فرحا وقفز مبتهجا وقال : « انما لفكرة رائعة » .

وانبعنا مناقشة الفكرة حتى منتصف الليل : فناصر سيصدر بيانا يدرج فيه نبأ عقد صفقة السلاح الروسي ، وهكذا فلن يهتف له المتطرفون في مصر لوخدمهم بل والمحافظون (وحتى الشرق) ايضا . وبعد ذلك يبدأ ناصر بحملة حياذ دولية ترضي الجميع ويستمر ، بنفس الوقت ، في الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية الملحة داخل البلاد معتمدا على المساعدات الامريكية . وهكذا توفرت الاحتمالات من جميع الانواع والضروب . فناصر سيلقي خطابا بعد يومين في حفلة التخريج في كلية الطيران ، ومن الممكن ان يضمه نبأ الاعلان عن صفقة السلاح الروسية . واتفقنا على ان اكتب لناصر مسودة المقطع الذي سيتضمن هذا النبأ ، ثم يقرم ناصر في الليلة التالية بالتعاون مع روزفلت بتوضيب هذا المقطع في شكله الاخير وانزاله المكان الملئم من الخطاب .

وحضر عدد غير قليل من المتطفلين اعداد مسودة ذلك المقطع من الخطاب . الا ان السفير بايرود لم يكن بينهم ، فهو لم يعلم بعد بوصولنا الى القاهرة . وخلال النهار التالي للاجتماع بناصر ، وصل حشد من الزوار الى فندقنا لاعطاء الراي فيما يجب او لا يجب ان يدرج في البيان ، وكان بينهم مصطفى امين - صاحب جريدة اخبار اليوم - ومحمد حسنين هيكل - المحرر في اخبار اليوم - وكلاهما من امناه سر عبد الناصر ، ومحسن التهامي المساعد الوطني الاول لناصر ، وجيمس ايخلبرغر من السفارة الامريكية في القاهرة (الذي علم بوصولنا من حسنين هيكل دون ان يذكر ذلك لبيرود) واحمد حسين السفير المصري في واشنطن ، الى جانب حشد آخر من بعض الشخصيات الاخرى .

ويبدو أن الجميع كانوا على المام تام بالانباء السرية لصفقة السلاح الروسية . وعلى الرغم من الجهود المشتركة ، فقد كان نص البيان مقتضبا ، ولم يتعد توضيح النقطة التي وافق عليها ناصر دون أن يمس ذلك بشعور أحد أو أن يخفف من الاثر الدراماتيكي الذي كان يريد أن يتركه خطابه على جماهير الشعب .

وفي الساعة الثامنة من مساء اليوم التالي لوصولنا الى القاهرة ، ذهبت وروزفلت الى شقة ناصر في المبنى الخاص بمجلس قيادة الثورة الذي يقع مواجه السفارة البريطانية عبر نهر النيل ، ونالت المسودة اعجاب ناصر ، ولم يمانع في حشرها بين فقرات خطابه . الا انه أبدى رغبته باجراء تعديل طفيف عليها . فهو لا يستطيع ذكر عبارة « الصلح مع اسرائيل » صراحة ، ويفضل أن يستبدلها بعبارة « تخفيف حدة التوتر بين العرب واسرائيل » ووافق روزفلت على هذا ، بل واعتبره خطوة جلييلة نحو مستقبل أكثر هدوءا واستقرارا ، فقد كان يخفي في جمبته عديدا من الاقتراحات لانهاء حالة العداء بين العرب واسرائيل ، الا انه تريت في طرحها حتى ينتهي ناصر من خطابه .

وبينما كان ناصر منهمكافي اخراج زجاجة من « السكوتش ويسكي » الذي يحتفظ به عادة لضيوفه البارزين ، قرع جرس الهاتف ليقول له الضابط المناوب في الطابق الادنى ان السير همفري تريفليسان ، السفير البريطاني ، يطلب مقابلة مستعجلة مع ناصر .

والتفت ناصر اليها متساءلا : « ما تظنون وراه ؟ »

فاجب روزفلت : « طبعاً ، يريد مباحثتك بشؤون صفقة السلاح الروسية » .

فقال ناصر : « واعجبا ، انها سر ، فكيف بلغته انباؤها ؟ »

فرد عليه روزفلت قائلا : « حتى ولو اخفى اصحابك انباها فان السوفيت لن يفعلوا هذا ، فليس من مصلحتهم أن يدعوها طي الكتان ، اليس كذلك يا جمال ؟ »

فقال ناصر : « هذا صحيح ، وما أظن غير ذلك ! »

وفي تلك الاثناء كنا ننظر الى ساحة السفارة البريطانية عبر النيل (١) فرائنا سيارة السفير تغادرها الى الشارع الرئيسي ، لتشق طريقها عبر الازدحام ، ومن ثم تعبر الجسر لتصل الى الشارع الذي يطلق عليه مبنى مجلس قيادة الثورة . وفي هذه الفترة كنا نتناقش في الموقف الذي يجب أن يتخذه ناصر من السفير البريطاني الذي لم يكن - كسفيرنا بايرود - على علم بوجودنا في القاهرة . ذلك أن الوزير جون فوستر دالس - تمسكا بالتقاليد - لم يخبر باقي أعضاء وزارة الخارجية ، ولا البريطانيين ، ولا حتى سفيره بايرود في القاهرة ، بالدعوة التي وجهها اليها ناصر أو بحقيقة هدف زيارة روزفلت للقاهرة (فقد كان الهدف منها محاولة اقناع ناصر بانتهاج سياسة جديدة وجريئة ، لتوثيق عرى الصداقة وتطوير البلاد اقتصاديا) ، والآن ، وتحت ظروف مماثلة ، ما الذي يجب على ناصر أن يخبر السفير البريطاني به ؟

قال له روزفلت : « وعلى سبيل تسويق اعلامه بالحقيقة حتى مساء الغد، أخبره أن الاسلحة من تشيكوسلوفاكيا ، فان هذا لن يثير قلقهم ، فتشيكوسلوفاكيا تعتبر من مصادر السلاح الرئيسية لاسرائيل » .

وهكذا غادر ناصر الشقة ليلتقي بالسفير البريطاني ويخبره أن الاسلحة من براغ Prague ، الا ان ناصر لفظ حرف « P » في كلمة براغ على الطريقة العربية كحرف « B » فلم يفهم السفير الا ان مصدر السلاح Brague ، وهذه ليست مدينة في تشيكوسلوفاكيا . وقدّر ان ناصر قبل صفقة السلاح الروسية . ولم يكن بوسعنا ان نقابل السفير البريطاني لنصحح له لفظ ناصر لكلمة Prague وكانت النتيجة ان ابرق السفير بالنبا حالا الى وزارة الخارجية البريطانية ، التي بدورها أشارت على هيئة الاذاعة البريطانية BBC ان تذيعه دون تأخير .

ولم تستمر مقابلة السفير تريفليان لناصر أكثر من خمس دقائق . وما كدنا ننتهي من مراجعة مسودة خطاب ناصر ، الذي سيلقيه في حفلة خريجي مدرسة الطيران ، حتى دخل علينا عبد الحكيم عامر وزكريا محي الدين وذهبنا بعدها معا لتناول طعام العشاء عند السفير المصري (في واشنطن) أحمد حسين .

(١) تقع السفارة البريطانية مقابل مجلس قيادة الثورة مباشرة عبر نهر النيل في الزمالك - القاهرة .

وكانت ساعات المساء التي أمضيها في شقة ناصر - قبل ذهابنا الى بيت احمد حسين - مليئة بالمرح والبهجة ، تعرضت خلالها لمضايقات من صديقي زكريا محي الدين الذي لم يكن يعلم بوجودنا في القاهرة الا قبل دقائق معدودات . وتبادلنا النكات حول ما كان يمكن أن تتحول اليه تقاسيم وجه السفير البريطاني ، لو أن روزفلت - أو أنا - قطعنا عليه خلوته مع ناصر لنسأل الاخير : « عفوا يا جمال ، لقد نفدت الصوداء، فمن أين لنا بمريد منها ؟! » . وتبادلنا النكات الشائمة حول ميكروفونات التجسس المدسوسة في غرفة الاجتماعات . وبعبارة أوضح ، فقد تبادلنا جميع أنواع المزاح البريء الذي يدور عادة بين المراهقين من حضارات مختلفة وخاصة بعد تحررهم من قيودهم وانطلاقهم من كبتهم .

واستمر هذا المزاح وتراشق النكات طوال الطريق الى بيت السفير احمد حسين وحتى خلال القسم الاول من حفلة السمر هناك . الا أن موضوع المزاح - وهو مقابلة السفير لناصر - ، لم يكن ليسمح لأي قادم جديد بالمشاركة فيه لجهلة بما جرى . وقد وصلنا متأخرين ساعة من الزمن الى بيت السفير حسين . الا أن السفير بايروود كان قد سبقنا الى هناك ، ولم يعلم بوجودنا في القاهرة الا عندما رأنا ندخل بيت السفير حسين مع رئيس الدولة وكبار نوابه، والكل مستغرقون في الضحك يتبادلون النكات التي كان بايروود غريباً عنها كليا . .

ربما لا يدري القارئ الا القليل عن طبيعة نظام التشريعات في المؤسسات الضخمة ، مثل وزارة الخارجية الامريكية ، أو شركة جنرال موتورز ، أو الكنيسة الكاثوليكية ، أو الجيش الصيني . ولهذا فمن دواعي السرور أن أخبره انه ليس هناك ما يزعج احد كبار الموظفين أكثر من تسلسل موظف آخر الى مملكته دون علم مسبق منه ، أو أن يتصرف ذلك الموظف الاخر بصورة مستقلة تماما عن الاول وعلى مستويات رسمية عليا . وكان يحدث هذا كثيرا على عهد الوزير دالس . فعندما تواجه الوزير أية مشكلة - وليكن مثلا أفغانستان - كان يتلفت يمنة ويسرة ليتفرس في وجوه هيئة وزارته ، ثم يحاطبهم قائلا : « والآن، لنرى من منكم ضليعا في معالجة الشؤون الافغانية ؟ » . ثم ما لبثت الوزير أن يختار أحد الموجودين لمجرد تذكركه أنه قد سمع منه حديثا عن « أفغانستان »

منذ زمن غير بعيد ، واعتبره الوزير صحيحا . ولم يكن دالس من النوع الذي له في مجلسه من يرغب أن يقول له : « يا حضرة الوزير ، لكننا نملك سفيرا جيدا في أفغانستان ! » . وعلاوة على ذلك ، فإن الوزير لا يثق بأولئك الذين يعملون مباشرة تحت امرته بل ولا يتذكر غيرهم .

وبعد أن ينتقي الوزير دالس مبعوثه الخاص ، فإنه لا يقوم بإبلاغ السفارة المقيمة بالامر ، أو أنه يعلمها بصورة شكلية فقط مثل : « أفريل هاريمان يصل على البان اميركان رحلة رقم ١٠٠ ، لا يرغب بالنزول في البيت الخاص ، نرجو حجز جناح له في الهيلتون » . وان ذكر أحيانا سببا للرحلة فلا يكون السبب الحقيقي . وفي خلال عهد الوزير دالس ، كان أي سفير لنا في الخارج يخشى أن يلتقي عرضا ، وهو في طريقه من مسكنه الى مبنى السفارة ، بأي من تلك الشخصيات التي كانت تعمل في مجال دبلوماسية ما وراء الكواليس (مثل روبرت مورفي أو روبرت أندرسون) مستقلا « الكاديلاك » المخصصة للضيوف ، وسالكا اتجاها معاكسا في الشارع وهو في طريقه لمقابلة ما في القصر . الا أن السفير الامريكى بايرود كان أكثر السفراء مرونة ، وأقلهم حقا وحسدا ، وأكثرهم رحابة نفس وسعة أفق . وكان أيضا من أقل كبار الموظفين اهتماما بالشكيليات والرسميات . ومع كل هذا ، فمن المحتمل جدا أنه قد أصيب بذهول ودهشة لدى رؤيته كريميت روزفلت - وغيره - بين المدعوين لحفلة العشاء ، ويدخل القاعة متباطئا ذراع رئيس الدولة واثنين من وزرائه ، وبمظهر لا يمكن أن يوحي الا أنهم قادمون لتوهم من اجتماع عقد بينهم . وعلاوة على هذا ، فإن ذلك المزاج الذي كان مقتصرًا عليهم ، دون غيرهم ، لا يمكنه أن يعطي الا ذلك الانطباع . فمهما كانت الظروف ، فمن المزعج حقا أن يجد الانسان نفسه ضمن فئة من معارفه تمزح وتمرح ، وهو لا يدري من أمرها شيئا

وبين المدعوين ، كان جيمس ايخلبرغر ، الذي نسي أن يخبر بايرود أنه رأنا صباح نفس ذلك اليوم . وكان السفير المتجول اريك جونتستون من بين الحاضرين أيضا . فقد أمضى فترة في القاهرة يجري مشاورات بخصوص مشروع نهر الاردن فانار في الحفلة موجة من المرح والتنكيت لعلها تنسيه آلام انفشل الذي لاقاه في جولته . وأخيرا كان هناك صاحب الدعوة نفسه

السفير المصري في واشنطن ، أحمد حسين ، جالسا يشاطر اينخليرغر زجاجة من البراندي . وأما السفير بايرود ، فقد اتحنى زاوية لوحده ، وعليه امارات الكتابة والتكد ، وفي يده وتد من الحديدية يعبث به .

كان اللقاء مبهجا للجميع باستثناء بايرود . واستهله السفير جونستون بقصة تشبه قصص المتشردين من الاحداث ، وألقاها بلهجة ايرلاندية احتوت كثيرا من العبارات مثل : الراهبة الحاملة ، موسى ، اليهود ، الخروج الى الغائط . وبينما كنت والسفير حسين منهكين في ترجمة القصة الى العربية ، اذ بالسفير بايرود يتنمحنج ويقاطعنا قائلا :

« جمال ، هناك قضية أود أن ألفت انتباهك اليها . »

وهنا انقطع الضحك ، وانصت الجميع ، واندفع بايرود يلقي خطبة طويلة ضد الحكومة البوليسية في مصر ، وضد مجلس قيادة الثورة الذي يتصرف مثل « الاحداث من المجرمين » ، وضد بعض مظاهر نظام حكم ناصر التي ذكرته بها تلك المعاملة السيئة التي لقيها الملحن الامريكي لشؤون العمال في سفارة بايرود على أيدي رجال البوليس في الاسكندرية لايام خلت . وكانت الخطبة مسهية ، وبالفاظ بليغة ، وكان أحد مشاهير كُتّاب المسرح قد خطها بقلمه . الا أنها ، مع الاسف ، لم تكن مناسبة أبدا ، لا في زمانها ولا في مكانها ، ولم تلق الا على مسامع أقل الناس اتعاطا بها . وما كان من ناصر الا أن اطفأ سيجارته ، وهب واقفا ، وغادر القاعة بخطى سريعة . ولحق به وزراؤه وغادروا الحفل معه . الا أن روزفلت سبواقفا ولحق به حتى السيارة ، محاولا أن يعتذر عما حدث . وجلس بايرود بعدما الى الطاولة لا ينيس بينت شعة ، فلم تذهله مفادرة ناصر الدراماتيكية للحفلة بقدر ما أذهلته المضاعفات التي ستترتب على حضور جونستون وروزفلت الحادثة . ولقد أدرك بايرود هذا تماما . وعندما سمع جونستون صرت « كاديلاك » ناصر تبتعد ، ربّث على يد بايرود وقال له : « هانك ، لقد حان وقت الانصراف » . وانصرفوا ، وبايرود بينهم « كالسائر غافيا » يؤخذ بيده الى الفراش .

ومع أنني تأكدت أن هذا النظام قد ألني فيما بعد ، فقد كان سهلا يومها أن تستعمل احدى الشخصيات الزائرة تسهيلات السفارة لارسال برقية الى

واشنطن دون علم السفير وخبره . ففي الوقت الذي كان بايرود في فراشه يتقلب أرقا ، كان روزفلت وجونستون يأمران موظف الشيفرة فسي السفارة بإرسال برقية للوزير دالس ، يذكران له فيها كثيرا من الاخبار التي لا تعطى انطباعا حسنا عن بايرود . ومع أن روزفلت قد شعر بالاثم لاهماله اخبار بايرود بوصوله ، الا أن سلوك الأخير في بيت أحمد حسين سوف يعرض الخطة التي جاء روزفلت لتنفيذها في القاهرة للخطر بأكملها . أما جونستون ، فقد علمته التجارب أن على رجل الاعمال ألا يفقد أعصابه مع زبائنه وحتى مع خصومه . وظن جونستون أن بايرود يواجه حالة انهيار نفسي ، الا انه كان اللطف من ذلك عندما قال في سياق برقيته للوزير دالس : « انه - بايرود - في حاجة مأساة للراحة » . ووصلت البرقية واشنطن ، ووقعت الى الوزير دالس في صباح نفس ذاك اليوم (وذلك لوجود سبع ساعات كفرق زمني بين القاهرة وواشنطن) الذي سيلقي ناصر فيه خطابه المتضمن ذاك المقطع الذي صممه مع روزفلت بعناية ودقة .

في الساعة السابعة صباحا بتوقيت القاهرة المحلي ، اتصل بايرود بسي هاتفا ، وطلب مني الحضور الى مكتبه . وعندما وصلت الى هناك بعد نصف ساعة ، بدا بايرود بنفسية جديدة تذكرت معها ما ذكره أحد الكتاب عن « السفير النموذجي » وقد نسي كل ما حدث الليلة السابقة بعد عدة جولات في لعبة التنس . وكان مرتديا سترة الرياضة وهي من صوف خشن ، وبدأ يومه بخفة ورشاقة رجل الاعمال . الا أن ردود فعله تجاه ما جنت يدها الليلة الماضية كانت أقل من أن تثير قلقه حيال مهمته كرجل دولة كاد استهتاره وقلة اكرامه أن يسببا تصدعا خطيرا في العلاقات المصرية الامريكية . وبطريقة لا تختلف عن تلك التي وصف بها « ادوارد سيهان » السذج في روايته « مملكة الاوهام » ، رمى بايرود بورقة أمامي وسألني عن رأيي فيما كتب عليها .

لم أعد أذكر النص المكتوب تماما ، الا أنه كان شيئا من هذا القبيل :
« عزيزي جمال : انني جد آسف لاثارة موضوع كريبه في لقاء لطيف مساء أمس . ولكنني لا أزال متألما جدا بسبب ما حل برجال سفارتسي من ضرب واهانة ، وانك بالتأكيد ستتألم ان واجهت نفس الظروف . ومهما كان فانني

أكرر اعتذاري راجيا منك القبول . المخلص : هانك ، . وأخبرت بايرود أنها رسالة جيدة وأنني سأعطيها لناصر حالا .

قابلت ناصرا في الساعة التاسعة صباحا وهو يهيم بمغادرة سيارته « اللوموزين » ليدخل مكتبه الرسمي . الا أنه أمسك بيدي ، وأدخلني معه وهو يصف ذريا سهرة الليلة الماضية وكم كانت ممتعة للجميع ، وقال : « أظن أن قصة أريك (جونستون) حول موسى وخروجه للغائط كانت طريفة ! » . وبعد دخوله لمكتبه ، أعطيته رسالة بايرود ، فرمقها بنظرات سريعة ، ورمى بها داخل أحد أدراج المكتب مع غيرها من الاوراق ، وقال : « حسنا ، أرجو أن أراك مع كيم (روزفلت) هذه الليلة » . الا أنه لم يعط أي تعليق حول رسالة بايرود . وعندما هممت بمغادرة الغرفة سألته : « وماذا بخصوص رسالة بايرود ؟ »

قال : « وماذا تعني ؟ »

قلت : « ماذا ستفعل حيالها ؟ »

قال ، وهو يلوح لي بيده مودعا : « حسنا ، سأضممها الى ملف مثيلاتها ! »

قلت : « وما . . . مثيلاتها ؟ »

قال : « حسنا ، فمن عادة هانك أن ينفجر هكذا . أرجو أن لا يكون كيم

وأريك قد تأثرا كثيرا بسببها ! »

وجلست ثانية وأنا أفكر في جملته « لم يتأثرا بسببها » . واحسرتاه ، ان ناصرا لا يدري أنهما معا - أريد وكيم - قد ذهبا توا بعد السهرة الى السفارة ليلا ، وأبرقا الى الوزير دالس بما يكفي لنفي بايرود الى جزيرة فرناندوبو (جزيرة اسبانية في غرب افريقيا) .

وسألت ناصرا : « وماذا تعني تماما بمثيلاتها ؟ » وفهمت منه أنه لم يمض أكثر من أسبوع واحد على توقيع بايرود لناصر لسماحه لاحد الطيارين الذين تخرجوا حديثا بالتحليق في أول مهمة طيران له فوق اسرائيل ، حيث أسقطت طائرته هناك . وفي مناسبة أخرى ، اتخذ بايرود من أحد تصريحات ناصر المعادية لامريكا مثارا لنقاش وخلاف بينهما . ومما لا شك فيه أن بايرود كان قد وطد علاقاته بناصر الى حد سمح له هذا الأخير أن يناقش علنا أيا من تصرفاته

التي لا تروق له . وفي الوقت الذي كان ناصر ينظر انه بعضها بعين الاعتبار ، كان لا يعبّر البقية أي اهتمام أو اكتراث ، ودونما أدنى انزعاج أو اضطراب . وما لا شك فيه أن ناصر لم يكن راغبا اطلاقا في أن يسمح ايا من ملاحظات بايرود في تلك السهرة بالذات خشية أن تثير له بعض المتاعب . وعندما هممت بالمغادرة قال لي : « الا أنني عازم على مفاتحة كيم بهذا الامر عند لقائنا هذا المساء » .

ومع أن الفارق الزمني في التوقيت بين واشنطن والقاهرة يقارب سبع ساعات (التاسعة صباحا في نيويورك تعادل الرابعة بعد الظهر في القاهرة) . غير أن الفارق الزمني في سرعة العمل أقل من هذا بكثير . فهو لا يتجاوز ساعة واحدة من الزمن . ففي العاشرة صباحا في واشنطن (الخامسة مساء في القاهرة) من نفس ذلك اليوم وقعت حوادث عدة أهمها :

● الوزير دالس قرر ارسال جورج آلن - مساعده - الى القاهرة ليحقق في صحة تصرفات بايرود ، وسلامة عقله .

● وليام روتتري ، نائب مساعد وزير الخارجية ، وضع مسودة رسالة قاسية لناصر يحذره فيها من أخطار قبول الاسلحة الروسية .

● مساعد نائب وكيل وزير الخارجية، مستر سومبودي، جعل أبناء قصة السلاح الروسية تتسرب الى الصحافة بشكل يبرر ظهور بعض العناوين في الصحافة مثل « آلن في القاهرة ليقدم انذارا لناصر » . وما لبثت أن أبرقت وكالة الاسوشيتد برس بالنبا الى القاهرة قبل الساعة السادسة مساء (الحادية عشر صباحا بتوقيت واشنطن) . وبحلول الساعة السادسة والنصف كنت وكيرميت روزفلت في غرفة الاستقبال ننتظر مقابلة ناصر . الا ان ناصر وقتها كان محاطا بكبار موظفيه وهو يصدر الاوامر لهم :

لموظف أول : « اشطب ذلك المقطع السخيف (الذي كتبته مع روزفلت) من مسودة الخطاب واستبدله بأخر أكثر تحديا وعداء للامريكيين » .

لموظف ثان : « اتصل بوزارة الخارجية واطلب منها تفاصيل مضاعفات قطع العلاقات مع دولة عظمى » .

لموظف ثالث : « اتصل بالاذاعة لتطلب بدورها من الشعب انتظار أخبار هامة » .

وعلى الغالب ، فانه قد التفت الى موظف رابع وأمره أن ينتقي أحقر السيارات المخصصة للزائرين ليرافقني بها وكريميت روزفلت الى المطار دون مقابلتنا لناصر . ولعلم القراء - غير الرسميين في واشنطن - فان سلسلة تصرفات ناصر الآنفه الذكر تسمى « صفة » ، الا أن « صفة » أخرى كانت تأخذ مجراها وفي نفس الوقت في واشنطن .

ويعود الفضل لمصطفى أمين الذي تكرم بالسيطرة على الحالة المتدهورة ، وأقنع ناصرا بأنه لا ضرر من مقابلتنا - أنا وكريميت - وذلك - على الأقل - لسماع رأينا في الاحداث قبل أن يتخذ ناصر أية اجراءات عنيفة . وتواضع ناصر أخيرا ، وصعد الى شقته في الطابق الأعلى حيث كنا بانتظاره . ولم يكن لي أو لروزفلت أي علم بما أبرقت به وكالة الاسوشيتدبرس . كما أن مكتب الوزير دالس في واشنطن لم يبرق الى السفارة في القاهرة - وذلك جريا على عادته - بالعرض من زيارة جورج آلن للقاهرة : التقديم انذار ، أم لغير ذلك . ولهذا فقد دهش كريميت روزفلت حينما وجد ناصرا - وبدون أي علم مسبق بما جرى - غضبان مزجرا .

بعد عدة شهور ، ألقى ناصر خطابا ذكر فيه أن «أمريكا، ما حضر لعنده ليعلمه بأمر انذار آلن (قبل وصول آلن نفسه) ، وأوصاه أن لا يعير الانذار أي اهتمام . لقد ثار لفظ كثير حول هذا النبأ بالذات يوم نشر في الصحافة ، وكان النبأ يومها أحد الامثلة على غلو العرب . ان كل ما قاله روزفلت في ذاك اللقاء لم يتعد : « لماذا لا تؤخر خصامك - يا ناصر - حتى تتسلم الانذار ، وذلك بدلا من العكس ! فلربما تكون الاسوشيتدبرس مخطئة كما هو الحال أحيانا ؟ » . ولكن ناصرا لم يوافق على ذلك ، وأصر على أن الاسوشيتدبرس ليست مخطئة بل انها نادرا ما تخطئ . (لقد كان مراسل الاسوشيتدبرس في القاهرة ، ولتون واين ، يتجشم المشاق في سبيل مراقبة الانباء والتحقق من صحتها . فأخباره الى المركز الرئيسي للوكالة كانت على جانب كبير من الصحة والدقة) . ولم يكن بمقدور روزفلت أن يقول لناصر : « اذا قدم آلن اليك أي انذار فلا مانع من أن تجيبه بالطريقة التي تراها ضرورية ومناسبة للموقف . الا أنني لا اعتقد أن الوزير دالس قد أرسل اليك أي انذار بدون أن يخبرني بذلك » . لقد

كان هذا تخميننا مقبولاً من روزفلت ، لكنه غير صحيح . وما لبثت أن هدأت نائفة ناصر ، ونال اقتراح روزفلت موافقته ، وقرر أن يرجيء اتخاذ أي ردود فعل قاسية حتى يرى بأم عينه الانذار بين يديه . الا أنه أصر على حذف ذلك المقطع « المدلل » من خطابه .

ومع أن خطاب ناصر (الذي ألقاه في متخرجي الطيران) كان ملطفاً قدر الامكان نظراً لما احتواه من أنباء مثيرة ، الا أنه خلا كلياً من أية إيماءات وجسلة الدولة التي كنا نحرص على وجودها في سياق الخطاب ، مثل تخفيف حدة التوتر مع اسرائيل . وعندما حان وقت القاء ناصر لخطابه ، كانت الاسوشيتدبرس وهيئة الاذاعة البريطانية ، قد اذاعتنا كثيراً من أخبار صفقة الاسلحة الروسية (او التشيكية) الى الحد الذي لم تتركا لناصراً أية فرصة لإعلان أخبار جديدة على الشعب . وكل ما تبقى لناصر أن يقوله هو : « نعم لقد قبلت أسلحة روسية (او تشيكية) فما عساهم أن يفعلوا !؟ » ولم يأت الخطاب على ذكر أن الهدف من شراء الاسلحة هو دفاعي محض ، بل تركه مبهماً . وعندما قابلنا أنا وروزفلت ناصرًا بعد الانتهاء من خطابه ، خرج عن صمته وقال : « لم يكن ذلك ما رغبتما به تماماً ، الا أنه لا يزال أمامنا متسع من الوقت » .

وفي صبيحة اليوم التالي ، وصل جورج آلن الى القاهرة وذلك بعد ساعة تقريباً من استلام رجال السفارة لبرقية من واشنطن تقول : « احجزوا له جناحاً في الفندق » . واحتشد عدد غفير من رجال الصحافة والمراسلين في مطار القاهرة ، وكان بينهم بايرود ومساعدوه . والتقط المصورون له صوراً عديدة وهو لا يزال على سلم الطائرة ، كما التقطوا صوراً أخرى لبايرود وآلن وهما يتصانحان ، وكذلك لآلن وهو يصانح موظفاً مصرياً بسيطاً من موظفي التشرقيات . واحتشدت الجموع على شرفات المطار وهي تهتف بشعارات معادية للامريكيين . وكان المنظر بكل عناصره يؤلف مسرحية مؤثرة تخفي وراءها نفسية التحدي الناصري بالصورة التي يطرب لها العرب ويعشقونها . وقبل أن يتمكن أي مرسل من الاقتراب من آلن لي طرح عليه بعض الاسئلة ، تسلل حسن التهامي من خلال حزام حرس البحرية الامريكية المضروب حول آلن وسلمه مذكرة من روزفلت وجونستون مكتوب فيها :

« لا تعترف بالانذار ، او على الاقل لا تات على ذكره حتى نلتقي مساء
ونتباحث بشأنه » -

وبعد نصف ساعة من الزمن عقد اجتماع في مكتب بايرود ضم كلاً من
روزفلت ، وأريك جونسون ، وجورج آلن ، وبايرود ، ولويس جونز (مساعد
بايرود) وأنا . لقد أرسل الوزير دالس آلن الى القاهرة ، وبصورة رئيسية ،
لاستبدال بايرود المخبول . الا أن هذه الفكرة قد أصبحت الآن غير ذات بال :
فها هو بايرود في مكتبه يترأس اجتماعاً يحضره على الاقل ثلاثة من كبار موظفي
واشنطن في آن واحد ، وهم كيرميت روزفلت وجورج آلن وأريك جونسون .
ثانياً ، ان الستار الذي أسدل على الانذار قد حجب كل شيء آخر الى الحد
الذي لم يتمكن روزفلت وجونسون أن يفهما المقصد الحقيقي من زيارة آلن .
وبقي الأمر هكذا حتى انعقد لقاء سري بينهم بعد بضع ساعات . ثالثاً ، لقد
تجاوز رد فعل العالم العربي لانباء صفقة الاسلحة الروسية أسوأ الحدود التي
توقعناها ، وأصبح بحد ذاته مسألة لا تقل أهمية عن الصفقة نفسها . وكان
سبب كل ذلك تلك البرقية التافهة التي أرسلها روزفلت وجونسون قبل يوم
واحد ، والتي سماها الاثنان فيما بعد « برقية منتصف الليل اللعينة » .

ولا ازال أذكر تماماً تلك الدمدمة التي أحالت ذلك الاجتماع بين كبار
موظفي واشنطن الى مجرد « لعبة صينية » لا يفهم أحد لغة أطرافها . لقد كنت
تسمع : « لقد دفعتم بناصر الى أحضان الشيوعيين » . « لو أنكم سمعتم من
الكونغرس ما سمعته أنا منه » . « انها غير مثمرة » . « والان أين تقف
المصالح الامريكية في خضم هذه الاحداث ؟ » . « في هذه اللحظة المناسبة » .
« انها ايماءة رجل دولة » . ومع أنني أكن : احتراماً فائقاً لذكاء جورج آلن
ورجاحة عقله ، الا أنني على استعداد لاقسم يمينا على أنه قال : « لماذا لا نناشد
ناصراً باسم شعبه ؟ » فكان جواب روزفلت انه خير لنا « أن نرقص تحت المطر » ،
وغادر الاجتماع ليلصق التنس . وأما أريك جونسون ، الذي اعتاد أن لا يتكلم
الا بعد أن ينهي الجميع كلامهم وهو مستمع لهم وناصت ، فقد قال : « ان
القضية لا تزال كذلك التي سمعنا بها قبل شهر من الزمن حول الاسلحة
الروسية ، سوى أننا الآن بتصرفاتنا الرعناء هذه نساهم فعلاً في نفخ اخبارها

وتضخيم انبائها • وهذا ما يريدنا ناصر ان نفعله تماما • اذا كان الانذار ينطوي على أية تهديدات فباستطاعتنا تقديمه مهما كانت العواقب • واذا لم يكن كذلك فدعونا ننسأ نهائيا • وهكذا انفض الاجتماع الذي انسحب روزفلت منه قبل قليل •

وكان هناك « انذار » ، وهو جدير بالقاء نظرة عليه هنا • فلقد أعد ذلك « الانذار » على جناح السرعة ، ونتيجة لامر من الوزير دالس - رأي امر ذلك ؛ ولعلمي ، فقد التفت الوزير دالس لآلن وقال له :

« يا آلن ، لما كنت الى القاهرة ذاهبا ، فهل تتكرم بانتهاز الفرصة لتعرج على ناصر ، وتقص عليه ما يدور بخلدنا حيال صفقة السلاح ؟ »
والتفت الوزير الى موظف اخر اسمه « بيل » وقال له :

« هل لك يا « بيل » في ان تضع لنا بعض رؤوس الاقلام حول هذا الموضوع ؟ » •

ومع ان آلن قد استحسن تقليل روزفلت لاهمية الانذار في حديثه مع ناصر الليلة التي سبقت وصوله ، الا أنه لم يكن له الخيار ، وكان عليه ان يبلغ « انذار دالس » •

وكان الوضع يتطلب بالتأكيد التقليل من شأن ما أرسله دالس ، وليس اظهاره مظهر الجد والاصرار • فمتدما ذهب آلن للقاء ناصر، لم يحاول الاول أن يقرأ بصوت مسموع أكثر من بضع فقرات من الانذار • ثم انتقل آلن الى استعراض أمور أكثر طرافة واسلس حديثا (بدل تصعيده لحدة التهديد كما توقع ذلك ناصر) • وكان من بينها استفهامه من ناصر حول « الطرق التي تنوي حكومة ناصر أن تنفق فيها الاربعمئ مليوناً من الدولارات » (التي نالتها من الحكومة الامريكية كمساعدات اقتصادية قبل عقد ناصر لصفقة السلاح ، وما منعت عنه كمقاب له على شرائه اسلحة السوفييت) •

وأظن أن هذا هو كل ما يتعلق بالموضوع ، موضوع صفقة السلاح • لقد امتلأ قلب ناصر سرورا لتطورات الامور وتماقب الاحداث • وفرح بصفقة السلاح التي لم تلق أية معارضة حقيقية منا • وفرحت جماهير الشعب بها على

عادتها • وخدمت مسرحية « الانذار » المزعوم تسلسل الاحداث : ناصر يقف ضد الانذار ، والجماهير تؤيد ناصرا في موقفه هذا • لقد فرح ناصر بكل هذا طبعاً ، الا أن فرحته قد بلغت الذروة عندما علم في النهاية « أنه ليس هناك أي انذار على الاطلاق » • ولم يكتف ناصر بهذه اللعبة التي رفعت من قيمة أسهمه في العالم العربي (الى جانب منافع الاسلحة) ، بل بذل قصارى جهده لافراغها في قالب مسرحي ولاحراجها مفعمة بالحركة والشعور • وكان ذلك - وذلك كله - بمساعدةتنا •

لقد تمكن ناصر من الاحتفاظ باستقلاله بعد حصوله على السلاح الروسي (١) ، ولم يفقده أمام السوفييت • وهكذا فقد وضعنا أمام امرين لا ثالث لهما : اما أن ندعه لقمه سائفة للسوفييت ، او نحاول كسبه الى جانبنا ثانية • وبعد انتهاء تلك المسرحية التي كان عمادها جورج آلن « وعطلته الاسبوعية الضائعة » (كما اتفقنا على تسميتها فيما بعد) كان الطريق أمامنا واضحاً وعموض فيه : لقد ارتضينا حياده الايجابي ، بل ولقد شاركنا في ولادته •

(١) ان نوعيه السلاح الذي حصل عليه ناصر ليس بتلك الاعمية التي تلقفه استقلاله معها • ولا تزال روسيا الآن تمتنع عن العرب (بشهادة ناصر نفسه) الاسلحة العمالة التي تمكن العرب من مواجهة اسرائيل حقا • ولكن ما فائدة كلامنا اليوم والاعتراف باسرائيل رسمياً أصبح على الابواب ؟! (الحرب).

ناصر واتحاد "المحايدين للإيجابيين"

... فان كانت كل تلك المغامرات نتيجة جهد لاعب ضعيف لوحده ، فالمغامر اعظم " لاتحاد " من اولئك الضمما ، ...

الحياد الايجابي - أو حرية التقرير ، أو ما شئت أن تسميه - لم يكن من أهداف ناصر فحسب ، بل كان استراتيجيته العليا . ففي عام ١٩٦٥ نظم بيتر مانسفيلد قائمة بقروض مصر الاجنبية وتسهيلات الدفع الممنوحة لها . وتأكدت كل من وزارة الخارجية الامريكية ووزارة الخارجية البريطانية من أن الارقام صحيحة تماما ، وان كان هناك أي شك فهو - على الاقل - لا يزال قيد المناقشة . والقائمة ، مع مجموع الديدون ، مبينة هنا ، على أساس أن قيمة الجنيه المصري تعادل ٢ر٣٠ دولارا .

● من الدول الشيوعية :

٣٣٢٥	مليون جنيه مصري	الاتحاد السوفياتي
٦٢٠	مليون جنيه مصري	تشيكوسلوفاكيا
٤٥٠	مليون جنيه مصري	ألمانيا الشرقية
٢٤٤	مليون جنيه مصري	بولندا
١٢٠	مليون جنيه مصري	المجر (هنغاريا)
٧٠	مليون جنيه مصري	يوغوسلافيا
٤٨٢٩	مليون جنيه مصري	المجموع

● من الدول غير الشيوعية :

٥٣٥٦	مليون جنيه مصري	الولايات المتحدة
٩٣٠	مليون جنيه مصري	ألمانيا الغربية
٩٢٩	مليون جنيه مصري	إيطاليا
١٧٠	مليون جنيه مصري	اليابان
١٠٠	مليون جنيه مصري	فرنسا

بريطانيا	٥٤	مليون جنيه مصري
هولاندا	٥٠	مليون جنيه مصري
سويسرا	٤٠	مليون جنيه مصري
السويد	٣٣	مليون جنيه مصري
وغيرهم	٦٣	مليون جنيه مصري
المجموع	٧٧٢٥	مليون جنيه مصري

١٩٧ مليون جنيه مصري

● البنك الدولي :

٣٦٠ مليون جنيه مصري

● هيئة التمويل العالمي

١٣١١١ مليون جنيه مصري

المجموع الكلي

٣٠١٥٥٣ مليون دولار تقريبا

وعلاوة على المنافع المالية ، فهناك مساعدات تقنية وهبات لتجهيزات صناعية ومستاعدات غذائية . كما أن الولايات المتحدة وغيرها باعت مصر غذاء يسدد ثمنه بالجنيه المصري - العملة المحلية . وحصل ناصر على تجهيزات عسكرية من السوفييت يقدر ثمنها بخمسمائة مليون من الدولارات . ولو رضي ناصر أن يقف في الصف ينتظر دوره - كما أراد الوزير دالس - لبقيت كل الارقام السابقة مجرد احلام ، وما كان ليحصل يومها على أكثر من أربعين أو خمسين مليوناً من الدولارات سنويا من الولايات المتحدة وبريطانيا ودون أي شيء من السوفييت . كما أنه كان سيبقى دون أية مساعدات عسكرية ما كان ليطول بقاؤه على رأس نظام حكمه في مصر بدونها . وهكذا فقد سلك ناصر طريقا عاد عليه بعشرة أضعاف ما عرضناه عليه وقتئذ .

وأول ما نذكر في معرض حديثنا عن استغلال ناصر لفكرة الحياد الايجابي وانتسابه الى « رابطة المتسولين ، جابي المساعدات » (كما سماها المسؤول الاقتصادي في سفارتنا في القاهرة) هو الوقت الذي أثرت اثنائه مشكلّة المساعدات الاقتصادية البالغة أربعين مليونا من الدولارات . ففي اللقاء الذي جرى بين ناصر والوزير دالس في أيار (مايو) ١٩٥٣ كان الانطباع السائد عند ناصر آنذاك أن قيمة المساعدات الاقتصادية التي نفكر بها لا تقل عن مائة مليون

دولار ، وان قيمة المساعدات العسكرية لا تقل عن هذا الرقم أيضا .
كما كان يظن ناصر ان كل ما يقتضيه فعله للحصول على كل ذلك هو التوصل
الى اتفاق مع بريطانيا حول قاعدة قناة السويس . واعتقد ناصر انه غير ملزم
بالانتظار حتى يوقع الاتفاق بل كان كافيا يومها ان يبرهن المصريون على حسن
نياتهم واخلاصهم اثناء سير المفاوضات ، وان يفدو التوصل الى الاتفاق وشيكا .
وبناء على هذا سافر علي صبري (وكان اخلص اصدقاء الامريكيين في مجلس
الثورة آنثذ) الى واشنطن لمساعدة الملحق العسكري المصري ، عبد الحميد
غالب ، في المفاوضات . وقد اصبح علي وعبد الحميد من خصومنا فيما بعد
لاعتقادهما اننا اتبعنا معهما أسلوب المراوغة في موضوع المائتي مليون دولار
التي وعدنا بها ناصر على شكل مساعدات عسكرية واقتصادية . وهكذا انقلب
اثنان من المسؤولين المصريين (أحدهما بقي نائبا لرئيس الجمهورية لمدة قريبة ،
والآخر أضحي مساعدا لوزير الخارجية) الى عدوين لدودين لنا ، نتيجة
شعورهما بالمدلة والمهانة اثناء المفاوضات في واشنطن والذي أخفقتنا في
التخفيف من حدته حتى الآن .

لقد وقعت وزارة الخارجية يومها في حيرة وارتباك . فقد لمس صبري
وغالب من كل المسؤولين الذين التقوا بهم في واشنطن برهانا على صدق
انطباعاتهما حول المائتي مليون دولار التي وعد دالس بها ناصرا . وعانى السفير
كافري كذلك من ارتباك شديد حيال حديث ناصر عن المساعدات الامريكية .
فقد شعر كافري ان كلام ناصر فيه كثير من الصدق ولم يستبعد ان يكون لسان
الوزير دالس قد زلّ على مائدة الطعام ووعد ناصرا بمبلغ المائتي مليون دولار ،
دون ان يصل ذلك الى اسماع كافري أو مساعديه . وفي أحد أيام الصيف طلب
مني كافري ان أقوم بزيارة ناصر لسؤاله ان كان بمقدوره اعارتنا « مذكراته
عن المحادثات » مع دالس . وعندما التقيت بناصر اقتضى الامر ان اشرح له
لعدة دقائق ما أعني بعبارة « مذكراته عن المحادثات » ، فهو لم يمهد من قبل
أشياء كهذه . ومنذ تلك الحادثة ، ازداد ناصر دقة وتعقيدا وطق لا يدع حديثا
مع مسؤول مهم الا وسجله صوتيا من خلال الميكروفونات المخبأة في مكتبه
وغرف الاستقبال وعرفة الطعام . فقد اعتبر تسجيلي موظفينا لما دار في الاجتماع
بينه وبين دالس مكررا وخداعا لان اللقاء كان سريرا ، ولا يحق لاحد ان يدون ما

دار فيه . فناصر نفسه لم يحتفظ بأية مذكرة عن اللقاء ، ومن المدهش أن يكون
دالس قد احتفظ بشيء من هذا القبيل .

ومن خلال حديث لاحق جرى بين ناصر والسفير كافري ، الى جانب
حديثي السابق ، بدأت اميل للاعتقاد أنّ ناصر قد غفر لنا ما سماه « خطأ
شريفاً » ، الا أن علي صبري وعبد الحميد غالب لم يغفراه لنا . (أخبرني عبد
الحميد غالب لاحقاً أنهما قد عوملا معاملة الاطفال . فعندما ظنا أن الامر قد تم
والموافقة على المائتي مليون دولار أصبحت جاهزة اذا بهما يفاجآن في اليوم
التالي بأحد المسؤولين في وزارة الدفاع يخاطبهما وكأنهما « جنود أغرار » ،
وبآخر من وزارة الخارجية يلقي عليهما درساً في « السلام والاستقرار » ، وكأنهما
أغبياء) . وكان جل هم ناصر أن يعرف : « حسناً ، وماذا ستكون حصتنا منكم ،
أيها الأمريكيون ؟ » .

وفي أثناء أحد الامسيات التي أمضيتها مع ناصر في حديثه ، وبحضور
حسن التهامي ، حاول ناصر أن ينتزع مني جواباً عن سؤاله السابق ، لكنه لم
يجد لهذا سبيلاً . فقد كان محظوراً علينا - نحن المواطنين غير الرسميين -
حسب مرسوم « لرجان » أن نحاول التأثير على تفكير أي من رؤساء الدول الأخرى
فيما يتعلق بملاقاتهم مع حكومة الولايات المتحدة وتوجيهها وجهة معينة . ولهذا
فليس من مهمتي أن أجيبه على سؤال كهذا . كما لم أشأ احراج السفير كافري
وازعاجه . الا انني قلت لناصر . « كنت أفضل أن تقتصر المطالبة على عشرين
مليوناً من الدولارات ، ولا مانع من أن أرفق بها المشاريع المزمع تنفيذها بهذا
المال . ومتى وضعت تلك المشاريع موضع التنفيذ ، فسأطالب بغيرها » . ومع
أن ناصر لم يبد أي تأثر بكلامي هذا ، فقد انفجر حسن التهامي غاضباً وقال :
« انني لا أرتب بالبقاء هنا حتى لا اسمعك توجه الشتائم لرئيس جمهوريتي
تحدثوننا بالمائتي مليون ثم تمنحوننا عشرين مليوناً كصدقة علينا أن نستجديها
منكم ! » . الا أنني لم أجبه بشيء ، وفضلت الصمت على الكلام . وغادر ناصر
المجلس الى فراشه ، وعدت الى المدينة مع حسن التهامي بدون أن ينس بينت
شفة طوال الطريق . الا أنه ودّعني عندما وصلت الى منزلي بكلام ساخر وقال :
« لن يمضي زمن طويل حتى تستجدوننا لقبول المائتي مليون دولار ! » . الا

أن ذلك لم يحدث قط ، بل العكس قد حصل .

وفي صبيحة اليوم التالي ، أسرعت لاقصر على كافري حصيلة ما حدث معي في الليلة الفائتة . واستحسن كافري ما فعلته من ذكر العشرين مليوناً كرقم معقول طالما كان ذكره نتيجة تخمين مواطن « غير رسمي » . إلا أن كافري عزم على أن يطالب وزارة الخارجية بمضاعفة العشرين مليون دولاراً ، ثم زيادتها عشرة أخرى ، تحسباً لما قد يطرأ عليها من نقصان .

وفعلاً ، فقد حدث ما توقعه كافري . فوزارة الخارجية لم تمنح ناصر أكثر من أربعين مليوناً من الدولارات ، مع أن طلب كافري كان خمسين مليون دولار . (لقد أخبرني بعض أصدقائي في وزارة الخارجية أنهم أنفقوا وقتنا طويلاً ، وبذلوا جهداً كبيراً ، قبل أن يقموا على الرقم « أربعين » . ولم يكن ذلك مجرد صدفة كما ظننا نحن في القاهرة . لقد قال لي أحدهم إن الكونغرس ما كان ليوافق على أي مبلغ يتجاوز الخمسين مليون دولار ، ونظراً لأن رقم تسعة وأربعين مليون دولار سيبدو على أنه السعر الأدنى للمساومة ، فإننا تمسكنا برقم الخمسين مليون دولار الذي قدمه كافري لنا . إلا أننا خفضناه قليلاً بعد أن شعرنا أن كافري قد وضع دسماً زائداً فيه) .

وخضت غمار كثير من المجادلات والمناقشات في تلك الأيام ، إلا أنني كنت دائماً أبدأها متنصلاً بقولي : « هذا ليس من اختصاصي ، ولكن ... » . فلقد جعلت مني تلك الظروف الوسيط المناسب « وغير الرسمي » بين ناصر وكافري . وتقديراً لمصلحتي على المدى البعيد فقد تجنبنا المساهمة في الصفقات الفاشلة . وكان اعتقادي أن ما قدمناه لناصر من مساعدات لا يكفي لإقامة علاقات وطيدة معه . ولا أجد مانعاً هنا من أن نستعرض معاً كيف تم تقديم المبلغ له . ففي أثناء زيارة قصيرة لي إلى نيويورك في أواخر صيف ١٩٥٣ ، التقيت ببايرود (وكان يومها مساعد وزير الخارجية) واتفقت معه على أن نوضح لناصر أن مبلغ الأربعين مليون دولار هو « دفعة على الحساب » ومعرض للزيادة (أو النقصان) بناء على الطريقة التي سيستثمر فيها وعلى النتائج التي سيعطيها . وأفلحت في اقناع بايرود بإضافة مبلغ آخر لاستعمال ناصر الشخصي ، وللإستعانة به في اتخاذ تدابير أمن استعداداً لمواجهة مصاعب

جديدة بدأت رباحها تلفحه من الداخل (كان هذا عام ١٩٥٣) . كما طلبت من بايرود أن تقوم حكومة الولايات المتحدة بتعميم سببارة « كاديلاك » ، مصفحة الجدران كهديفة لناصر ، وترسل له أيضا خبيرا في المباحث ليشرف على تنظيم الحرس الخاص بناصر ، وتزوده بأجهزة انذار خاصة لحماية منزله وأخسرى لاستخدامها في السيطرة على أعمال الشغب والمظاهرات .

ومع أن اقتراحاتي هذه قد لا تسترعى انتباه القاريء الان الا أنها كانت يوما ضرورية ومعقولة . وقد استحوذت على اهتمام بايرود الذي اعتبر معلوماتي عن الوضع معلومات من الدرجة الاولى ، وباشر في انجاز الاقتراحات جميعا . ورأى بايرود أن مبلغا لا يتجاوز الثلاثة ملايين دولار يمكن تسليمه لناصر نفسه يدا بيد ، وبسرية تامة ، بعد اقتطاعه من مخصصات رئيس الجمهورية الامريكية مباشرة . ويمكن لوكالة المخابرات المركزية أو مكتب المباحث الفيدرالية انجاز ما يلزم من ترتيبات الامن وضروراتها . وهكذا ارتفعت قيمة المساعدة الى ثلاثة وأربعين مليون دولار ، تدفع الاربعون منها حسب الانظمة المرعية كمساعدة رسمية ، وتسلم الثلاثة الباقية سرا ودون أي مستند ، وتقتطع من ميزانية رئيس الجمهورية . ثم يقرر ارسال خبير الامن السري ، وأجهزة الحماية وأدوات السيطرة على المظاهرات والشغب بعد أن تستكمل الخطوة الاولى .

اما الملايين الثلاثة من الدولارات ، التي سلمت من دون ايصال ولا مستند ، فقد كادت أن تبقى سرا - لولا هذا الكتاب - يحير الباب علماء الآثار عام خمسة آلاف بعد المسيح كمتحير أهرامات مصر الباب علماء الآثار في يومنا هذا . وأعني هنا تلك التحفة المعمارية الرائعة المتمثلة في « برج القاهرة » ، الذي يفوق في ارتفاعه ارتفاع أهرامات الجيزة ، ويضفي على منظر منطقة الجزيرة المقابلة لفندق هيلتون عبر النيل (في القاهرة) منظرا رائعا . كما يبدو للمشاهد على بعد أميال من القاهرة وهو لا يزال محلقا في طائرته الضخمة قادما من أوروبا أو افريقيا أو آسيا .

عندما استلم السفير كافري رسالة بخصوص الثلاثة والاربعين مليوننا من الدولارات - أو بالأحرى الاربعمين مليوننا بالاضافة الى الملايين الثلاثة - اعتبر فكرة تقديم أية منحة شخصية لناصر غير حكيمة ، وان كان لا بد منها فليس

هناك غيري ليسلمها له . وقام كافرني في اليوم التالي بزيارة وزير الخارجية المصري الدكتور فوزي ليطلمه على أمر الاربعين مليون دولار بدون أن يشير الى الملايين الثلاثة من قريب أو من بعيد . وأثارت ردود فعل كافرني تجاه المنحة الشخصية لناصر شكوكا متزايدة في نفسي ، وفضلت عندها القيام أولا بزيارة لحسن التهامي للبحث معه في الامر ، وأخبرته « بأن حكومة الولايات المتحدة لا تلتزمكم بقبول هذا المبلغ ، الا أنه جاهز للتسليم وهو رهن اشارتكم » . واجابني حسن التهامي (وكان يومها رئيس الحرس الخاص لناصر ، وهو الذي تصدى للذين حاولوا اغتيال ناصر في تلك الفترة وأطلق عليهم الرصاص ، وقد ذكر ناصر هذا في كتابه فلسفة الثورة) قائلا : « اننا - بدون شك - سنجد طريقا لانفاقها ، ولا مانع من أن نرى كيف تبدو تلك الدولارات ببريقها ! » وهكذا فقد تأكدت من موافقة ناصر على استلام الملايين الثلاثة سرا . وعندما أخبرت كافرني بهذا اجابني ساخطا بأن الملايين الثلاثة قد وصلت صباح ذلك اليوم نفسه نقدا بصحبة رسول خاص من بيروت ، وبعد مشاورات مقتضبة مع رجال السفارة ، أخبرني ضابط الامن فيها أن اصطحابي لاي رجال مسلحين للحراسة سيثير كثيرا من الشكوك . وكان منزل حسن التهامي يقع في ضاحية المعادي ويبعد خمسة أميال عن وسط المدينة . وهكذا آثرت التوجه الى هناك دون حراسة ولكن بصحبة اشقى سائقي السيارات في القاهرة ، سالكين الطريق الريفي الوعر ، وبرفقتنا الملايين الثلاثة من الدولارات مدموسة في محفظة سفر بين حوائج منزلية أوصتني زوجتي أن أبتاعها لها من محلات « كروبي »

استقبلني حسن في منزله في المعادي - وكان محاطا باثنين من رجال الامن المصريين - دون أن يظهر أي شعور بالانفعال أو الاهتمام . وأحصينا المبلغ مرتين بعناية ، فوجدناه أقل بعشرة دولارات عن الملايين الثلاثة . وعلق حسن على ذلك قائلا : « حسنا ، لن نتشاجر بسبب الدولارات العشر » ، ثم ما لبث أن استقل سيارة مرسيدس ضخمة وغادر المنزل مع حرسه قاصدا منزل ناصر في الطرف الاخر من القاهرة .

وعلى حد قول حسن التهامي ، فقد فكر ناصر فيما بعد باعادة المبلغ اليها كما فكر بفضح النبا أمام الرأي العام وتصويره على أنه رشوة (كما فعل رئيس

وزراء سنغافوره بعد سنوات عندما أعطي نفس المبلغ بظروف مماثلة) • وقع أن شعورا بالانزعاج والراحة معا قد خالج ناصر - كما خالج أيضا السفير كافرّي - إلا أن ناصر لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذي كان منسه رئيس وزراء سنغافوره • واقترح حسن التهامي أن ينفق المبلغ على تشييد بناء بشكل أبي الهول مؤلف من تمثالين ضخمين ، ويقام على شاطئ « الجزيرة » المطل على النيل في مواجهة المكان الذي كان معدا لتشييد أوتيل هلتون عليه • وكان الجزء الخلفي من البناء على شكل رأس ضخّم ذي أنف كبير متطاوّل ، في حين كان الجزء الامامي عبارة عن كف يد بحجم يتناسب وضخامة الرأس • ويتجه ابهام الكف نحو الأنف في حين ترتفع الاصابع الاربعة الباقية عاليا في السماء • ومع أن ناصر قد استحسن الفكرة إلا أنه لم يعثر على مغزى لها • واقترح ناصر شيئا آخر صعب الوصف وأكثر ضخامة من الفكرة السابقة إلا أنه باهظ التكاليف وأكثر اثاره للنظر وصمودا أمام عوامل الطبيعة • وتمخضت كل تلك الاقتراحات عن بناء « برج القاهرة » الحالي الذي يشاهده الأمريكيون أصدقاء المصريين كلما أطلوا من شرفات غرف أوتيل هلتون وهم يتناولون طعام الافطار •

ولم تعمل أنباء الاقتراح الى واشنطن الا متأخرة • فتصميم وتشييد برج يمثل هذه الضخامة يستغرق وقتا غير قصير ، حتى ولو كان مجرد برج بدون فائدة ترجى أو منفعة تجنى - كما أعرب حسن التهامي مرة عن رأيه فيه ، إلا أن كيرميت روزفلت قد استطاع الحصول على أنباء الاقتراح قبل أن تحصل عليها الحكومة الامريكية بعدة أشهر وذلك من تقرير رفعه له أحد عملاء وكالة المخابرات المركزية المندسين في هيئة مساعدي ناصر نفسه • وقد زعم ذلك التقرير أن أعوان ناصر أخذوا يشيرون الى البرج على أنه « وقف روزفلت » ، في حين أن روزفلت نفسه الذي كان في طبيعة المتحمسين لموضوع الملايين الثلاثة من الدولارات - وذلك لاسباب تتعلق بما كان يحيكه من الأعيب - قد وجد نفسه يواجه موجة عارمة من اللوم والتأنيب للطريقة التي ستنفق الملايين الثلاثة فيها • وأخيرا تسربت أنباء البرج في تفوز (يوليو) ١٩٥٥ ، وذلك بعد ثمانية أشهر من دفع المبلغ لناصر ، (أو بعد شهرين من مشروع حسن التهامي وبنائه في تشييد البرج ، أو قبل ثلاثة أشهر من وصول آلن الى القاهرة واضاعته لمطلّة الاسبوع ، وفي نفس اليوم الذي وصلت أنباء صفقة السلاح الروسية - التي

كانت على وشك التنفيذ - الى وكالة المخابرات المركزية)

وفي اوساط وزارة الخارجية ، اثارَت هذه الانباء موجة اخرى من اللوم لرووزفلت لظنه أن ناصرًا مفضلًا وساذجًا . كما تصدى أصدقائه ناصرًا لرووزفلت واعتبروا الملايين الثلاثة محاولة لرشو ناصرًا ، الا أنهم غفروا له ذلك بعد تقاديبها بتدبير انتقامي معاكس . أما ناصرًا - وهو أدهى أصحابه - فقد عاتب روروزفلت على فعلته تلك لانه كان - على الاقل - مدركًا لاهداف روروزفلت البعيدة ، والتي كانت وراء اقناع الحكومة الامريكية بدفع الملايين الثلاثة كتحد لناصر نفسه . ومع أن روروزفلت لم يعتبر الملايين الثلاثة على أنها منحة منه لناصر ، الا أنه اقتنع ان تصميم ناصر على اقامة برج بالمبلغ المذكور يخفي وراءه ادراك ناصر للطريق التي بدأت « لعبة الامم » بسلوكه معه ، ولهذا فقد ترك ناصر انباء « وقف روروزفلت » - البرج - تتسرب عن عمد وسابق اصرار .

لقد اثارَت سياسة المساعدات المتعاب لكلا الجانبين . فقد اعتبر ناصر وضباطه أن قيمة المساعدات غير كافية ، في حين اعتقد رجال الكونغرس وعدد من مسؤولي وزارة الخارجية أنها أكثر مما يجب . ومهما كان فلقد أعادت الطريقة التي قدمت بها المساعدات الى ذاكرة ناصر القاعدة القديمة القائلة : « لا يوضع الشحم الا على الدولاب الذي يحدث صريرًا » . ولم يكن يدرك حقيقة هذا الا ناصر نفسه وزوج من الديبلوماسيين الامريكيين ، ولم يمض زمن طويل حتى أدرك ناصر أنه لا مساعدات بدون صرير ، ولا منافع بدون ضجيج ، وأنه كلما زاد الصرير ارتفاعًا والضجة حدة كانت العوائد أكثر ، شريطة أن لا ينفذ كل ذلك الى خارج حدود « الاسطورة » ، أو يقلت من قيودها .

ولم تكن وجهة النظر الامريكية تجاه هذه المساعدات لناصر غامضة مبهمه ، بل كانت واضحة محددة . فلا أزال أذكر ما حدث لاحد موظفي وزارة الخارجية الامريكية عندما كان يطوف على مختلف دوائرها حاملًا بيده مشروع منح ناصر مساعدات اخرى . فقد قال له أحد كبار المسؤولين في الوزارة وهو يمهر مسودة المشروع بتوقيعه : « اننا لن نواجه أية مصاعب ومتاعب مع ناصر لو أنه يهتم بشؤون بلاده فقط ويقنع عن التدخل في أمور الدول الاخرى » . ولقد قال المسؤول رايه هذا وهو يوقع مسودة المشروع دون أية معانعة أو تسويق . ومع

أن تدخل ناصر في شؤون الدول الأخرى في منطقة الشرق الأوسط قد ازداد ، وازدادت معه متاعبنا ، إلا أنه من الواضح جدا أن مساعدتنا له لم تتوقف على الإطلاق ، بل على العكس من ذلك ، قد ازدادت باطراد . لقد كنا سعداء جدا أن نرى ناصرا في المستقبل يتوجه في تمثيل أدواره على مسرح الأحداث العالمية بدافع من التحامنا معه ومساعدتنا له بدلا من الوعود الخلابة والعهود المسوولة . ولم يكن ناصر عن هذا ببعيد . فقد فهم بذكائه الحاد مراميها ، ولم نفشل معه إلا قليلا .

وبغض النظر عن كافة تصريحات الوزير دالس وغيره من المسؤولين في الحكومة الأمريكية حول فكرة « الحياد اللأخلاقية » فالحقيقة أننا كنا متأثرين بفكرة حيااد ناصر أكثر من تأثرنا بفكرة صداقتنا مع شاه إيران ، أو الرئيس شمعون في لبنان ، أو الملك حسين في الأردن ، أو الامبراطور هيلاسلاسي في اثيوبيا - مع الاعتذار لذكر الاسماء . لقد دهش ناصر لسذاجة هؤلاء الحكام بقدر ما كانوا هم أنفسهم يدهشون لسلوكنا وسياستنا . لقد أدرك ناصر ردود فعلنا بنفس الطريقة التي كان يتصرف بها كلب العالم النفساني بافلوف * عندما كان يسمع الجرس يقرع له . وبصفته زعيما لدول عديدة انضمت الى « اتحاد المحايدين الايجابيين » فقد أدرك ناصر أن بإمكانه خلق ردود فعل عندنا ذات مقام أوفر وعائدات أكثر . فدخول عامل واحد الى مكتب رب العمل مطالبا اياه بزيادة أجره وتخفيض ساعات عمله لا يتمخض الا عن طرد العامل من المكتب . الا أن ذلك العامل سيكون موضع احترام عندما يتكلم نيابة عن مجبوعة العمال . وعلى مثل هذه القواعد التي ارتضيناها « نحن » لانفسنا تعتمد طبيعة « لعبة الامم » .

وهكذا كان يفكر ناصر ، بل وأظهرت ذلك أرقام المساعدات الأمريكية له ، وبصورة صحيحة تماما . واعتقد ناصر أنه في الوقت الذي تصاعد ضغط « اتحاد المحايدين » على مصادر المساعدات الاجنبية الرئيسية - وهي الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي - بصورة حسابية بسيطة ، فقد تضاعف ضغطه

* اعتماد الكلب أن يتناول الطعام بعد أن يقرع بافلوف له الجرس فأصبحت مدة السكيب تفرز .
العصاة الهاضمة حال سماعه الجرس يقرع . (المغرب)

عليها بصورة هندسية مركبة . وعلى سبيل المثال ، فعندما كان ناصر يضمن تأييد المصريين لوحدهم له ، كانت قيمة المساعدات التي يتقاضاها منا لا تتجاوز جدلا « س » . وعندما يضمن تأييد العالم العربي له فالنتيجة أحسن ، والقيمة تتضاعف وتغدو « س^٢ » (س مربع) . وفي حال وقوف العالم الاسلامي معه فانه يحصل على مساعدات تبلغ « س^٣ » (س مكعب) . وعند مؤازرة الدول غير الغربية له (الافريقية والآسيوية) ، فانه يحصل على مساعدات قيمتها « س^٤ » (مرفوعة الى القوة الرابعة) (١) . ولم تكن نشترط عليه أن يكون الناطق بلسان « جميع » الدول الافريقية والاسيوية ، أو « جميع » دول العالم الاسلامي ، بل كان يكفي أن يبرهن لنا على أنه يملك زمام التأثير عليها حتى يتقاضى كامل أجره ومطلق تعويضاته . ولم تكن لتنفرد في سلوك مثل هذا الطريق لوحدنا بغية تنفيذ مآربنا ، بل كان السوفييت يشاركوننا في هذا أيضا . فكننا وإياهم نفضل الاستعانة بناصر لتنفيذ سياستينا وتحقيق أغراضنا بدل الاستعانة بغيره من زعماء « اتحاد المحايدين » مثل نكروما أو سوكارنو أو بدل مباشرة ذلك بأنفسنا .

لقد تفوق ناصر على كل من نكروما وسوكارنو كما تفوق على غيرها من زعماء « اتحاد المحايدين » أمثال نهرو وتيتو . ويعود الفضل في ذلك - كما وصفه فيليب تالبوت مساعد الوزير - الى كونه صعبا مع امكانية التحدث اليه والتفاهم معه .

وباستثناء ناصر ، فان أيا من زعماء « اتحاد المحايدين » لا يملك أي نفوذ أو تأثير خارج حدود اقليته . فلم يكن ليخطر ببال الحكومة الامريكية أن تطلب من سوكارنو مثلا ممارسة نفوذه بغية التأثير على الدول الآسيوية التي تعطف على الشيوعية وحملها على انتهاج سياسة الحيصاد الإيجابي . كما أن السوفييت أنفسهم لم يقتنعوا بصدق ميول سوكارنو الشيوعية حتى يرجوا مساعدته لهم في تعزيز أهدافهم في آسيا . الا أن ناصر قد أفلح في اقناع الامريكيين والسوفييت بأن إستشيريوه في شؤون كثير من الدول الافريقية والاسيوية مثل فيتنام

(١) لو افترضنا ان قيمة « س » هي عشرة دولارات فان س^٢ = ١٠ × ١٠ = ١٠٠ دولار ، و س^٣ = ١٠ × ١٠ × ١٠ = ١٠٠٠ دولار، و س^٤ = ١٠ × ١٠ × ١٠ × ١٠ = ١٠٠٠٠ دولار .

وأندونيسيا وسوريا بل - والى حد ما - اسرائيل نفسها . (ففي عام ١٩٦٢ وقيل ترويد اسرائيل بصواريخ هوك المضادة للطائرات قام الرئيس جون كيندي بتوضيح القضية لناصر وحصل على موافقة منه على أنه لا يمكن للامريكيين أن يتصرفوا بغير تلك الطريقة ، وعلى الاقل في ذلك الوقت) . وقد صاح الرئيس جونسون في بعض ساعات غضبه قائلا : « . . . كنت أود أن يكون لنا سفير في القاهرة لا يفقه شيئا عن فيتنام ، بل ولا يدري أين موقعها من الخارطة » . الا أنه لم يمض على ذلك أسبوعان من الزمن حتى أرسل جونسون مبعوثه أفريل هاريمان الى القاهرة ليطلب من ناصر التدخل مع فيتنام الشمالية بغية اطلاق سراح بعض الطيارين الامريكيين الذين أسقطت طائراتهم هناك .

وعندما يذكر ناصر في كتابه « فلسفة الثورة » أن مصر قد حظيت بنقطة تقاطع عوائم ثلاثة ، هي العالم العربي والعالم الاسلامي وافريقيا ، فانه كان يحاول وقتها أن يشيد صرح « الاسطورة » الوطنية . وعندما شرع ناصر في تطبيق استراتيجيته في ايجاد الكتل الدولية في « لعبة الامم » كان اهتمامه في النواحي الجغرافية أكثر من اهتمامه في توطيد نفوذه وزيادة فاعليته . ففي بعض الاحيان ، لم تكن كوبا لتقل أهمية عن الباكستان كحليفة متوقعة لناصر . كما أن بلادا كثيرة في افريقيا الغربية كانت أكثر أهمية عنده من بلاد افريقية مجاورة لمصر . وفي الحقيقة ، كان نفوذ ناصر « المزعوم » في تلك المناطق النائية من ضمن الاسباب التي دعت أحد الدبلوماسيين الامريكيين الى اعتبار ناصر من « العوامل التي علينا أن نحسب لها حسابا » أو بالاحرى الى اعتباره « موضحة المستقبل » . ومن وجهة نظرنا - نحن الامريكيين - فان النفوذ « المزعوم » لا يقل أهمية عن الشكل الآخر من النفوذ « الموجود حقا » . أما ناصر نفسه فقد كان يفضل النفوذ « المزعوم » ، لانه كالطبل الاجوف ، صوته هائل ومرعب وباطنه أجوف فارغ . كما أن تشييد صرح النفوذ « المزعوم » أسهل بكثير وأقل كلفة من تشييد صرح النفوذ « الحقيقي » الذي غالبا ما يقوم على أسس راسخة وقواعد ثابتة . وبالتالي فان النوع الاول يجنب ناصرا كثيرا من الازمات والمآزق التي تثير له متاعب ومصاعب هو في غنى عنها .

ومن ضمن تلك المآزق التي كان ناصر يصر على تجنبها ، « المسؤولية

الإدارية ، • ان كثيرا من الكتاب المطلقين كالصحافيين والمؤرخين والدبلوماسيين الذين تقاعدوا ونشروا مذكراتهم قد أفاضوا في الكلام حول « أحلام ناصر لتأسيس امبراطورية في شمال افريقيا » أو « طموحه لحكم العالم العربي » • وقد سمعت مرارا بعض المسؤولين في الحكومة الامريكية يرددون أن « ناصر يسلك الطريق الخطأ لحكم العالم العربي ، ان كان يريد ذلك. حقا » ، كما لاحظتهم ينظرون الى ناصر بعين الارتياح والسرور لانه « لم يحالفه الحظ في حملته لحكم العالم العربي » • الا أن حقيقة الامر لا توحى بذلك - فمعظم الموظفين الامريكيين الذين سمحت لهم ظروفهم بالاحتكاك بناصر لفترات طويلة (أمثال كريميت روزفلت وروبرت اندرسون ويوجين بلاك وتشارلز كريمنيز وكل سفرائنا في القاهرة) يميلون للاعتقاد أن ناصر لا يطمح الى حكم العالم العربي أو الاسلامي أو قارة افريقيا ، كما أراد هتلر أن يحكم أوروبا ، وان جل ما يريده هو توجيه سياستها الخارجية في مواجهتها للدول الكبرى - وكان ناصر يريد اقناع الغرب أنه لن يتمكن من عقد أية صفقات مع حكومات الدول الواقعة في مناطق نفوذه بدون التشاور معه أولا ، وأن ما يقمده الغربيون معه من اتفاقات فانما يعقدونها مع جزء من العالم أوسع من حدود مصر الاقليمية • وهذا الموضوع يشكل المادة الرئيسية في حوار صراعنا مع ناصر ضمن مجال « لعبة الامم » ، والتي عادة ما تكون من النوع الذي « حاصل جمعه صفر مطلق » • ولم يكن صراعنا مع ناصر صراع عقائد وأفكار بل كان حرب خطابات (شديدة أو مسالمة) ومقالات في الصحف (وكل ذلك جزء من « لعبة الامم ») ومنافسة بين ناصر الذي بذل كل جهده لتجميع الدول الصغيرة في منطقة نفوذه وبين اولئك الذين حاولوا أن يضموها الى مناطق نفوذهم هم ، مستغلين بذلك فكرة القومية العربية • وتنطبق هذه الحالة على الصراع في العالم الاسلامي وفي مجموعة الدول الافريقية الاسيوية •

ومع أنها ستبدو غريبة ومتناقضة مع التطورات الاخيرة لوضعها السياسية، الا أن ناصر فكر في البداية بايجاد هذا « التكتل الدولي » من خلال الاسلام وليس القومية العربية • فالاسلام هو الدين السائد في الشرق الاوسط منذ عام ٦٤١ بعد الميلاد ، وهو ، في مفاهيمه الاساسية ، دين واضح بعيد عن التعقيد ، وذو جاذبية واغراء • كما أن له رصيدها ضخما من الحضارة والثقافة

التي - مع بعض التعديلات الطفيفة - تشكل نداء مناسباً للوحدة التي كان يعلم بها ناصر . كما أن النجاح الذي حققته إحدى الحركات التي تتبنى الفكرة الإسلامية وهي حركة « الإخوان المسلمين » والتي لم يحالفها الحظ أبداً ، قد أثبت لناصر فعالية النداء الإسلامي في حشد المتطوعين واخضاعهم لنظام صارم وتوجيههم إلى أهداف شبيهة بتلك التي اختارها ناصر وارتضاها لنفسه .

إلا أن حكومة الولايات المتحدة لم تكن مرتاحة للفكرة السابقة ، واقترحت على ناصر أن يظهر بمظهر « تقدمي » في العالم الإسلامي . ونقل له هذا الرأي أحد موظفي وزارة الخارجية الأمريكية الذي عرض عليه في الوقت نفسه رأي وزير الخارجية داليس بأن يجعل ناصر من مصر « حصناً ضد الشيوعية » . وقد أخذ ناصر هذا الرأي بعين الاعتبار في الوقت الذي كان دعاة العقيدة الشيوعية في حاشيته يتضجرون بصراحة من الفكرة القائلة « أن الإسلام عدو الشيوعية اللدود » ويرون أن اقتران الناصرية بالشيوعية يمكن أن يفسد « موضة المستقبل » ويحل محل النزعة الدينية عند المسلمين . إلا أن ناصر بقي يفكر باحتمال ارتكازه على إحدى تلك الأفكار لتوصله إلى مركز عالمي باندفاع وقوة وبطريقة تضمن له قاعدة واسعة يتمكن معها أن ينخس الدول الكبرى بمهازاة لتتنافس حقاً على طلب وده وضمان جانبه .

أما قرار ناصر بدفع فكرة الاعتماد على العالم الإسلامي إلى المرتبة الثالثة فقد كان سببه وصول رجل الماني الجنسية إلى القاهرة تحت اسم « فرانز بونش » . وكان هذا خبيراً في « الفظائع التي ارتكبتها اليهود » وقد ألف كتاباً رائعاً تحت اسم « العادات الجنسية عند اليهود » نقل إلى عدة لغات مثل التركية والفارسية والعربية ، كما قام النازيون بتوزيعه أثناء الحرب العالمية الثانية كدليل على أن نفوذ اليهود وقوتهم من أكبر الأخطار التي تهدد الإسلام (كما تهدد قوة الزنوج السود المسيحيين البيض في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية) . وعندما وصل بونش إلى مصر بدأ عملاً شبه روتيني ينطوي على كتابة مقالات ضد السامية . إلا أن ذلك لم يخدم أياً من أهداف وزارة الدعاية المصرية . وتمكن بونش أخيراً من تقديم اقتراح حاز على اهتمام المصريين سريعاً ، وكان عبارة عن خطة لتجميع النازيين العنيديين من مخابثهم في مختلف دول

العالم (كالارجنتين والبرازيل وايرلندا واسبانيا وغيرها) ، واستبدال أسمائهم بأخرى اسلامية وضمهم الى « الموجودات السرية التي تشكلت أثناء الحرب العالمية الثانية » . وبهذا يمكن تكوين منظمة مخابرات لاهداف التخريب والتدمير تجمع بين أحسن المواهب المصرية والالمانية . ومن ثم وضمها تحت تصرف جمال عبد الناصر في حربه العالمية ضد الشيوعية والامبريالية .

وعندما قدمت النخطة الى سعد عفرة ، وكان من أكثر ضباط جهاز المخابرات العامة دهاء وكان المسؤول يومها عن شؤون الخبراء الالمان ، تظاهر باهتمامه البالغ بالنخطة ، سوى أنه أصر على الحصول على معلومات أوفى حول ما يسمى « بالموجودات السرية » . وكان رد فعل بونش حسنا ، فقد أمضى مدة من الزمن دون أن يلمس أي اهتمام من قبل المصريين بما يفعله . وبتشجيع من سعد عفرة فقد توصل بانثس الى جمع كافة المعلومات المتصلة بالموضوع والتي تمكن من استذكارها أو من تجميعها من بقية أفراد المستعمرة الالمانية في مصر يومها . وكانت النتيجة أن توفرت لدى جهاز المخابرات العامة أدلة تكفي للحكم بالاعدام على نصف « الاخوان المسلمين » ، كما بانث أطراف الفاز تكفي لاشغال موظفي الامن المصريين لسنتين على الاقل بغية ترسيخ اقدام جهازهم الجديد في مصر والعالم العربي كله . أما الاخبار المباشرة التي جمعت من المصادر الالمانية فقد أفادت أن « الاخوان المسلمين » كانوا عبارة عن خلية مخابرات نازية (تعمل ضد الحلفاء) . وبعد تتبع الادلة المتوفرة ، توصل التحقيق الى أن هذه الخلية النازية كانت لا تزال محافظة على تماسكها ولها من القدرة على العمل ضد ناصر كقدرتها على العمل لصالحه . الا أنها كانت قوية الى حد أن أي محاولة من ناصر للتعاون معها ستنتهي به الى وضع يجد فيه نفسه مطية لها ، وليس العكس أبدا .

وليس هذا كل ما في الامر . فلقد دلت افادات مؤسسي « الاخوان المسلمين » ، نتيجة جلدتهم بقسوة بالغة ، أن أجهزة المخابرات الفرنسية والبريطانية والروسية والامريكية ، قد تفلغلت في قواعد المنظمة وتسلمت الى أعلى مستوى للقيادة فيها . ولقد اضحى بمقدور كل من أجهزة المخابرات تلك أن يستخدم المنظمة كما يشاء ويهوى ، أو أن ينسفها من داخلها نسفا عندما يجد من

مصلحته أن يفعل ذلك . وكان الدرس الهام الذي تعلمه الجميع هو أن التزمت والتعصب لا يشكلان ضمانا أكيدا ضد الفساد ، بل ان كليهما متنافسان ويسيران متوازيين . ولم ينس أعوان ناصر المنتشرون في الامصار هذا الدرس عندما بدأوا بتنفيذ المرحلة « السلبية » من المخطط الناصري .

وعندما يتحرك الانسان ضد اية منظمة تزعم انها تحمي الدين السائد في البلاد ، فعليه أن يفعل ذلك بحذر شديد . وهذا ما قام به يومها رئيس فرع وكالة المخابرات المركزية الامريكية في مصر . ففي محاولة لكشف الكفر والزندقة السوفييتيين، قام الأخير بتوزيع منشورات شيوعية عديدة تعود الى عهد ما قبل الحرب العالمية الاولى وكانت تحمل عنوانين ذوي طابع استفزازي مثل « محمد : ليس له وجود » و « النتائج السيئة للصيام في رمضان » و « ضد الحجاب » ، وأظهرها على أنها من توزيع السفارة الروسية في القاهرة . وعندما وقع ناصر اتفاقية الجلاء عن قاعدة قناة السويس في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٤ ، كان ضباط جهاز امتهمكين في التحقيق في تلك الادلة التي وفرها لهم نشاط فرانز بونش . وفجأة قام الاتحاد السوفييتي بشن حملة عنيفة على صفحات الصحف الشيوعية ضد ناصر (١) ونمت أعوانه بالاستبدادية والظلم (٢) ورفع لواء الدفاع عن منظمة « الاخوان المسلمين » وامتدحها على أنها « أكثر الفئات المصرية المناهضة للامبريالية ، وأجدرها بالثقة » . وعندها قام رئيس فرع وكالة المخابرات المركزية في مصر بالاتصال بواشنطن وطلب

(١) كانت موسكو تعتبر ثورة مصر عام ١٩٥٢ انقلابا عسكريا وقع في القسامة بتأثير من بعض الدوائر الغربية . وكان التعليق الرسمي السوفييتي يشير الى « مجموعة من الضباط الرجعيين الذين تربطهم صلة مباشرة وقوية بالولايات المتحدة » كالمعرضين الرئيسيين لهذا الانقلاب (دائرة المعارف السوفييتية الكبرى ، موسكو ، الطبعة الثانية ، مجلد ١٥ ، ١٩٥٢ ، ص ٤٦٠) (العرب) .

(٢) نشر احد الكتاب الروس وصفا لحكومة جمال عبدالناصر في عام ١٩٥٤ يقول فيه : « انها حكومة رجعية بشكل جنوني وارهابية ومعادية للديموقراطية » (الاتحاد السوفييتي والشرق الاوسط مؤلفه والتر لاكير ، نشر فريدريش بريجر ، نيويورك ١٩٤٩ ، ص ٢٦٢) (العرب) .

منها أن تقنع الامرائيليين بأخذ زمام المبادرة لتحطيم منظمة « الاخوان المسلمين » ولكن بطريقة غير مباشرة . وهكذا أخذت الاذاعة الاسرائيلية تظهر - على طريقتها الخاصة - قدرة منظمة « الاخوان المسلمين » الضخمة على الاطاحة بنظام ناصر . وهكذا أيضا ظهر كل من الاتحاد السوفياتي واسرائيل على أنهما من مؤيدي منظمة « الاخوان المسلمين » . وقد اتبع رئيس فرع وكالة المخابرات المركزية الامريكية هذا «التكتيك» استنادا الى احدى قواعد الدعاية، وهي « المدح من العدو » ، التي تستعمل في بلدان الشرق الاوسط . وتستعمل هذه القاعدة بنفس الطريقة من قبل المرشحين المحافظين في الولايات المتحدة وبريطانيا وذلك بتجميع أعداد هائلة من الناس الذين يشتمن المرء من مظهرهم وينفر من شكلهم ، بغية مضايقة المرشحين بأسئلة كثيرة واحراجهم بتحديات مريرة .

وفي أواخر عام ١٩٥٧ ، قام النظام في مصر بمحاولة لجمع شتات « الاخوان المسلمين » ، الا أن تلك المحاولة قد صاحبته دعاية قوية على الطريقة التالية : « اننا بحاجة الى منظمة مسلمة ولكن جيدة ذات طابع عالمي ، ويا للأسف أن لا تكون كذلك منظمة الاخوان المسلمين » . وكانت الدعاية تركز يومها على « أن الاخوان المسلمين أعداء لدينهم وقد أساءوا له كثيرا » بدل أن تركز على « عداة الاخوان المسلمين للدوله وللنظام القائم » . وفي الوقت نفسه ، فقد بذلت جهود ، ظاهرها الاخلاص ، لتأسيس منظمة مسلمة جيدة بدل منظمة « الاخوان المسلمين » الا أن ناصرا لم يكن في نفسه أي ميل لها . فكان رأيه أن أي اتحاد اسلامي حقيقي لا يلبث أن يظهر على أنه شبيه بنظام الخلافة السابق ، وسيصبح مناونا للسلطة السياسية ، وبالتالي فإنه سيبعث النشاط في القوى « اللاتقدمية » ويجعل لها صوتا مسموعا . كما أنه سيثير الخلافات بين مختلف الطوائف (مثل الدرود والشيعة والسنة والزيديين) بدلا من تلطيفها وتسكينها وسيكون مرتعا لانجاب قادة متميزين باستفزاز كما كان قادة منظمة « الاخوان المسلمين » من قبل . الا أن أنور السادات وحسن التهامي قد أقلحا في اقناع ناصر أن يطلق لهما العنان ليوجها الدعوة الى « مؤتمر اسلامي » ، وليحاولا أن يستغلانه قدر الامكان ، وحسب ما تسمح به الظروف .

وفي عام ١٩٥٤ ظهر « المؤتمر الاسلامي » الى حيز الوجود برئاسة أنور

انسادات • وبعد مضي سنة من الزمن أصبح حسن التهامي نائبا لرئيس المؤتمر • وقد قام المؤتمر بنشر الثقافة القرآنية في افريقيا ووجه الدعوة لعقد مؤتمرات للبحث في مواضيع مثل القانون الاسلامي والفن الاسلامي وعلم الآثار الاسلامي • وأوفد المؤتمر مبعوثين لتعليم اصول الدين وألحقهم بالبعثات المصرية الرسمية في الدول الاجنبية • وطفق المؤتمر بعد ذلك بترقب الفرصة ، بغية تحقيق اتحاد « تكتيكي » ، مستخدما المشاعر الدينية المشتركة للوقوف في وجه الدول الكبرى وانهاج سياسة محددة • ومع أن الحكومة الامريكية ، قد أبدت بعض التشجيع المحدود للمشروع ، بغية فسح المجال أمام المصريين ، لاقتناع بعض الدول الافريقية (مثل نيجيريا الشمالية) أن الاسلام لا يتعارض والحضارة الحديثة ، الا أن هذا التشجيع قد انقلب الى معارضة عندما ثبت في أوائل الستينات، أن الملحقين لشؤون الدين قد وجهوا جل نشاطهم الى توثيق الروابط، بغية « السير معا في طريق الصراع مع العدو الامبريالي المشترك ، وليس الى الاقناع بالاخذ بالحضارة الحديثة •

وتأتي الدول الافريقية الآسيوية في المرتبة الثانية أهمية عند ناصر • فلقد أخذت الشعوب الملونة تظهر وعيا متزايدا لحركة ناصر وعلى مقياس جغرافي أوسع مما نخيله سابقا • فالشعار الذي رفعه ناصر في تحديه للعالم الغربي وهو « الرجل الملون يتحدى » من الابيض ، قد لاقى قبولا فائقا ورواجا واسفا في افتتاحيات الصحف والرسوم الكاريكاتورية امتد من السنغال في غرب افريقيا حتى كوريا الشمالية في أقصى شرق آسيا • ومن البديهي أن ناصر لم يكن يطمح الى اقامة امبراطورية افريقية آسيوية (كما اعتقد عدد من المعلقين الغربيين لغموض الامر لديهم) الا أنه تمكن من جعل نفسه في أعين العالم غير الغربي زعيما ، وتمكن بالتالي من تطوير الاحداث بصورة تحت على الاتحاد لاهداف معينة •• كما حقق تقاربا مع بعض الامم الافريقية والآسيوية بغية تحصيل بعض المنافع الآتية في مجال « لعبة الامم » • الا أن الناحية الاخيرة تخدم أهداف الناحية المتقدمة • فكلما زاد ارتباط ناصر بشؤون الكونغوليين أو الغانيين ، وظهر على صفحات الصحف كمشارك رئيسي لهم فيها ، كلما تحسن مركزه وأضحى ينظر له بعين الجد والاعتبار لما له من نفوذ حقيقي (وليس

مزموما • وهكذا يصبح ناصر من العناصر التي يطلب ودها ويحرص على ولائها
على المقياس العالمي الواسع •

وفي شباط (فبراير) ١٩٥٥ التقى ناصر بنهرو • ولم يمض عشرة أيام
حتى التقى بتيتو • وفي الوقت الذي لم يحظ الاول على اية مكانة في قلب
ناصر ، ملك الآخر عليه فؤاده وملا عليه حياته • كان الاول يلقي عليه دروسا
في الوعظ في حين كان الثاني يخاطبه الند للند • الا ان الاثنين معا قد انزلا
ناصرنا من نفسيهما منزلة الجند والاحترام • فقد بادراه بالتحضير للاجتماع به
وقاما بزيارته في عقر داره - القاهرة • كما طلبا منه ان يتخذ الاجراءات اللازمة
للتحضير للمؤتمر الافريقي الآسيوي ، الذي عقد في باندونغ في اندونيسيا ،
وذلك لتتخذ الدعوة اليه اهمية خاصة عندما تصدر عن حاكم له اعتبار خاص •
الا ان الفضل كله في بروز ناصر يمود لهذين الزعيمين ، نهرو وتيتو • فقد
تملك ناصرنا شعور أنه قد أصبح في « الجامعة الكبيرة » قبل ان يحط رحاله في
باندونغ بزم من بعيد •

ولم يكن تشجيع اصداقائه الامريكيين له اقل من تشجيع نهرو وتيتو •
فقد غمرهم السرور قبل مغادرة ناصر القاهرة الى باندونغ ، وانعربوا له عن
اعتقادهم ان مؤتمر باندونغ سيكون فرصة مناسبة له لينضم الى « الجامعة
الكبيرة » • وانهمك بعض الخبراء في واشنطن في كتابة عدة موضوعات حول
كيفية اتخاذ المواقف الاستراتيجية • وقام علي صبري - وزير الدولة -
بترجمتها الى اللغة العربية ليستفيد منها ناصر ويقتبس من افكارها تسير
الامكان • كما تم تزويده بمعلومات وافية عن سلوك شو ان لاي المتوقع وعن
غيره من القادة الشيوعيين • ووضعت وزارة الخارجية الامريكية تحت تصرف
ناصر واعوانه معلومات غزيرة عن الحالة السياسية الراهنة في اندونيسيا •
وكان هذا الموضوع ذا اهمية فائقة لحكومة الولايات المتحدة ولناصر وذلك لان
سوكارنو سيكون احد منافسيه الاشداء في قاعات المؤتمر ودواليزه • اما
الخبراء الذين وصلوا الى القاهرة من واشنطن فقد قدموا تقاريرهم الى السفير
بايرود في السفارة الامريكية • وقام بمدحا علي صبري بترجمتها ومن ثم دونهها
على اوراق رسمية من اوراق ديوان رئاسة الجمهورية حتى لا تعرف انها

مترجمة عن اصول أمريكية . واستفاد ناصر منها فائتة جمة لما أوحى له بمواقف معينة كان نفسه يرغب باتخاذها . وعندما قام بيتر تشيس باعادة ترجمة تلك التقارير - بعد تعديلات المصريين لبعضها - الى الانكليزية ، ورفها الى السفير بايرود ، طرب منها الأول طربا بالغا لانها غمرت قلبه بالسرور ، ووصفها بأنها من أدهى ما عرفه من أفكار ومواقف ، ومن أذكي ما يمكن لحكومة في الشرق الاوسط أن تنتجه . وقال بايرود ان حكومة الولايات المتحدة الامريكية سوف ترى في ناصر كل الامل للتأثير على دول افريقيا وآسيا وحملها على انتهاج نهج « حيادي حقا » بدلا من انتهاجها نهج « حيادي مع عطف على الشيوعيين » ، وذلك عندما يحين موعد ظهور « الحيساد الايجابي » على مسرح الاحداث العالمية .

ولم يقم الروس بتغيير وجهة نظرهم تجاه ناصر ، الا في ذلك الوقت عندما لمسوا تزايد نفوذه في افريقيا وآسيا . فقد التزموا بموقف مناهض لناصر أثناء توقيع اتفاقية قاعدة السويس (وكانوا يمتدحون الاخوان المسلمين ويؤيدونهم ضد ناصر كما ذكرنا سابقا) . وأخذوا يعتقدون باحتمالية أن يصبح ناصر عاملا رئيسيا في الحرب ضد الامبريالية الغربية التي عدت عدوهم اللدود في الدول الافريقية والآسيوية بدلا من « البورجوازية الوطنية » . وهكذا اضحي دور ناصر الرئيسي في مؤتمر باندونغ موضع ترحيب من الروس أكثر منه من الامريكيين أنفسهم . ولم يخيب ناصر ظنهم في باندونغ . ففي الوقت الذي تعمه ناصر تمييع الجبهة المعادية للامبريالية في مؤتمر باندونغ ، فانه قد طوورها الى عداء معتدل ومخفف للغرب حتى يكسب رضى الروس الذين رحبوا بنتائج مؤتمر باندونغ كليا وبدون أدنى تحفظ .

وهكذا فقد أفلح ناصر في مساندة الطرفين معا ولكن مع فارق مهم . فالسوفييت انطلقوا في استحسانهم لسلوكه دون تحفظ ، في حين أبسدى الامريكيون عليه تحفظات عديدة . فقد تمكن ناصر من الظهور كعامل مؤثر وهام ، وبدا - بالمقارنة مع اقزام كنيروما وسوكارنو - وكأنه رجل دولة من درجة شو ان لاي ونهرو اللذين كانا ينزلان عند رأيه في كثير من الامور . وقد أمر شو ان لاي في أحد المرات على ناصر أن يستجيب لدعوته لتناول الطعام ولو

مرة على الأقل ، ولانشغال ناصر. اضطر الاول أن يؤخر وقت المأدبة الى منتصف الليل . كما انهما قد حضراها معا بعد انصرافهما من مناسبات ومآدب أخرى . وهكذا لمس ناصر أنه قد نجح في مهمته . وقد أشعره الروس بهذا أيضا في أول مناسبة بعد اختتام مؤتمر بانكونغ . الا أننا - نحن الامريكيين - لم نكن لنظن ذلك ، وبدا لنا أن الطريق لا يزال شاقا وبعيدا .

وبخيليت متنافر من حوادث مؤسسة وحظ تيمس ، نقلت أخبار قلة حماسنا وعدم اكثرنا بناصر بطريقة مزعجة جدا . فلقد أخفق السفير بايرود في أن يكون عند أسفل سلم الطائرة مع أفواج المستقبلين لناصر وهو عائد من بانونغ الى القاهرة على متن طائرة الرئاسة الاولى ، تحف به هالة النصر والنجاح . وبعد أن طاف ناصر في شوارع القاهرة المزدهمة بالجمهير الهاتفة له ، وصل الى مقره ليقرأ في أول تقرير رفع له ، أن السفير بايرود ، لم يكنف بأن أحجم عن استقبال ناصر رسميا ، بل حث بقية السفراء الغربيين على عدم الذهاب الى المطار ، في محاولة لازدراء عودة ناصر الى بلاده عودة الابطال . الا أن بايرود اتصل حقيقة بالسفير البريطاني للاستفهام عن « البروتوكول » اللائق وكان رأي الأخير أن يتفرد سفراء الدول الافريقية والآسيوية بالاحتفاء بناصر يومها دون أن يشاطروهم غيرهم اياه . وعندما اتصل سفراء الدول الغربية بالسفير بايرود ليستطلعوا موقفه من الذهاب الى المطار أجابهم بأنه يعتقد أن استقبال ناصر يجب أن يبقى مظهرة آسيوية افريقية ، كما أن ناصرا نفسه سيقدّر موقفنا - نحن سفراء الشعوب البيض - ان تنازلنا له عن ذلك اليوم . ولقد قال بايرود هذا الكلام عن حسن نية ودون أن ينطوي على احتقار أو ازدراء . الا أن هيئة مراقبة الاتصالات الهاتفية قامت بترجمة المكالمة لناصر بجفاء ، ودون أن تنقل له لهجة الصداقة التي فيها . وأورث ذلك في نفس ناصر انطبعا بأن بايرود قد قال ذلك الكلام وكأنه أمريكي يفتخر بشرف العضوية في منظمة الكوكلوكس كلان (العاملة في أمريكا ضد السكان السود) . ومما زاد الطين بلة ذلك التقرير الذي رفع الى ناصر وهو يمدد بعض العبارات التهكمية التي يتداولها موظفو السفارة الامريكية عند ذكرهم لمؤتمر بانونغ ومنها : « انه لعبة المحتالين من السود سكان المدن » . ومن السهل أن يتخيل الانسان مدى رد فعل ناصر حيال هذا التهكم والسخرية !

وبعد نجاحه في مؤتمر باندونج ، شرع ناصر في رعاية الزعماء الافريقيين وتمهدهم ، كما بدأ يفكر بتطوير الوسائل التي تمكنه من استغلال نفوذه الجديد على اوسع نطاق ممكن . وقد اخفق كثير من دبلوماسيينا في ادراك مقاصد ناصر وفهم مراميها ، كما أنهم قد رقصوا طربا لفشله في تحقيق بعضها - والتي لم تخطر على باله أصلا - مثل الوحدة الافريقية وعدم قبول مصر على أنها دولة افريقية محضة . فناصر لم يكن ليطمح في مجال الدول الافريقية الى اكثر مما كان يطمح اليه في مجال العالم العربي أو الاسلامي ، وهو ايجاد نوع من التنسيق والائتلاف في السياسة العامة تجاه الدول الكبرى وذلك لدعم فكرة الحياء الايجابي . كما كان ناصر يهدف الى معرفة أولئك الزعماء الذين يمكنه الاعتماد عليهم واتخاذهم كحلفاء مهرة له عندما تدعو الحاجة لذلك أثناء مساومة الدول الكبرى على مطالبه وغاياته . وكان الامر يستلزم تجشم مشاق عديدة للحصول على تأييد أمثال نكروما رئيس غانا ، وسيكوتوري رئيس غينيا ، وكيتا رئيس مالي ، وعلى تفويض منهم للتحدث باسمهم في المؤتمرات العالمية . (لقد أسرّ الي كل من نكروما وسيكوتوري أنهما يشجعان ناصر على التحدث بلسانهما والدفاع عنهما في بعض المواقف التي يشعران بالحرج فيها) وهما بهذا يقومان بأروع المناورات في مجال « لعبة الامم » وهي ما تعرف باسم « منافع الطرف الثالث » . ويهدفان من ورائها جس النبض بدون التورط مباشرة ، وفي نفس الوقت يدخلان السرور على قلب ناصر الذي يظهر عندئذ أمام الدول الكبرى على أنه زعيم بدون منافس في العالم الآسيوي الافريقي) .

وقد أتبع ناصر وسائل ادارية لتثبيت نفوذه في العالم الافريقي شبيهة بتلك التي استخدمها للفرض نفسه في العالم الاسلامي . الا أنه لم يحاول أن يجعل من نفوذه في افريقيا وآسيا « دائرته الاولى » مع انه كان جادا في تثبيتته هناك . وقامت وكالة المخابرات المركزية بتكليف احدى خلائها بتحديد المناطق التي يرغب ناصر أن يشملها بنفوذه . كما قامت وزارة الخارجية البريطانية بانشاء هيئة خاصة بقصد اسداء النصح حيال الخطط السياسية الثلاثة للدول الواقعة جنوب الصحراء الافريقية الكبرى ، على أن تكون متسمة بطابع فريد من المرونة والكياسة . واستدعى الامر أيضا تأليف لجنة صغيرة منحة بمقر الرئاسة الامريكية للقيام بمهمة التنسيق بين الخطط السياسية

وتفنيها في إفريقيا . ولقد اتخذت هذه اللجنة فيما بعد طابعا أكثر أهمية من سابقتها من اللجان ، وكادت أن تكتسب هيئة « وزارة » بذاتها .

ومن خلال كل هذا الاهتمام في تنظيم الشؤون الإفريقية ، يبدو واضحا وجليا ، أن حماسة مستشاري ناصر حيال الشؤون الإفريقية ، قد خرجت عن طورها وأفلتت من عقالها . إلا أن كل ما وضع لها من مخططات دفعت إلى حيز التنفيذ لم تكن لتظهر سوى طموح غير معقول ، يستحيل تحقيقه أو الوصول إلى أهدافه .

إلا أن آمال ناصر وأطماعه في إفريقيا كانت أكثر تواضعا وأقل مفالة . فقد أصبحت القاهرة ملاذ المضطهدين من الحكومات الاستعمارية . وأضحت إذاعة القاهرة نصيرا لحركات الاستقلال في إفريقيا بدون كلل أو ملل . وكم أغضب البريطانيين تأييد ناصر لحركة الماواما في كينيا ، إلا أن ذلك لم يكن موضع دهشة أبدا عند كثير من المطلعين وذلك عندما خرج جومو كينيا تانا من السجن ليصبح أول رئيس وزراء للدولة المستقلة . وأحداث كهذه لا يمكنها أن توحى لمراقب غير مطلع إلا بطموح مفرط وآمال عريضة لا حدود لها ، وخاصة أنها وقعت في الوقت الذي بدأ فيه ناصر سلسلة من الزيارات الخاطفة لكل من برونزي ومونروفيا وتونس وأكرا وأديس أبابا والدار البيضاء وبلغراد ، في محاولة لبعث الحياة في الأهداف المشتركة بين مصر ومثيلاتها من الدول الإفريقية . وقد احتلت أنباء زيارته هذه الصفحات الأولى في الصحافة العالمية . ونجح يومها في جذب أنظار الدول الكبرى إليه ، كما جنى فوائد جمة كانت مقدمة لكثير غيرها . إلا أن الصحافة قد أظهرته وكأنه قد فشل في تحقيق ما ربه الرئيسية - التي لا وجود لها أصلا - فلم ينجح ناصر في تأليب الدول الإفريقية ضد إسرائيل (وهو هدف غير خطير) إلا أنه قد كسب تأييدا واسما من الدول الإفريقية والآسيوية لقرارات الأمم المتحدة التي تندد بالامبريالية والاستعمار والمؤيدة لحق تقرير المصير . وهكذا فقد أفسح ناصر المجال أمام الدول الإفريقية الآسيوية لتتبوأ مركزا أكثر حساسية في الشؤون العالمية . وكان من حصيلة هذا المجهود تبني الفرنسيين والبريطانيين والأمريكيين لسياسة أكثر تساهلا مع مصر لكسب ود ناصر وتجنب أذاه .

ولم تسنح لناصر فرصة « لبسط نفوذه ونشر دعايته » أفضل من تلك التي سنحت له في « دائرة العالم العربي » . فقد كان جمع كلمة الدول الغربية وتوحيدها حوله أمرا واجبا لا مناص منه . وعرفت هذه المشكلة بوضوح على أنها الجزء من « لعبة الامم » التي يطلق عليها اسم « اللعبة التي حصلها يساوي صفرا » من وجهة نظر كلا الطرفين . ولا يزال الاشكال يحيط بنصوص هذا النزاع في العالم العربي بصورة لم يعدها العالم في أيامنا هذه في أي من نزاعاته الرئيسية .

وللمرة الثانية ، فإن سبب النزاع في العالم العربي يعود الى اسامة فهم اهداف ناصر نفسها . وأود أن أؤكد ثانية أن ناصرا ليس بعربي ، ولم يعرف الكثير عن العرب الا حديثا . كما أنه لا يشعر ببيل وعطف خاص نحو العرب كما تتصور وتختيل . وهو لا يطمح اطلاقا في ارهاق نفسه وتحميلها مسؤولية حكم العالم العربي . فالقومية العربية قوة ذات أهمية رئيسية في مخططات ناصر ، الا أن أهميتها عنده تكمن في كونها « أسطورة » وليست « حقيقة » . ولننظر الى النواحي التالية :

● **اللغة :** ان من ضمن أشهر الاجابات على السؤال الشهير : « ما هو تعريف العربي » هو : « كل من يتكلم العربية كلفته الاصلية » . الا أن حقيقة اشتراك العرب بلغة واحدة لا تعدو أكثر من كونها صورة طبق الاصل للحقيقة أن أوروبا لم يكن لها في القرون الوسطى سوى لغة لاتينية واحدة . ان العربية الفصحى – لغة الكتابة – هي الوحيدة التي تفهمها القلة المثقفة المنتشرة من العراق شرقا حتى مراكش غربا . وعلاقتها باللهاجات العربية المتداولة والمختلفة ليست الا كعلاقة اللغة اللاتينية بكل من اللغات الايطالية والبرتغالية والاسبانية والرومانية في القرون الوسطى . ان سائق التكسي في بغداد يعجز عن فهم زميله السائق في تونس اذا ما نشب بينهم أي حديث ما . وان نحاح مثقف من بغداد في فهم حديث مثقف آخر من تونس مرده الى اطلاع واسع لكل منهما على لهجة الآخر وعلى العربية الفصحى .

● **العضولة :** ان تعريفا أكثر شمولا لـ « من هو العربي » يعني بالضرورة الاخذ بعين الاعتبار مفهوم « الحضارة المشتركة » . والحقيقة أن هناك تشابها

كبيراً في حضارة مختلف البلاد العربية . إلا أن هذه الحضارة لم تكن سوى وليدة الدين السائد وهو الإسلام في تلك البقعة من العالم . كما أن أوجه الشبه هذه ليست وفقاً على العرب وحدهم ، بل ويشاطرهم إياها ملايين المسلمين المنتشرين خارج العالم العربي . كما أن التشابه البسيط في الذوق الموسيقي وفي طعام المطاعم (وليس ما يطهى في البيوت) ، وفي بعض المهن الشعبية المختلفة ، مرده إلى تأثير الأفلام السينمائية المصرية ، وانتشار المطاعم اللبنانية في كل أرجاء الشرق الأوسط وإفريقيا . وباستثناء أوجه الشبه هذه فإن الفوارق في الحضارة بين القرويين في العراق وقبائل البدو وأهل الريف في لبنان والفلاحين في مصر وغيرها من الأقاليم العربية ليست أقل من تلك التي تبدو بين مجتمعات الشرق الأقصى (الصين واليابان والهند) ، هذا إن لم تكن أكثر منها . وعلاوة على ذلك ، فإن الضغائن المستحكمة بين مختلف المجتمعات تجعل الانصهار في بوتقة حضارية واحدة أمراً مستحيلاً من الناحية العملية . فالدروز والملويون والمتاولو والاكراذ والاشوريون ومختلف الطوائف المسيحية واليهود والارمن والشيعة ومذاهب أهل السنة المختلفة وغيرهم يميلون إلى عدم احترام بعضهم البعض ، إلى جانب دفاعهم عن تقاليدهم الإقليمية فسي اللباس والزواج والأوصار العائلية وغيرها بشيء من التعصب والتزمت اللذين يتحديان جميع نواحي الحياة الأخرى ، باستثناء الأفلام المصرية والمطربة الشعبية الشهيرة « أم كلثوم » .

● العرق : إن نظرية واحدة يلقيها الإنسان على رجل من السودان ذي لون مفروق في السواد إلى جانب لبناني ناصع البياض ، أو عراقي داكن اللون أسمر البشرة ، أو أحد أفراد القبائل في السعودية الأصليين ، أو سوري ذي شكل يوناني ، يدرك أن فكرة « العرق العربي » فكرة لا تقل زيفاً وانتحالاً عن فكرة « العرق اليهودي » . إن غالبية سكان الجزيرة العربية هم عرب أصلاء في عرقهم . أما المصريون - قادة العالم العربي - فليس هناك قطرة واحدة من دم عربي تجري في عروقهم . وكذلك الأمر بالنسبة للسودانيين واللبنانيين وعرب شمال إفريقيا . كما أن الاتراك والشركس والاكراذ هم من أبرز العناصر التي تتركب منها « الخلطة » السورية ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى « الخلطة » العراقية مع إضافة شيء من النكهة الهندية إليها . وخلاصة الكلام ، فإن فكرة

« العرق العربي » قد حظت بمقت ناصر لها ونفوره منها الى الحد الذي جردت فكرة القومية العربية من أي خطورة أو اعتبار .

● **الطموح السياسي :** لا ازال اذكر كلام صديق « عربي » عندما قال لي : « عندما يقوم أي منا بعمل بناء ايجابي كانشاء جسر ، أو رُقع حذاء ، أو خبز رغيف ، أو حشو خرس ، فهو في لحظة قيامه بعمله ليس أكثر من مجرد مهندس ، أو اسكاف ، أو خباز ، أو طيبسب « سوري » أو « لبناني » أو « مصري » . ولكنه عندما يقوم بعمل هدام « فهو عندئذ عربي قح » . ففي سبيل الحصول على مصالحه المادية اليومية والاقتصادية العادية ، فان « التفكير الاقليمي » هو المسيطر على العربي آنئذ . ولكنه عندما يتألف من اسرائيل أو يتشكى من الامبريالية أو يشارك في مظاهرة لحرق سفارة اجنبية ، فان « التفكير القومي العربي » هو المسيطر وقتئذ . وطالما أوقعت هذه المفاهيم عديدا من الدبلوماسيين الامريكيين حديني المهدي في حيرة وارتباك . ففي كل مكان يحلون فيه لا يسمعون سوى عبارات « الاخوة العرب » و « الآمال والآلام العربية » و « الوحدة العربية » . الا أنهم يخفقون في لمس أي حماسة أصيلة لتوحيد التعرفة الجمركية ، أو لانشاء سوق عربية مشتركة ، أو لاقامة دولة سريية متحدة ، وحتى اتحاد فيدرالي بين الدول العربية .

وكما ذكرنا سابقا ، فلقد كان المام ناصر بدائرة العالم العربي محدودا للغاية عندما بدأ بمعالجة شؤونه والفوص في مياحه . الا أن جهله بالعالم العربي لم يكن بتلك الاهمية وذلك لبساطة اهدافه وعدم خطورتها . فلم يكن ناصر يطمح الى أكثر من اقناع مختلف زعماء الدول العربية وحكامها الى أنهم يخضعون مصالحهم ، ويجنون فوائد كثيرة من الدول الكبرى ، ان هم أحجموا عن الدخول معها في اتفاقات ثنائية ، ووافقوا على تنسيق سياستهم الخازجية تجاهها . وبذلك تبقى جبهتهم المشتركة قوية منيعة .

وسمى ناصر حثيثا على تقوية « أسطورة » القومية العربية الى حد يصبح

معه خروج أي من الحكام العرب عن الصف أمرا عسيرا ، بل ويفدو الحاكم عند ذلك ، منشقا خطيرا ، . ومن الصعب أن يتخيل الإنسان كيف يمكن لناصر أن يحقق هذين الهدفين بعناد واصرار بدون أن يتمتع بالمام كاف ودراية واسعة بأحوال البلاد العربية ، وبدون أن يملك شعورا بالمحبة لها أو العطف تجاهها . لقد كانت تلك الاهداف لخدمة مصر فقط دون سواها ، ولكن لا مانع عند ناصر أن يصيب الدول العربية بعضا من الخير ، أو أن تظفر بشيء من المكاسب بمحض الصدفة - لا أكثر ولا أقل - وبدون سابق تصور أو تصميم .

وعندما وصلت الى مصر في تموز (يوليو) ١٩٥٣ ، لم أجد عند أي من أعوان ناصر أو أصدقائه - مع أنني أعرف معظمهم جيدا - أي اهتمام في قدرة مصر أن تزعم فكرة الوحدة العربية ، أو أي نوع آخر من أنواع الاتحاد . ولقد أثار المامي بشؤون الدول العربية الأخرى - وخاصة سوريا - اهتمام ناصر وفضوله . واذكر تماما أن مجموعة القصص والنوادر التي كنت أعرفها عن الانقلابات الناجحة والفاشلة في سوريا قد جعلتني من أقرب المقربين لناصر وفي داخل منزله بالذات . وعلى سبيل المثال ، فقد غمر السرور قلب ناصر عندما قصصت عليه ذكرياتي عن المحاولة الأولى الفاشلة التي قام بها حسني الزعيم للإطاحة بالحكومة المدنية في سوريا . فلقد وضع حسني الزعيم خطتها لولحده ودون مساعدتنا ، وحاول تنفيذها قبل تلك التي تكلمنا عنها سابقا . فقد حاول يومها أن يضم إليه كلا من أحمد الشراباتي وزير الدفاع آنشد وفوزي القاوقجي قائد جيش الانقاذ الفلسطيني . ولكن بعد اجتماع سري هم الثلاثة لتخطيط الانقلاب ، وانعقد في ساعة متأخرة من احدى الليالي ، ذهب كل من اولئك الثلاثة على التو وبمفرده بدون استثناء حسني الزعيم نفسه - الى الرئيس شكري القوتلي للافساد على زميليه الآخرين . ومثل هذه القصص التي تظهر « عدم جدارة السوريين بالثقة » جعلت ناصر يضحك (بينه وبين نفسه) ، - وارتسمت على محياها علامات الحيرة والذهول وأدرك ما كان ينتظره من متاعب ومصاعب . الا أن دهشة ناصر أمام الطريقة التي كانت الحكومة الأمريكية تحاول أن توجد بها نوعا من الوحدة الاقتصادية العربية كانت أشد وأقوى . وقد أعرب ناصر عن رأيه في هذا الموضوع قائلا : « اننا نحن المصريون نفكر بطريقة متشابهة تقريبا ، وباستطاعتنا أن نقف صفا واحدا في سبيل هدف مشترك ، ولكننا لن نخضع للمحاولات التي تفرض علينا التعاون

مع غير المصريين بأية طريقة مدروسة . فربما نفلح في الاتفاق مع بعض الدول العربية الأخرى حول أهداف مشتركة إلا أننا نرفض العمل مشتركين للوصول إلى تلك الأهداف وتحقيقها ، . لقد كان الانقلاب في مصر مصريا بحتا ، ولم يكن أي من قادته ، وعلى الأخص ناصر نفسه ، يفكر به أن يكون غير ذلك اطلاقا .

إلا أنه في أواخر عام ١٩٥٣ قفزت فكرة الوحدة - أي نوع من الوحدة - إلى مركز الصدارة كطريقة لدعم مركز ناصر ضد الدول الكبرى . وليس غريبا أن تكون هذه الفكرة قد خطرت على بال ناصر وأخفاها حتى يحين الوقت المناسب لها . ففي كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٣ استدعى كبار سفرائه في الخارج إلى مصر ، ودعاهم إلى عقد اجتماع مشترك مع أعضاء مجلس الثورة بغية وضع خطة للسياسة الخارجية المصرية تتألف من شقين : الشق الأول منها يختص بالسياسة المصرية تجاه الدول التي تعاني من نفس المشاكل التي تعاني منها مصر ، وتعيش نفس الظروف المصرية ، وتشارك معا في أهداف واحدة . والشق الآخر منها يختص بالسياسة المصرية تجاه الدول (مثل الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفياتي ودول أوروبا الغربية واليابان) التي هي بحد ذاتها أهدافا مشتركة للدول الوارد ذكرها في الشق الأول من الخطة العامة . وتهدف هذه السياسة ، إلى إقامة تعاون وثيق مع دول الشق الأول ، للوقوف صفا واحدا في النزاع مع دول الشق الثاني ، دون أن يتطور ذلك إلى نزاع « غير ودي » .

استمرت تلك الجلسات حتى كانون الثاني (يناير) ١٩٥٤ . ولأول مرة تناول البحث وضع خطة سياسية لإنشاء « جبهة عربية » من أهدافها طاهرا حماية مصالح الشعوب الإسلامية والآسيوية والأفريقية . وبانت وجهة نظر ناصر بهذا الخصوص جليا عندما سأله أحدهم في إحدى تلك الجلسات « لماذا لا ننسكل وحدة مع الشمال الأفريقي : مصر وليبيا والجزائر وتونس والمغرب ؟ » فكان جواب ناصر أنه لو كانت الوحدة الجغرافية دون سواها هي هدفنا ، فالوحدة مع الأقاليم الواقعة إلى الغرب من مصر أمر لا يخلو من الأهمية . إلا أن اتحادا كهذا لا يملك من مصادر القوة التي نحرس عليها شيئا . في حين أن المنطقة العربية الآسيوية تملك مصادر النفط ، وطسرق المواصلات ، كما

أنها تعاني من قضية فلسطين التي تكثر حولها المساومات ، ان كل هذه الامور ذات أهمية كبيرة لكل من الدول الغربية والاتحاد السوفياتي .

لقد اعتبر باتريك سيل (في كتابه الشهير « الصراع على سوريا ») ان يوم ٢٢ تموز (يوليو) ١٩٥٤ كان يوم اعلان ناصر رسمياً أن مصر جزء من الامة العربية . وجاء هذا في الخطاب الذي القاه ناصر في الاحتفال الثاني لذكرى الثورة المصرية . ومما قاله ناصر يومها :

« أيها المواطنين : لقد بدأت مصر مرحلة جديدة من علاقاتها بالامة العربية . انها مرحلة تعتمد على الاخوة الصحيحة والصريحة لمواجهة المشاكل ببسالة وايجاد الحلول لها . ان هدف حكومة الثورة ان يصبح العرب امة واحدة يعمل كل ابناءها بتعاون وتضامن للمصلحة العامة وان الثورة تعتقد ان مسؤولية الدفاع عن الدول العربية تقع أولا وقبل أي شيء آخر على عاتق العرب انفسهم وهم جديرون بتحمل مثل هذه المسؤوليات » .

الا أن هذا الكلام قد قيل بعد اسبوع واحد من تسلم ناصر - عن طريق اللواء نجيب - تأكيدات من الرئيس ايزنهاور تفيد أن التوصل الى اتفاقية مصرية انكليزية حول قاعدة السويس سوف يفتح الطريق أمام مساعدات أمريكية مالية على مقياس واسع جدا . والى جانب هذا ، كانت هناك تأكيدات شخصية من بعض أعضاء السفارة الامريكية في القاهرة أن قيمة هذه المساعدات تتوقف على مدى نجاح ناصر « كعامل تهدئة وتلطيف » في السياسة العربية ضد الغرب . ولقد أسر لي ناصر مرة وقال : « عليك أن تبسط نفوذك أولا على المناطق العربية حتى يتسنى لك بعد ذلك أن تمارس سياسة التهدئة والتلطيف وأن تنجح فيها » . ولا أدري ان أدرك ناصر تماما ما تعني بعبارة « عامل تهدئة وتلطيف » أم لا ، الا أن الفكرة بالتأكيد قد لاقت عنده قبولا وفي نفسه ترحيبا .

وعلى وجه التخصيص ، فقد كان كل من العراق والسعودية وسوريا ولبنان والاردن والكويت وليبيا من بين الدول التي أراد ناصر أن يبسط نفوذه عليها . وكان قادتها في ذلك الوقت وهم على الترتيب : نوري السعيد ، الملك سعود ، اديب الشيشكلي ، كميل شمعون ، الملك حسين ، سالم الصباح ،

والملك أدريس السنوسي . ومهما اشتط خيال الانسان فانه لا يفسح أكثر من واحد من اولئك القادة المجال أمام ناصر لوضع سياسة خارجية واحدة للعرب أجمع . ثم حين كان ناصر يميل الى الاعتقاد بإمكانية تحقيق هذا ، وذلك لانه مهما كانت الفوائد التي تجنيها الدول العربية متفرقة من الدول الكبرى فان الفوائد أعظم اذا ما وقفت الدول العربية كلها مجتمعة في صف واحد أمام الدول الكبرى . وكانت هذه من مبادئ ناصر العامة وليست من مشاكله الخاصة التي ، وان برزت فجأة ، فانها ليست من ذلك النوع الذي يستعصي التوصل الى اتفاق حوله . ولم يكن يومها ليخطر ببال ناصر أن يتبوا سدة قيادة أي اتجاه عربي نحو وحدة حقيقية - وعلى الاقل فان ذلك لم يكن ليخطر بباله بصورة واضحة ملحوظة تلفت نظر بقية الزعماء العرب . فقد كان اللواء نجيب لا يزال الرئيس السوري للدولة ، وكان - على حد اعتقاد ناصر - يصلح تماما لترأس مثل ذلك الاتجاه . كما أن زعماء الدول العربية الأخرى ، مهما كانت انطباعاتهم عن الزعامة المصرية السياسية النشيطة ، فانهم جميعا لا يفكرون برفض الحقيقة أن القاهرة - مركز العرب الثقافي - هي مركز القيادة منطقيا .

وعندما بدأ ناصر بحس نبض مختلف الزعماء العرب ، وجد أن الامر ليس بتلك السهولة التي تخيلها قبلا . فالوفد الذي أرسله الى بغداد في آب (أغسطس) ١٩٥٤ لاجراء مباحثات مع الملك فيصل الثاني والوصي على العرش الامير عبد الاله ونوري السعيد ، وجد أن الزعماء العراقيين لا يميلون الى فكرة الحياد لانهم يخشون السوفييت والشيوعية كثيرا ، كما أن علاقات العراق الوثيقة مع بريطانيا والولايات المتحدة، ستجلب لهم منافع كثيرة بدون أن يدفعوا أي ثمن لها . الا أن نوري السعيد وافق على الاستمرار بالمباحثات حول الموضوع وقام بعد شهر بزيارة للقاهرة بهذا الغرض . وبعد هذه الزيارة اتضح لناصر أن الوفد المصري الذي سافر للعراق لم يكن على المستوى اللائق لشرح أفكاره وآرائه ، وأن نوري السعيد قد سيطر على محادثات بغداد لعله التام بنقاط الضعف عند رئيس الوفد المصري صلاح سالم ، التي حصل عليها - حسب اعتقاد ناصر - من وكالة المخابرات المركزية . كما رتبته الأخيرة لصلاح سالم مؤتمرا صحفيا ملغوما حشدت فيه بعض رجال الصحافة الذين قاموا بتوجيه

اسئلة محرجة لصالح سالم اربكته ودفعته الى التصريح علنا ببعض العبارات التي اثارَت سخط بعض الزعماء العرب وخاصة السعوديين منهم والسوريين

كانت احدي تلك التصريحات على شكل جواب لسؤال حول موقف ناصر تجاه وحدة ثنائية تعقد بين بعض الدول العربية - وهذا تلميح واضح لاحتمال قيام وحدة ثنائية بين سوريا والعراق التي كانت مصر تمارسها بشدة . ولم يكن جواب صلاح سالم الا حسب ما يتوقعه الكثير ممن يعرفونه . فقد قال : « اذا ما رغبت اية دولتين عربيتين في الوحدة ، فان مصر لن تكون من المعارضين لهذا » . ومع ان السوريين كانوا متاكدين ان نوري السعيد لم يات على بحث موضوع الوحدة مع المصريين ، الا انهم اعتبروا تصريح صلاح سالم على انه محاولة من رجال الثورة في مصر لتقديم الدعم لنوري السعيد فيما اذا حاول ضم سوريا للعراق . كما ان السعوديين ظنوا ان السوريين كانوا على علم مسبق بتلك المحادثات ، وان الجميع متفقون ضدهم . وقد تأثر اللبنانيون ايضا بمثل ذلك التصريح لظنهم ان مصر تعد الترتيبات لاعادة تقسيم العالم العربي ، وان قصة الجبهة المتحدة انما هي للتضليل والتمويه . ومهما كانت النتائج فقد اعتبرها ناصر درسا نافعا في حياته السياسية . فقد أدرك ان العالم العربي لن يترك أي تصريح مهما كان بريئا وبعيدا عن الغمز واللمز الا ووضعه تحت المجهر لفحصه واستقصاء خفاياه . وستكون مثل تلك التصريحات مصدر مضاعفات مشؤومة يحاول المعارضون ترويجهما والتهويل من امرها . لقد اتقن ناصر هذا الدرس الى الحد الذي لم يعد ليعتمد الغموض حتى يدرك تماما كل ما ستثيره . تلك التصريحات الملقومة - أو الغامضة عمدا - مسن تفسيرات وتكهنات .

ولم تنجح الاتصالات المصرية التي جرت مع الزعماء العرب ، سواء التي جرت عن طريق السفراء العرب في القاهرة وعن طريق السفراء المصريين في العواصم العربية ، أو تلك التي تمت عن طريق زيارات عديدة قامت بها وفود من شتى المستويات . وفي شهر كانون الاول (ديسمبر) قام ناصر بتوجيه الدعوة لوزراء الخارجية العرب لحضور اجتماع كان يأمل فيه أن تتساح له الفرصة كاملة لشرح أفكاره عن جبهة « الحياد الايجابي » ، المتحدة . الا أن

الاجتماع قد عجز عن احراز أي تقدم بخصوص بعض القضايا ، وبالتالي فلم يحقق أي نجاح باستثناء بعض المكاسب التي جناها ناصر من جراء رفضه الخوض في مناقشة بعض القضايا التي اكتفى بالقول عنها : « انها مهما بدت فلا بد من ايجاد حلول مناسبة لها ، ولنفترض ذلك جدلا » . كما لمح الى ان مصر لا تقرأ في تلك القضايا مدعاة لتعريض الوحدة العامة الى الخطر .

ويحلل نهاية العام ، كان ناصر قد أيقن أن محاولته الرامية الى اقناع الزعماء العرب بأفكاره - وخاصة اولئك الذين كانوا يومها في الحكم - قد باءت بالفشل . الا أنه كان قد احتاط للامر مسبقا . فقد أعد برامج دعائية موجهة للعالم العربي كله ، وأصدر أوامره الى محطة صوت العرب التابعة لإذاعة القاهرة أن ترفع من قوة بثها الى الحد الذي تتمكن معه من اسماع صوتها الى العرب في كل مكان . وبوضوح لا يقل عن وضوح اذاعة صوت أمريكا أو اذاعة لندن أو أي اذاعة عربية أخرى . كما أعطى برامجها مادة شيقة تجذب اليها المستمعين . فكانت فيها النشرات الاخبارية والقصص والتمثيلات الدعائية ، وجلها باللهجة المحلية . وكانت موشاة بالموسيقى والمارشات العسكرية ، الى جانب بعض البرامج الترفيهية التي كانت تحوز على اعجاب المستمعين - حتى اولئك القابعين في اقاصي الصحارى العربية . وكم ترك المستمع ازرار مذياعه مثبتة على أمواج اذاعة القاهرة دونما تغيير أو تبديل !

كانت مواضيع وشعارات الاذاعة كما يلي :

● « علينا نحن العرب ان نتحد لنجمي أنفسنا من الاستغلال الامبريالي لنا » : ان البريطانيين هم أوغاد الامبريالية الرئيسيون ، ولكننا يجب أن لا ننسى أن الامريكيين والروس هم أيضا كذلك . وقد نشرت قصص كثيرة وكلها تدور حول دخول البريطانيين أو الروس أو الامريكيين البلاد تحت شعار تقديم المساعدات ولكنهم ما يلبثون أن يستغلوا البلاد ويجعلوها معتمدة كلياً على تلك المساعدات . ولم يكن هناك أي هجوم على شخصيات الزعماء العرب ، الا أن خطة كهذه ما لبثت أن وضعت المتساهلين مع الدول الكبرى منهم في موقف حرج وأشعرتهم فجأة أنهم أصبحوا في وضع يتطلب منهم الدفاع عن تصرفاتهم واعطاء التبريرات لسياستهم .

● « اننا - نحن المصريين - جزء من أمة العرب » : وهذه هي - بعبارة أخرى - « الاسطورة » التي تبناها ناصر . فلم يكن هناك أي حماس أو دفاع عن الوحدة السياسية أو تعاون وئسق على مستوى الحكم والادارة (مثل توحيد الجمارك ، وتسهيل انتقال الرعايا العرب من بلد عربي لآخر دون تأشيرات دخول ، وتصفية تلك الخلافات المتنوعة التي ما زالت تعصف بالعالم العربي) . وتحت الشعار المذكور أعلاه ، كانت مادة التوجيه في معظمها ثقافية مثل القصص التاريخية والبحوث الفلسفية وكل ما يمكن أن يشكل مادة تساعد المستمعين وتشجعهم على أن يكون تفكيرهم مشبعا بأفكار مثل « كيان العرب » و « استقلال العرب » .

● « ناصر يقارع الدول الكبرى وحيدا » : بعد نجاح ناصر في تنحية اللواء محمد نجيب ونجاحه - لمرة أو مرتين - في الظهور على أنه أول مصري لقرون عديدة ينجح في شق عصا الطاعة على الاوربيين ويرفض الخضوع لهم ، بدأت البرامج الدعائية تذاق على الشعب وهي مبرزة هذا الوجه لشخصية ناصر ومؤكدة حقيقته . وكانت التمثيليات الاذاعية تظهر ناصرا جالسا وراء طاولة المفاوضات بهدوء كامل و ببرودة أعصاب فريدة ، ثم ما تلبث أن تنهي حوارا مع الكولونيلات البريطانيين بأذاعة بعض عباراته المؤثرة والرائنة بصوت رزين هادئ ينبئ عن اصرار وتصميم وعن رفض للخنوع والخضوع . وكان المذيعون يرتلون بعض المقتطفات الشعرية من خطاب ناصر التي تفيض بأخبار الشعوب الآسيوية والافريقية والعربية التي تعاني من اضطهاد الاوربيين واستغلالهم ، الا أنها كانت تختتم بترنيمة شاعرية تقول : « ولكن ناصرا سوف » ينقذنا من كل هذا » . ومع أن هذه البرامج كانت غاية في الابتدال والركاكة الا أنها كانت ذات تأثير غير قليل في نفوس السامعين من الطبقات ذات الثقافة الضحلة والادراك السطحي . ولم تسبق هناك طريقة يمكن استخدامها في اظهار شخصية ناصر الا واستخدمت . فقد وزعت صورته في كل مكان وحتى في الكويت - التي لم تكن في يوم من الايام ضمن دائرة نفوذه - وكان نادرا ما تجد حانوتا يخلو من صورته معلقة في أبرز مكان فيه .

● « ناصر في الجامعة الكبيرة » : لم يكن ساسة العرب القدامى يكونون

أي احترام أو تقدير لناصر بعد استلامه زمام السلطة علنا من يد محمد نجيب . وكانت نظراتهم لا تختلف عن تلك التي اعتادوا أن يتبادلوها عن انسان حديث العهد بالزعامة قليل الخبرة بخفايا السياسة والاعبيها . الا أن سرعان ما تبدلت نظرات الاستخفاف بناصر الى أخرى مليئة بالاحترام عندما طفقوا يشاهدونه متصدرا أفلام « جريدة السينما » وهو يتبادل الانتخاب مع كسار زعماء العالم برباطة جأش واتزان ، ودون تنازل أو استحياء . ففي خلال شهر واحد - شباط (فبراير) ١٩٥٥ - استقبل ناصر في القاهرة كلا من تيتو ونهرو وأنطوني ايدن والملك حسين ، الى جانب سيل متدفق من رجال الكونغرس وبرلمانات العالم ومن مراسلي الصحف والمجلات العالمية الذين أخذوا منذ ذلك الوقت يفتدون الى القاهرة زرافات ووحدا .

و أما انعكاسات الشعب العربي فقد كانت شبيهة بشعور أهل الريف عندما يشاهدون - وهم في أريافهم - أحد أبنائهم يظهر في مقابلة تلفزيونية مع أشخاص على شيء من الأهمية والمكانة . لقد شارك العرب انتصاراته وكان ناصر « منهم واليهم » .

وهكذا أوجد ناصر « الاسطورة » وكانت عبارة عن : « القومية العربية بقيادة انسان كنصر - أي انسان بطل - ولا يشترط أن يكون بالضرورة ناصر نفسه » . الا أن القومية العربية لم تنتقل الى الواقع الملموس اطلاقا وبقيت بعيدة عن كونها حقيقة . فما زال عليك أن تمضي ساعتين من الزمن واقفا على الحدود بين سوريا ولبنان لانتهاء الاجراءات ، وتقريبا نفس الوقت على الحدود الاردنية السورية ، الى جانب تفتيش دقيق للمسافر نفسه واجراءات أخرى مهيئة . وما زالت العلاقات بين الحكومات العربية متردية وسيئة ، علاوة عن الاجراءات التصفية في الشؤون الثقافية والتعليمية بين كل من العراق وسوريا ولبنان ومصر . وأما اللاجئون الفلسطينيون فانهم في الوقت الذي كان ناصر يدعوهم في خطاباته « باخواننا العرب شعب فلسطين » كانوا ياملون أسوأ المعاملة - وكأنهم اجانب - في مصر والبلاد العربية المضيفة لهم . ومع كل هذا فقد نمت تلك « الاسطورة » وترعرعت وأصبحت - على حد تعبير بعض المصادر المطلعة - القوة المسيطرة في سياسة العالم العربي في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات . بل لقد أصبحت بالنسبة للعرب حقيقة بقدر ما أصبح

« بابانويل ، حقيقة عند الالطفال يوزع عليهم اللعاب والهدايا عشية عيد الميلاد .
وعلى اي حال ، فان هذا الاتجاه لم يكن مسيطرا لدرجة كافية . لقد افلح
ناصر في فتح طريق قليل المصاعب والمقاومة أمام الزعماء العرب وهو طريق
« اسطورة القومية العربية » - أو طريق الترغيب - كما تفهمه القاهرة . الا أنه
ما زال هناك بعض قادة العرب الاقوياء يكونون كراهة للقاهرة ويصرون على أن
يسيروا في ذلك الطريق لوحدهم دون وصاية من ناصر عليهم ، ودون الانتساب
الى « جمعيته » . وهكذا وجد ناصر نفسه مضطرا لان يسلك « طريق الترهيب »
لاستكمال عناصر « جمعيته » ولاخضاع من شق عليه عصا الطاعة .



الناصرية والإرهاب

... ولن يلين عودهم وينضموا اليك حتى تصير حياة « محارجهم » شقاء وفسجرا .

امضيت الهزيع الاخير من عام ١٩٥٦ ، واول عام ١٩٥٧ ، منهمكا في شرح أفكار ناصر أمام مجموعات عديدة من الرسميين الامريكيين ، باسطا لهم متاعبه ومشاكله ، ومعلقا عليها بنفس الطريقة التي كان هو نفسه يود أن تعرض شؤونه بها أمامنا . وكنت أنفق الساعات الطوال في مكتب الوزير دالس ، أو في مكتب وكيله هربرت هوفر ، بنية ضم جهودنا معا في محاولة لتحديد معالم أبعاد ردود الفعل التي كنا نتوقع أن تصدر عن ناصر ، ردا على بعض الاجراءات التي كانت الحكومة الأمريكية تنوي اتخاذها . ولم أكن أواجه أية صعوبة في شرح سلوك ناصر ، عساه يكسب بعض عطفنا وينال شيئا من ضائنا . الا أنني لم أنجح في تبسيط سائر نواحي سلوكه ، واخفقت في شرح احداها . كما أخفقت في عدم اثارة حفيظة زملائي ورؤسائي . كلما حاولت ذلك ثانية . ولقد أخبرت مرة أن أحد كبار الرسميين في وزارة الخارجية قد التفت الى جاره بعدما غادرت أحد تلك الاجتماعات الهامة التي كان يدعوني اليها الوزير دالس الى تمثيل دور ناصر في « لعبة الامم » - وقال له : « انني لا ألتق بذلك الانسان - أي بي - فانه يتكلم بالحاح واهتمام أكثر من ناصر نفسه » . وفي مناسبة أخرى التفت الي آلن دالس (مدير وكالة المخابرات المركزية) وقال لي : « اذا حاول بكباشيك أن يحشرنا في الزاوية فلن نتأخر في شطره نصفين ! » ولا أظن أن انسانا على وجه البسيطة يفوق آلن دالس في فهم وتطبيق أحد مبادئ التحليل السياسي القائل : « ضح نفسك في مكان الآخرين » . ومع ذلك فلن يتمكن آلن نفسه من طرق ومعالجة أي من مشاكل ناصر دون أن يثور ويفضب ، وذلك لانها حقا « مصدر غيظ وازعاج » .

كان اقتران الناصرية بالارهاب ، وتلازمها به ، مصدر تعب لنا وقلق ،
أقضى مضاجعنا ، دون أن نجد سبيلا لفهمه أو تحليلا لدافعه . فالأمريكيون
ينفرون من الارهاب ، ويكرهون سماع أخباره ، متناسين أن تحركات الغرب
ضد المتمردين من زعماء آسيا وأفريقيا لا تعرف غيره غاية وسبيلا . ولكن ما
العمل ؟ فناصر نفسه يمتدح العنف وأساليبه ، ويدعو لها جهرا بافتضاح .
ففي داخل بلاد ناصر وأراضيه ، يسود القانون ويعم النظام ، وفي خارجها لا
تجد لهذا داعيا ولا سببا . فإذاعة القاهرة تحض علنا على اشغال الفتن واحداث
الاضطرابات المدنية في البلاد - كل البلاد - التي يسوسها زعماء معارضون له
أو يحكمها رجال يأبون أن يكونوا مطية له . ولا تجد إذاعة القاهرة أحيانا أي
حرج في توجيه الدعوات علنا لاغتيال الحكام والرؤساء . وكانت نتيجة كل هذا
وذاك اشمئزاز رجال السياسة الأمريكيين من هذه الاستفزازات ، وقلق
الدبلوماسيين ورجال المخابرات من هذه الحماقات ، وأعمال العليش والجنون .

الا أنه لا يستبعد وجود تفكير ذكي خلف ارتكاب ناصر لاعمال العنف
والارهاب . فهو يحاول أن يظهر على أنه زعيم « كتلة » ، ولكنه مضطر لمقاومة
المنشقين عنه ولاستخدام العنف للبطش بالخارجين عليه والرافضين دخول
« كتلته » ، وله ذلك . فاتحادات العمال لا تملك أن تصبح قوة فعالة دون أن
تضمن « وحدة الصف » ، ويلتزم قاداتها « بوحدة الهدف » . والمتمردون في
مثل هذه الظروف - مهما قل عددهم وضعفت قوتهم - يفسدون جهود
الغالبية ، ويحيلون قوتها ضعفا ووحدها افتراقا . وهكذا يتصرف ناصر .
فبالعنف وحده يعامل الخارجين عليه كما يعامل زعماء اتحادات العمال (في
الولايات المتحدة ، ولا أظن ذلك) المتمردين عليهم ، بل ان ناصر أشد بطشا
منهم وأكثر تنكيلا . وما مرد الفارق في الشبه الا الى تلك الفوارق بين
المجتمعات .

ومن الصعب التسليم بأن الارهابيين يجيدون فن العنف أكثر مما يجيده
شعب وديع الجأته ظروفه الى تبنيه كسبيل للنجاة . وفي الوقت الذي لا يلعب
الارهابيون أي دور رئيسي حتى في أسوأ المظاهرات التي تحدث في أمريكا ،
فإنهم يفوزون بحصة الاسد منها في البلاد « المنشقة » عن ناصر . وقد أطلق

المشرفون على النشاط السياسي الناصري لقب « المتعصبين » على هذا النوع من
الإرهابيين .

وفي قاموس السياسة الناصرية ، فإن كلمة « المتعصب » ترمز الى ذلك
الانسان الذي أنكر ذاته في سبيل المبدأ الذي اعتنقه ، وكرس حياته للوصول
الى الهدف الذي ارتضاه ، مهما كانت المشاق وبلغت المصاعب . وبالتعريف ،
فإن « المتعصب » هو الخاسر دوماً ، ولكنه دائماً يستخدم سلاحاً في أيدي
أولئك الذين يمشون للاهداف نفسها ، ولكن « دون تعصب او تزمّت » .
ويدفع ناصر باستمرار أمثال هؤلاء « المتعصبين » الى خوض غمار المعارك تلو
المعارك ، مهما كانت الخسائر جسيمة وخرجت عن حدها المألوف ، حتى يحبط
مساعي « المنشقين » عنه ويقنع « الخارجين » عليه بالانضمام « للكتلة » .
وبعبارة أوضح ، فلعبه « المتعصب » شبيهة جداً بلعبة « التشكن (١) » (أو
الفرخة) . فلسان حال المتعصب يقول : « انني أعلم علم اليقين أنني لن أذوق
طعم النصر ، بل قد أموت ، الا أنني لن أكون وحيداً ، فستكون معي حتماً ، ان
لم تكن قبلي » .

وللاعب مثل ناصر ، لا يملك من الموارد الا أقلها ، لن يتلصق في استغلال
أولئك « المتعصبين » . لقد أثبت التاريخ ، مرارا وتكرارا ، أنه بهذه الطريقة
دون سواها تتمكن الاقلية من فرض ارادتها على الاكثرية — مهما بلغ تعدادها
وقويت حجتها ، ان كان لها حقا أية حجة لتدفع بها عن نفسها — وتنال منها
ما شامت من التنازلات . وكلما زاد ضغط الاغلبية على المتعصبين ، وتصاعد
اضطهادها لهم ، فانهم عاجلا أم آجلا سيندفعون في أعمال شغب وعنف ، غير
مكترئين بالنتائج ولا مباليين بالمواقب . غير أن ارتباطهم بقيادة « غير متعصب »
يجعل منهم سلاحا ذا مرونة ودهاء . وعندها يمكن إيقافهم فجأة ، ولو قبل
الانتحار بقليل . وهم يتقنون التصنع ، فلا تلمس منهم الا رغبة صادقة
رأصيلة بالوصول الى حد الانتحار ، ويضيع على الخصم معها معرفة ما في
قلوبهم حقا : هل سيقعون فجأة ؟ أو هل في نيتهم أصلا أن يقفوا فجأة ؟ أم أنهم
ماضون ولن يعودوا أبداً ؟ وغالبا ما يمكن تزيين ذلك الهذيان الذي يتفوهون

(١) ورد تفسيرها في الفصل الاول .

به وتحسينه ، حتى ليفدو كلاما معقولا ومنطقا مقبولا ، بل ويتراهى لهم كأنه شعار أخلاقي سام . وكلما أمكن عزل الحركات المترتبة عن المفكرين والمتفوهين ، وعن الاحتكاك المباشر بالصحفيين ، فإن هذه الحركات تصبح من أحسن وسائل التأثير على الجماهير . وان هؤلاء « المتعصبين » ليسوا أكثر من « مجموعة رجال بوسائل ، يكافحون في سبيل أهدافهم ، وضد الاضطهاد والاستبداد » . ان قيمتهم وهم أموات لا تقل أحيانا عن قيمتهم وهم أحياء . انهم يتساقطون رغم أنوفهم في أروع صورة وأجل مشهد .

وليس من الصعوبة بمكان ، توفير مثل هذه العناصر المترتبة . ففي أي بلد يسوده الحرمان ويتفشى فيه اليأس ، تشعشش هذه العناصر المتعصبة ، وترتع فيه وتمرح . ويملا نفوسها التزمت ، ويجيش في صدورهما الحقد والكراهية ، وتهدر وتزأر وهي تنتظر انبعاث « المهدي » من مرقد له ليوقظها ، ويأخذ بيدها الى شاطئ الكفاية والسكرامة . وتهدف الافلام الغربية في دور السينما وعلى شاشات التلفزيون ، الى تثقيف الشباب وتوجيههم الى استخدام العقل وعدم اللجوء الى العنف . كما يلقنون الاشمئزاز منه ويرغبون بالوسائل المريحة التي قدمها لهم القرن العشرين . الا أنهم سرعان ما يدركون أنه لا حاجة لاستعمال عقولهم . فكل ما يتقاضونه - ان هم التحقوا بعمل شريف أو زاولوا مهنة كريمة - لا يعادل، الا جزءا بسيطا مما تتطلبه حياتهم على الطريقة الغربية ، وكما ترضها الافلام وبرامج التلفزيون . لقد ترعرعنا - نحن الامريكيين - في مجتمع يعتقد أن كل انسان - وان كان متوسط الذكاء - بإمكانه أن يصبح رئيس مجلس ادارة شركة (جنرال موتورز) وان كان أصله فلاحا أو مزارعا . وكل ما يحتاجه هو أن يتتبع بالكفاءة اللازمة لشق طريقه بنفسه ، وأن يملك التصميم على التمسك ببيدته مهما كانت الصعاب . ولقد جرت مناقشات بيني وبين عشرات من شباب الشرق الاوسط ، واقتنعت أنهم جميعا - باستثناء بعض المحظوظين - قد قضى عليهم أن يعيشوا طوال عمرهم دزن أن ينالوا شيئا ، ولا حتى ما لقنوا اياه . ولم يبق - مع الاسف - سوى طريق واحدة مفتوحة أمامهم ألا وهي طريق التضحية بالمصالح ، والارتباط بأهداف مقدسة ضد أشياء محددة معينة . وهكذا فإن هذه الطريق هي أحسن

طريق لتصريف المشاعر السلبية المكبوتة ، مثل الشعور بالخيبة والاحساس
بالحرمان .

إن حقيقة اعتناق الحركات المتزمتة لاهداف ثابتة محددة ، تعمل لها ،
وتناضل في سبيلها ، تجعل منها عنصرا غير مرغوب به في أي بلد ما ،
وخصوصا اذا كان من بين تلك الاهداف اسقاط نظام الحكم نفسه ، كما كانت
الحالة أيام حكم ناصر الاولى . الا ان الحركات المتزمتة تصبح ذات فائدة
ضخمة ان أمكن تسخيرها لخدمة اهداف ما في بلد آخر ، كاسقاط نظام حاكم
ما ، لو الضغط على سياسة زعيم آخر . ومن السهولة بمكان اقتناع « المتعصبين »
بفساد النظام السائد في بلدهم وغرس الكراهية له في نفوسهم ، مهما كان
شكله ونوعه . فالجماهير المحرومة واليائسة لا تنظر الى الامور كما يجب أن
ينظر لها . وفي هذه الحالة فان نظام الحكم يشكل هدفا مناسبيا في حد
ذاته . وكان ناصر يسلك هذا المسلك فيكشف عن تقصير أنظمة الحكم المتردة
عليه ، ويفضح أخطاءها حتى يجعل في اسقاطها وزوالها . ولم تكن هناك ضرورة
لاقتراح وسائل معينة للمعالجة ، وانما كان يكفي باطلاق شعارات عامة مثل
« القضاء على الاستعمار » الذي لا يشكل اغراءا للمتعصبين فحسب ، بل انه
متبع لا يناله نقد ولا يطاله تحليل .

وأخيرا نصل الى جوهر التكتيك الناصري في محاربة المتمردين على
مؤسسة « ناصر » . ان « المتعصبين » لا يحتاجون البتة الى توجيه محدد وأسلوب
منظم ، وانما يكتفون بأن تنير لهم الضوء الاخضر ، حتى ينطلقوا في تنفيذ مهمتهم
وانجازها . لقد اعتاد الامريكيون والبريطانيون - الى حد ما السوفييت
أنفسهم - على اتقان الخطط المفصلة والتفتن في أسلوب تنفيذها عندما ينوون
الاطاحة بأي نظام حكم . فان كان هدفهم القيام بانقلاب عسكري ، فان سلسلة
العمليات التي تؤدي اليه يجب أن تكون دقيقة التنظيم واضحة المعالم وكأنها
عمليات عسكرية محضه . (وعلى سبيل المثال ، فان العملية التي نفذت ضد
« مصدق » في ايران ، كانت تتطلب من ساعتين الى ثلاث ساعات من الحصر
المدروسة لشرحها مع الاستعانة بالخرائط ، وتفصيل مراكز القوة ، وطرق
تحويل وتنظيم هذه القوى ، وغير ذلك) وأما في حالة استخدام الحركات

المتعصبة بالطريقة التي استخدمتها ناصر بها ، فان كل ما يجب فعله هو تهيئة المسرح عالميا ، ثم اصدار الاوامر لاذاعة القاهرة بالهجوم على الهدف المحدد ، ومن ثم اعتماد أكثر الحركات المتعصبة تحمسا للهجوم ، بعد تزويدها ببعض الاسلحة والاحتياجات الأخرى ، ثم تركهم وشأنهم لانجاز المهمة واتمامها . والدافع الوحيد لاهتمام الانسان بمثل هذه المخططات ، هو لمعرفة نصيبها من النجاح ، والوقوف على الطريقة التي لا يمكن لجماعة المتعصبين بدونها المحافظة على أي نصر يحرزونه في أي من الاقاليم الخارجة على السياسة الناصرية .

ولا مانع من أن نستعرض هنا ملخصا للاجراءات النموذجية التي يتبعها ناصر في محاولته للاطاحة بأنظمة الحكم المتمردة عليه :

أولا : تبدأ اذاعة القاهرة بالهجوم على نظام الحكم لاصقة به الاتهامات الكافية لاثارة بعض الجماعات المتعصبة ، متجنبة توجيه الاتهامات التي لربما تكون موضع احراج لناصر في حالة نجاح الضربة .

ثانيا : محاولة دراسة ردود الفعل لحملة الدعاية السابقة عسى أن يتعرف ناصر من خلالها الى « المتعصبين » ، أو الى الحركات المتزمتة التي يمكنه الاعتماد عليها حال بدء العمل .

ثالثا : محاولة الاتصال بالمتعصبين ، وغالبا ما يكون هناك عدة فئات تتنافس مع بعضها البعض . ثم يتم تزويدهم بالسلاح ، ويحدد ناصر بالضبط ما يمكنه الحصول عليه من مخططاتهم .

رابعا : محاولة التعرف الى بعض العناصر الملائمة و ، بدءا عن التعصب ، والتي يمكنها أن تتسلم القيادة في اللحظة المناسبة (اما قبل ٧٠ طاحة بالحكم أو بعده) لتستفيد من المكاسب والمنجزات . ثم يحاول ناصر ، عقد اتفاقات معهم ، تضمن له انضمام ذلك البلد الى « جمعياته » (١) ، الى جانب جملة أهداف أخرى . كما يقدم ناصر بتأمين الاعتراف بنظام الحكم الجديد فور نجاح الانقلاب مع استمرار تأييد اذاعة القاهرة له .

الا أن هذا المخطط لا يخلو من وجود خطاين خطيرين فيه . أولهما : ان

القيام بسلسلة عمليات كالسابقة الذكر ، سلاح ذو حدين • فمن السهل أن تبدأها ولكنه من الصعب أن توقفها • وثانيهما : ان وجود عناصر غير متمسبة في مثل تلك العمليات - وهم غالبا ما يتجلون بسلوك انتهازي ، كناصر نفسه - سيشكل حجر عثرة في سبيل ضمان اتمام الصفقات المتفق عليها معهم • ومن أبرز الامثلة على الخطأ الاول هو النزاع السابق الذي وقع بين ناصر والملك حسين في الاردن • فعندما قرر الملك حسين الانصياع لناصر . وقال له بالفعل « انني قد وافقت على ما تريد » ، لم يكن عندئذ لدى الاخير أية طريقة لاعادة الامور الى نصابها وكبح جماح فئاته المتمسبة • ويعطي الانقلاب العسكري في العراق سنة ١٩٥٨ مثلا واضحا على الخطأ الثاني • فزعما الانقلاب ما كانوا ليقوموا به لولا التشجيع المصري ووعد ناصر لهم بمنحهم بركاته ، وبركات كل الاطراف الملتزمة معه في « جمعيته » • لكن قادة الانقلاب ، سرعان ما استقلوا برأيهم عن ناصر ، وسلكوا طريقا آخر ، قادمه أخيرا الى تشكيل جبهة معارضة له ، لا تقل عداوة ومشاكسة عن جبهة نوري السعيد السابقة •

ان الحرب التي يشنها ناصر ضد المتمردين على مخططاته ، قد آلت الى نتائج جعلت حكام العرب لا يتجرأون على الارتباط بأية قوة كبرى ، شرقية أم غربية ، دون الاخذ بعين الاعتبار وجود « جمعيته » ، وحتى موافقته الشخصية على ذلك • ولقد خدمه هذا المخطط - وعلى الاقل - لمدة من الزمن • وان التصدع المتزايد « لجبهته المشتركة » ، وما أصابها من شروخ وانقسامات ، لم تكن نتيجة أخطاء جذرية في استراتيجيته (عندما وضعها خلف الابواب المغلقة) أكثر من كونها نتيجة التغييرات المستمرة للظروف العالمية •

ولقد لفت شخصيا انظار أصدقائي المصريين ، وأنظار ناصر نفسه عندما كنت التقي معه ، الى أن تحالف الناصرية مع المتعصبين والغلاة في البلاد المجاورة ، يثير ردود فعل سيئة في العالم الغربي ، وبالتالي فإنه يحيل ميزات « جمعية » ناصر الى سيئات • وأدرك الجميع وجهة نظري هذه واعترفوا بصحتها ، ولكنهم احتجوا بأن لا طاقة لهم بالمخططات الامريكية الماكسة لفرط قوتها ووفرة ماله • ولهذا فليس أمامهم الا طريق اللجوء الى ما تبقى لديهم من وسائل ، مهما كان نوعها ولونها • وهم بهذا يطبقون الاستراتيجية القائلة : ان الأمة الضعيفة لا

يمكنها أن تلعب دورها ضد القوى الكبرى - وعلى الاقل حول طاولة « لعبة الامم » - دون استخدام العنف ، الذي يسد العجز في نواح عديدة من ميزان القوى .

ولادراك هذه الحجة يجب أن نملك فكرة واضحة عن « استراتيجية المخططات المعاكسة » التي يظن الزعماء الناصريون أننا نتبعها في تحركاتنا ضدهم . فلقد بقيت هذه الاستراتيجية لفزا محيرا لهم ، وذلك لاننا كنا نتظاهر باتباعها في نفس الوقت الذي كنا نستقل فكرة « جمعية » ناصر نفسه ، وما لها من نفوذ واسع في المنطقة بغية اىصال مخططاتنا الهامة الى درجة النجاح - الذي ما كان لنا أن ندركه دون اتخاذ نفوذ ناصر الواسع مطية لنا - وعلى سبيل المثال ، فقد كان مشروع اريك جونستون لنهر الاردن واحدا منها ، وذلك لانه لم يكن ممكنا تنفيذه دون موافقة ناصر وضغطه على بقية زعماء العرب للقبول به . ومثال آخر على ذلك ، هو محاولتنا المتكررة لجر ناصر الى قيادة العرب بغية السيطرة عليهم ، وبالتالي اقناعهم بتخفيف حدة التوتر بين العرب واسرائيل . ولقد قامت الحكومة الامريكية بأكثر من محاولة لدعم هذه الفكرة ووضعها حيز التنفيذ . كما ألفت بنقلها وراء « جمعية » ناصر بغية تحقيق ذاك المار ، واخرجه الى حيز الوجود (١) .

وكان التناقض واضحا وجليا في كل أفعالنا وقراراتنا . فقد كنا نسد باقي حسابنا مع ناصر بشكل محاولات تهدف الى تقويض نفوذه ، أكثر مما تهدف الى تقويته . وكنا نفعل هذا جهرا بافتضاح . وأول ما نذكر في هذا المجال « حلف بغداد » نفسه . فقد قال عنه باتريك سيل (في كتابه الصراع على سوريا) أنه « كان ذا تأثير بالغ على السياسة العربية في كل المستويات » . كما قال ب . ج . فاتيكويتس ان حلف بغداد كان صدمة عنيفة على سوريا . ولم تكن هذه سوى عبارات مخففة لتصوير الموقف بشكل أقل مما كان عليه حقيقة . لقد هز حلف بغداد العالم العربي الى حد تعذر علينا معه - وذلك لفترة من الزمن - الاحتفاظ بمواقع الغرب في الشرق الاوسط ، مستنفدين كل ما تحت تصرفنا من مساعدات

(١) لا أظن القارىء العربي قد وصل حدا من الفناء والشقاء يحتاج معه الى شرح لهذه العبارات الموجزة .
(العرب)

اقتصادية • وقد أدرك هذه الحقيقة كل من كان له علاقة مباشرة مع العالم العربي من الرسميين الامريكيين والبريطانيين • غير أنني في ذلك الوقت لم أكن أملك الشجاعة الكافية لادخل قاعة تلك الاجتماعات التي كانت تعقد في مقر الوزير دالس ، وأعلن هذه الحقيقة المؤلمة ، كما أعلنها باتريك سيل وفاتيكيوتس •

وفي نيسان (أبريل) ١٩٥٤ ، وقعت كل من الباكستان وتركيا معاهدة صداقة ودفاع مشترك • وبعبارة أدق ، لم تكن تلك المعاهدة تعني قيام حلف عسكري بينهما • وقد وقعت تركيا والباكستان تلك المعاهدة بدافع ذاتي ، ودون أي ضغط خارجي من الولايات المتحدة أو من بريطانيا • ولكن رجال الامن العام التابعين لناصر ، قاموا بتصوير جميع صفحات جوازات سفر كبار المسؤولين الامريكيين والبريطانيين لدى عبورهم نقاط الامن العام في مطار القاهرة • وكان من السهل بعدها أن تقوم القاهرة بنشر معلومات تدعي فيها أنه قد مر في مطار القاهرة - وقبيل توقيع المعاهدة - ما لا يقل عن ثلاثة من الرسميين الامريكيين ، انذين لهم علاقة بالمعاهدة ، وعلى جوازات سفرهم تأشيرات دخول وخروج تركية وباكستانية • وفي نفس الشهر ، وافقت الولايات المتحدة رسميا على منح العراق مساعدات عسكرية في ظروف أثارت الشكوك في نفس ناصر ، وظن أن حكومة نوري قد قامت بتقديم تنازلات سرية ، مع أن العراق لم يكن قد أعلن ليومها عن أية ارتباطات رسمية شبيهة بتلك التي طلبها من ناصر كل من جيرهارت وايفلاند سابقا • ولكن بعد تسعة أشهر ، وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥ ، أعلن كل من العراق وتركيا ، في بيان مشترك ، أنهما على وشك توقيع حلف بينهما • وقد حدث هذا حقيقة في الشهر التالي من العام نفسه ، ولحقت بهما بريطانيا ووقعت على الحلف بعد ثلاثة أشهر •

ومع أن مقري كان يومها في القاهرة ، الا أنني كنت أتورد الى سوريا والولايات المتحدة ، حيث كان يسمح لي وقتي بزيارة معظم زملائي القدامى في واشنطن • وفي إحدى زياراتي للقاهرة مع البرت جيرهارت في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤ ، نقل الي بيل ايفلاند صورة محتملة عن تسلسل الوقائع ، وأشار بوضوح الى أن ناصرا سوف يجد نفسه وحيدا ومتخلفا عن الركب • ولكن لم يكن بيننا من صدقه في حينه • وأهمـل كل من السفير كافري وجيمس

ايخلبرغر حديته ولم يميرا تنبؤاته أي اهتمام او انتباه . وفي اليوم الذي اعلن فيه الاتراك والمراقبيون توقيع الاتفاق بينهما ، لم يعلم ايخلبرغر به الا عن طريق نشرة الاخبار الداخلية التي تصدر داخل السفارة . فلم يرد أي ذكر للاتفاق في سياق البرقيات الرسمية ، التي ترسلها وزارة الخارجية في واشنطن الى القاهرة . واقترح يومها ايخلبرغر أن اذهب واياه لزيارة ناصر في منزله لنطلعه على النبا . وفعلنا ذلك حالا . وبعد أن نقلنا له الخبر ، جلس ناصر لدقائق معدودات في صمت مطيق ودون أن ينبس ببنت شفة . ثم ما لبث أن خاطبنا بصوت منخفض ، ولكنه منذر بالشؤم ، مذكرا ايانا أنه - بفض النظر عن حديثه مع ايفلاندي وجيرهارت - لم يفهم من جميع الامريكيين الذين لهم علاقات معه، ومهم السفير كافري ، سوى أن الحكومة الامريكية ستعطيه الفرصة الكافية لانشاء منظمة دفاع اقليمية عربية بدون أن يكون لها أية علاقة مكشوفة مع الغرب . وسيتم بناء هذه المنظمة الدفاعية بصورة تسمح لها أن تجد مكانها المناسب ضمن مجموعة الخطط الفريية حال ظهور أي خطر يهدد الجميع . وكاد حسن التهامي - وكان حاضرا - أن يفقد اعصابه عند سماعه النبا ، الا أن ناصرا خفف عنه ، وهدأ من روعه . وعندما غادرت وايخلبرغر المنزل كان الاثنان غارقان في صمت تام ، والدنيا من حولهما تنظر وترقب .

وبعد قرابة يوم ، غادرت القاهرة الى دمشق لقضاء بعض الاعمال التي لا علاقة لها بما سبق ذكره . وفي دمشق صحبني صديقي مجد الدين الجابري (وكان يشغل يومها منصب وزير الاشغال العامة) معه الى عند وزير الخارجية فيضي الاتاسي الذي ألقى علي محاضرة مليئة بشكوك الاطفال وأوهامهم . ولو أنني لعدت ما سمعت منه على المسؤولين في واشنطن ، لشكوا بصحة عقله واتهموه بالجنون (ولم يكن هو كذلك) . الا أن الحديث قد وضع لي الفكرة التي رسمها العرب في مخيلتهم عن الامريكيين . وكانت محاضرتي تحتوي على عبارات مثل : « الاستعمار . . . يحاول أن يبقي العرب ضعفاء . . . انكم لستم سعداء الا عندما تصبح عبيدا لكم . . . انكم تتمنون أن نبقي متخلفين وخياليين . . . وكالة المخابرات المركزية . . . فاضل الجمالي عميل لها . . . ولي العهد (الامير عبد الاله) يأمل أن يصبح ملكا على سوريا . . . » الى غير ذلك من الصهارات المائلة لما سبق ذكره . وفي اليوم التالي ، امضيت ست ساعات وأنا

أشق طريقي خلال الثلوج المتراكمة على جبل لبنان ، وخلال مراكز المراقبة التابعة للجمارك والامن العام على حدود البلدين ، حتى أصل الى بيروت - وفي المساء التقيت بعدد من اللبنانيين المؤيدين لناصر والذين القوا علي محاضرة لا تختلف عن تلك التي أصغيت لها في دمشق . ومع أنني التقيت أيضا بعدد من اللبنانيين المناوئين لناصر ، الا أن حديثهم لم يكن يختلف كثيرا عن الحديث السابق في معانيه ، سوى أنه كان أخف حدة والطف منطلقا . وعندما قصدت في نفس اليوم مبنى السفارة الأمريكية في بيروت التقيت صدفة بأحد معارفي القدامى (وكان قادما من واشنطن في زيارة لبيروت) . ولكنه سرعان ما تأبط ذراعسي والتفت الي قائلا : « وأخيرا فلقد عثرنا عليكم يا عشاق ناصر ، اليس كذلك؟! » .

وعندما عدت الى القاهرة ، كانت الاستعدادات تجري على قدم وساق ، تحضيراً لمؤتمر وزراء الخارجية العرب . ولم يكن أصدقائي المصريون ، من الذين لهم علاقة بالمؤتمر ، ليتحدثوا الي الا عندما يودون توجيه انتقادات لاذعة للوزير دالس . وعندما وصل الوزراء العرب الى القاهرة قمت بالاجتماع بأكثرهم . فقد كنت أعرف نصفهم تقريبا . ولقد أعربوا لي عن وجهات نظر متفاوتة كانت كلها تلتقي حول حقيقة واحدة ، وهي ان خلافا جديدا قد نشأ بينهم لكنه من نوع أشد وأقوى من تلك الخلافات السابقة التي اعنادوا عليها . ونتيجة لذلك ، فقد أخذت كل من بغداد والقاهرة في استقطاب الدول العربية الأخرى حولهما، وحلت سياسة المحاور محل سياسة الاتفاق والتفاهم ، وأضحى الصنف العربي متصدعا الى حد استفاد منه السوفييت أكثر مما استفاد منه الغرب بكثير .

وفي تلك الاثناء ، وصل السفير بايرود ليتسلم مهام منصبه كسفير للولايات المتحدة في القاهرة . وقام بايرود بعدما يتناول طعام العشاء في منزلي بصحبة كل من ناصر وعبد الحكيم عامر وحسن التهامي (وقد أتيت على ذكر ذلك سابقا) . وقد أطلعت واينخبرغر ، بايرود على وجهتي نظري السلبيتين حول حلف بغداد . ونظرا لبعده عن تأثيرات أجواء واشنطن الرسمية عليه ، فقد نجحنا في استمالته اليانا ، وضمه الى صفنا . وساعد تعاطف بايرود مع وجهتي نظريتنا اتخاذ موقف أقل ما يوصف به أنه ملطف لردود فعل ناصر تجاه حلف بغداد . وحاول بايرود ان يطمئن ناصر حول نتائج الحلف ، مؤكدا له أن الأمور

لن تتطور الى أسوأ ، وأن مساندة بريطانيا والولايات المتحدة للحلف لن تبليخ
درجة هامة وخطيرة .

وفي آذار (مارس) ، علمنا أن بريطانيا على وشك التوقيع على معاهدة
حلف بغداد ، وأن هناك ضغطا على الحكومة الامريكية حتى تحذو حذوها . وفي
تلك الاثناء ، كان الموقف قد اتضح تماما لبايرود ، وصار يراه كما كنا نراه .
وعندها اقترح علي بايرود أن أنتحل بعض الاعذار - كقضاء بعض الاعمال -
للسفر الى الولايات المتحدة ، واحاول هناك أن أتصل ببعض الاصدقاء المسؤولين
في وزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية وأبلغهم شفويا ما كان يعنيه كل
من بايرود واخيلبرغر فيما أرسلاه من برقيات ومذكرات وكانا فيها متحفظين
جدا (حتى لا يبدو بايرود وكأنه قد غير مواقفه فجأة بين عشية وضحاها مما
يسيء الى مكانته ، ويظهره بمظهر الفبي الاحمق) . وقد دأب بايرود على ارسال
مثل تلك البرقيات والمذكرات منذ اليوم الاول لوصوله الى القاهرة ، دون أن يأتي
صراحة على ذكر آرائه الجديدة حول أحداث المنطقة . وذلك لان الانسان ان وجد
ضرورة لتغيير مواقفه وآرائه التي كان يتمسك بها يوما ما بقوة ، وجب عليه أن
يفعل ذلك بهدوء وتدرج لئلا يثير أزمة ثقة واطمئنان .

وعندما وصلت الى واشنطن ، قمت بزيارة لكيرميت روزفلت في مقره في
وكالة المخابرات المركزية ، وبسطة له وجهة نظري بخصوص حلف بغداد
(وكانت شبيهة بأراء كل من الكاتين باتريك سيل وفاتيكيوتس) . ومع أن
كيرميت روزفلت لم يظهر استحسانا كليا لوجهة نظري ، الا أنني أفلحت في أن
أضفي - على الأقل - شيئا من الصبغة الواقعية (كما هي حقيقة في الشرق
الايوسط) على النظريات التي كانت سائدة آنئذ في واشنطن ، وأخذ روزفلت
كلامي هذا بعين الاعتبار ، مما منحني شجاعة وجراة لان أنتقل الى شرح أكثر
صراحة وأوسع شمولاً . وسرعان ما أدار قرص الهاتف ليتخذ الترتيبات التي
تسمح لي أن أمثل لدقائق معدودات أمام أحد الاجتماعات الرسمية ، التي كان
مقررا لها أن تعقد بعد ظهر ذلك اليوم في مكتب وزير الخارجية دالس ، ويحضرها
مما خبراء وكالة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية . ولا أزال أذكر جيدا ذلك
الاجتماع الذي أقمتهني يومها أنه مهما أوتي أولئك المؤرخون (مثل باتريك سيل

وفاتيكويتس) شجاعة وجرأة لعرض افكارهم وآرائهم ، بنفس قوة الاقناع الملموسة في مؤلفاتهم (وهي تدور حول سوء ردود الفعل ضد الامريكين نتيجة توقيع حلف بغداد) امام المجتمعين يومها ، لما أفلحوا في زحزحتهم عن مواقفهم المتعنتة ، تجاه سياستنا في الشرق الاوسط ، ولا قيد أنملة .

كان يحضر ذلك الاجتماع الوزير دالس ، والى جانبه كل من بيل روفتري (الذي حل محل بايرود في منصب مساعد الوزير لشؤون الشرق الاوسط) وكيرميت روزفلت من وكالة المخابرات المركزية ، بالإضافة الى أربعة أو خمسة من المع خبراء الوزارة من الشباب الذين استظهروا معلومات واسعة حول البلدان المتعددة في الشرق الاوسط . وكانت تلك المعلومات تشمل كل شيء حول الموارد الطبيعية وغيرها من الحقائق والاحصائيات الاستراتيجية الهامة . ولست متأكدا من حضور بيل ايفلاندا لاذك الاجتماع ، الا أن ممثلا عن وزارة الدفاع كان بالتأكيد في طبيعة المشتركين فيه . وضم ذلك الاجتماع فعلا كبار مخططي الاستراتيجية الامريكية في الشرق الاوسط ، وكان في متناول يدهم كامل المعلومات المتوفرة في كل الاجهزة والدوائر في واشنطن ولندن حول استراتيجية السوفييت ، وقوتهم العسكرية ، وحالة التسليح النووي آنئذ ، والتغيرات في معدلات انتاج النفط حتى عام ١٩٧٠ ، وحالة التطور الصناعي في أوروبا ، وتقارير مختلفة عن نشاطات حلف الاطلسي ، وما لا حصر له من التقارير والمعلومات المصنفة والواردة من كل حذب وصوب . ولم أجد صعوبة في اجتذاب انتباه الحاضرين في الاجتماع ، فقد كانوا كرماء في ذلك ، كما حصل بسرعة وعن طيب خاطر . الا انني لا أدري ماذا انتابني وأنا مائل امامهم . فلم أوفق في أن انقل اليهم سردا كاملا لتفاصيل سياسة البعثيين ، وللرفض الذي يحمله العرب لسياسة نوري السعيد وفكرة الهلال الخصيب . كما لم أوفق الى شرح أمور عديدة ، شبه رسمية ، تعتبر مخالفتنا لها في المنطقة ظلما وقسوة ، ولكن الانسان لا يقيم لها وزنا عندما ينظر اليها وهو قابع خلف الجدران في واشنطن . وقد يشمر أنها لا تساوي ولا حتى ذاك التشويش الذي يثار بسببها . فالمسؤولون في واشنطن لا ينظرون الى الشؤون العالمية الا من خلال منظار القنابل الذرية ، والحرب الباردة بين الشرق والغرب ، وحلف وارسو ، ومعاودة دفاع حلف الاطلسي . وكان جل تفكيرهم بالشرق الاوسط لا يتعدى حدود مشاكله

الاقتصادية وموارده الطبيعية . واما مشكلة اسرائيل فانها كانت تتطلب
اهتماما زائدا وذلك لاسباب سياسية داخلية ذات اهمية لا تتناسب اطلاقا مع
اهمية اسرائيل الاستراتيجية .

ولقد دأب أولئك الرسميون على النظر الى غيرهم من خلال المنظار السالف
الذكر . فمثلا : ما هي سوريا ؟ انها لا تعني بالنسبة اليهم سوى انها بلاد لا
يتجاوز سكانها ستة ملايين نسمة ، فهي بهذا لا تتجاوز ربع سكان مدينة نيويورك
« الكبرى » . ولقد حدث مرة أنني قابلت قنصل أحد البلدان الصغيرة وهو
« راوندا اوراندي » ، وانهزت الفرصة لاستمع منه الى شرح حول الخلاف
الموجود عندهم بين الترفزة والهياج العصبي من جهة وبين طقوس الصحرة
وعاداتهم المقدسة (في افريقيا) من جهة اخرى . وكان ذلك القنصل يظن نتيجة
لذلك أن الحرب العالمية الثالثة ستبدأ من هناك ، ومن « راوندا اوراندي »
بالذات . وهنا أدركت مدى السخافة والسذاجة التي يتصف بها أولئك
المسؤولون الذين لا يفكرون في الشؤون العالمية الا من زاوية التعصب لاقاليهم
والتمسك بها (وذلك على حد تعبير الجنرال بديل سميث) .

لم يكن عرضي لوجهة نظري موفقا كما كنت أتمنى واشتهي . وعند
انصرافي من الاجتماع ، التفت الي « كيرميت روزفلت » وقال معلقا : انه قد وجد
متعة في اصغائه الي وأنا أزار ولكن كهر صغير لا حول له ولا قوة . وعندما عدت
أدراجي الى القاهرة كان شعور أيخلبرغر وبايرود أنني قد خذلتها وتخلت
عنهما . ولكن ما العمل ازاء أحداث كهذه ؟ فجوهر الأمر يكمن في الخلاف
الشماسح بين تصور المسؤولين لابعاد الموضوع وهم وراء مكاتبتهم في واشنطن ،
وبين تصور أولئك الذين يعيشونه في وسط الميدان ، وتحت أشعة شمس
المحرقة . وباستثناء بعض التلميحات والارشادات ، فان كلا التصورين يبقيان
في عالمين منفصلين تمام الانعزال عن بعضهما بعضا . ودونما أي اتصال أو تبادل
للآراء والافكار .

ومهما كان ، فلقد وافقت واشنطن على أن تبقى خارج حلف بغداد . الا أن
ذلك لم يكن أهون الشرين وأخف الضررين . ففي الوقت الذي بقي الحلف
ضميفا دوننا ، أخذت الاطراف المشتركة فيه تشن علينا حملة قاسية ، ناعمة

ايانا بالتخلي عنهم ويتركهم في المراة . وعرف المصريون وغيرهم أن الحلف كان من بنات أفكار الوزير دالس ، وكان هذا مطعنا جديدا بسلوكنا . وعلى أية حال فقد كان حلف بغداد أمضى سلاح اعطيناه لناصر ضدنا ، وبنفس الطريقة تمام التي اعطانا بها السوفييت ، عام ١٩٦٨ ، سلاحا جديدا ضدنا عندما قاموا بغزو تشيكوسلوفاكيا . ومع أن ناصرا كان يتمنى أن تسنح له الفرصة لتوجيه شكر رسمي لنا على موقفنا ذلك ، فإنه لم يتردد بترك انطباع كهذا عند السفير بايرون خلال لقاءاتهما المتكررة .

كان حلف بغداد بمثابة منطلق جديد لناصر يشن منه حملاته ضد اولئك « الخارجين » عن سياسته . وزاد هذا المنطلق قوة ومثانة ، عندما شاركت بريطانيا (وهي احد الاطراف الموقعة على حلف بغداد) كلا من فرنسا واسرائيل في الهجوم على قناة السويس في تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٥٦ . وكان أمرا حيويا وضروريا لناصر أن يشن تلك الحملات ضد الحلف وموقعيه . فقد أثبت توقيع الحلف (بغض النظر عن عداة الجماهير العربية له ، وعن مدى الاحراج الذي سببه للزعماء المراقبين في علاقاتهم العامة) ، على أن هناك وسائل عديدة قد تمكنت احدى الدول التي تعتبر من الاركان الاساسية في « جمعية » ناصر من اتباعها ، ومن انتهاج سياسة مستقلة عنه تماما . وأما الوسيلة الثانية التي شجعت البعض الآخر على انتهاج سياسة « الخروج » والاستقلال عن ناصر فهي « مبدأ ايزنهاور » .

جاء اعلان « مبدأ ايزنهاور » كنتيجة من نتائج فشل العدوان الثلاثي (البريطاني الفرنسي الاسرائيلي) على قناة السويس في عام ١٩٥٦ . الا أنه قد زود ناصرا بجموعة رهيبه من الاحتمالات والاطار ، التي لها علاقة « بلدبة الامم » . وكان أول ما لاح في الافق احتمالية دخول الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في منافسة شديدة لكسب ود ناصر واستمالته . فقد أبرق سفير ناصر في واشنطن مطلعا اياه على آخر رأي لنا في المنطقة ، واننا قد أدركنا أن خروج البريطانيين من المنطقة بعد هزيمة السويس سيترك فراغا فيها ، وأن كبار مصطلحي السياسة الامريكية أخذوا يسهرون الليالي الطوال عليهم يجدوا ما يرضونهم ويزيل عنهم القلق . وكلمة « الفراغ » هذه كلمة كريمة لناصر . فهي لا

تعني عنده سوى ضرورة وجود احدى الدول الكبرى على مسرح الاحداث في المنطقة ، وان خروج احدها يحتم بالضرورة حلول أخرى محلها . ولقد اشارت امتماضه حقا تلك المساعي الحميدة التي بذلتها واشنطن للافراج عن الارصدة المصرية المحمدة انتظارا لنتائج المفاوضات حول تسوية مطالب شركة قنساء السويس العالمية . الا أن ناصرا أدرك نهائيا ، وبوضوح تام ، أن ابعاد تصورنا لفكرة « ملء الفراغ » في المنطقة ليست أكثر من مجرد كسب لصدقاته ومودته ، كما أنها تعني ، بالوقت ذاته ، منحه مطلق التسهيلات في سبيل انشاء « تجمع » دول الحياد الايجابي . الا أن الشكوك قد خامرت ناصرا عندما تلقى ردا أمريكيا فاترا على طلب كان قد تقدم به للامريكيين والسوفييت يطلب فيه منهم بالحاح قمحا وعقاير . في حين كان الرد السوفييتي سريعاً ، ولبي الروس طلبه بالحال .

ولناصر العذر كله في تخوفه من النتائج وفي ترقبه للشروع . فقد تظاهر « الخوارج » (١) بتأييده ، وتكاتفوا معه أثناء أزمة السويس . ولكن بقيت قلوبهم بميدة عنه ، وفي نفوسهم تحفز وانتظار . أما وقد انتهت الازمة ، وانفجرت الكربة ، فقد أدرك ناصر أنها قد زلزلت اركان « الخوارج » ، وهزأت قواعدهم هزا ، وأنهم قلقون ، غير مرتاحين ، لانحسار نفوذ بريطانيا عن المنطقة ، وعليهم البحث عن بديل لها ليمد لهم يد العون وينجهم التأييد . وقد استرعى انتباهي مرة ، وأنا في حديث مع أحد كبار أعوان ناصر ، أن العلاقات بين السفراء المصريين ووزارات الخارجية في كل من بيروت وعمان وبغداد ، تمر بمرحلة فتور وبرود . فلم يكن استقبالهم هناك أكثر من مجرد رسميات متكلفة ، ولياقسة شكلية مفرطة ، مما اثار الهواجس والشكوك حيال ما يدور وراء الكواليس . وكان تلهف ناصر شديدا على سلاح آخر كسلاح حلف بغداد ، نقده له دون وعي منا ، ليستخدمه في شن الحملات على « الخوارج » ، فيزيدهم احراجا فوق احراج « حلف بغداد » لهم . وأحس ناصر بأن في نيتنا هذا ، وأنا على الدرب

(١) تعني كلمة الخوارج هنا اولئك الذين حادوا ناصرا في سياسته واتجهوا لانفسهم نهجا مستقلا (مثل نوري السعيد والرئيس شمعون والملك حسين ١٠٠٠) ، وتستهملها منا انفاقا ، ونسبته « خارجي » .
(العرب)

سانرون • فقد أبرق له سفيره في واشنطن ، في الاول من كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧ بانباء مفادها : انه يمتد ان الامريكين منهمكون في وضع مخطط بضية الاطاحة بنظام حكم ناصر والتخلص منه •

وحدث ما اراد ناصر له ان يحدث • فقد كنت في تلك الاثناء ملحقا بلجنة كلفت بمهمة الاشراف على كل ما يمت الى سياستنا تجاه ناصر بصلة • وعندما حضرت لمكتبي في أحد الايام ، اصبت بدهشة مذهلة عندما علمت ان رئيس الجمهورية قد قدم في الخامس من كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧ اقتراحا الى الكونغرس الذي وافق عليه (في الجلسة المشتركة بين مجلس الشيوخ ومجلس النواب) حالا ، واصبح نافذ المفعول ابتداء من شهر آذار (مارس) من نفس العام • وقد خول الكونغرس رئيس الجمهورية (وكان يومها ايزنهاور) حق ارسال القوات المسلحة الامريكية للدفاع عن اي من الحكومات الصديقة فسي الشرق الاوسط التي تواجه تهديدا مسلحا من قبل أية دولة أخرى تدور في فلك الشيوعية العالمية • وفي حال عدم وجود مثل هذا التهديد السافر بالسلاح ، فللرئيس الحق في تقديم المساعدات الاقتصادية والعسكرية التي تحتاج اليها تلك الحكومات بغية بناء جهاز دفاعها الذاتي • وقد عرف هذا «بمبدأ ايزنهاور» • وحتى يومي هذا ، لم اعثر على ذلك المسؤول السذي استتبط هذا « المبدأ » ، واخترع فكرته • الا انني متأكد تماما ان « المبدأ » نفسه كان مصدر مزيد من الاحراج والتوريط لاعداء ناصر ، دون ان يقدم لهم المساعدة الفعلية التي اضحوا في أمس الحاجة اليها للصمود في وجه ناصر وحملاته المتلاحقة القاسية ضدهم •

وعندما أجول بذاكرتي في اجواء « مبدأ ايزنهاور » ، فان الشك يخامرني في أن الوزير دالس نفسه ، أو مساعده بيل روتري ، كان وراء اختراعه وصياغته • وكلي يقين ، بأنه لم يكن وراء مبدأ ايزنهاور أي من اولئك المسؤولين في لجنة تخطيط السياسة الامريكية في الشرق الاوسط (وهي لجنة مشتركة بين وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ووكالة المخابرات المركزية) ، أو في لجنة شؤون الشرق الادنى وشمال افريقيا • ولا يستبعد اطلاقا أن تكون الفكرة وليدة احد تلك اللقاءات السياسية غير الرسمية (التي يحضرها بعض الدهاة الاذكياء) ،

الا انها كانت بالتأكيد دون مشورة منا - نحن خبراء « الميدان » - أو رأي • وهي ضوء معلوماتنا وتصوراتنا عن العالم العربي ، لم تكن الفكرة لتعني أكثر من مجرد لغو وهذيان • ولا أزال أذكر جيدا ذلك الموقف السلبي الذي أجمع عليه الخبراء بشؤون الشرق الاوسط حيالها • فعندما سئل ممثل وكالة المتابرات المركزية (في لجنة التخطيط السياسية للشرق الاوسط) عن رغبة الوكالة في ارسال أي من مسؤوليها في مهمة رسمية لشرح مبدأ ايزنهاور للزعماء العرب ، اجاب قائلا : « اننا لا نحمل ان نشارك في كل ما يخطر لكم من افكار طائشة ومخططات حمقاء ! »

ومع ان ناصرا كان يترقب بلهفة اعلان « مبدأ ايزنهاور » ، الا أنه لم يخف قلقه ازاء العبارات التي صاغ الرئيس ايزنهاور بها مبداه • فعبارة « الدول التي تدور في فلك الشيوعية الدولية » كانت تشير ، من قريب أو من بعيد ، الى مصر ، دون سواها • ومع هذا ، فقد كان سروره أعظم عندما جلس حول طاولة « لعبة الامم » (وهو طرف فيها) يراقب خصمه وهو يرتكب الاخطاء ، الواحد تلو الآخر • وقد أخبرني ناصر فيما بعد أن انتداب جيمس ب • ريتشاردز ، عضو الكونغرس ، لنقل الاخبار السارة الى كل من الرئيس شمعون والملك حسين وغيرهما ، كانت الناحية الوحيدة من مبدأ ايزنهاور التي استرت انتباهه واستحوذت على اهتمامه • فاختيار رسول لمهمة كهذه ، وهو لا يعرف من شؤون العرب أكثر مما يعرفه ناصر نفسه عن الفنون الشعبية وأغانيتها ، قد أوقعت ناصرا في حيرة شديدة ، وساورته الشكوك في أن « مبدأ ايزنهاور » قد أخذ يسير في مسالك انتهازية بقية تطويق ناصر في داخل مصر بالذات • وأذكر أنه قد خاطبني مرة - بعدمضي مدة غير قليلة على اعلان مبدأ ايزنهاور - قائلا : « أن عقدة عبريتكم - أيها الامريكيون - تكمن في عدم ارتكابكم الحماقات والاطخاء ببساطة ووضوح ، بل غالبا ما تجعلونها معقدة وغامضة الى الحد الذي يضطر معه الى التفتيش عن العديد من الاحتمالات التي لربما كانت تنطوي عليها • الا أننا دائما نكتشف - ولو بعد حين - أنها لم تخرج عن كونها حماقات ، دون ذكاء فيها أو دهاء » •

ولقد بقي ناصر يعتبر « مبدأ ايزنهاور » أحد بنات أفكار الوزير دالس ،

ولكن المبدأ بمد ذاته كان من أفحش الأخطاء التي يرتكبها أحد كبار ديبلوماسيين
دولة عظمى .

وبعد ذلك ، بدأت لعبة الإرباب والخسائر .

بدأت الدعاية السوفيتية تشيخ أن الأمريكيين كانوا طرفا في المؤامرة
الفرنسية - البريطانية - الاسرائيلية على قناة السويس ، ولكن بشكل « شركاء
أوصياء » . فدورهم تمثل في البقاء جانبا الى أن حان موعد تدخلهم على شكل
وسطاء خير ، ورسيل سلام ، جاؤوا نتيجة شطط من كان قبلهم وفشله . كما
ساعد خبراء الدعاية في إذاعة القاهرة الروس في مهمتهم هذه . فأخذوا ينشرون
الحيل والاشاعات ويلفون لها الأدلة والبراهين مدعين الحصول عليها من مختلف
المصادر السرية في الشرق الاوسط . وكان جلها يدور حول المؤامرات التي
تدبرها الولايات المتحدة للايقاع بين العرب ليسهل عليها بعد ذلك استعبادهم .
كما أنها تعمل على أعوانها في بعض الحكومات العربية لتنفيذ مثل هذا المخطط
وفي الدعوة اليه .

ولم تكن في البداية حملات ناصر ضد « الخوارج » أكثر من مجرد نقد
للافكار ، بنون تهجم على الأشخاص . وكان النقد يهدف الى ايجاد رأي عام ،
وتكوين محيط متعاطف معه ومتحمس له . وبهذا كان يأمل أن يقطع الطريق
على كل من تسول له نفسه الخروج عليه ، عاجلا أم آجلا . الا أن هذه الوسائل
لم تلق نجاحا كاملا ، وان كانت قد حققت شيئا من أهدافها مثل تلقين الشعوب
العربية الوسائل التي تكشف « الخوارج » ، وتظهر زيفهم (١) . كما تمكنت من
لقاء الظلال واثارة الشكوك حول كل من نوري السعيد في العراق ، والرئيس

(١) ان القارىء العربي قد أدرك أخيرا ان مثل هذه الوسائل سلاح ذو حدين ، وانها لا تسزال
صالحة للاستعمال في السببنيات .

شمعون في لبنان ، والملك حسين في الاردن ، وأظهرتهم على أنهم من «الخوارج» (وخاصة في حالة نوري وشمعون) حتى قبل أن يتحركوا فعلا ضد ناصر بزمن غير يسير . الا أن ناصرا شعر أخيرا أنه لا بد من القيام بخطوة أشد حسمه « الخوارج » ، وأن الوقت قد حان لتصعيد الحملات وتوجيهها ضد أهداف واضحة ومحددة .

وأعد ناصر لائحة بأسماء « الخوارج » ، احتل فيها نوري السعيد رئيس وزراء العراق يومها - مركز الصدارة ، الا أن ناصرا قد أدرك أن الاطاحة بنظام نوري السعيد سيستغرق وقتا غير قصير ، ورأى أن عزله عن بقية « الخوارج » يسهل تنفيذ المهمة ويدفع بها الى الامام حثيثا . ولهذا قرر ناصر أن يستبدل نوري السعيد بالملك حسين ، وغدا الاخير يحتل مركز الصدارة بعدما كان في المرتبة الثانية تسلسلا بعد الاول . وحدث هذا قبل اعلان « مبدأ ايزنهاور » . ومع أن الملك حسين لم يكن بأهمية نوري السعيد ، الا أنه كان فضلا مصدر ازعاج لناصر واقلاق له ، لاكثر من سبب واحد . ولذا بدأت الحملة ضد حسين قاسية وسريعة ، ودون رحمة ولا هوادة . ففي كانون الثاني (يناير) ١٩٥٦ أوفدت الحكومة البريطانية السير جيرالد تيمبلر الى عمان في محاولة لاوتناع الملك حسين للانضمام الى « حلف بغداد » . الا أن صيغة واحدة من اذاعة القاهرة (مع تشجيع مباشر من أركان القيادة المصرية على أعمال العنف) كانت كافية لاثارة الشعب في أنحاء المملكة الاردنية ، واستقاط الوزارة القائمة يومها . وبعد أشهر ، قام الفدائيون الفلسطينيون ، المدربون على أيدي المصريين ، بشن الغارات على الاراضي الاسرائيلية من قواعد اردنية ، مما أوقع نظام الملك حسين في مأزق جديدة نتيجة العمليات العسكرية التي قامت بها اسرائيل انتقاما لغسارات الفدائيين . وعندما علم الملك حسين بأهداف ناصر ، بادى الى الاعلان عن عدم نيته الانضمام « لحلف بغداد » ، واتخذ موقفا فيه أكثر تعاونا مع ناصر . وأعلن بعد شهرين اقالة الجنرال جون باجوت غلوب - القائد البريطاني الذي كان يشغل منصب رئيس أركان حرب الجيش الاردني - واستبدله باللواء أمسي نوار (١) ذي الميول الناصرية . وفي حزيران (يونيو) أعلن الملك حل البرلمان .

(١) يشغل اللواء أبو نوار الان منصب مستشار الملك للشؤون العسكرية في عمان (تدور) يوليو -

(العرب)

١٩٧٠)

وفي تشرين الاول (أكتوبر) جرت انتخابات واسفرت عن نجاح المرشحين
الموالين لناصر بصورة لم يسبق لها مثيل .

ولا يزال المسؤولون المصريون يصرّون الى يومنا هذا على عدم قيامهم
بارسال أي من عناصرهم المختصة بأعمال العنف واثارة الشغب الى الاردن خلال
هذه الفترة . واذا صح هذا - وليس ذلك ببعيد - فان مالجة ناصر لهذا
« الخارجي » بالذات كانت من طراز ناجح . فلقد كان « المتعصبون » لناصر من
اشد العناصر الفلسطينية اللاجئة عنادا وتشبثا . في حين كان بعض ضباط
الجيش الاردني وبعض السياسيين والانتهازيين يشكلون مجموعة ناصرية « غير
متعصبة » . وقد اتبع ناصر طرقا عدة ، وغير مباشرة ، للوصول اليها والتقرب
منها . ومن هذه الطرق ما يلي : حضر اللواء أبو نوار بدافع ذاتي الى القاهرة
حتى يقف على حقيقة التأييد العالمي الذي باستطاعة ناصر تأمينه حال نجاح
الانقلاب الذي يزعم القيام به . وكان أبو نوار يأمل في الحصول على مساعدة
تختلف عن تلك المساعدة التي قدمتها دول حلف الاطلسي الى الثوار المجريين عام
١٩٥٦ ، بعدما دفعتهم الى الثورة وحرضتهم عليها . وكان يصر على نوع من
المساعدة أكثر جدية واثقل وزنا (١) . وأوصت القاهرة ابا نوار أن يخبر
سليمان النابلسي الذي كان على رأس الوزارة الاردنية يومها (حزيران ، يونيو ،
١٩٥٦) أن اذاعة القاهرة ستبشر ابراز اخباره للعالم العربي لتجعل منه بطلا .
واكمل ناصر حلقة مناووراته عندما أقفلح في اقناع الملك سعود (وكان بينه وبين
الملك الهاشميين سباق منذ القديم) بتقديم المساعدات المالية للعناصر المناوئة
للملك حسين (والمالية يومها لناصر) .

وتكللت الخطة بالنجاح عندما أذعن الملك حسين للضغط الذي مارسه
عليه كل من اللاجئين الفلسطينيين ، والإسرائيليين (عن طريق العمليات
العسكرية) ، ونظام الملك سعود ، واذاعة القاهرة . وغادر بعدها الملك عمانو الى
القاهرة ليلتقي بناصر ، وبالملك سعود ، وبصبري العسلي رئيس الوزراء السوري ،
بقصد التوصل الى اتفاقية دفاع مشتركة ، ولايجاد وضع يسهل الاستغناء عن
المساعدة المالية البريطانية - الامريكية ، وبالتالي يمكنه البقاء خارج حلف بغداد

(١) لربما كان ابو نوار يريد مساعدة كملك التي قدمت لليمن بعد الثورة عام ١٩٦٢ ، (المغرب) .

بكل ارتياح وطبائنية . وهكذا تم انضمام الملك الى « جمعية » ناصر ، وعدا معا
في الصف حتى حين .

وبنفس الوقت ، كانت الحكومة السورية تبذل المستحيل لتفكيك
« جمعية » ناصر وافسادها ، ولكن بطريقة شيقة وجديدة . ففي الوقت الذي
كانت سوريا تساند ناصرا في كل مواقفه ضد الغرب ، وترفض الخروج عنه ،
كانت تحاول جاهدة أن تلمب دورا خاصا بها وبمعزل عنه في علاقاتها مع
الاتحاد السوفييتي . فناصر لا يريد أن يكسب تأييد السوريين له فقط في
مواقفه مع الغرب ، بل كان يريد تأييدهم له في كل المواقف ، وضد جميع
الاطراف . فترتيب ناصر لقوى « جمعياته » يتطلب وقوف العرب جبهة واحدة
في ميدان الصراع ضد كل الاطراف ، حتى تنجح لعبة « الوقوف على الحبلين »
في آن واحد .

وفي عام ١٩٥٤ قام كل من الحزب العربي الاشتراكي (أكرم الحوراني)
وحزب البعث العربي (ميشيل عفلق) (وكلاهما حزبان سياسيان ذوا عقائد
مقاربة) بالاندماج في حزب واحد تحت اسم «حزب البعث العربي الاشتراكي» .
ومع أن هذا الحزب ليس حزبا شيوعيا ، فان آراءه وأحقاداه (ضد الغرب) جعلت
منه مرتعا خصبا لنموالشيوعية في سوريا . وعنسلط برز حزب البعث في
انتخابات عام ١٩٥٤ حصل يومها الشيوعيون على مقعد في المجلس النيابي وفاز
به خالد بكداش ، زعيم الحزب الشيوعي السوري منذ منتصف الاربعينات
(وكان قد فر من البلاد اثر ملاحقة حسني الزعيم له) . ولم يحاول خالد
بكداش يومها أن يظهر حقيقة شعاراته ، بل حورها لتظهر منسجمة تماما مع
شعارات بقية الزعماء السياسيين السوريين من البعثيين وغيرهم ، وهذا ما جعله
يبدو « شعبيا » بل وأظهره بمظهر « الطاهر الشريف !! » (١) . ولقد أخبرني

(١) هذا رأي المؤلف الامريكي ، فامريسا في تاييش سلمي مع الاتحاد السوفييتي منذ زمن
خروفوف .
(العرب)

خاله بكداش مرة عن بعض تلك الشعارات فقال : « اننا كلنا في سورية ضد اهداف واحدة . فنحن ضد الامبريالية وضد الاتراك مقتصبي لواء الاسكندرون ، وضد الصهيونية (١) ، وضد الهاشميين (الملك فيصل الثاني في العراق والملك حسين في الاردن) » . الا أن أثر دفاع الشيوعيين عن سموهم العقائدي وميزاتهم الفكرية (كما أخبرني أحد الدبلوماسيين الامريكيين في سوريا) ، لا يعدو ذلك لآثر الذي تحدته المومسات وبنات الهوى عندما يتكلمن عن الفضيلة ويناضلن لاجلها .

وفي الفترة التي أعلن فيها « مبدأ ايزنهاور » كانت السياسة السورية تلعب هي الاخرى على حبلين في آن واحد . ففي الوقت الذي كانت سوريا تمنح ناصرا تأييدها التام في موقفه ضد الغرب ، كانت نزعتها الاستقلالية عن خط القاهرة تتزايد فيما يختص بالملاقات مع السوفييت . فقد باتت سوريا تعاكس مبدأ الطاعة الكاملة لناصر ، والالتزام التام « بجمعيته » . وخرج ناصر عن طوره ونارت تأثيرته عندما أعلن السوفييت رسميا ، في منتصف عام ١٩٥٥ ، تأييدهم المطلق لسوريا في حال تعرضها لاي اعتداء تقوم به الاطراف الموقعة على حلف بغداد . وعندما أعلن مولوتوف ، وزير الخارجية السوفييتية ، في آذار (مارس) ١٩٥٥ ، عن مساندة حكومته لمواقف سوريا ، واستعدادها لتقديم المساعدة للسوريين في أي شكل كان ، قامت اذاعة القاهرة والصحف المصرية بشن حملة على السوفييت لا تقل قسوة وشراسة عن تلك الحملات التي كانت تشنها على الدول المشتركة بحلف بغداد نفسه . وهكذا ، فقد غدت « لعبة الامم » في الشرق الاوسط عام ١٩٥٥ مزيجا غريبا من المثلثات : المصريون يزجون بالامريكيين وبالروس في منافسة حادة ، يحاول كل طرف فيها كسب ودّ ناصر وضمائم جانبه ، والامريكيون يثيرون ناصرا (ومن معه من العرب الناصريين والتقدميين) والمحافظين من العرب (ومعهم معارضي ناصر) ضد بعضهم البعض في آن واحد . كما كان الروس يحاولون اثارة السوريين ضد المصريين ، ويحاول السوريون اثارة المصريين ضد السوفييت . ولم تكن تلك المناورات لتخدم

(١) الا اذا ارادت موسكو غير هذا ، فاهداف الشيوعيين العرب لا تحصل عداء للاسرائيليين

الاطراف المشتركة فيهما الا قليلا . الا أن المصريين كان لهم هدف بعيد بل واستراتيجي في اتباعهم لمثل تلك الاساليب وفي اذكاء نارها : فقد كانت تشكل احدى الوسائل الهامة التي تضمن لناصر الاستمرار في تنفيذ مخططاته وتكفل له جني الفوائد وكسب المنافع .

وشهد عام ١٩٥٦ توطدا زائدا في العلاقات السورية - الروسية الى الحد الذي بات معه رتق الصدع في الجبهة الموحدة تجاه السوفييت ، امرا غير بسيط . بل ان هذه المشكلة لم تسد أقل صعوبة عن المشكلة التي اثارها « الخوارج » أمثال نوري وحسين بسبب طريقة تعاملهم مع الغرب . وعندما عاد الملك حسين الى صف ناصر وانضموى تحت لوائه ، اوضحت مشكلة قوة العلاقات السورية - الروسية أكثر صعوبة وأتمس حظا . الا أن ناصر اعزم على أن يجد للامر مخرجا - وفطن الى قواعد « لعبة الامم » التي كان قد سنها لنفسه ، فوجد فيها اليأس الشافي . فقد لبأ الى التشاور مع اصدقائه الامريكيين واستنفرهم للتعاون معه بغية سد الثغرة التي ظهرت في « جبهته ضد الشرق » . وفي الوقت نفسه استحثت هيئة الروس المتعاون معه في تقوية جبهته ضد الغرب ، والتي باتت مهلهلة ممزقة . وبالنسبة لنا - نحن الامريكيين - فقد كنا (حسب قواعدنا في « لعبة الامم ») في موقف مساعد لتبادل الآراء مع ناصر بخصوص الوضع في سوريا . ولم يكن هذا ليؤثر على جهودنا المستمرة لضعاف سيطرة ناصر ، والتخفيف من ضغطه ، على الدول العربية الاخرى . ومما يذكر في هذا المقام ، أن ناصر لم يخاطر بمكاشفتنا باحتمالية القيام بعمل مشترك ضد سوريا ، وانما اکتفى بشرح الوضع كليا لنا مع تبيان جميع مسارته ومخاطره . كما أظهر لنا الى أي مدى يقوم السوفييت باستغلال الوضع هناك لصالحهم . ولم يكن هدف ناصر من هذا كله سوى اقناعنا بالامتناع عن القيام بأية محاولة انقلاب عسكري في سوريا . فقد كان ناصر يشك بإمكانية نجاح أي انقلاب عسكري يومها في سوريا ، ورأى أن فشل أية محاولة كهذه سيزيد الحالة سوءا وسيضعها على شفير الهاوية . الا أن اصدقاء ناصر من الامريكيين أعطوه تأكيدات قاطعة أنهم لا يزمعون أبدا على التدخل بالشؤون السورية لانهم لم ينسوا بعد احتراق اصابعهم عندما فعلوا ذلك في أيام حسني الزعيم (١) . ونقل الامريكيون الى ناصر اخبارا

(١) يفضل الامريكيون أن لا يتدخلوا في الشؤون السورية ، الا عندما تتوفر فيها شروطهم المذكورة

(الحرب)

سابقا في نهاية الفصل الثاني من هذا الكتاب .

موثوقة (مصدرها أحد أفراد المخابرات السوفيتية) تفيد أن نية الروس ، دفع حكومة موالية لهم الى السلطة أولا ، ثم قيام هذه الحكومة بافتعال الحوادث، وتصعيد الأزمة ، الى الحد الذي تجد هذه الحكومة - الموالية لهم - نفسها مضطرة الى استدعائهم بغية اعادة الهدوء وحفظ النظام . وتشبه هذه العملية ، الى حد كبير ، تلك التي افتعلتها حكومة الولايات المتحدة في لبنان حقا قبل عدة سنوات .

وعم أن ناصرا قد صدق ما نقلناه له من أخبار حول نيات السونييت في سوريا ، فقد ظلت الشكوك تساوره حول نيائنا (بخصوص سوريا) . وكان سبب ذلك كثرة الوافدين من واشنطن الى المنطقة والعائدين منها . فقد قام لوي هندرسون (وكان يومها أحد نواب وزير الخارجية ، وكان قبلها سفيرنا في ايران أثناء أزمة الدكتور مصدق) بزيارة ملفنة للانظار الى أنقره . وقد حضر هناك أحد اجتماعات حلف بغداد وقام بعدها بزيارة بيروت سرا حيث التقى ببعض أصدقائه من السوريين لقاءات عابرة ودون أية صبغة رسمية لها . وبعد ذلك ألقى الوزير دالسبيانا عبر فيه عن قلقه حيال الاوضاع في سوريا . كما حذر الرئيس ايزنهاور من اعتداءات تقوم بها سوريا - بعد أن أمست تحت التأثير الشيوعي - ضد جارائها . الا أن تصريح الرئيس بدا سخيفا لدى مقارنته بحقيقة القوة العسكرية السورية المحدودة . وكان هذا ما دعا ناصرا لاعتبار التصريح نوعا من المقدمات لمخططات تطبخ وراء الكواليس . وجرت ، بنفس الوقت ، تحركات عسكرية على الحدود السورية التركية ، وارتد العراقيون والاردنيون الى سابق عهدهم ، فقاموا ببعض الاستعدادات العسكرية المكشوفة . وفي خضم كل هذه الاحداث المعقدة ، قام كيرميت روزفلت بصحبة ابن عمه آركي بزيارة الى بيروت ، ودعا عددا من كبار السوريين والعراقيين والاردنيين والسعوديين الى حفلة استقبال اثارث قلق عبد الحميد غالب ، السفير المصري في بيروت ، الذي أسرع فأبرق الى القاهرة قائلا : « . . . وبالتأكيد ، فان الامريكيين يدبرون أمرا ما ، وهم يتصرفون علنا على غير عادتهم ، ودون أي اكرتاب بالميون الساهرة حولهم » . وعندما التقيت صدفة بالسفير غالب في بهو فندق سان جورج ، التفت الي سائلا بخبت ودهاء : « هل ستعرضون تذاكر للبيع مجتمعا يحين موعد انقلابكم ؟! » .

لم يكن رد فعل ناصر الأولي ، تجاه هذا كله ، سوى صنع اللامبالاة ، وعدم محاولة التشويش على الأمريكيين . فهو يدرك تماما أن أي فشل للمحاولات الأمريكية المزعومة ، لن يتمخض الا عن مضاعفات سيئة تجعل النوع الوحيد من العمليات ، التي لا يجيد القيام بسواها ، صعب التحضير مستحيل التنفيذ . وعلاوة على ذلك ، فإن فرصة السوفييت في التدخل ستكون أوفر حظا ، وسيجنون الارباح لوحدهم دون تطفل انستان أو تدخل شريك . فناصر يتصف بطريقة تفكير تميل الى قبول الامور على علاقتها ، ودون تحر لبواطنها . ومع أن لناصر في حاشيته ، كثيرا من دبلوماسيي ما وراء الكواليس الأمريكيين (أمثال كيرميت وآركي روزفلت) ممن يمكنهم تبديد مخاوفه منا وشكوكه حول نياتنا ، الا أنه أصر على الاستدلال - من المعلومات الركيكة التي تجمعت لديه - بأننا ماضون في تنفيذ عملية أمريكية خرقاء ، قد انفضح معظمها ولم تعد سرا مكتوما . كما أن سفيرنا في القاهرة ، ريموند هير ، الذي حل محل بايرود ، قد أكد لناصر أنه في الوقت الذي ينتاب الأمريكيين قلق شديد حول الاوضاع في سوريا ، فإنه لا صحة أبدا للانباء القائلة انهم يدبرون أية مؤامرة ضد النظام فيها . ولقد أخبرت ناصرا شخصا بنفس الشيء عندما قمت بزيارة الى القاهرة بناء على طلب من المدير الاقليمي لوكالة المخابرات المركزية في بيروت ، وذلك بقصد تخفيف حدة شكوك ناصر ، وتبديد الفموض المحيط بحقيقة موقفنا من الاحداث في سوريا . كما طلب مني الاخير أن ألفت نظر ناصر الى ضرورة توجيهه جل اهتمامه الى المؤامرات التي يحيكها الروس في سوريا بدل توجيهه الى المؤامرة الأمريكية المزعومة . ولم تذهب أخيرا جهودنا سدى . فقد بدا على ناصر أنه ارتاح لكلامنا واطمان لتأكيداتنا ، كما تبين أن الامور بدأت تسير كما نحب ونشتهي .

ولم يكن تشوقنا ، رسميا ، لرؤية سوريا مستقلة عن « جمعية » ناصر بقليل . وكان انطباعي يومها أن الفرصة قد سنحت لناصر ليدخل معنا في مساومة حول الوضع في سوريا ، بعدما انتابنا قلق شديد من اوضاع الروس هناك . وبالتأكيد ، فقد كنا نعتقد أن كل ما سيطرحة أمامنا على طاولة المساومات سيكون لصالح العالم العربي - على غرار تكتل دول الحياد الايجابي - الذي بدأت الاوضاع تتضح فيه وتتلور . فلقد أصبح نوري السعيد في موقف صعب ومكشوف كليا . كما كان الملك حسين يتظاهر بالالتحاق بركب ناصر دون أن

يشمر بالارتياح والاستقرار الذي تصور أن الانضمام « لجمعية » ناصر سوف
يضمنها له . واما الملك سعود ، فانك لا تلمس خلافا في سلوكه بين فترات
صداقته معنا وفترات صداقته مع ناصر نفسه . كما أن الاوضاع في لبنان لم
تكن حسنة ، وبقيت مناصفة بين المسيحيين والمسلمين ، وأضحى على وشك
الانفجار حال اختلال التوازن بين القوى فيه . ولقد شاركنا ناصر رأينا في أن
الحالة في العالم العربي بلغت حدا يزعج لها . كما أن مؤتمرات السوفييت هناك
قد ازدادت بصورة لم يسبق لها مثيل ، وعزموا على ألا يخرجوا منها الا بصيد
ثمين . وهكذا اترعرعت فكرة التقارب بيننا وبين ناصر ، وبدا أن كلا الطرفين
يتوقان للوصول الى اتفاق يزيل القلق ويفرّج الهموم ، ويضع « ما تساومنا
عليه » موضع التنفيذ .

ولا أدري للآن من الذي نسف الجسور ، وزرع الألغام في الطريق . ولا
أدري كذلك أن أحدا يدري من الذي نسف فرصة تنفيذ تلك الصفقة التي كانت
بيننا وبين ناصر . الا أنني لا أستبعد أن يكون ذلك هو حادثة اللواء أبي نوار
ذاتها ، والتي وقعت في الاردن . فلقد تصور أبو نوار ، رئيس أركان الجيش
الاردني ، أن بوسعه تنفيذ مؤامرة انقلاب ضد الملك حسين ، وأنه واثق من نجاحه
دون مساعدة أي انسان آخر له . ولقد اغرى المصريون أنفسهم أبا نوار بهذا ،
الا أن مجيء سليمان النابلسي الى رئاسة الوزارة الاردنية قد أحال هذه الحركة
الى خطوة غير ضرورية في مخططات ناصر . ومهما كان ، فقد أمر أبو نوار على
القيام بانقلابه ، وحاول ذلك ، ولكن كانت النتيجة أنه قد نال الجائزة الاولى
لتخطيطه أخرق وأسخف انقلاب عرف في التاريخ الحديث . وبقيت الجائزة
الاولى في حوزة أبي نوار حتى عام ١٩٦٨ ، عندما قام الملك قسطنطين بمحاولة
للاطاحة بالحكومة العسكرية في اليونان ، فاستخلصها منه ، وسافر الى روما
حيث انتحى بها مكانا قصيا . وبمجهود بسيط ، نجح الملك حسين في إعادة
تنظيم جيشه بصورة يضمن ولاءه ثانية . وأعلن الاحكام العرفية ، ورفض
بلهفة وتشوق شديدين مترصدا ردود فعل السوريين ضده . الا أنهم لم يحركوا
ساكنا . وقامت حكومة الولايات المتحدة الامريكية بتحريك الاسطول السادس
الى ميناء بيروت ، وبذلك وضعت علاقاتها مع سوريا في نفس الموضع الذي تلتذ
السوفييت بطعمه قبل شهر من الزمن . وفي غمرة الاحداث ، أعلن الملك سعود

تأييده التام لسوريا ، ومساندته لها ضد أي اعتداء يقع عليها - وكان يعني اعتداءه امريكيا . وكم بودي أن أذكر الاسباب التي دفعت به الى اعطائه هذا التصريح ، الا أنني لا املك حرية افشاء مثل هذه الاسرار ، وأتركها للقارىء عسى أن يكتشفها بنفسه ان كان ملما بأذواق الملك وظروفه . ورفعت يومها كل من المخابرات الامريكية والبريطانية تقارير مطمئنة لنوري السعيد ، تفيد أن حالة القلق والاضطراب ضده آخذة بالانحسار الى حد يمكنه السيطرة عليها . وأما الرئيس شمعون ، وهو من أعداء ناصر ، فقد اتخذ كافة الاجراءات التي وضعت كافة النشاطات الناصرية والشيوعية في لبنان تحت سيطرته . كما حرم على أعداء حسين ونوري وغيرهم من « الخوارج » استخدام بيروت كمركز لمؤامراتهم .

وبقي هناك عضو واحد ، من أعضاء « جمعية » ناصر ، لم يظهر احتراما كافيا لرئيس « الجمعية » ، بل وكان لا يتأخر عن انتهاز الفرص للتلاعب عليه تحت ظل حمايته له . وكان ناصر لذلك الوقت يعتبر أن « جمعيته » لا تزال ركنا رئيسيا من أركان استراتيجيته . وشعر أن الوقت قد حان لاستمرار زحفه على العالم العربي بغية صياغته بالشكل الذي يريده له . فقد تازم الوضع في سوريا ، وأصبح ينذر بالخطر ، وما كان لناصر أن يتركها هكذا وهي قلب القضية العربية النابض . فقد وجد لزاما عليه أن يخرج عن احدى القواعد التي رسمها لنفسه سابقا ، والتي كانت تقول : « خذ بنواصي السلطة ومقاليد الأمور كلما سنحت الفرصة لك . ولكن اياك ، ثم اياك ، أن تضطلع بالمسؤوليات ، وفرّ منها فرارك من المجدوم » . وهكذا قرر ناصر أخيرا أن يبدأ ببسط نفوذه على السياسة الخارجية لسوريا ، ثم ينتهي عن طريقها الى السيطرة على سياستها الداخلية (والتي تنبثق السياسة الخارجية منها حقا) مجازفا بتحمل المسؤوليات ، والاضطلاع بكافة أعباء الادارة ، ومتاعب الحكم التي سوف لن تريحه أبدا (١) . وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٥٨ وافق ناصر على اتحاد سوريا ومصر في دولة واحدة أطلق عليها اسم الجمهورية العربية المتحدة . وهكذا أضحي ناصر رئيس جمهورية للاقليم المصري ، ولاقليم آخر لم تطلأ قدمه نراه بعد .

(١) لا مانع من اعتقاد القارىء أن الوحدة السورية المصرية (١٩٥٨) لم تكن فورية . (المغرب) .

ولو كنت معلقا على هذه الحادثة التاريخية (والمضحكة - المبكية) في سياق لعبتنا مع ناصر لما ترددت في إعادة كلام « مالكولم كير » في كتابه « الحرب الباردة بين العرب ١٩٥٨ - ١٩٦٤ » . ولهذا فإني أحض القاريء على الرجوع لذلك المؤلف الثمين ليقف بنفسه على تفاصيل الامور ودقائقها . وكل ما أود اضافته هنا هو أنه بفض النظر عن الزاوية التي ينظر منها الانسان الى خفايا هذه الخبرة المزجة لكل الاطراف والى ظواهرها ، فإن درسا واحدا قد تعلمه ناصر منها الا وهو :

« عليك بتركيز اهتمامك على استثارة عواطف طبقات عامة الشعب التي سوف تمارس ضغطا على الزعماء لكي لا يتجرأوا على عقد صفقات مع الدول الكبرى وهم منفردون . وعليك أن تفعل ذلك عن طريق اذاعة القاهرة أو أية وسيلة أخرى متوفرة ، ولكن اياك أن يكون ذلك عن طريق اتصالات شخصية بين المسؤولين المصريين وشعوب الدول التي هي ضمن أهدافك . واذا تمكنت من القاء مسؤولية ذلك على انصارك من «المتمصين» في تلك البلاد ، فاياك أن تتأخر لحظة واحدة في فعل هذا . تبناهم ، واعطف عليهم ، فانهم خير ظهير لك . وعليهم فاعتمد فانهم اصلح ما يخدم مثل تلك الأهداف » .

عندما تعرّت لشخصيات في لبنان عام ١٩٥٨

... ولن تسلخ من خصومهم الالاء ، حتى تقامر في حرب ضروس ضدهم .

ان القاء نظرة شاملة على التقارير الرسمية الامريكية حول ما بدا ، في اوائل عام ١٩٥٧ ، على أنه ذروة « لعبة الصدام » بيننا وبين ناصر تظهر اننا قد بدأنا نفهم سياسته بصورة أكثر عمقا وأوسع شمولاً . كما أنها تظهر ، في نفس الوقت ، أن حدة عدائنا معه بدأت تخف وتلين . فلم تظهر وزارة الخارجية الامريكية أي تحمس « لمبدأ ايزنهاور » فيما عدا الوزير دالس نفسه ، واثنين من الموظفين العاملين معه مباشرة . كما أنه لم تعترينا الدهشة حيال ردود فعل ناصر العنيفة ضد « مبدأ ايزنهاور » . وعندما بدأ ناصر بشن حملات دعائية مركزة على « الخوارج » الذين قبلوا بمبدأ ايزنهاور (ومنهم الرئيس اللبناني شمعون ورئيس الوزراء العراقي نوري السعيد) لم نصب بأية خيبة أمل ، لاننا لم نكن في وزارة الخارجية نتوقع غير ذلك . ولا أزال أذكر احدى الجمل التي وردت في أحد تقارير سفير لنا في احدى عواصم الشرق الاوسط ، وفيها يقول : « ليس من السهل توجيه أي لوم لناصر لاتباعه وسائل ثبت عنده جدواها » . وعندما استلم أحد الموظفين ذلك التقرير أضاف جملة أخرى على هامشه جاء فيها : « انه معيب جدا أن نتبع لناصر مثل هذه الفرصة » . وهكذا فقد طغت على وزارة الخارجية موجة من النقد الذاتي ، أثارها سلبيتنا تجاه تصرفات ناصر . الا أن معظم المسؤولين الامريكيين المعنيين بسياستنا في الشرق الاوسط ، بدأوا يميلون الى الاعتقاد أن مجاراة ناصر في سياسته قد تصبح أمراً محتوماً ، فقد أضحي « موضحة » المستقبل .

ولم ينفرد مسؤولو وزارة الخارجية بوجهة نظرهم المعتدلة تجاه ناصر ، بل شاركهم في هذا مسؤولو وكالة المخابرات المركزية الذين يتصفون برزانة

اكثر وادراك اعمق . وكانت اولى تحركات ناصر ضد « الخوارج » قيامه بهجوم معاكس ضد محاولة الامريكين تشتيت شمل « جمعياته » ، وذلك بتشجيعه قيام « الجبهة الوطنية المتحدة » في لبنان . فقد كانت هذه الجبهة عبارة عن ائتلاف بين مسلمين و مسيحيين ، جمعهم خلافهم مع شمعون في جبهة واحدة ضده . وكانت هذه الجبهة ترى ضرورة انضمام لبنان في مشاكل الامة العربية (١) الى حد اكثر من ذلك الذي اراده شمعون له . (كان الرئيس شمعون يحدد يومها انطواء لبنان على نفسه وانزاله عن العالم العربي .) وقام فريق ماهر من رجال وكالة المخابرات المركزية في بيروت بتوجيه الحملة المضادة لمعاكسات ناصر . وكان اول ما فعلوه هو تركهم لاجبار « الجبهة » تتسرب عمدا بقصد الايقاع بين السياسيين اللبنانيين ، وتنفيذهم منها ، وبالتالي كسب جانبهم لصالح الرئيس شمعون . وبعدها قامت سفارتنا في بيروت (وليست وكالة المخابرات) بتقديم مساعدات متواضعة لبعض الحملات الانتخابية للمرشحين الموالين للغرب (في انتخابات حزيران ١٩٥٧) . وقد اطلقت عليها صفة « التواضع » لانها لم تزد عن قيمة تلك المساعدات التي دفعتها السفارات الفرنسية والبريطانية والسوفييتية والمصرية للمرشحين الموالين لها . واستفلت المخابرات المصرية العامة ما تمكنت من جمعه من معلومات حول مساعدات السفارة الامريكية هذه، وحورتها الى ادلة مقنعة على تدخل وكالة المخابرات الامريكية في الانتخابات وتلاعبها بها . ومهما كان ، فان اللعبة ، بحد ذاتها ، كانت طريفة وعادلة للطرفين معا ، وفي آن واحد . فعالبا ما يسود اوساط أجهزة المخابرات الضخمة ، رغم الاختلاف بين دولها ، نزعة احترام متبادلة . وتمزى هذه النزعة الى احترافهم مهنة واحدة . كما يحدث أحيانا أن تنشأ علاقات متبادلة ورسمية بين فروعها ، الا أن هذا نادر الوقوع وخاصة بين أجهزة المخابرات التابعة لدول متعادلة . وفي بيروت ، فقد كانت العلاقات السائدة بين رؤساء أجهزة المخابرات العديدة وثيقة بشكل غريب وشبيهة بتلك العلاقات التي كانت متوطدة بينهم في « طنجة » (١) أثناء الحرب العالمية الثانية . وكانت العلاقات بين رئيس فرع وكالة المخابرات

(١) هذا لو أن الغازي يتحقق من حقيقة هذه المبارات بنفسه وذلك بعد مضي اكثر من عشر

(المغرب)

سنوات على هذه الحادثة .

(المغرب)

(١) مدينة مفتوحة عالميا في شمال افريقيا .

المركزية الامريكية ، وبين رئيس فرع المخابرات العامة المصرية في بيروت ، ودّية
اجتماعية ، ولم تفلح الخلافات المهنية القاسية في التأثير عليها الا قليلا . وقد
بدا هذا جليا ، عندما اثار الادلة التي جمعتها وكالة المخابرات المركزية
الامريكية ، حول حقيقة التأييد المصري للجبهة الوطنية المتحدة ، والادلة التي
حصلت عليها المخابرات العامة المصرية حول تلاعب الامريكيين بالانتخابات ، نوعا
من الاعجاب المتبادل ، بدل أن تكون منارا للعداوة والبغضاء .

وفاز المرشحون الموالون للغرب ، والمناوئون للمصريين ، بالاكثرية في
المجلس . الا أن اخبارا كهذه لم تكن لتشكّل موضوعا مناسباً للتسليّة والمسامرة
بعد وليمة أو لقاء عابر بين الامريكيين والمصريين . وفي أواخر عام ١٩٥٧ بدأ
النشاط المصري الهدام في لبنان باندفاع وقوة . وبدا لكل المتبصّمين للاحداث
في بيروت ، أو للمستمعين الى اذاعة صوت العرب من القاهرة ، أن ناصرا سيبدل
المستحيل لاسقاط شمعون والاطاحة به . وعندما قمت بزيارة للقاهرة في آب
(أغسطس) ١٩٥٧ ، أسرّ الي بعض أصدقائي من المصريين بتنبؤاتهم عن سقوط
كل من شمعون وحسين ونوري السعيد (بل وأصروا على هذا التسلسل) .
ولكن توقعهم لوقوع الاحداث بهذا التسلسل قد أخطأ ، ولم يتحقق سوى ثلثي
ها قد تنبأوا به ، مع أنهم بذلوا كل ما في وسعهم لتحقيقه . الا انه فاتهم أن
سقوط أولئك الزعماء سوف يزيد من حدة الصراع بين المخابرات الامريكية
والمصرية ، وسيرفع من مستواه الى الحد الذي يصعب على المصريين معه مجاراة
الامريكيين ومناقشتهم (١) .

لم يمر المصريون (والى حد ما وزارة الخارجية الامريكية) لبنان الاممية
الكافية وذلك بعدما اضحى بلدا حيويا للمصالح التجارية الغربية . وكان الامام
بشؤون العالم العربي قبل الخمسينات وقفا على الارشاليات التشيرية ، وعلماء
الآثار ، والمستشرقين ، والمدرسين الاجانب ، وغيرهم من هواة هذا الجزء من
العالم . وكانت الجامعة الامريكية في بيروت ، ومثيلاتها في اسطنبول (روبرت
كولدج) وفي القاهرة (الجامعة الامريكية) تمارس التأثير المباشر والرئيسي

(١) يذكر المغرب أن هذا ما حدث بعد ثورة العراق ١٩٥٨ عندما دخل عبدالكريم قاسم في نزاع
مشابه مع ناصر .

على المنطقة فيما يختص بالمصالح الامريكه (١) ، وعلى الحكومة الامريكية فيما يختص بمشاكل الشرق الاوسط . وفي خلال الخمسينات ، حطت شركات البترول الضخمة رحالها في الشرق الاوسط وتدفق بعدها سيل عرم من بائعي المعدات الهندسية ، ومن المستثمرين الذين أغرتهم الآفاق الجديدة التي فتحتها لهم النمو المطرد للجاليات الامريكية (مثل أسر موظفي شركات البترول) . ثم انضم اليهم وكلاء الشركات الامريكية للبضائع الاستهلاكية . وعندما بدأ ضخ النفط على مقياس واسع ، ظهرت طبقة الاغنياء من العرب الكويتيين والسعوديين الذين وظفوا أموالا طائلة في لبنان ، مما أدى الى ازدهار اقتصادي سريع في المدن ، وجذب المزيد من المستثمرين ووكلاء الشركات الى المنطقة مع عائلاتهم التي ساهمت في تضخيم حجم الجاليات الاوروبية والامريكية ، وتوسيع مجال الاعمال التجارية فيها . وفي منتصف الخمسينات أمست مصالحننا التجارية في المنطقة ضخمة ومنتشرة ، وعلى خلاف ما كانت عليه في الاربعينات . وعلى غرار المركز العالمي للأعمال التجارية في مدينة نيويورك ، فقد أضحت بيروت المركز التجاري للعالم العربي .

وبرز الوجود التجاري الامريكي في المنطقة بصورة جلية واضحة خلال أزمة قناة السويس عام ١٩٥٦ . فقد قامت يومها الحكومة الامريكية بتشكيل عدة لجان من كبار رجال الاعمال بغية اسداء النصح لها بخصوص الشرق الاوسط ، وكانت غالبية أعضاء هذه اللجان من مدراء شركات البترول . وهكذا أصبح لأروقة شركات البترول تأثيرا مباشرا على سياسة الحكومة الخارجية بعدما بقيت سيطرة ملوك المال بعيدة عن أجواء واشنطن طوال عهدي الرئيسين روزفلت وترومان . ومع أن حماس شركات البترول قد فتر بعدما وجهت وزارة العدل انذارا لاحدى تلك اللجان بتهمة محاولة تشكيل كتل احتكاري (تروست) (مع أن اللجان قد شكلت بناء على طلب من وزارة الخارجية) ، الا أن تأثيرهم على سياستنا في الشرق الاوسط قد استمر بقوة وجراءة . وعندما بدأت الازمة اللبنانية تلوح في الافق عام ١٩٥٨ ، كان تأثيرهم قد بلغ الذروة ، وصار عاملا رئيسيا لا يمكن اغفاله البتة .

(١) ومن مآثر هذه الجامعة (وكان اسمها سابقا الكلية الانجيلية السورية) ان غالبية رجال السياسة في العالم العربي من خريجيهها .
(العرب)

والتقت :لصحف الشيوعية مع غيرها من الصحف المعادية للغرب على اتهام موظفي شركات البترول الامريكية بأنهم « مجانين سلطة ومال » ومجردون من الاخلاق والضمير ، ولا يأبهون لمصلحة الشعب أبدا ، كما اتهمتهم بعدم التحرج في اتباع أية وسيلة بغية الوصول الى أهدافهم ، كارشاه المرشحين للانتخابات ، وافساد الرسميين ، ومحاولة الاطاحة بالحكومات التي لا ترسخ لرغباتهم . وبفض النظر عن شهوات رجال المال وحرصهم الشديد على مصالحهم ، فان لديهم هيئات استشارية على كفاءة عالية ، وتضم نخبة من علماء الاقتصاد والاجتماع وعلم طبائع الانسان والعلوم السياسية ، الى جانب ألمع رجال القانون والمحاسبة . ولهذا فان رجال المال يدركون تماما أن استقرار الحكومات وازدهار المجتمعات ، عاملان مهمان (لأسباب عملية محضه) من عوامل استمرار وجودهم وازدياد أعمالهم . فلقد أنفقوا الملايين الطائلة من الدولارات على مشاريع أجمع النقاد على أنها كانت « لصالح الشعب » . كما أنهم كانوا يرفضون بقوة واصرار كل المحاولات الرامية الى اضعاف كيان الحكومات التي هم على وئام معها واتفاق . كما كانوا ضد مؤامرات أجهزة المخابرات (على اختلاف أنواعها) الرامية الى الاطاحة ببعض الحكومات ، ووقفوا ضد المواقف السلبية لرجال السفارات الامريكية (أو ضد تلكتهم في ممارسة الضغط المطلوب) . فقد كان رجال سفاراتنا غالبا ما يلتزمون بأحدى العبارات التي أطلقها مرة أحد سفرائنا وجاء فيها : « من الصعب أن نتجاوب كلية مع العرب ، ان هم أصروا على سلوكهم كعرب » .

وفي منتصف الخمسينات ، كان في بيروت جالية واسعة من الشرقيين الذين تأقلموا مع الغرب ، وأخذوا يشاطرون شركات البترول آراءهم ومواقفهم . وقد ضمت هذه الجالية الكثير من أصحاب البنوك ، ومقاولي الأبنية ، وأصحاب شركات الشحن وشركات استيراد مواد البناء وأجهزة آبار البترول وهيئات دراسية لشركات البضائع الاستهلاكية ، وعدد كبير من الشركات الاستشارية في مختلف النواحي التي تخص مسألة استقرار شركات البترول ، وتأقلمها مع المجتمعات التي هي فيها . وكانت نتيجة كل ذلك ، ظهور وجهة نظر جديدة تجاه طبيعة علاقات الغرب مع ناصر . ففي الوقت الذي كانت وزارة الخارجية الامريكية غير راغبة في ممارسة أي ضغط على ناصر وميالة الى المحافظة على علاقات هادئة معه ، فان الجالية التجارية بدأت تعاكس هذا الاتجاه معاكسة

شديدة وجلية • فقد أدرك المسؤولون أنه مهما كانت وجهات النظر تجاه ناصر ، فإن امتداد نفوذه أمر واقعي ، لا فائدة من اغفاله • ولكن أي الطريقتين أجدى في سلوكنا معه : طريق التفاهم والاتفاق ، أم طريق المقاومة والعداء ؟ لقد كان الغرب - وخاصة الامريكيون - يميلون الى سياسة التفاهم والاتفاق طوال المدة التي لم يكن لهم اثنائها أية مصالح تذكر في المنطقة • الا أنه في نهاية عام ١٩٥٧ ، وعندما أضحي للامريكيين مصالح اقتصادية وتجارية في المنطقة ، بدأ الاتجاه نحو سياسة المعاكسة والعداء يزداد قوة ووضوحا مع ازدياد النشاط المصري الهدام في لبنان (١) •

ومنذ ذلك الوقت بدأت الغيوم تتلبد في سماء المنطقة ، وأخذت تنسدر بعاصفة هوجاء على وشك الهبوب في أية لحظة وفي تلك الاثناء قدمت استقالتي من وزارة الخارجية في ايار (مايو) ١٩٥٧ ، وأسست أول مكتب لي « للعلاقات الحكومية » وتقديم النصح والمشورة الى شركة بترول وشركة طيران وبنك (وكان هذا في بيروت وفي حزيران (يونيو) ١٩٥٧) • وفي نفس الوقت تقريبا اقامت عدة شركات بترول رئيسية مكاتب عدة (على غرار مكنتي) لكي تبقى على صلة بالاحداث التي بدأت تتصاعد بفراية وتنفر بالسوء والخسار • وكان مكتب « العلاقات الحكومية » لشركة انايب التابلاين يضم خيرة الرجال امثال سانتي كامبل ، ودافيد دودج (ابن بافارد دودج الذي كان رئيسا سابقا للجامعة الامريكية في بيروت ، وأحد المتكلمين باللغة العربية بطلاقة تفوق طلاقة أي متكلم آخر في الجالية الغربية) • وفي تلك الاثناء ، بدأ هاري كيرن ، وسمير سوقي ، باصدار « التقرير الاجنبي » الذي كان من أوائل النشرات الدورية الخاصة كما كان ذا نفوذ كبير لدى شركات البترول المشتركة به (وكانت قيمة الاشتراك به فاحشة) • وبعد ذلك بقليل ، قام فؤاد ايتايم باصدار سلسلة جديدة أطلق عليها اسم « نظرات في اقتصاد الشرق الاوسط » • وتدفق بعده سيل من هذه النشرات والمجلات الدورية • وفي غضون سنوات أضحي عدد البنوك في بيروت

(١) يلاحظ القارىء ان هذا لم يؤثر على سياسة التفاهم حيال الوضع في سوريا (١٩٥٧ - ١٩٥٨) وهذا واضح في نهاية الفصل السابق • ولقد ابدت أمريكا تأييدا للوحدة السورية - المصرية بعد أن اخذت مصالحها تتسع في العالم العربي ووجدت في توطيد نفوذ ناصر في سوريا انقلبا لها من السوفييت •
(الحرب)

أكثر من عددها في نيويورك ، كما ارتفع عدد الصحف في بيروت حتى فلق
عددها في لندن . وفي منتصف عام ١٩٥٨ ، بلغ عدد النشرات الخاصة الدورية
في بيروت أكثر من عددها في كل من لندن وباريس ونيويورك مجتمعة . ومنذ
ذاك الوقت ، اوضحت « لعبة الأمم » المقتنعة بين الناصريين والقرب شبيهة بتلك
الحفلات الليلية التي تجري في حدائق الحيوانات الطبيعية في افريقيا حيث
تظن الحيوانات أنها في ليل دامس لا يراقبها فيه انسان . الا أنها في الحقيقة
تكون غارقة في بحر من أشعة ما تحت الحمراء (التي تجعل الاشياء منظورة في
الظلام) وأبصار المتفرجين محمقة فيها ، من خلف نظارات خاصة . وهذا ما
آلت اليه الحالة في لبنان . ففي أواخر ١٩٥٧ وأوائل ١٩٥٨ ، اقتنع المراقبون
(على خلاف المشاركين في الأحداث) أن الوضع بات يهدد بالانفجار بين عشية
وضحاها .

ولم تكن مراقبة الاحداث لتقتصر على السفير الامريكى في بيروت وحده
(وكان يومها دونالد هيث سفيراً حتى أواخر ١٩٥٧ ، ثم روبرت ماكلينتوك في
أوائل ١٩٥٨) ، بل كان يشاركه في هذا عدد من كبار المراقبين الرسميين وشبه
الرسميين (الذين كانت لهم صفة الاستقلال عن السفير ، أو كانت تربطهم به
مجرد علاقات شكلية) . وكان على رأس هؤلاء ويلبور (بيل) ايفلاندا ، الذي
أرسله البيت الابيض كمبعوث خاص ليبقى على اتصال وثيق بالرئيس شمعون
وليشرف على تنفيذ « مبدأ ايزنهاور » . وعلى حد قول أحد أصدقائي في وزارة
الخارجية الامريكية ، فقد كانت مهمة ايفلاندا المحافظة على التوازن تجاه السفير
ماكلينتوك . وأما مدير فرع وكالة المخابرات المركزية الامريكية فقد كان ، بصورة
استثنائية ، ذا رتبة عالية أتاحت له (الى جانب مركزه المرموق في واشنطن
وقربه من الأخوين جون وآلن داليس ، وكون مهمته في بيروت للتنسيق فقط)
فرصة الاستقلال فعلا عن السفير ماكلينتوك . وكانت لديه تعليمات أن يقتصر في
مهمته على التنسيق بين مصادر المعلومات وعدم الانغماس في عمليات سرية .
الا أن المدير الاقليمي (المقيم) لفرع وكالة المخابرات المركزية الامريكية في بيروت
تد اضطلع بمهمة استكمال عمل المدير السابق ، وخاصة في نواحي الاشراف
على العمليات السرية . ومع أن المدير الاقليمي (المقيم) لم يكن أمريكي الجنسية،
الا أن تمتعه بذكاء وافر وقدرة فائقة على الاقتناع ، أهله لأن يصبح ذا مكانة

مرموقة عند كل من المقيمين في بيروت (ومنهم طائفة رجال المخابرات) ومحلي المعلومات في واشنطن ، الذين كانوا يولون تقاريره وتوصياته أهمية لا تقل عن تلك التي كانوا يولونها لتقارير السفير نفسه . (وهذا المدير هو الذي مد يد المساعدة للأمريكيين عندما بدأت المبارزة بينهم وبين المخابرات المصرية أثناء الانتخابات) . وعلاوة على هذا ، فقد كان هناك سيل متدفق من كبار المسؤولين الذين اعتادوا التردد على بيروت لاذكاء لهيب الأحداث وتأجيج نارها ، (وقد انتابتهم موجة من الاسى عندما هدأت الاحوال في لبنان ، ذلك لانهم كانوا يعتبرون بيروت من أجمل بقاع العالم التي يؤمها الموظف في رحلة للمتعة ، تحت ستار تكليفه بمهمة رسمية على حساب الدولة) . وأما السفير ماكلينتوك . فقد كان في حالة أجاد أحد موظفي السفارة عندما وصفها قائلاً : « في خضم هذه الأمواج المتلاحقة من المتطفلين غصبا على شؤون السفارة ، فان السفير ماكلينتوك ، قد اضطلع بمهام أكثر المناصب في السلك الدبلوماسي قساوة وفظاظة وقرفا ، » .

وفي الثامن من أيار (مايو) ١٩٥٨ انطلقت الشرارة الاولى التي فجرت الصراع كله في لبنان عندما قام مجهول باغتيال صحفي ناصري اسمه « نسيب المتني » . وكان المتني يشكل مصدر ازعاج كبير لشمعون ، مما دعا أعمداه الاخير الى اتهامه بتدبير قتل الاول (وذلك حسب ما جرت عليه العادة عند اللبنانيين حين اصدر الاحكام) . وبلغ عدد الضحايا في حوادث العنف خلال الاسابيع القليلة التالية لحدث الاغتيال أكثر من عشرين قتيلاً في أنحاء متفرقة من البلاد . وجاءت تلك الاحداث ملائمة للمخطط السذي كان يريد المناوؤن لشمعون تنفيذ ، واعتبروا وقتها مناسباً جداً . واحتج شمعون (ويسل ايفلاند) على أن عملية اغتيال المتني كانت مدبرة من قبل المناوئين له ، واستدل بالحجة القائلة ان رد فعل المعارضة كان من السرعة ، والاحكام في الاعداد ، بحيث يؤكد أنه لم يكن مجرد أمر عارض أو تصرف مناجيء . وانما كان الرد مهيباً ينتظر حادثة كحادثة المتني حتى يفليت من عقابه ، وينطلق الى أهدافه . والحقيقة أن كلا من أنصار شمعون وأعدائه يتساوون في حمل أوزار تلك الحادثة المشؤومة وتبعاتها . وقد برهنت الاحداث المتلاحقة على هذا فعلاً . فعندما قامت المعارضة بوضع المتاريس عند النقاط الحيوية لمدينة بيروت ،

وسدت منافذ الطرق الرئيسية ، وأغلقت الحوانيت ، وحفرت الخنادق حول مناطق تجمعها ، وحاولت فعلا أن تشل الحياة التجارية والاجتماعية في البلاد، كان رد أنصار شمعون سريعا ومائلا . وفي غضون بضعة أيام ، غدا لبنان مسرحا لحرب أهلية شاملة شملت البلاد كلية . الا أن تلك الحرب كانت شبيهة بلعبة الشطرنج ، فلا تضع أوزارها حتى يستقيل « الشاه » (١) أو يُقال .

وأما المعارضون لشمعون (ولا مانع من اطلاق اسم « المتمردين » عليهم ، لخروجهم على حكومة شرعية قائمة) فقد كانوا فئتين : فئة الزعماء الحقيقيين الذين كانوا يمثلون مناطق كاملة اشتهرت بعدائها لشمعون ، وفئة الزعماء الذين يقبل طابع الحياة السياسية لمدينة بيروت على أنصارهم من الأفراد المنتسبين للأحزاب والجماعات السياسية المنظمة ، و « القبضيات » والمريدين المايجورين . وكان من الفئة الاولى كل من صبري حماده من سهل البقاع ، ورشيد كرامي من مدينة طرابلس ، وكمال جنبلاط عن طائفة الدرور . وقد طلبوا من المصريين تجهيزات عسكرية ومعدات اخرى حتى يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم . واتضح أخيرا أنهم ، باستثناء جنبلاط ، قد تمكنوا من تدبير شؤونهم بمساعدات يسيرة . الا أن الجيش اللبناني تعثت قيادة اللواء فؤاد شهاب قد رفض مساندة شمعون ، ولم يفعل أكثر من انقاء الاطراف المتقاتلة بعيدا عن الالتحام مع بعضها البعض . ولم يكن لدى شمعون الاعداد الكافية من المدنيين المسلحين حتى يقف في وجه كل من كرامي وحمادة . ووجد جنبلاط نفسه وجها لوجه مع عناصر الحزب القومي الاجتماعي المدججه بالسلاح ، والتي بصفتها يمينية الاتجاه ، قد خاضت غمار المعركة بدافع من كراهيتها لناصر أكثر من حبها لشمعون .

وكانت الفئة الاخرى من الزعماء تشتمل على « البيارة الاربعة » وهم صائب سلام وعبدالله اليافي وعدنان الحكيم وعبدالله المشنوق . ولم يكتف هؤلاء الزعماء بطلب التجهيزات العسكرية من المصريين ، بل ألحوا في طلب المساعدات المالية بغية شراء الدعم والتأييد لانفسهم . وفي الوقت الذي قام

(١) (العرب)

(١) يقصد « بالشاه » الرئيس شمعون .

المصريون بتلبية الاحتياجات الضرورية لكمال جنبلاط ، فقد اقتضت استراتيجيتهم تقديم دعم كثيف « للبياراته الاربعة » حتى يتمكنوا من استقطاب الاحياء الشعبية في المدينة ، والسيطرة على الفوغاء في الشارع ليسهل -بالتالي- التحكم بالمنطقة الرئيسية في لبنان ، الا وهي مدينة بيروت نفسها . ولقد اناط المصريون مسؤولية الاشراف على شؤون مخابراتهم العامة في بيروت بمسؤول ذي كفاءة عالية وخبرة رائعة في مجال اختصاصه . وكان يعاونه في هذا فريق من المسؤولين المهرة أيضا . وقد شكلت المخابرات المصرية فريق عملها في الميدان من المتشردين السوريين الذين جندهم رئيس المخابرات في سوريا ، عبد الحميد السراج ، وارسلهم الى لبنان متسللين عبر الجبال . وكان السراج يشكل همزة وصل مثالية بين المحترفين من المصريين وغوغاء الشارع في لبنان . وهكذا ، فلم ينتصف عام ١٩٥٨ (حزيران ، يونيو) حتى كانت المعارضة قد حشدت ضد شمعون ومؤيديه من الغربيين طاقات هائلة وقدرات ضخمة ، ولم يكن يومها قد مضى أكثر من شهر واحد على اندلاع نار الحرب الاهلية في لبنان .

وبقي المسؤولون الغربيون فترة من الزمن هائنين على وجوههم وسط زحام الاحداث في لبنان ، لا يدرون ما يفعلون . كما بقيت جهودهم دون تنسيق ، وآراؤهم دون توحيد . وقد وصفت احدى النشرات الدورية الخاصة بالحالة يومها قائلة : « لقد كثر اللغط حول حقيقة الاحداث المتلاحقة في لبنان ، وتباينت الآراء حول أسبابها ودوافعها . كما ظهر تضارب في المواقف الأدبية تجاه الاحداث وأشخاصها . واختلط الحابل بالنابل ، فلم تعد تدري من يُسيّر دفة الأمور ويمسك بزمام الموقف » . فقد أيد السفير ماكلينتوك فكرة التجديد للرئيس شمعون (ولم يتلکأ عن الاعراب عن رأيه هذا أمامه) ، الا أنه سرعان ما عدل عن رأيه هذا الى آخر معاكس له تماما . وبذلك اضحى السفير على خلاف في الرأي مع كل من بيل ايفلاند ، ووكالة المخابرات المركزية الامريكية ، ومعظم طبقة رجال الاعمال الذين اصروا على فكرة التجديد وتمسكوا بها . الا أن البقية الباقية من طبقة رجال الاعمال ، وخاصة خبراء مكاتب العلاقات الحكومية ، التابعة لكبريات شركات البترول ، أعربوا عن رأيهم في الاحداث اللبنانية وقالوا ان الامر كله لا يعدو مجرد تمرد على القانون وخروج على النظام تقوم به الفوغاء ، وأنه مهما تفاقمت الاحداث (على حد قول مسؤول

باحدى شركات البترول) فمن الضروري مقاومة العنف والارهاب ، وعدم فسح المجال أمامهما للوصول الى أية مكاسب ، أو تحصيل أية مغانم . وعلى الاقل ، فقد تمكنت احدى شركات البترول من تحقيق لقاء بين زعماء المعارضة الحقيقيين (أمثال حماده وكرامي وجنيسلاط بدون « البيارته الاربعة ») وبين أنصار شمعون المعتدلين ، واتفقوا فيه على وجوب التوقف عن تخريب « بلدهم الحبيب » ، وعلى ضرورة حسم النزاع بينهم بالوسائل السلمية . كما أعربوا عن ترحيبهم بانضمام السفارة الامريكية الى هذه البادرة السلبية ، وعن رغبتهم في أن تضطلع ببعض المهام فيها .

ومن الجدير بالذكر أن تلك السلسلة من الخلافات التي برزت بين كبار المتنفذين الامريكيين حول سياسة الحكومة الامريكية واستراتيجيتها ، قد لعبت دورا بارزا في بلورة الموقف الامريكي الجديد (منذ ١٩٥٨) الذي كان له أكبر الأثر في تحديد طبيعة علاقتنا مع ناصر وغيره من الحكام الوطنيين ، الذين أخذوا في انتهاج سلوكه واتباع طريقه . ولقد بدا هذا الأمر واضحا تماما بعد انتهاء الأزمة اللبنانية مباشرة (مع أن اثنين من سفرائنا في القاهرة ظهروا على أنهما لا يعلمان عنه شيئا) . وما أن أطلت شمس الستينات حتى أدرك كل مراقبي « لعبة الأمم » (والمصريون كذلك) أن هذا الاتجاه الجديد قد غدا مسيطرا . كما وأنه قد استدعى تغييرا كاملا لطبيعة « لعبة الأمم » ، غير أن اللاعبين أنفسهم لم يدركوا هذا الا بعد حين .

وكان الاتجاه المسيطر على الموقف الامريكي الجديد هو النفور من العنف والابتعاد عن الارهاب كوسيلتين من وسائل نيل المطالب ، مهما كانت الدوافع لهما سامية والأسباب عادلة . ولاضفاء الهيبة على هذا الاتجاه الجديد ، وزرع الرهبة منه في قلوب الآخرين ، كان لا بد من اقامة الدلييل على أن سياسة العنف سياسة خاسرة ، وأن مشاريع أصحابها لن ترى النور ، وذلك حتى يتعظ الآخرون بهذا ويرتدعون . ولقد رفع الدبلوماسيون الامريكيون المحافظون لواء الدفاع عن هذه الفكرة (وأيدهم في هذا كل طبقه رجال الاعمال) ، وعززوها باعتقاد آخر سليم . فقد دعوا الى سحب الثقة نهائيا من اولئك الذين لا يرون بديلا عن سياسة العنف كوسيلة لتحقيق أهدافهم ونيل مطالبهم ،

مهما كانت سامية وعادلة ، والى عدم منحهم ايها ثانية مهما كانت الظروف او اقتضت الاعبارات . لقد كره الجميع سياسة العنف ، واشمازوا من دعائها ، واجمعوا على مقاومة كل من تسول له نفسه باللجوء اليها . وعليه ، فكل من هومل بمثل هذه السياسة ، له أن يدافع بقوة ضدها ، وعلى الآخرين الاصفاء لشكواه دفاعا أم هجوما . ولقد فاز هذا الاتجاه الجديد بموافقة جميع الامريكيين الذين لهم علاقة بالازمة اللبنانية ، ولم يخرج عن هذا الاجماع أحد منهم ، رسمي أو غير رسمي . الا أن شكوك الدبلوماسيين ورجال الاعمال في صلاحية هذا الاتجاه الجديد وفي مدى انسجامه مع الدوافع البشرية الفطرية بقيت في تفاوت غير يسير .

ولقد عبر أحد موظفي السفارات عن موقف دبلوماسيينا (بالمقارنة مع موقف رجال الاعمال) عندما توجه الى ساندي كامبل (في شركة التابلاين) قائلا : « وماذا تتوقع غير ذلك ؟ فوالله لا يدع اللبنانيون العنف حتى تدع الكلاب مطاردة الهرة » . لقد كان الدبلوماسيون الامريكيون ، وديبلوماسيو ما وراء الكواليس ، يعتقدون أن سياسة الارتشاء والارهاب ، ودغدغة غرائز الانسان الخسيسة ، ليست سوى أحد الملامح المألوفة لمسرح الاحداث في لبنان . فقد تأقلم اولئك الدبلوماسيون مع ذلك النوع من « لعبة الأمم » التي تسودها السياسة السالفة الذكر ، ولمسوا أنها قد حققت نجاحا باهرا بدون أدنى ريب أو شك ، ولهذا فقد كانوا على طرفي نقيض مع رجال الاعمال الامريكيين . وسبب هذا أن علاقة رجال الاعمال بأصدقائهم من اللبنانيين كانت مجرد علاقة منافع مادية ومصالح تجارية ، وهذا النوع من المعاملات لا يمكنه أن يجري الا في أجواء يسودها الهدوء وتطفي عليها نزعته جر المغانم وزيادة الارباح . ولهذا كانت رسائلهم الى رجال الكونغرس لا تظهر سوى اصرارهم على مخالفة رأي الدبلوماسيين ومعارضتهم له . (وكان رجال الكونغرس بدورهم يوجهون الرسائل ثانية الى وزارة الخارجية مدعومة بتأييدهم وتشجيعهم لموضوعها) .

وأما اميل البستاني (مقال مليونير مسيحي) وفوزي الحصص (مقال مليونير مسلم) فقد كانا من دعاة « النظام والقانون » ، ومن الذين يتمتعون بشقة رجال الاعمال الغربيين واحترامهم . وقد بحثنا معي امكانية التوسط لدى الرئيس ناصر ، لما بيني وبينه من صداقة وحسن صلة ، وذلك ليجاد حل

مناسب للازمة اللبنانية يسمح لكل من المصريين والامريكيين بسحب تأييدهم على الترتيب ، « للبيارتة الاربعية » ولحكومة شمعون . كما أن على الحل المناسب أن يترك الباب مفتوحا على مصراعيه أمام العناصر المعارضة لشمعون والمؤيدة له للتوصل الى تسوية سلمية بينهما لانهاء الصراع ، وانقاذ ما تبقى من البلاد من الخراب والدمار . وكان لي اتصال سابق مع كلا الرئيسين شمعون وناصر ، وذلك قبل أن تتفاقم الاحداث وتبلغ الازمة ذروتها في لبنان . وبعدما لمست استحضان إحدى كبريات شركات البترول لفكرة الوساطة (وكان ذلك في حزيران ، يونيو) عازمت أولا على مفاتحة الرئيس شمعون بالفكرة ، ومن ثم الرئيس ناصر . ولم يكن جلة همي في البداية ترويج الفكرة والدعوة لها بقدر ما كان الوقوف على مدى استمداهما للتجاوب مع الفكرة حقا .

وكميل شمعون بمطلعه الوسيم ، وشعره الأشيب ، ومظهره الذي يشابه تماما مظهر الرئيس اليوغوسلافي تيتو ، كان من دعاة « العروبة » قبل أن يسمح ناصر بهذه الكلمة بزمن بعيد . ففي الجامعة الامريكية في بيروت ، حيث ولدت فكرة القومية العربية وترعرع دعاؤها (١) ، كان شمعون من المعاة المتحمسين « للوحدة العربية » ولمجابهة عربية واحدة ضد المطامع الصهيونية . وللسنوات خلت ، بات الرئيس شمعون متحررا من فكرة القومية العربية كفضية سياسية مطروحة للتنفيذ . ويمتد شمعون أن فكرة القومية العربية ما هي الا أداة في يد أكثر رجال السياسة المسلمين فسادا ، ناهيك عن أن معظمهم من المهاجرين الدائرين في فلك سلطات القاهرة . كما يستبد الخوف بشمعون من أي نجاح قد يحرزه السياسيون من دعاة الوحدة العربية في تحقيق أي من أشكالها التي - على حداثتها - ستجعل من المسيحيين في لبنان أقلية مضطهدة (٢) في وسط بحر من المسلمين المستائين .

(١) ان أكثر من تسعين بالمئة من قادة حركة القومية العربية الاقحاح هم من خريجي الجامعة الامريكية في بيروت . ولا تزال هذه الجامعة (وكانت سابقا تسمى «الكلية الانجيلية السورية») ناشطة في تقديم مثل هذه الخدمات لدول مطعة الشرق الاوسط . (المغرب)

(٢) تخلص بعض المسيحيين من هذه المفدة عندما قرروا قيادة الحركة القومية وما يتفرع عنها من منظمات بانفسهم . وكان منهم السادة : ميشل عفلق وجسور حبش ونايسف حواتمه وأنطون سعادة (الذي وان اختلف في الفكرة فلا يختلف في الجوهر) . (المغرب)

وأبدى ناصر تفهما لقلق شمعون ومخاوفه . وكاد أن يظهر عطفنا زائفا على مثل تلك الأفكار . وليس هذا على ناصر ببصيرة . فهو لم يقرن الإسلام بفكرة القومية العربية الا بدافع المصلحة وبمحض الصدفة . فنناصر لا يتمتع بدوافع عقائدية تملئ عليه مثل هذه الأفعال . ولقد وفرت فكرة اقتران القومية العربية بالإسلام لناصر فرصا ملائمة ، ووضعت تحت تصرفه وسائل مريحة ، مكنته من الاستفادة من فكرة القومية العربية دون أن يستفيد منها الإسلام . الا أن ناصرا احتج على فكرة بقاء شمعون على الحياد . فالصراع بين « التقدميين » من العرب و « المحافظين » لا يحتمل الحياد . ولم ينس ناصر مقالة الوزير دالس في فكرة الحياد هذه . فقد رأها الأخير فكرة « لا أخلاقية » في مضمار الصراع بين الشرق والغرب . وهكذا لم تختلف حجة ناصر عن حجة دالس بكثير . فالحياد عند الاثنيين « لا أخلاقي » ، الا فيما يرغبان . ولم يتخل ناصر عن اعتقاده (ودون أن يكون عنده دليل) أن لبنان يستخدم بصورة متزايدة كقاعدة للعمليات ضد (١) الجمهوريه العربية المتحدة الفتية ، (وكان عبدالحميد السراج ، رئيس المخابرات والامن القومي في سوريا (الاقليم الشمالي) قد أقنع ناصرا بهذه الفكرة منذ أول اجتماع اداري بينهما) . وبفض النظر عن كل هذا وذاك ، فإن ناصرا لم ينس أبدا الحقيقة المشؤومة أن شمعون كان « خارجيا » . فالأخير ، وان لم ينضم لحلف بغداد (وما كان هذا ليمنى شيئا لو حدث) فقد كان في طليعة المرشحين « بمبدأ ايزنهاور » ، بل لقد فتح له صدره ، وهش له وبش .

وفي العشرين من حزيران (يونيو) قمت ، بصحبة فوزي الحصى ، بزيارة للرئيس شمعون ، حتى أحصل منه على تفويض بتبليغ الرئيس ناصر موافقته على الالتقاء برشيد كرامي وصبري حماده وكمال جنيلاط ، في محاولة مخلصه للتوصل الى هدنة معهم مقابل موافقة ناصر على ايقاف دعمه « للبيارتة الاربعة » . الا أن اعتداد شمعون بإمكانية التدخل الامريكى عند الطلب (كما ينص على ذلك مبدأ ايزنهاور) جعلته أقل تقبلا للفكرة السابقة ، وأكثر ابتعادا عنها . وكان أثر هذا علينا مذهلا ، وجلست وفوزي صامتين . واستمر الرئيس في عرضه الاحداث قائلا : « لقد فقدت كل ثقتي في السفير الامريكى . لقد

(١) وصف ناصر في إحدى خطبه عام ١٩٥٨ هذه الجمهوريه بأنها « تصون ولا تهمد ، وتحمي ولا

خذلني بعدما جعل من فكرة تجديد رئاستي أمرا عظيما . انني أثق كلية ببيل
يفلاند ، فقد كان يشد من عزيتي ، ويحثني على أن أقف صامدا دون تراجع أو
ضعف .

وتحت ضغط فوزي الحص واميل البستاني ، غادرت بيروت الى القاهرة ،
وقصدت ناصرا للاجتماع به مباشرة بعد تبادل سريع للآراء مع سفيرنا هناك
ريموند هير . وكنتيجة لمقابلتي ناصرا وسفيرنا ، فقد علمت أن فكرة اميل
البستاني وفوزي الحص قد خطرت لناصر ، وقدم بها الى السفير اقتراحا جاء
فيه : « لما كانت كل من الولايات المتحدة الامريكية والجمهورية العربية المتحدة
تمثلان الطرفين الخارجيين اللذين لهما علاقة بالآزمة اللبنانية ، فانني لا ارى
مانعا في عقد اجتماع يضم الطرفين ، وذلك للتوصل الى اتفاق على حل يفرضانه
على اللبنانيين » . الا أن السفير ريموند هير رد على اقتراح ناصر (بعد تبادل
الرأي مع واشنطن) بجواب تمعد فيه اسامة تفسير اقتراح ناصر جاء فيه :
« ان من دواعي سرور حكومة الولايات المتحدة أن تبذل قصارى جهدها للتوسط
في النزاع بينك وبين الرئيس شمعون » . الا أن ناصرا ، الذي اعتاد أن يوقع
السفراء الامريكيين في شركه ، دون تدمير منهم أو احتجاج ، قد تضايق من
هذه المكيدة التي دبرها له السفير هير . وعندما اجتمعت به أحسست أنه ما
زال يمانني من وخزها . ومع ذلك ، فقد أسهب ناصر في شرح آرائه حول الآزمة
اللبنانية ليتمهي أخيرا الى القول ، انه لو كانت الآزمة اللبنانية تخصه وحده
دون سواه ، فان ما يفعله هو تنصيب الجنرال فؤاد شهاب رئيسا للجمهورية
ورشيد كرامي رئيسا للوزراء . ومن ثم يخرق سفينة « البيارطة الاربعة »
ليفرقها بمن عليها ، فلقد أذاقوا سفيره (عبد الحميد غالب) الأمرين .
واختتم ناصر الاجتماع مقبلا : « ولو أن الامور بقيت على حالها ، فلا بد من
الوصول بها الى نهاية ما ، نشهدا بأم أعيننا ، ونرعاهما بأيدينا . ولن يوقف
أحد منا دغمه للاطراف الموالية له ، وستبقى مصر لحلفائها ، والولايات المتحدة
لاعوانها » .

الا انني أخبرت السفير هير ، أن كل أصدقائي في بيروت - الامريكيين
منهم واللبنانيين - سيصابون بخيبة أمل ، وسيظنون بجوابه لناصر الظنون .

فهم يرون في اقتراح ناصر الشكل الوحيد لاتفاق ينهي النزاع ويعيد الهدوء .
الا أن السفير اجابني موضحا أنه - شخصيا - قد آنس في نفسه ميلا قويا نحر
اقتراح ناصر . ولكنه كسفير لبلاده ، فانه لا يملك من الامر شيئا . فواشنطن
هي التي تقبل وترفض ، وعلى السفير السمع والطاعة . كما أن تبادل الآراء
مع واشنطن قد ترك عنده الانطباع أن طبقة رجال الاعمال في لبنان تعارض
بشدة أي رد لى على ناصر او جواب 'مرض له' . ثم التفت الي السفير قائلا :
' ألم تكن قد وافقت على أنه لا ينبغي لطرف من الاطراف أن يفرض نفسه عنوة
ويجلس الى طاولة المفاوضات ؟ اذا كان ناصر يرى ضرورة اجراء مفاوضات
حول القضية على مستوى الولايات المتحدة والجمهورية العربية المتحدة ، بدلا
من مستوى ناصر وشمعون ، فاخبره أن يأتينا بشروط بناءة ، ثم نحن حيالها
نلقاه ' . واستشهد السفير هير بهذا الكلام من تقرير أرسله أحد كبار مدراء
شركة بترول أمريكية في بيروت . وتضمن ذلك التقرير الملاحظة التالية :
' لقد غدت المعركة في لبنان بين عملاء ناصر من طرف وأزلام شمعون من طرف
آخر . الا أن أزلام شمعون ما زالوا يتمتعون بصيغة قانونية ، فهم مع الحكومة ،
وليسوا ضدها ' . ولم يكن السفير هير مؤيدا وجهة النظر هذه سوى تأييد
محدود ، الا أنه وصفها بأنها تمثل ' الموقف الجديد ' في واشنطن الذي أضحي
(الى حد كبير جدا) تحت التأثير الجديد لتلك التقارير غير الرسمية الصادرة
عن رجال الاعمال الامريكيين في بيروت . وكانت هذه التقارير تصل الى وزارة
الخارجية مرفقة باستحسان المقررات الرئيسية لشركات البترول ، كما كانت
تتلقى الدعم من رجال الكونغرس الذين كانت الشركات تزودهم بنسخ عنها
مباشرة) ومن رجال ذوي نفوذ واسع في أروقة الحكومة والذين هم بنفس
الوقت اعضاء في مجالس ادارة تلك الشركات . واما بخصوص تنصيب ناصر
للجنرال شهاب رئيسا للجمهورية ، ولرشيد كرامي رئيسا للوزراء ، فقد كان
اعتقاد وزارة الخارجية الأمريكية وطبقة رجال الاعمال الامريكيين أن اعتلاء هذين
الرجلين سدة القيادة دليل ، ما بعده دليل ، على انهيار سلطة القانون ، وفقدان
النظام والامن في لبنان .

وقفلت عائدا الى لبنان . وهناك وجدت أن عملية ضخمة كانت في طور
الانجاز والتنفيذ . وبعبارة أوضح ، فقد كان هناك مجموعة عمليات محدودة ،

ومعدومة التنسيق ، وعاجزة عن تحقيق أية نتائج لانها كانت تضم اطرافا لا يدري كل منها ما يريده الآخر ويسمى له (.) فقد قامت مجموعة أغنياء المسلمين اللبنانيين تحت اشراف فوزي الحص ، بالاسهام في مجهود مشترك لشراء الانصار من حول البيارة الاربعة ، تخفيفا لحدة التوتر . (ولم تكن هذه العملية باهظة التكاليف ، وذلك لان المصريين كانوا قد علقوا مساعداتهم المالية في انتظار نتائج تحقيق يجري حول مزايدات تزعم الانبساء أن أحد « البيارة الاربعة » يزاولها) . كما تطوع عادل عسييران ، رئيس المجلس النيابي الشهير ، للتوسط بين المعتدلين من أنصار شمعون والمعتدلين من معارضيه . وأثناء غيابي عن بيروت ، أخبر السفير الامريكي الرئيس شمعون أن الادلة على تدخل الجمهوريه العربيه المتحدة لم تكن مقنعة ولا حاسمة (كما أن مراقبي الامم المتحدة لم يعثروا على أي دليل لهذا الغرض) . ولهذا فان نزول القوات الامريكية في لبنان أمر غير وارد البتة . وهكذا أضحى الرئيس شمعون منبسط الهمة ، مهيض الجناح (على حد قول فوزي الحص وهو فرح بهذا جدلان) ، وغدت فكرة التوصل الى تسوية للنزاع أكثر احتمالا وأقرب منالا ، أرغب بذلك شمعون نفسه أم بقي رافضا .

ولم تكن فرصة بجاح العملية السابقة قليلة . الا أن انقلاب العراق قد قلب الوضع رأسا على عقب . وحدث هذا في صبيحة الرابع عشر من تموز (يوليو) عام ١٩٥٨ . وتلقت وكالة المخابرات المركزية الامريكية أنباء تفيد أن عملية ذات شعب ثلاث قد بدأت لتوها ضد العائلة المالكة ونوري السعيد في العراق ، وضد الرئيس شمعون في لبنان ، وضد الملك حسين في الاردن . وهي بمساعدة الجمهوريه العربيه المتحدة ، بل وبتحريضها . وبناء على هذا ، قرر السفير الامريكي أن للرئيس شمعون الحق في طلب المعونة العسكرية الامريكية استنادا الى نصوص « مبدأ ايزنهاور » . وقدم شمعون للامر طلبا ، وقطع السفير بوصول المساعدة عهدا . وضرب لها موعدا لا يزيد عن ثمان وأربعين ساعة زمتنا . ونسي السفير ان الاسطول كان على مسيرة يوم واحد بعدا . وهذا ما حدث فعلا . فقد وصل الاسطول في أقل من أربع وعشرين ساعة ، وتدفق الجنود منه أفواجا أفواجا ، بوجوه متجهمة وبنادق مصوبة . وعلى شواطئ بيروت الجميلة كان الناس تحت أشعة الشمس متمددين ، وفي مياه البحر

يسبحون . وسرعان ما علت الدجشة وجوههم ، واضحوا في ارتباك لا يدرون ما يفعلون . انهم في استقبال جنود البحر واقفون ، وبهم صدفة مرحيون .
وأما الصغار من الصبيان ، فانهم في زرافات قادمون ، « وللملكة » بانعون .
وفي تلك اللحظات ، كان عادل عميران مستقلا سيارته الكاديلاك ، وهي مكيفة الهواء . ينهب بها الارض نهبا وهي متجهة نحو الشمال . لقد كان على موعد ، ومع رشيد كرامي بالذات . ويريد ان يحصل منه على موافقة للصلح والسلام .
وفجأة وجد نفسه وسط الزحام ، يراقب الاحداث من خلف الزجاج . فينظر فلا يرى الا جنودا امريكيين ، على موجات متدفقين ، وعلى الساحل « الفينيقي »
معسكرين .

وشهدت أمواج الاثير بعد نزول القوات مشادة بين السفير الامريكي وقائد قوات الانزال البحرية . وطبعا ، فقد تبادلوا فيها التهم ، ولم يكتروا . وكان الخلاف يدور حول « من يتلقى الاوامر من الآخر ؟ » . وتمخضت الشادة عن وصول القائد البحري الى مقر اقامة السفير ، وهناك أعطى التصريح البديع :
« اننا قد اتقنا البلاد من كساد اليم ، وأسعفنا الاقتصاد من وضع مهين ! »
وجرت هناك مشادات أخرى ، وتراشق الاطراف الشتائم . فبين الدبلوماسيين الذين لا يعلمون بالجرأة الا في حفلات الكوكتيل ، والعسكريين الذين اعتادوا لغة الحديد والنار ، ما صنع الحداد . انهم لا يتبادلون فيما بينهم الا الاستهزاء ، ولا يتخاطبون الا بلغة التهكم والسخریات . لقد وقف الى جانب العسكريين كل من الرئيس شمعون ووزرائه ومعظم المسيحيين اللبنانيين ، وطبقة رجال الاعمال الامريكيين ، ووكالة المخابرات المركزية . فقد كان الكل لهم مناصرين ، وللنجاح لهم متمنين .

وفي الوقت الذي كان يريد السفير ان يظهر جنود البحر الامريكويون مدى وفاء الولايات المتحدة بالتزاماتها تحت ظل « مبدأ ايزنهاور » ، ويركزوا على فكرة انسحابهم عاندين ، حال استيفاء العملية أغراضها بأقل خسائر ممكنة (ودون أن يتبع ذلك استعمار) ، فان الرئيس شمعون كان يريد أن يقوم جنود البحر بفرض لمنطقة المسلمين في البسطة ، فيمنشطوها من جميع عناصر المعارضة (ودون تمييز بين المعارضين حقا وبين المدسوسين منهم في الصفوف) ، وأن

يتحركوا من ثمّ لسد المنافذ أمام المساعدات السورية المتسللة عبر الحدود وفي بطون الاودية وعلى رؤوس الجبال . بيد أن الرعب قد دب في قلوب رجال الاعمال الامريكين في بيروت نتيجة التقارير الرهيبة التي نقلت اليهم خفايا انقلاب العراق . واضحووا تقريبا على اتفاق مع الرئيس شمعون بخصوص ما يجب اتخاذه من اجراءات ، وان اختلفت دوافع الطرفين . وفلا ، فقد أجمع رجال الاعمال على أن للرئيس شمعون الحق بتقرير ما يروق له ، دون أن يظهر أي لين ، أو يبدي خضوعا للارهابيين في بيروت .

وأخيرا رجح موقف السفير . فبواسطة سلسلة من التحركات الجديرة بالثناء والاطراء ، تمكن السفير من ترسيخ أقدام جنود البحر الامريكين في كل أنحاء بيروت ، ودون اصطدام مع الارهابيين أو التحام مع الجيش اللبناني . (وكان حقيقة قد ضمن مسبقا مساعدة الجيش اللبناني) . ومكث جنود البحر ثلاثة أشهر في لبنان ، أنفقوا خلالها الملايين ، وبسهولة وطلدوا العلاقات مع اللبنانيين . ومن ثم قفلوا راجعين ، دون أن يطلقوا رصاصة واحدة في غضب أو طيش كالمجانين ، (على حد قول ماكلينتوك سفير الامريكين) . وكثير من اولئك الذين كان عندهم أمل المام بتعميدات الحالة هناك ومضاعفاتها قد قدروا السفير حق قدره ، وعدوا العملية من أبرز مآثره . الا أن تقارير أخرى كانت تصل الى واشنطن من مصادر غير السفارة في بيروت . ومع أن هذه التقارير قد كتبتها أقلام بعض من لا يملكون الا فهما محدودا للاحداث الدائرة هناك ، فقد كان بعضها مقنعا للغاية (وخاصة تلك التي كتبت بأسلوب رجال الاعمال الشائخ الاستعمال) ، كما وأنها تظهر اختلافا وتباينا صارخين مع تقارير السفير ، تلك التي كان يرسلها بأسلوبه الادبي البليغ . وعندما شرع بعض رجال الصحافة من اصحاب النفوذ والتأثير بنشر تلك القصص (الشبيهة بالتقارير) عن تقصير السفير وفشله ، قرر الوزير دالس ، جريا على عاداته في حل المشاكل ، أن يرسل أحد كبار المسؤولين لاحقاق الحق ورفع الظلم .

وكان المحقق يومها روبرت مورفي . وروبرت هذا ذو شهرة واسعة (وذلك يوم وصوله الى لبنان) على أنه اعتاد على اهمال قيود مهنته وعلى اعتماده على خبرته وحصافته في اصدار الاحكام بناء على ما يسمى بمعاملة « نظرة جديدة على

مسرح العمليات . • وعندما قرر الوزير دالس ارسال مورفي الى بيروت ، كان الاخير منكبا على دراسة تشكيلة واسعة من المسائل (وكان يعمل اثنتي عشرة ساعة يوميا) دون أن يمت أي منها بصللة الى الشرق الاوسط . وبعبارة أخرى ، فقد منح لقب المستشار السياسي لقائد أركان حرب القوات الامريكية في لبنان شكلا . وكانت مهمته حقيقة هي جمع الشخصيات والتقريب بين وجهات نظرها ، مستفيدا من علو منصبه وخبرته الطويلة « كدبلوماسي بين المتحاربين » (عنوان ترجمته لحياته) وكان عليه أن يفعل ما يراه ضروريا ومناسبا لتعزيز مصالح الولايات المتحدة التي برزت فجأة نتيجة نزول قواتها في لبنان ، (وقد اخبر مورفي عن هذا في كتابه عندما شرح أهداف مهمته) . الا أن بعض الظرفاء من طبقة رجال الاعمال كانوا يرددون أن مهمة مورفي في بيروت لم تكن سوى « منع وقوع انقلاب في داخل السفارة الامريكية ، هناك . ومهما كانت الصعوبات التي حالت دون تفهم مورفي للحالة الراهنة وللتأويلات المتضاربة لها تفهما شاملا وعميقا ، فانه قد قام بدون شك بمحاولة نزيهة لايجاد الحلول لها دونما تحيز لاحد أو تشبث برأي .

ومن التفاحة أن نفوس في تفاصيل مهمة المستر مورفي في بيروت . فموضوع كتابنا هذا هو دبلوماسية ما وراء الكواليس ، وليس فن الحكم والادارة . الا أنه يجدر بنا أن ننوه الى أن مورفي كان يتوجه في تصرفاته بوحى من تلك المقطوعة الاثرية لمبادئ الحكمة والحصافة القائلة : « انني استمع الى جميع الآراء المتطرفة ، ولجميع الاطراف المتضاربة ، بأذن صاغية وصدر مفتوح . وفي النهاية ، فانني غالبا ما المس أن .» الحقيقة « في الوسط ، وعلى الطريق الواصل بينهم » . والاطراف المعنية هنا هي : شممون وكان يومها رئيسا للجمهورية ، و « البيارة الاربعة » الذين كانوا على رأس عصابات الارهاب المدعومة من قبل سفارة الجمهورية العربية المتحدة . وقد رجوت مورفي في خلال المقابلة التي سمح لي بها معه (ولم تزد على ثلاثين دقيقة) أن يقتصر في علاقاته مع زعماء المعارضة على اولئك الذين يتلون دوائر نفوذهم حقا ، ويبتعد عن اولئك الذين تحوم الشكوك حول اوضاعهم وخاصة اولئك المحسوبين على سفارة الجمهورية العربية المتحدة . ومع أنه قد أصفى الي بلطف وأدب . الا انه لم يمض ساعة من الزمن على لقائنا معا حتى كان مورفي في طريقه للاجتماع

بأكبر عملاء القاهرة في لبنان . وقد ازدهر نفوذ هذا الأخير ثانية وزاد بمدما شارف على الانقراض كليا منذ ظهور محلولات الوساطة وانهاء النزاع . ومع أن الاجتماع كان مقررا له أن يبقى سرايا (كما قال ذلك مورفي فيما بعد) إلا أنه لم يكن في صالح ذاك السياسي بالذات أن يبقى الأمر كذلك . بل ، وعسل العكس ، فقد ظهرت صور الاثنين معا وهما يتصافحان ، وللآراء يبادلان ، ووزعت في الشوارع والاحياء ، وعلقت على الجدران ، وكان مكتوبا عليها تمليق بعنوان : « مثل الرئيس ايزنهاور يعاطف مع الثورة ! » .

ومع أن معظم الكتاب الذين علقوا على الاحداث اللبنانية قد أجمعوا على اعتبار نزول جنود البحر الى الشواطئ اللبنانية مآثرة دبلوماسية بارعة ، إلا أن ذلك لم يكن أكثر من مجرد رأي عالمي لا يمت الى مسرح الاحداث الحقيقي بصله . لقد برهنت تلك الحادثة على تمسك الولايات المتحدة بالتزاماتها ، وأنها على استعداد لان تمد يد المساعدة لاصدقائها بطريقة عجز السوفييت عن محاكاتها والقيام بمثلها تجاه اصدقائهم . وأما على مسرح الاحداث في المنطقة ، فلقد جاءت نتائجها مطابقة لما كان ناصر يحلم به ويشنهي ، حتى بدا وكأن جنود البحر جاؤوا الى لبنان لخدمة أهداف ناصر وتحقيق مآربه . فأولا ، ان كلا من رئيس الجمهورية شهاب ورئيس الوزراء كرامي ، وهما الرجلان اللذان استلما دفة القيادة بعد انتهاء الاحداث ، كانا نفس الرجلين الذين أرادهما ناصر أن يكونا في هذين المنصبين . وثانيا ، فقد استقر الارهاب في نفوس الناس على أنه السلاح الفعال ، ودون ازدراء له أو اشمزاز منه . وفي خلال الايام الاولى لانتهاء الازمة ، كانت جميع الطوائف الدينية والفئات السياسية ترفع شعارات تقول : « علينا أن ننتزع بالقوة ما لنا من حقوق ، فالحكومة لا تنوي ردها الينا ، ولن تساعدنا على ذلك » . وكان هناك من يقول داخل سفارتنا : « ان اللبنانيين ليسوا سوى أفراد في مجتمع عصابات » ، ومن السخف أن تتوقع منهم نتائج أحسن من ذلك . ومع هذا فقد سنحت الفرصة لاقامة قواعد وأنظمة أساسية ولسيبتها هناك ، ولم يكن ليقلل من هذه الفرصة الحقيقة أن علاقاتنا مع زعيم اراهابي لم تكن لتختلف عن علاقاتنا مع رئيس لجمهورية البلاد . وثالثا ، فقد مات « مبدأ ايزنهاور » بعد الازمة اللبنانية ، وأضحى أثرا بعد عين . ونقص عدد الخوازم ، واحدا ، وودع ناصر القلق منه واستراح

ولسنوات مقبلة لم تعد حكومة لبنانية تفكر بعقد صفقات مع الغرب حتى لا تكون مدعاة لاثارة متاعب جديدة ومبررا لتدخل ناصر جديد في لبنان . فناصر يستطيع ذلك كلما أراد ، وقد يفعله دون تردد أو احجام .



وعندما شارف عام ١٩٥٨ على الانتهاء كان ناصر قد بلغ ذروة القيوة . ولقد اعني بكلمة « القوة » ، في كتابي هذا ، امتلاك الفعالية العظمى في مجال الصراع مع الدول الكبرى لصالح مصر ، ومصر لوحدها . وعلى حد قول أحد المعلقين ، فان ناصر! قد فشل في ضم لبنان الى الجمهورية العربية المتحدة ، كما فشل في ضم الاردن لها بعد قيامه بمحاولة انقلاب أخرى هناك بعد انسحاب القوات البريطانية منها (وكانت قد حطت رحالها هناك عندما نزل جنود البحر في لبنان) . وحدث انقلاب في السودان أطاح بالحكومة هناك في غفلة من المخابرات المصرية وأعوانها ، ووضع السلطة في يدي حكومة « مستقلة » عن القاهرة . وشن الحبيب بورقيبة ، رئيس الجمهورية التونسية ، هجوما عنيفا على ناصر . وهكذا بدا ناصر في الاحوال غارقا وفي المتاعب غائضا ، تعصف به الانواء ، وتنزل به النوازل من كل حذب وصوب من العالم العربي . الا أن ذلك لم يكن صحيحا ، ولم يكن ناصر ليعبا به . فهو حقيقة لم يكن وراء حكم العالم العربي ، ولقد أخطأ من ظن ذلك . وان نظرة عابرة على البرقيات الواردة الى وزارة الخارجية في واشنطن (وكان يشار فيها الى ناصر باسم « موضسة المستقبل ») ، أو احصاء سريعا للمساعدات المالية والفنية التي كان يومها ناصر يتلقاها من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، كان كافيا لان يدرك المرء ان ما رآه من هزائم متلاحقة حلت بناصر قد عادت على الاخير بأرباح طائلة ومنافع لا تعد لها ولا حصر . لقد بلغ مجموع المساعدات الاجنبية التي نالها ناصر ، من الولايات المتحدة والدول الشيوعية (دون سواها) في السنوات الاربع التالية لعام ١٩٥٨ أكثر من مليار من الجنيهات المصرية (أي حوالي ٢٣٣ مليارا من الدولارات) ، بالرغم من كل تلك التقلبات التي طرأت على علاقته مع الاتحاد

السوفييتي أولا ومع الولايات المتحدة لاحقا . لقد عزت واشنطن نجاح ناصر الى كونه « عاملا تحرص الاطراف على طلب وده وضمان جانبه » . وأجمع على هذا الرأي كلا الفريقين القائلين بفشل ناصر أو بنجاحه في الحرب الباردة التي دارت رحاها في عام ١٩٥٧ - ١٩٥٨ .

ومع ذلك ، فان تدخل ناصر في الازمة اللبنانية قد اثار ضغائن اوساط رجال الاعمال الغربيين واحقاد مؤسساتهم التجارية . لقد كان بعض هذه المؤسسات لا يتحرج في أن يتحالف مع الشيطان في سبيل كسب دراهم معدودات ، الا انها جميعا تتوجه في حقيقة تصرفاتها بادراك عملي وفهم مرن لاطماع « الشيطان » ذات المدى البعيد . ان عددا غير يسير من الشركات التجارية التي لا تطمع الا بمنافع آنية وقصيرة المدى قد أنشأت علاقات تجارية مع مصر منذ عام ١٩٥٨ . وفي الوقت نفسه ، فان ازوقة التجارة العالمية في واشنطن بدأت تركز بشدة على كل ما هو « ضد ناصر » ، وأخذت تضايق باستمرار موظفي وزارة الخارجية الذين يظهرون عطفًا على ناصر وميلا له ، وكانوا يتبعون معهم وسائل التهديد ، كتنقلهم من وظائفهم ، ان لم يلتزموا بالصمت . ولم يستثنوا من حملتهم هذه حتى اولئك الموظفين الذين كانوا يرون في ناصر بعض الخير وليس كله شرا بشر . ولاعتبارات عالمية يجهلها رجال الاعمال وان علموا بها فلا يستسيغونها ، فان حكومتنا فد أمسكت في السنين الاربع التي تلت عام ١٩٥٨ عن اتباع سياسة معادية لناصر كليا (١) . كما أن قيام ناصر بتأدية بعض الخدمات لنا خارج نطاق « لعبة الامم » كان من بين العوامل الرئيسية التي أدت الى تخفيف حدة ضغط الاتجاه المعادي له على حكومة الولايات المتحدة . الا أن هذا الاتجاه المعادي له ما لبث أن عاد ثانية الى سابق قوته ، بل ولقد زادت ضراوته ، الى الحد الذي أثر على قوة ناصر نفسه في « لعبة الامم » تأثيرا مباشرا فشله مرونة حركته التي كانت تعتمد كليا على مهارته في أن يزوج بنا في دوامة السباق والتنافس مع السوفييت .

(١) تذكر الاخبار أن القنصلية الامريكية في حلب (سوريا) قامت بتشجيع مؤيدي ناصر ضد حركة الانفصال التي قامت في دمشق في ايلول (سبتمبر) ١٩٦١ على أيدي بعض الضباط، الذين حل بهم أخيرا ما حل بزعماء الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر . (العرب)

السياسة الناصرية في الخارج تمتص ثروات الشعب في الداخل

... وثقلات الابهة والعظمة باعظة جدا بل وقاسية ، واذا قصر الانسان بعقلها تركته
رهينا عندها وسلطة لها .

ومع أن تدخل المصريين في أزمة عام ١٩٥٨ اللبنانية قد أثار حفيظة طبقة رجال الأعمال الغربيين ، فان الناصريين والدبلوماسيين الغربيين كانوا ينظرون الى الأحداث اللبنانية على أنها جزء من جبهة أعرض بكثير . وكما ذكرنا آنفا ، فقد رد ناصر على توقيع حلف بغداد بشن حملات قاسية ضد نوري السعيد في العراق والملك حسين في الاردن وكميل شمعون في لبنان بغية اسقاط أنظمتهم والاطاحة بهم . وقبيل نشوب الازمة اللبنانية ، كان « أزام » ناصر قد حرصوا اللاجئين الفلسطينيين في الاردن ضد الملك حسين ، كما أفلح ناصر باغراه الملك سعود بالتكفل بأعباء الحملة ماليا . الا أن الحكومة الامريكية أوفدت كيرميت روزفلت الى المملكة العربية السعودية لاقتناع الملك سعود بايقاف معونته المالية . وبعدها توجه كيرميت الى الاردن لبحث أوضاع الملك ولإيجاد الطرق لدعم نظامه الذي كانت تعتقد الحكومة الامريكية أنه أقل أنظمة « الخوارج » الثلاثة - نوري وشمعون وحسين - استقرارا وصمودا . وقد حالف النجاح روزفلت في مهمته باقتناعه الملك سعود أن ناصرا قد خدعه عندما أغراه بمعاودة الملك حسين من جهة وبشرائه الصحف الشيوعيه في كل من دمشق وبيروت من جهة أخرى . كما تمكن روزفلت من اقناع الملك سعود ببحار اجتماع القمة الذي كان ناصر قد دعا لانهقاده في القاهرة في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧ ، وبممارسة الضغط على كل من ناصر وصبري العسلي (رئيس وزراء سوريا يومها) لتقديم مساعدة مالية للاردن كبديلة للمساعدة البريطانية التي خسرها الملك حسين نتيجة رفضه الانضمام لحلف بغداد (تحت ضغط من ناصر) .

وهكذا فستتوفر للملك سعود الفرصة للتأكد من مدى جدارة شركائه بثقتهم وذلك من خلال وفائهم بالتزاماتهم المالية تجاه الأردن . الا أن الملك سعود قد أفسد اللعبة عندما خُدع بالمداهنات الأمريكية أثناء زيارته لواشنطن ، بعد اجتماع القاهرة ، مما دعا ناصرا أن يسحب ما وعد به من معونة مالية . وهكذا نجحت نوبة الايقاع بين المصريين والسعوديين ، وتبعتها لعبة أخرى للايقاع بين الاردنيين والمصريين فقد كان الملك حسين قد انضوى تحت لواء ناصر وانضم الى « جمعيته » . الا أن روزفلت قد انتزعه من بين براثن ناصر ثانية . وقد ادعى ناصر فيما بعد أن روزفلت قد مرّر معلومات معينة الى كل من أبي بووار وسليمان النابلسي أغرتهم بالتحضير لانقلاب ضد الملك . وعند التنفيذ وجدا أن كل تلك المعلومات كانت مزورة وملفقة كما وجدا الملك في انتظارهما (١) . وهكذا تم لروزفلت ما لم يتم لناصر .

وفي عام ١٩٥٢ ، شرعت اذاعة القاهرة ببث برامج خاصة تحت اسم « صوت العرب » كوسيلة من وسائل تشييد ناصر لصرح « أسطورة القومية العربية » وفضح أعدائها والغرباء عنها ، ولترسخ في الأذهان مواصفات « عملاء الاستعمار » حتى يسهل على الجماهير في المنطقة كشفهم واماطة اللثام عنهم (وكانت تقصد أيضا مطابقة هذه المواصفات أم لا على كل من شمعون وحسين ونوري) . وبعد توقيع حلف بغداد مباشرة ، رفع « صوت العرب » من عدد ساعات البث اليومي ساعتين ، كما بدأ يركز على التحذير من أعداء « أسطورة القومية العربية » ، بدلا من التركيز على « تشييد صرحها » . ومنذ ذلك الوقت وبرامج اذاعة القاهرة تزداد قوة وبثا وتركيزا (فيما تحتويه من معلومات) . وفي عام ١٩٥٧ كانت اذاعة القاهرة تدعو الى أعمال الشغب والعنف وتحرض على الاغتيالات جهرا بافتضاح . وقد جاء مرة في احدى اذاعاتها : « وأخيرا ، فلقد عثرنا على الخائن نوري ، وان كانت العزة والكرامة تجريان من العراقيين مجرى الدم في المروق فان عليهم أن يقتلوه ويطرحوا أشلاءه الى الكلاب » .

(١) لقد تكررت هذه العملية ثالثة عندما حاولت عناصر عسكرية تابعة لاحد الاحزاب الدينية في الأردن القيام بانقلاب ضد الملك . فقد توجه الضابط الملكف باحلال الادعاء الى العصور الملكية وتناول القهوة بصحبة الملك (١٩٦٩) .

واسترعت صيحات « صوت العرب » انتباه أجهزة المخابرات البريطانية والأمريكية بعدما تم تسجيلها من قبل « هيئة معلومات الاذاعات الاجنبية » القائمة في جزيرة قبرص ، والتي تلتقط كافة برامج اذاعات الشرق الاوسط ومعظم اذاعات افريقيا واذاعات بعض مناطق الاتحاد السوفييتي وتسجلها . وعندما دعا مذييع « صوت العرب » الى اغتيال نوري السعيد ، انكب خبراء الدعاية ومحللو المعلومات في كل من لندن وواشنطن (وحتما في كل من باريس وبكين وموسكو وبضع عواصم أخرى) ، على دراسة برامج اذاعة القاهرة بجد واهتمام غربيين لم يشهد العالم نظيرا لهما منذ أيام هتلر . وعلى نحو ارتجاعي ، فقد تم تمحيص هذه البرامج الاذاعية أكثر من مرة لتحديد قوة تأثيرها الخارجي ، وللوقوف على حقيقة المخطط الذي وراهها ، وللعثور على مواد اذاعية صالحة لشن حملات مضادة للدعاية المصرية . ومن الغريب أن تلك البرامج الاذاعية كانت لا تبدو أكثر من مجرد هراء وسفسطة اذا ما محصت جملة جملة ، الا انها سرعان ما تبدو وكأنها حملة متكاملة ومنظمة بهارة فائقة عندما ينظر اليها ككل . وفي اوائل عام ١٩٥٦ ، قامت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بتمويل دراسة حول ردود فعل المستمعين لبرامج القاهرة الاذاعية في كل أنحاء العالم العربي . وانتهت الدراسة الى النتيجة التالية : ان اذاعة القاهرة قد حظت بأكبر نسبة من المستمعين بدوا كانوا أو حاضرة ، ومارست تأثيرا جيدا على العرب فساقتهم سوق التنويم المغناطيسي تحريكا وتوجيها . وتجاوز تأثير اذاعة القاهرة الى المثقفين الذين هم آخر من يتوقع منهم استحسان برامجها واستساعة صيحاتها فانساقوا معها ايضا دون أن يجدوا لسلوكهم تفسيرا مقبولا . وقد أخبرني يوما أحد خبراء الدعاية أن أي تاجر شرقي ذي ميول غربية يترك مذياعه مفتوحا على اذاعة القاهرة ، سرعان ما تساوره الشكوك تجاه الغرب لسماعه أقصر البرامج ، كما أنه يشعر بعيل وعطف نحو حجاج ناصر ، ونظراته . وعلى حد قول علماء « الدوافع والبواعث » ، فان نداءات اذاعة القاهرة كانت نداءات « لاشعورية » وكانت بدون شك ذات تأثير متصاعد باطراد .

ولم يكثر نوري السعيد للامر . وكان جل رد اذاعة بغداد على حملات القاهرة الضارية ، هو تكرار اذاعة أغنية هزلية شهيرة حول « البوسطجي » ، قاصدة بها التهكم على ناصر (لكونها مبنية عليه) والنيل منه . الا أن أثر اذاعة

الاغنية لم يكن ضد ناصر ، بل على العكس لصالحه ، فقد احرزت تأثيرا لا يقل عن تأثير برامج اذاعة القاهرة ذاتها . وطفق « صوت العرب » يردد نفس الاغنية ليظهر الدرك الذي انحدر اليه راديو بغداد . وبالمقابل قام راديو بغداد باعادة تسجيل لصيحات اذاعة « صوت العرب » التي تعرض العراقيين على اغتيال نوري السعيد ليظهر بدوره الدرك الذي انحدرت اليه اذاعة القاهرة . وفي خضم كل هذا التلاسن المتبادل لم تكن الدعاية المضادة لراديو بغداد أكثر من قشة في مهب الرياح حتى ادركها خبراء الدعاية الغربيون وعدلوا .

وقامت حكومة الولايات المتحدة الامريكية ، بتجربة ألوان عدة من الدعاية المضادة لاذاعة القاهرة ، التي زادت من قوة بثها في أوائل عام ١٩٥٦ حتى تغطي مناطق أوسع من افريقيا . وتعرض الخبراء الامريكيون لامكانية استخدام الاذاعة اللبنانية لهذه الغاية الا أنه سرعان ما أفلح الجانبان اللبناني والامريكي عن هذه الفكرة خشية تفاقم الاحتكاك بين المسلمين والمسيحيين في لبنان . كما أن الإبقاء على لبنان خارج هذا الميدان من ميادين الحرب الباردة ، سيكون أكثر تقبلا وأشد ترحيبا . وقد خطرت ببال الحكومة الامريكية فكرة اقامة محطة بث جديدة في ارضه بتركيا ، أو مساعدة البريطانيين في رفع قوة بث اذاعتهم في قبرص (وفي الحقيقة فقد احرز بعض التقدم في هذا المجال الاخير) . وسرعان ما بدت فكرة اقامة محطة اذاعة جديدة في المنطقة لمنافسة محطة اذاعة القاهرة كفكرة نقل مدينة التمثيل الشهيرة « هوليوود » الى مدينة دي ميوني (في آيوا ، إحدى الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة) اثنائية المقفرة الجديدة بالقاهرة تموج بأفواج الممثلين والمغنيين والمخرجين والكتاب والفنيين ، ولن يتوفر ذلك في أية مدينة عربية أخرى الا بشق الانفس ، وبعد ربح من الزمن . وفي خضم هذه الأفكار المتضاربة ، لمعت بارقة أمل عندما طرحت فكرة تدمير أجهزة ارسال محطة اذاعة القاهرة واسكاتها نهائيا . وهذا ما حدث بعد ذلك فعلا . ففي أثناء أزمة السويس في تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٥٦ ، قام أحد طياري سلاح الجو الملكي البريطاني بالقاء وابل من القنابل عليها ، الا انه أخطأ الهدف ولم يصبها .

ومهما بلغ أثر دعابة اذاعة القاهرة قوة وعنفا ، فان تكاليف تشغيل الاذاعة غدت باهظة وأكثر مما تطيقه الميزانية المصرية . وكان من نتائج ازدياد نداءات

اذاعة « صوت العرب » ، تضخم نشاطات أجهزة المخابرات المصرية احتدام معاركها السياسية ، وبالتالي ، ارتفاع التكاليف وتكدس الاعباء المالية . ومن الصير أن يحصي المرء جملة ما تكبده المصريون من نفقات كثيرة اثناء الازمة اللبنانية في عام ١٩٥٨ . الا أن بعض المطلعين الغربيين على تلك العمليات قد كشفوا النقاب عن نفقات تجاوزت أرقامها الملايين من الدولارات . كما أن الحكومة اللبنانية قد أماطت اللثام بعد انتهاء الازمة عن أدلة مقنعة تفيد أن أحد « البيارة الاربعة » قد تلقى ما لا يقل عن سبعة ملايين دولار دون أن يشاركه فيها أحد . وعند جمع مثل هذه الارقام معا وضم أرقام نفقات كل أجهزة المخابرات والمباحث والامن العام في القاهرة اليها يفدو حاصل نفقات أجهزة الامن القومي والعمل السياسي المصرية أكبر بكثير من أرقام نفقات مثيلاتها في الدول الغربية (على حد قول بعض هذه الاجهزة) التي كانت متواضعة في عامي ١٩٥٧ و ١٩٥٨ .

وليست النفقات المباشرة للعمل السياسي بكثيرة ، الا أن المحافظة على متانة خطوط المجابهة وضمان الصمود في ميادين المارك السياسية - وخاصة داخل البلاد - يتطلب الكثير ويمتص الثروات ويرفع من أرقام الميزانيات . ولا أزال أذكر شجون الحديث الذي دار بيني وبين أحد ضباط ناصر المسؤولين ، وقد قال لي يوماً : (لو حلت بمصر كارثة سلختها عن بقية العالم ، وجعلت منها جزيرة نائية في وسط بحر هائج لا يهدأ له قرار ، وأبقت لنا « نيلنا » وتربتنا وبقية مصادر طبيعتنا ، فأننا - نحن المصريين - لن نعاني من أسى أو نقاسي من ألم . سيزرع البعض قطننا ؛ ويحيك الآخر نسيجنا . ستبذر الارض ذرة وأرزاً ، ويحصد الفلاح ما نبت من زروع وألقي من بذور . وسيعالج بعضنا الاضراس ، ويصنع الآخرون الحذاء ، وسيعنى الاساتذة بالناشئة ، ولن نعرف للمشردين وجوداً . ولكن عندما نصر على أن نكون قوة عالمية ، فسنبقى في الدواوين ، ووراء المكاتب جالسين ، مستهلكين أبداً غير منتجين أو مصنعين . ان المرء لن يتصور جوعاً ، ولو كان على جزيرة نائية ، مجده وقاحلة ، طالما أنه لا يطعم بجار له ولا يحشر أنفه في شؤون صديق ، وبمباراة أوضح ، طالما لبس هناك من نفوذ يقلق على ضياعه ، ولا داع لمراقبة « دهاة الغرب » على مسرح « العلاقات العالمية » .)

ولكن لم يكن لمصر سبيل لان تمتزج العالم وتعيش على انفراد . ولو أنه قدر للمصريين هذا وغدوا « انمزاليين » راضين أن يقتاتوا بما تخرجه لهم أرضهم وما تدره بلادهم عليهم من خيرات - كما تمنى ذلك آنفا أحد ضباط ناصر - فان العالم من حولهم لن يدعهم وشأنهم ولن ينفك عن الضغط عليهم بشتى الأساليب . وحتى حكومة الولايات المتحدة الامريكية ، التي ما فتئت تشجعهم من وقت لآخر على العودة الى مبدأ « مصر أولا » ، فانها لم تمنح ناصرا تأييدها الحقيقي الا على أساس النظرية القائلة « ان ناصرا سيفقدو مثالا يحتذى به في بقية انحاء العالم العربي » .

ونظرية « الزعامة القدوة » قد ملكت على الامريكيين تفكيرهم وملات عليهم حياتهم . وان كانت الفبطة تملأ قلب الحكومة الامريكية ويفررها السرور كلما عاد زكريا محي الدين الى الظهور على مسرح الاحداث في مصر - كتسلمه منصب رئيس الوزراء أو نائب رئيس الجمهورية أو رئاسة اية لجنة أخرى - فليس سبب ذلك عطف زكريا على الامريكيين وميله لهم (فهو لم يسكن كذلك يوما ، ولن يكون) بل سببه أن زكريا هو أحد أفراد بطانة ناصر القائلين بمبدأ « الزعامة القدوة » ومن المنادين بمبدأ السيطرة على العرب وقياداتهم ، عن طريق البناء والاعمار ، واتباع الوسائل الايجابية وليس عن طريق العنف وتحريض الارهابيين ضد رؤسائهم وحكام بلادهم .

ومن وجهة نظر اقتصادية ، لم يكن الامريكيون يفكرون بأن الاوضاع في مصر سوف تتغير تغيرا جذريا . لقد كانت نظرتهم أن مصر ستبقى اقتصاديا كما كانت تقريبا قبل قيام ناصر بانقلابه ولكن مع تحسن وتقدم في جوانب الحياة ومعاملها ، وارادوها أن تلعب دور «براسكاه» (١) في حياة « نيويورك أوربا » . وستكون معالم الاقتصاد المصري كما يلي :

● تصدير المواد الاولية : اعتقد الامريكيون أنه لن يكون بمقدور المصريين تصنيع أجهزة الراديو والسيارات وغير ذلك بنفس تكاليفها المتدنية التي يمكنهم

(١) مركز انتاج زراعي في وسط غرب الولايات المتحدة . ونيويورك مركز صناعي ضخم (العرب)

شراؤها من الدول ذات الخبرات الطويلة في مجال الصناعة • ويشارك المصريين بهذا الوضع أمم كثيرة أخرى تخلفت عن ركب الثورة الصناعية بأشواط بعيدة • كما اعتقد الأمريكيون أنه لن يكون هناك أية فرصة لادراك المصريين السدول المتقدمة صناعيا وللحدق بها • ففي نفس الوقت الذي ينكب المصريون فيه على تطوير أنفسهم وتصنيع بلادهم - دون أن يكون لديهم أية مغطيات أولية في هذا المضمار - يكون الألمان والإيطاليون والفرنسيون - دون ذكر اليابانيين (١) - قد قطعوا أشواطا أكثر بعدا وأصعب منالا • ومهما كان تصميم المصريين على تصنيع أنفسهم واصرارهم على اللحاق بغيرهم ، فإن الهوة الفاصلة بينهم وبين الدول المتطورة صناعيا ستزداد اتساعا ، ولن تضيق أبدا • أما إذا التفت المصريون الى تطوير وتحسين مواردهم الطبيعية فسيبيعونها للأمريكيين بالعملة الصعبة وسيبتاعون بها ما يشاءون من المنتجات المصنعة التي هم في حاجة اليها •

● التصنيع الخفيف : على المصريين أن ينضموا الى نادي الصناعة ، الا أن ذلك يجب أن يكون ضمن حدود طاقاتهم وأن يكون معتمدا على انتاجهم الزراعي وأن يضمن لهم قدرا كائيا من العملة الصعبة • وكان الأمريكيون معارضين لمبدأ « التصنيع للتصنيع » أو ما يسمى « بصناعة العزة والكرامة » مثل إقامة معامل الصلب والحديد ومصانع السيارات التي تظهر أبسط الحسابات على أنها خاسرة وغير مربحة •

● المشاريع الحرة : لقد ارتاع المسشازون في الشؤون الادارية الذين خدموا في مصر في الايام الاولى لحكم ناصر لضخامة جهاز الموظفين في مصر وعجزه عن تادية واجبه • وبدا لهم جليا أن السبيل الوحيد لخلق مشاريع صناعية وأخرى لتوفير العملة الصعبة ، هو فتح الباب على مصرعيه أمام الافراد للمنافسة والابداع وايجاد الحوافز لهم • وباعتقاد اولئك الخبراء ، ان كل ما يمكن للحكومة تقديمه ، هو ترك مثل اولئك الافراد أحرارا يكدهون ويبدعون • وإذا كانت الحكومة ولا بد ناصحة لهم ، وموجهة لنشاطاتهم ، فان عليها أن تفعل

(المعرب)

(١) يقصد ان اليابانيين قد فاقوا القياس والمقارنة •

ذلك بقصد زيادة انتاجهم وليس بقصد اعاقتهم وملاحقتهم بتهمة تهريب الاموال
والارباح .

● الاستثمارات الاجنبية ، الخبراء الاجانب : رأى الامريكىون أن
الفرصة سانحة أمام المصريين للاستفادة من رغبة رجال الصناعة الغربيين في
الهرب من كابوس الضرائب المرتفعة داخل بلادهم وفي دخول مصر لاقامة مشاريع
صناعية بالاشتراك مع المصريين ، أو لعقد اتفاقيات تمنح المصريين حق انتاج
صناعاتهم داخل مصر ، أو لاقامة مصانع خاصة بهم (لا تستخدم الاعمال
مصريين) . وقد تراهى يومها ، أن هذه الفرصة ستوفر للمصريين واردا جيدا من
العملة الصعبة ومجالا واسعا لتشغيل اليد العاملة في بلادهم ومدحا بالخبرات
اللازمة . كما أنها تفتح الاسواق أمام كافة المنتجات المصرية سواء التي أنتجتها
مصانع الشركات الاجنبية أو المصانع الوطنية والتي يمكن تصريفها معا بنفس
الطرق والوسائل .

● مجتمع مدني وجيش صغير : لقد أدركت وزارة الخارجية الامريكية
ضرورة امتلاك ناصر جيشا قويا لدعم قاعدة القمع وللمساعدة في المحافظة على
الامن الداخلي ، وللاستماعة - الى حد ما - ببعض ضباطه في ادارة المؤسسات
الحكومية المدنية التي تعاني فسادا عاما وانهارا شاملا . ويرى الغربيون - الذين
لا يهتمون بغير الجانب الاقتصادي لمصر - أن الغاية من وجود حكم قوي في البلاد
هي حفظ النظام وتطبيق القانون ، وهذان لا يتطلبان جيشا ذا تعداد كبير كما
هو حال طبقة « المسكريتاريا » التي ارادها ناصر دعما « لقاعدة القمع » وضمانا
لبقاء النظام . لقد تعلم رجال الاعمال وعلماء الاقتصاد الغربيون في مجتمعاتهم
أن الحكومة تتغير من وقت لآخر وبصورة طبيعية نتيجة ثقة يحجبها البرلمان عنها
أو انتخابات تجري في البلاد . الا أن ناصرا لم يتعلم هذا . لقد كانت نيته
البقاء في الحكم والخلود فيه .

وتظهر محاضرات المناقشات التي دارت بين مختلف الرسميين وغير الرسميين
الغربيين وبين المسؤولين المصريين خلال سنوات حكم ناصر الاولى ، انه ليس
هناك أي تناقض بين فلسفة ناصر يومها وبين الافكار الآنفة الذكر . كما أن عدم
وضع ناصر تلك الافكار موضع التنفيذ يعود الى قلة خبرته وعدم لمسه اية أهمية

لها . ولكن بعد انتهاء أزمة عام ١٩٥٨ اللبنانية بدا أن ناصرا يحمل افكارا جديدة من صنعه وانتاجه ، ولا تمت الى المبادئ الآنفة الذكر بأية صلة اطلاقا . لقد كانت الازمة اللبنانية أول ما استرعى انتباه رجال الاعمال الغربيين عامة واثار حفيظتهم . فليومها ، لم يكن قد شعر بنمو الثورة وانتشارها سوى بعض شركات البترول . ولكن حوادث لبنان أثارت انتباه أكثر من مائة وعشرين شركة أمريكية علاوة عن عدد غير قليل من الشركات البريطانية والاوروبية الاخرى كانت تتخذ من بيروت مقرا لها ومنطلقا لعمالها في منطقة الشرق الاوسط . وقد اضطرت يومها أن تعيد النظر بأوضاعها فجأة ودون سابق انذار . وفي ضوء النتيجة التي انتهت اليها الازمة اللبنانية ، كان السؤال الوحيد الذي اخذ يقلق بال رجال الاعمال الغربيين ويحير البائهم دون أن يعثروا على جواب شاف له هو : « ما هي أفكار ناصر ؟ وما هي آراؤه عن اقتصاد المنطقة التي يأمل بالسيطرة عليها ؟ وما مدى تأثير هذه الآراء وتلك الافكار على أوضاع شركائنا واستثماراتنا ؟ »

وفي حزيران (يونيو) عام ١٩٥٨ ، كان لي ولشريكى ثلاثة زبائن : شركة بترول ، ومصرف ، وشركة طيران . وقبل نهاية أيلول (سبتمبر) من نفس العام تقدمت لنا عشرات الشركات الامريكية بطلبات لدراسة الاتجاهات التي يتوقع لها أن تسود في المنطقة بعد «انتصار» ناصر في صيف عام ١٩٥٨ في لبنان (ولم يفكر أي رجل أعمال بأن ذلك لم يكن أي شيء آخر غير «انتصار») . ولم يقتصر هذا على شركتنا فقط ، بل ان كل الشركات الاخرى التي تزاول نفس مهنتنا قد تلقت طلبات مماثلة . فقد أضحي الموقف مقلقا ، وأخذت كافة الشركات الامريكية التي لها استثمارات رئيسية في المنطقة الى جانب شركات أخرى كانت على وشك توظيف أموال طائلة هناك ، تدرس الوضع عن كثب . كما قامت معظمها بإجراء دراسات مستفيضة في مقراتها الرئيسية بدافع من نفسها عن تطورات الاحداث في المنطقة . وكم ضايق هؤلاء وزارة الخارجية في واشنطن بطلباتهم المستمرة وأسئلتهم المتواصلة عما يدور في منطقة الشرق الاوسط من أحداث وعما تجمع لديها عنها من معلومات .

وبعد انتهاء الازمة اللبنانية وانقشاع عمالتها ، بدأت كسل من وزارة

الخارجية الامريكية وطبقة اصحاب المصالح الامريكية في الشرق الاوسط تسلك طرقا مستقلة عن بعضها البعض . ولكن لم يبدُ هذا جليا حتى عهد ادارة الرئيس كينيدي ، ونزول قوات ناصر في اليمن . لقد كانت النظرة السائدة يومها في اروقة وزارة الخارجية الامريكية ، أن ناصرا لم يحرز حقيقة أي « انتصار » في لبنان . فالحكومة التي تربعت على عرش السلطة هناك كانت حيادية حقا ، « ومبدأ ايزنهاور » - وان كان ميتا - قد حقق هدفا جديرا بالاهتمام والانتباه . وبخصوص سلوك ناصر مستقبلا ، فاننا - نحن الامريكيين - كنا نفضل ناصرا على أي زعيم آخر يمكن أن يحل محله نتيجة انقلاب يطيح به أو ثورة تجتث نظامه . وأما من الزعماء العرب الآخرين ، فما كان أحد من أولئك الذين كانوا في السلطة يومها يستهوي فؤادنا ويسحر البائنا أكثر من ناصر . كنا نفضله على قابس العراق (الذي خاض معه ناصر غمار صراع مرير لانه حاول الخروج على ناصر لصالح الشرق بعدما خرج نوري عليه لصالح الغرب) ، وعلى الملك سعود . وحتى على الرئيس اللبناني شهاب (الذي كان ينظر اليه بعض ديبلوماسييننا على انه « نجيب ولكن لا ناصرا معه » (١)) . وبغض النظر عن المصائب التي كانت تحل به كل ثلاثة أو أربعة أعوام ، فان ناصرا كان يزداد قوة وصمودا . فهو هناك ، ودائما هناك ، والتفكير بغيره عبث ، والعبث حرام .

أولا : ان قيام ناصر بدور « نيراسكا » (أي انتاج المواد الاولية الزراعية) وغيره يقوم بدور « نيويورك » (أي الصناعة) لا يمكن أن يخدم أبدا أيا من اهدافه التي كان يحلم بها . فهو يريد أن يبقى في الحكم ، ويريد الحكم أن يبقى له . وهذا من أول اهدافه وأغل أحلامه . ولتحقيقه ، فهو لا يقبل بحكومة متواضعة الحجم وجهاز اداري قليل العدد عظيم الفعالية ، لانهما لا يساعدها البتة على ضمان الحكم واستقرار السلطة . فناصر لا يرى أن هدف الجهاز البيروقراطي في دولته هو لخدمة الامة والسهر على مصالحها ، وانما هو أحد أركان « قاعدة القوة » التي يرتكز اليها سلطانه - فالالاف المؤلفة من الموظفين ليسوا موظفين وانما هم لبنات في هيكل الحكم وصرح عظمته . انهم الشعب وقواعد النظام ومرتكزاته . يبلغون المليون في التعداد ، وتمج بهم أحياء القاهرة ويموجون في شوارعها .

(١) تمنى الجملة ان شهاب كاللواء نجيب في مصر ولكن لم يكن مع شهاب من يلعب دور جمال عبد الناصر .

(المغرب)

يؤلفون طبقة كاملة من طبقات الأمة ، ويرفدونه بحشود هائلة من الاتساع والانتصار . وهم فوق كل هذا وذاك ، أعضاء حزبه الوحيد ، ولا غيرهم من الأمة أعضاء فيه . أما أن يقتصر ناصر على مائة وثمانين ألفا من الموظفين (وهذا أقصى ما سمحت له به مؤسسة أمريكية للاستشارات - كان ناصر قد طلب منها دراسة الوضع عن كتب - لايجاد ادارة فعالة) ، فان هذا لن يفي بالفرض ، ولن يحقق الهدف . وكذلك الامر بالنسبة للجيش ، فناصر لا يكتفي بجيش صغير العدد محصور المهام (مثل احماد الاضطرابات وقمع المظاهرات داخل مدن البلاد) ، يقل عن خمسين ألفا وليس أكثر . فهو حقا لم يرد جيشا ، بل أراد خلق طبقة من المسكر ، « عسكريتاريا » . وما كانت لتكون « طبقة » الا اذا تجاوزت في التمداد ستمائة ألف أو تزيد .

ثانيا ، فالاقتصاد الذي جعل همه تصدير الخام من المواد واستيراد الجاهز من الصناعات ، لا يعني سوى أن الذين يعيشون في ظلّه ليسوا أكثر من مواطنين من الدرجة الثانية ، ولا يختلفون عن حالهم في ظل الاحتلال البريطاني الا قليلا ، ولهذا فلا يمكنهم أن يختالوا تيبها ويتبخثروا زهوا ، لاعتقاد ناصر أنهما من الضروريات لشعبه . وليس هذا فحسب ، بل قد أدرك ناصر أن اقتصادا كهذا ستنحكم فيه عوامل كثيرة وسيبقى تحت رحمة الزبائن وهوامهم . فالتغيرات الطارئة على أسعار القطن وسوقه ، ذات تأثير غير يسير على الاقتصاد المصري ، وكم سبق أن هزته من أركانها هذا . الا أن تأثيرها على البلاد المستوردة له طفيف جدا ، بل يكاد أن يكون معدوما . وناصر لا ينسى كم استفلت القوى الاجنبية نقاط الضعف هذه . فهو لا يزال يذكر جيدا كيف عامله اسدقاؤه من السوفييت ، ولم يمض على هذا زمن بعيد . لقد استفلوا ما حل بسوق القطن في الغرب مرة من كساد وما أصابه من ركود ، فاشتروا كل ما بوسعهم أن يشتروه وزادوا في أسعار قطن مصر حتى يفوزوا بحصة الاسد من جملة صادراتها فيبطووها اليهم ويخضعوا اقتصادها لهم . الا أنهم بعدئذ خفضوا الاسعار وباعوا القطن في أسواق العالم . وأحس ناصر بفعلهم هذا ، ولم ينسه . لقد تعلم كيف يتلاعب المتلاعبون باقتصاده ، وكيف تجمل القوى الكبرى منه « اقتصاد ما وراء الكواليس » . وهكذا أيقن ناصر أن اقتصادا يبنى على انتاج الخام من المواد وبيعها معرض للخطر دائما ، كما أنه اجتماعيا ، أمر للقدر محط وللنفس مثل .

وثالثا ، فقد اعتقد ناصر أن الامة التي تقتصر مهمتها على مد الدول الصناعية بالمواد الاولية ، وفيها معظم رأسمالييها من التجار وليس من الصناعيين والمستثمرين للاموال (كما هو الحال في الغرب) ، لا تلبث أن تنتج مجتمعا فيه طبقة من الاغنياء الفاسدين الذين لا يشعرون بواجب تجاه وطنهم ولا يساهمون في زيادة دخله ورفع انتاجه ، بل انهم للارباح في سويسرا تاركون ولاموالهم الى الخارج مهربون . وعلى خلاف ما يحلم به ناصر من مجتمع « الفرد لكل ، والكل للفرد » ، والذي لا وجود له الا في « جزيرة الاحلام » ، أو في مجتمع ناصر « الاشتراكي » ، فان المجتمع الذي يبنى اقتصاده على النحو الذي أسلفنا عنه – نحن الامريكيين – لن يفكر في غير عطور فرنسا وسيارات السبور من أوروبا وتمضية أيام عطلته على شواطئ الريفيرا . وهكذا كانت حقا القشرة الخارجية للمجتمع المصري قبل قيام ناصر بانقلابه . ولم يكن حرص ناصر على ازالة آثار طبقة التجار الاثرياء أقسل من حرصه على خلق طبقة « اصحاب السواوين » (البروقراطية) وطبقة « العسكريةتاريا » ، وبالتأكيد ، فقد كانت طبقة العمال الكادحين « البروليتاريا » على رأس القائمة وفي مقدمة الصورة .

ويقودنا السياق الى النقطة الرابعة - فعندما اشار خبراء مؤسسة التمويل العالمية (١) على ناصر ، أن يركز اهتمامه على المحافظة على أسعار الجنيه المصري ، وأن يستغني عن المصانع التي سترهق المستهلك بأسعار أعلى من الاسعار المنافسة لها في الخارج ، أجاب يومها قائلا : « ان التصنيع هو هدف بحد ذاته ، وليس فقط وسيلة لانتاج البضائع وتصنيع المواد » . ان الامة التي تحتسرم نفسها هي تلك التي تملك مجتمعا متكامل الجوانب ، فيه الموظفون والجنود والضباط والمفكرون والمهرجون والمبنيون والاداريون والعمال ، وكل بنسبة ثابتة لا تفسد تماسك المجتمع ولا تفقده سلامة توازنه . وأخير ناصر مرة زائرا أمريكيا قائلا : « ان اخترع امرؤ وسيلة ما لانتاج الغذاء وتحضيره صناعيا بصورة لم يعد هناك حاجة الى فلاحين ليزرعوه ويحصده ، فانكم – معشر الامريكيين – سترفضون هذا بالتأكيد . وليس ذلك لشيء سوى انكم تأبون أن تختفي طبقة الفلاحين من مجتمكم . ولنفس السبب فاننا نريد خلق طبقة من

(١) ربما صندوق النقد الدولي .

(المعرب)

العمال الكادحين ولو اضطررنا الى اقامة مصانع لا لزوم لها عندنا ولا حاجة لنا .
بها .

ولنفس الغاية ، وبالاهمية ذاتها ، يصير ناصر على خلق طبقة الاداريين .
وكان حريصا على خلق « ثورة ادارية » كالتي يتكلم عنها جيمس بورنهام في
كتابه . وفي مصر كانت أولى مدارس علم الادارة في الشرق الاوسط ولم يكن
سواها هناك . وكانت تطبق مناهج مدرسة ادارة الاعمال في جامعة هارفرد
(وجامعات شهيرة أخرى) وتستعير بعضا من اساتذتها . واما اساتذة علم
ادارة الاعمال المصريون فقد اتموا تدريبهم في الغرب ، وكانوا يترددون على بغداد
والخرطوم وطرابلس وحتى بيروت حيث يلقون المحاضرات ويعقدون فصول
الدراسة . وهناك أدلة عديدة تظهر أن ناصرا قد أنشأ بضعة معامل - على
الاقل - لا لسبب سوى تضخيم سلك الاداريين وزيادة عددهم (وناصر يصير
على انكار هذا) . وسألت مرة مدير ادارة (المههد القومي لتطوير شؤون
الادارة) : «لماذا تركت بعض المصانع الحديثة (١) مستمرة في العمل ؟ فأجابني
قائلا : «حسنا، اننا بحاجة اليها . لقد أبقيناها كمخابر نجرب فيها مختلف أنظمة
الادارة » . وقد علمت فيما بعد أن عددا آخر من تلك المعامل قد ترك مستمرا
في الانتاج بعدما قرر له أن يفلق أبوابه ، وكان ذلك بسبب التماسات
واستعطافات قدمها معهد الشؤون الادارية نفسه .

واهم ما نذكره أخيرا في هذا المجال هو أن « الاستعراض الكبير » أكثر
تأثيرا وأكبر صيتا من « الاستعراض الصغير » (٢) . فقد برهن الاول على أنه
أكثر ادارا للمساعدات الاجنبية للفت أنظار دافعيها واسترعائه لانتباههم
مباشرة . أو أنه يدفعهم لبذل المساعدات نتيجة التأثير الذي يحدثه داخل أروقة
« مجموعة دول الحياد الايجابي » ، وبالتالي يحركهم على أسس سياسية بحتة .
لقد دافع عدد من علماء الاقتصاد الامريكيين عن الرأي القائل ان بإمكان مصر
أن ترسي قواعد اقتصادها على أسس زراعية مع التخفيف من اعتمادها على

(١) التي تساوى نفقاتها وقيمة انتاجها ، فلا تجنى أرباحا . (المغرب)

(٢) الاستعراض الكبير أي المشاريع الكبرى والاستعراض الصغير المشاريع المتواضعة والمشاريع

هنا هي المصانع والمعامل والسدود وسكك الحديد ٠٠٠ الخ . (المغرب)

محصول القطن وزيادة انتاجها من المحاصيل الغذائية الاخرى . كما أن بإمكانها أن تدخل مرحلة التصنيع بوضع مخطط منظم ودقيق يفيد البلاد أكثر مما تفيدها تلك المعامل المنشورة هنا وهناك بفضوى وعدم تنظيم . الا أن علماء الاقتصاد اولئك ، قد أدركوا (بل وقرروا) أن المساعدات الاجنبية الضخمة لن تستدريها الا « استعراضات ضخمة » ، وأن « الاستعراضات المتواضعة » لن تأتي الا بمساعدات محدودة ويسيرة . لقد أخبرني مرة أحد اولئك المسؤولين عن شؤون المساعدات الخارجية قائلا : « اننا لا نفضل خط الطامحين على خط المتواضعين المتزين ، سوى أنه لا يمكننا اغفال قدر وأهمية من نمنحه مساعداتنا » . وهذا حقيقة ما كان يفكر به ناصر أيضا . لقد كان يحلم بالحصول على أكبر قدر من المساعدات ويأبى أن يكتفي بالئذ اليسير . ولهذا فعندما يسمع ناصر عبارة ذلك المسؤول فإنه سينساها كلها ولن يرسخ في ذاكرته منها سوى « لا يمكننا اغفال قدر وأهمية من نمنحه مساعداتنا » .

عندما انكب المستثمرون الغربيون (والذين كان يحتمل أن يوظفوا ثرواتهم) على دراسة أوضاع الشرق الاوسط بأكمله بعد صيف عام ١٩٥٨ المضطرب ، اعتقدوا أن « مشاريع ناصر الكبرى » داخل مصر ليست سوى نوع من « الاقتصاد الامبراطوري » . وقد نعتها بهذا الاسم جيلبرت بورك في مقالة نشرها في مجلة « فورتن » في تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٥٨ وقرأها يومها كافة رجال الاعمال الامريكيون الذين عندهم أدنى اهتمام بشؤون الشرق الاوسط . وكشفت المقالة يومها على أن جهود ناصر في وضع العرب واحدا تلو آخر تحت سيطرة القاهرة ليست سوى احد طرفي مخطط ضخم ، وأن طرفه الاخر هو جعل مصر المركز الصناعي لامبراطورية عربية حديثة . واستنادا الى هذه المقالة وعدة دراسات أخرى وزعت على مدار كبريات شركات البترول والبنوك وبنات أخرى من رجال الاعمال ، فمن الخطأ ، تفسير خطط ناصر في التصنيع وبرامجه الواسعة في التحويل الاشتراكي وخلقه لطبقتي « أصحاب الدواوين » « والعسكريتاريا » وغيرهما على أساس من مصالح مصر فقط وتقدمها ، ولو أن مصالح مصر لوحدها تجسدت في الجزء الطافي من جبل جليد في بحر ما فإن القسم المغمور منه (١) لا يشير الى غير نية ناصر التحكم بكافة

(المغرب)

(١) أكثر من أربعة أخماس جبل الجليد يكون مغمورا في الماء .

اقتصاد العالم العربي وموارده الطبيعية دون استثناء البترول منها . ولم يكن اعتقاد اوساط رجال الاعمال في الغرب غير ذلك .

والمتجردون من المراقبين والنزيهون من اصحاب الفن والخبرة الذين دأبوا على متابعة تحركات ناصر ودراسة تصرفاته (وليس لهم اهداف تجارية او غايات سياسية) ، لم يقتنعوا ان اهداف ناصر وغاياته هي تماما تلك التي تنبأ بها غيرهم آنفا . لقد كان جل اعتقادهم انها أشد خطرا وأكثر ازعاجا ، وهاكم مناقشتهم للاحداث :

أولا : قدر هؤلاء المراقبون رغبة ناصر في انتهاج سياسة مستقلة واستحسنوها . وفهموا تماما أنه لا يمكن لحاكم أية دولة مستقلة فعلا أن يرضخ لمشيئتنا - نحن الامريكيين - ويفعل ما نريده له .

ثانيا : وأدرك هؤلاء المراقبون (على خلاف رجال الاعمال) أن البقاء في الحكم هو من اهداف ناصر الاساسية وغاياته الرئيسية ، وأن ذلك يتطلب وجود حكومة قوية وقاعدة قمع متينة .

ثالثا : واقتنع هؤلاء المراقبون أن حصول ناصر على مساندة جماهير الشعب له . (وهذا ما يزيد قوة قاعدة القمع) يستلزم القيام بأعمال سياسية لا تروق لنا نحن الامريكيين ، فللمصريين أذواق سياسية لا تشابه أذواقنا ولا تنسجم معها أبدا .

رابعا : ولمسوا حاجة ناصر الماسة الى فكرة « الحياد الايجابي » ليتخذها ستارا عقائديا عند دفع كل من الروس والغرب الى التنافس على كسب وده وضمن جانبه (وهذا ما أظهرته النتائج حقيقة) .

خامسا : ومع أن المراقبين قد استاءوا من ضم ناصر عدة أمم أخرى إلى « رابطة دول الحياد الايجابي » لزيادة فعاليته وتقوية نفوذه وقلقوا للجوئه الى العنف والارهاب لاختضاع « الخوارج » واعادتهم الى الصف ، الا أنهم لم يفاجأوا بها أبدا بل كانوا لها متوقعين وبها متنبئين .

وإذا كان القارىء شاكا بحقيقة ادراكنا لكل ما سبق ذكره أعلاه ، وعلمنا

به كلية ، فله ان يراجع قوائم مساعداتنا الخارجية لناصر حتى يتثبت من الامر ويقتنع به . فقد زادت مساعداتنا الخارجية له في السنتين التاليتين عن ايسة سنتين سابقتين لهذا زيادة ملموسة وكبيرة ، لتأكدنا من التزامه بالمبادئ الألفية الذكر واصراره على انتهاجها دون شذوذ أو انحراف .

* * *

ولكن ناصر لم يكن من الموفقين ، ولم يكن الحظ له من المبتسمين . لقد سجن نفسه في حلقة مفرغة ما خرج منها ، ولن يكون من الخارجين . وقلقت عليه حكومتنا (الحكومة الامريكية) قلق الحبيب على الحبيب ، وشفلس بال الاصدقاء ، فلم يغمض لهم جفن ولم يهدأ لهم قرار . أراد ناصر « الاستعراض الكبير » ليكسب به احترام العالم ويربح المساعدات . غير أن « للاستعراض الكبير » تكاليف ولابقائه حيا مصاريف . وللعالم الخارجي طاقات وأساليب ، فهو عن « الاستعراض الكبير » عازف ، ولنفقاته غير مستجيب . لقد تعطلت عجلات « الاستعراضات الكبرى » عن السير ، وتوقفت محركاتها عن العمل ، وغاصت بمن عليها في وحول ومستنقعات لن تنجو منها الا بأعاجيب ومعجزات .



تعدّ القوى العالمية وانتهاج أسطورة القطبين

... وتقلب الاحوال وتحل بك الازمات حتى تفسى طريقا لا دور لك ، وقد كنت عزيزا
منعما .

مع انتهاء أزمة عام ١٩٥٨ اللبنانية ، أخذ الضغط يتزايد على حكومة الولايات المتحدة حتى توقف مساعداتها لناصر . وفي الوقت ذاته شرع الدبلوماسيون الامريكيون في الدول العربية يعربون عن امتعاضهم من « مبدأ ايزنهاور » ولم يظهروا له تأييدا أو حماسا . كما أخذوا ينادون بفكرة « القبول بحقيقة وجود ناصر » وأوضحوا في رسائلهم الرسمية الى وزارة الخارجية « أن العالم العربي في عام ١٩٥٩ لم يعد كما كان أيام لورانس العرب » . وكان الانطباع السائد عندي أنه لولا رجاحة عقل ناصر ومسارعته الى تسوية النزاع بين الاقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة (سوريا) وبين شركة خطوط التابلاين التي تملكها نفس شركات البترول الاربعة الكبرى (وهي ستاندر أويل أوف نيو جرسى وستاندرد أويل أوف كاليفورنيا وموبيل وتكساكو) التي تملك أيضا شركة آرامكو (شركة الزيت العربية الامريكية) في المملكة العربية السعودية ، فان رواق معارضي ناصر كاد ينجح في احكام الحصار حوله وفي حملته عليه . ولم يكن هذا رأيي فقط ، بل كان يشاركني فيه عدد من الدبلوماسيين الامريكيين الذين كنت أتباحث واياهم في مثل هذه الامور . ولا يزال سلوك ناصر مع كافة شركات البترول العاملة في بلاده سلوكا مثاليا وخاليا من الاخطاء والآثام حتى يومنا هذا (١) . رحتي في الاوقات التي

(١) يقصد المؤلف أن ناصرا لم يحاول أن يضع المراقيل في طريق شركات البترول العاملة في بلاده . فلم يناد بتأميم ممتلكاتها أو الحد من تهريب أرباحها أو برفع اسعار ما تصدره من بترول وذلك عكس ما يشار في البلاد العربية الاخرى المنتجة للنفط . (العرب)

كانت أروقة كبريات شركات البترول تكره رجال الكونغرس على سماع شكواها من دبلوماسيينا الذين كانت لهم مواقف لينة مع ناصر، كان مدراء شركات بترول أخرى في تماس مباشر مع ناصر يصرحون سرا في مجالسهم أنهم يفضلون معاملة كبار المسؤولين المصريين - مع ما بينهم من تفاوت في الآراء والتفكير - على معاملة أخلص أصدقائهم من الزعماء العرب الآخرين وأصدقهم . وفي الوقت الذي أضحي من الصعب أن يحل مدراء الشركات في مقراتهم الرئيسية في الولايات المتحدة مثل هذا الرأي السابق الذكر (ولشركات البترول رأبان ، أولهما رأي المدراء الذين هم وراء مكاتبتهم في واشنطن ، وثانيهما رأي خبراء الميدان ، وهذا الوضع شبيه بوضع وزارة الخارجية نفسها) فان جدارة المصريين وكفاءتهم (بالمقارنة مع عدم اتزان المسؤولين السوريين وخداعهم الفاضح) قد دعت قسما غير يسير من أوساط رجال الاعمال الامريكين الى التخفيف من حدة عدائهم لناصر ونزاعهم معه .

وجاء بعدها عهد الرئيس كينيدي . فبعد شهر ، أو ما يقارب الشهر ، من تقلده السلطة رسميا ، وجوبا على رسائل التحية والمجاملة التي أرسلها لكل رؤساء الدول العربية ، استلم الرئيس كينيدي رسالة « من رئيس أفقر ذولة في العالم ولكن أعرقها قدما الى رئيس أغنى دولة في العالم ولكن أحدثها سنا » . وكانت هذه الرسالة (التي ظن محللو وزارة الخارجية الماهرون الذين لهمهم سابق تجربة وخبرة بهذا النوع من الرسائل أنها من حياكة الرئيس ناصر نفسه) تعلق على أوجه الشبه في السن والتكوين العائلي وغير ذلك بين الرئيسين (كينيدي وناصر) ، وانتهت بالاقتراح أنه ليس من اضاءة الجهد والوقت بشيء ، أن يقف الرئيس كينيدي على الفوارق الصارخة بين ادارة دولة كمصر وادارة أخرى كالولايات المتحدة . كما أنه من دواعي سرور الرئيس ناصر أن يستقبل مبعوثا موثوقا من الرئيس كينيدي حتى يطلعه على الحالة في مصر ويسهل له دراسة أوضاعها ومشاكلها عن كثب .

ولم يقف الرئيس كينيدي موقف اللامبالي ، بل هزت الرسالة مشاعره وتحمس لها كثيرا . كما أنه أرسل جوابا عليها بدون تأخير أو تسوية مهتد الطريق أمام حوار بينه وبين الرئيس ناصر . غير أنه مضت شهور عديدة قبل

أن يقبل كنيدي اقتراح الرئيس ناصر ارسال أحد أصدقاء الاول الى مصر لاجراء فحص دقيق لمصاعب الادارة ومشاكلها . وفي أيار (مايو) عام ١٩٦٢ قرر كنيدي أخيرا ارسال صديقه الحميم وأستاذه القديم (ادوارد ماسون) الى القاهرة . ماسون هذا كان أستاذ كنيدي في علم الاقتصاد عندما كان الأخير في جامعة هارفرد ، كما أن ماسون قد ألف كتبا عدة ونشر مقالات كثيرة حول اقتصاد الدول المتخلفة ، ولم تكن نظراته حول هذا الموضوع بعيدة عن نظرات كنيدي نفسه . وعلاوة على ذلك ، فإن كنيدي واثق من انه ليس في قلب ماسون كراهية لاجراءات ناصر الاشتراكية أو حقدا عليها وخصوصا أنها كانت قيد التنفيذ في مصر (مثل تأميم الشركات المصدرة للقطن وتأميم المصارف وشركات التأمين وما لا يقل عن مئتي مؤسسة تجارية وصناعية) ولهذا فليس من المحتمل أن يكون (ماسون) متحيزا في حكمه على أوضاع ناصر وتصرفاته .

وأخيرا وصل البروفسور ماسون الى القاهرة . ومنذ اليوم الاول لوصوله أخبره ناصر أن له الحق كاملا في أن يدقق في أمور البلاد وشؤونها كما يفعل هو (أي ناصر) نفسه ، كما أن له أن يعرف كل شاردة وواردة دون تحرج أو تكلف حتى يلمس المصاعب كما يلمسها ناصر بنفسه ، وطلب منه ناصر أخيرا أن يطلع على كافة تفاصيل حلول ناصر لمشاكل البلاد . وأتاح ناصر لماسون حرية التجول والتدخل وبرهن على ذلك بأن طلب من نوابه وكافة وزرائه وكبار المسؤولين الرئيسيين تزويد ماسون بتقارير شاملة وافية عن شؤون البلاد وأوضاعها . وفي خلال لقاءاته مع ماسون ، كان ناصر يسأله قائلا : « مستر ماسون ، هل تظن أننا نتصرف بغير الطريقة التي كنت ستسلكها لو كنت حاكما لهذا البلد ؟ » وكان ماسون يجيبه : « كلا ، وغالبا ما كان يضيف عليها « كلا ، سيدي الرئيس » .

وفي حزيران (يونيو) عام ١٩٦٢ عاد ماسون الى واشنطن ليخبر الرئيس كنيدي أنه - وجدانيا - لم يعثر على خطأ في تصرفات ناصر الرئيسية وأنه ليس لديه ما ينتقده أو يجعله هدف نقاش وجدال . لقد أقتنع ناصر بأن كل تصرفاته التي كانت الولايات المتحدة تنكرها عليه ليست سوى مخارج منطقية يضطر ماسون نفسه الى سلوكها منطقيا لو كان في منصب ناصر . وكان من بين تلك

التصرفات تأميم ناصر لاجزاء ضخمة من الاقتصاد المصري ، واتخاذ اجراءات
ديكتاتورية مثل فرض رقابة صارمة على الصحافة ، واعتقاله السياسيين المخالفين
له في الرأي ، وشن الحملات الدعائية ضد الزعماء العرب المواليين للغرب على حد
اعتقاد ناصر . وقال ماسون : « لقد كان ناصر يعاني من صعوبة الاختيار
وقساوته ، وكلما وقف عند مفترق الطرق وجد أن عليه أن يختار أكثرها صعوبة
وأوعرها مسلكا » .

ولم يكن ذلك كل ما قاله ماسون . ففي احدى جلسات الاستجواب التي
عقدت في وزارة الخارجية ، رفض ماسون أن يفسر فهمه لمشاكل ناصر وتبريره
للجلول التي يتبعها الاخير على أنه توصية منه لتقديم مساعدات أكبر لناصر
وقال : « ان مسألة انسجام سلوك ناصر وأسلوبه مع المصالح الامريكية شيء
آخر تماما » . وأما المسؤولون الذين استجوبوا ماسون ودونوا ما اكتشفه في
مصر من حقائق ومعلومات فقد جزموا أنه مهما كانت أعذار ناصر في تبرير
سلوكه وتصرفاته وأنه لا سبيل له الى فعل غير ذلك ، فانها بالتأكيد معادية
للمصالح الامريكية وغير منسجمة معها أبدا . وعليه فعل الامريكيين أن يختاروا
اما :

(١) تغيير الظروف ،

(٢) تبديل مصالحهم وتعديلها ،

(٣) الاطاحة بناصر واستبداله بأخر يتصرف بصورة أخرى تحت نفس
الظروف مهما كان تصرفه غير منطقي ،

(٤) توجيه تصرفاتنا في المستقبل وتخطيط أعمالنا في المنطقة على أن ناصرا
عدو لنا وعلينا أن نعامله بطريقة ما بغض النظر عن صحة تصرفاته
وانسجامها مع مصالحه .

وفي هذه الاثناء تم نقل كل موظفي وزارة الخارجية الذين كانوا يتوزعون
الادوار حول طاولة « لعبة الامم » (والتي كانت من طراز « ناصر - دالس »)
باستثناء واحد أو اثنين . وأما الجمع الجديد الذي حل محلهم فكان يتحلى
بصفة « الاخلاقية » في ممارسة أدواره في « لعبة الامم » . ولهذا فقد وجد من

الحرج أن يقبل امرؤ ما أن أمة ما أضحت عدوة له لمجرد انها تصرفت وفق مصالحها الخاصة بها فضلا عن أن تلك الأمة تدخل في عداد الدول المتخلفة التي أيد الرئيس كينيدي علنا تحريرها من الاستعمار ونيلها لاستقلالها . ولقد رفض بعض أولئك المسؤولين التسليم بفكرة امكانية وقوع مثل هذه الحادثة على الأقل . وأما البعض الآخر والذين كانوا أكثر « واقعية » منهم « أخلاقية » ، فقد حققوا تأييدا لرايهم القائل ان ناصرا انسان مزعج وخطير ، وعلى هذا يجب أن يعامل . وحاولوا أيضا أن يفتشوا عن أسباب تقنعهم بأن ناصرا لا يسيء الى الغرب فحسب بل والى بلاده نفسها ، سوى أنهم لم يعثروا على أثر لتلك الاسباب في تقرير البروفسور ماسون نفسه .

وفي مقابل كل هذا وذاك ، ظل تفكير المختصين بشؤون الشرق الاوسط في كل من البيت الابيض ووزارة الخارجية في واشنطن وديا تجاه ناصر طوال عهد ولاية الرئيس كينيدي . وبقيت نظراتهم له مليئة بالمعطف نحوه كلما أفلحوا في مقاومة ضغط أوساط رجال الاعمال الامريكيين وتحديدهم (ومن لف لفهم من رجال الكونغرس) فقد كانت شكواهم من نشاطات ناصر العامة التي يهاجم فيها الامريكيين ويمتدح السوفييت مستمرة، وكذلك كان قلقهم من مفاخراته السياسية (منذ أزمة لبنان) التي أمسوا على علم تام بها . وبعد انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة في ايلول (سبتمبر) عام ١٩٦١، لم تعد حصافة ناصر ومعاملته الحسنة لشركة التابلاين عنصرا هاما في موضوعنا بعدما امتصت نقمة شركات البترول على ناصر وخففت من حدتها . وأدرك ناصر هذا ، وبقي كله أملا أن تتمخض زيارة ماسون عن نظرات عطف مثمرة تمتد الى تأييد ملموس وزيادة ملحوظة في المساعدات دون أن تنورط السلطة التنفيذية في حكومتنا في مأزق تضمها في صراع وجها لوجه مع سلطات الكونغرس .

وبعد عدة أسابيع من عودة ماسون الى واشنطن أعرب لي ناصر عن ارتياحه البالغ للزيارة التي تمكن من خلالها الامام بمشاكل حكومة الولايات المتحدة (كما شرحها ماسون له) كما استطاع عن طريقها نقل وجهات نظره الى الرئيس كينيدي حول المشاكل المصرية وحلولها . وفي ايلول (سبتمبر) قام جون بادو ، السفير الامريكى في القاهرة ، بزيارة لناصر اعترف فيها أمامه بأن تقرير ماسون

عن مشاهداته في القاهرة قد أثار موجة من الاضطراب والتباين في الآراء بين المسؤولين الأمريكيين وأصبحوا في ارتباك لا يدرون ما يفعلون . كما أن السفير بادو أخبره أن الحكومة الأمريكية شرعت يومها في إعادة تقييم الدوافع والبواعث كمحاولة منها لاتخاذ موقف ما من الخلافات الأمريكية المصرية التي لم تفقد حججها الاخلاقية بعد . ولم يكن سفيرنا في القاهرة يومها سوى « أكاديمي » (١) ليس بينه وبين ناصر أي وجه شبه سواء في طريقة الكلام او في طبيعة التفكير . وقد سلم السفير يومها تلك الرسالة لناصر مصحوبة بتأكيدات ودية - اعتاد عليها الطرفان - أن حكومتنا لا تبغي للمنطقة سوى السلام والازدهار والاستقرار وأنها تستلهم في هذا شعورها بالمسؤولية الاخلاقية التي يتسم بها التخطيط السياسي في عهد ادارة الرئيس كنيدي .

كان حديث السفير ذا وقع على نفس الرئيس ناصر، بل وأدخل في نفسه روعة أربكته فلم يكثر له على جواب . وعندما التقيت به في اليوم التالي كنت خارجا عن طوره ومحتدما غيظا . فناصر لم يكثرث لاكتشافنا إلبالي أن المصالح الأمريكية والمصرية ليست دائما في انسجام وونام ، وذلك لانه ترعرع في كنف اعتقاد الوزير دالس أن ما هو خير للولايات المتحدة هو خير للعالم أجمع ، وقد اعتاد على ذلك منذ أيامه الأولى في مصر . سوى أنه اضطرب لعلمه أنه بالرغم من وجود الرئيس كنيدي على رأس الادارة في واشنطن ، فلا تزال وزارة الخارجية تعتبر نفسها أنها تخوض غمار حرب تدور رحاها بين « الخير والشر » . كما أننا - نحن الأمريكيين - قد أخفقنا في التوصل الى قرار بدافع من مصالحنا الشخصية وبدون أن يملكنا شعور بالحاجة الى انتحال موقف أخلاقي ذي طنة ورنة لتبرير ذلك . وأردف ناصر قائلا : « طالما أنكم تخدعون أنفسكم بكل هذه التبريرات الاخلاقية ، فإن شعوري بعدم الارتياح أثناء وقوفكم معنا لا يقل عنه أثناء مجابهةكم لنا . أنكم فقط تريدون أن تلمعوا لعبتكم معنا . »

وخلال عهد الرئيس ايزنهاور ، فإن علاقات ناصر مع حكومة الولايات المتحدة الأمريكية لا تظهر سوى أن ناصرا كان يرى « اللعبة » على أنها مجرد مواقف عادية لا علاقة لها بعلم « الاخلاق » ، وأن كل طرف فيهما (ناصر او

(١) يعني المؤلف ان السفير كان غير متمرس في الالاميب والخبث . (الحرب)

الولايات المتحدة) لا يصر الا على تحقيق اهدافه والمحافظة على مصالحه لولا
وأخرا . وهذا ما عبر عنه زكريا محي الدين في احدي محاضراته قائلا :

« ان لعبة الامم هي المواقف والتصرفات التي تتبناها الامم .
جريا وراء مصالحها وطمعا في تحقيق اهدافها القومية باية وسيلة
غير الحرب . انها تضع مسبقا في اعتبارها أن مصالح الاطراف كلها
متضاربة متباينة مهما بلغت درجة الصداقة وتوطدت الاواصر بينهما .
ان أي ربح تجنيه احدي تلك الامم لن يكون الا على حساب أمة
أخرى ، واللاعب الماهر فيها هو الذي يحصل على كل الفئات لمصالحه
ويدخل في ائتلافات آنية وتجمعات تكتيكية مع غيره من اللاعبين
الذين تجمعه معهم مصالح ومنافع مشتركة . وعليه أن يوزع الاعباء
على الخاسرين بأجمعهم حتى لا يصيب الطرف منهم أكثر من طاقته ،
وبهذا لن تسوء حالته الى حد يدفعه الى القيام بردود فعل عنيفة
ومتطرفة ، أو الى حد يضطره الى الكف كليا عن المشاركة في اللعبة
وبالتالي اللجوء الى الحرب واستخدام القوة » .

وبالتأكيد فان ناصرا كان كلما بكل هذا وعلى اطلاع تام بكل ما يجري
داخل « لعبة الامم » بغض النظر عن عدم سروره منها وارتياحه لها أثناء عهد
الرئيس ايزنهاور والوزير دالس . وبعد تربع الرئيس كينيدي على عرش البيت
الابيض طرأ يومها تغيير جديد على « لعبة الامم » ، وتوجب على ناصر أن يمد
نفسه ويهيئها للكفاح ضد ما يسمى « بالاعتبارات الاخلاقية والمواقف
الوجدانية » .

ومنذ الايام الاولى لولاية الرئيس كينيدي حتى يومنا هذا وناصر حائر ازاء
الطريقة التي تظهر بها تحركاتنا « في لعبة الامم » لا أخلاقية وغير موضوعية
بالمقارنة مع اهدافنا - نحن الامريكيين - في جر المغانم وجني الفئاتم . وهي
فضلا عن هذا كانت دائما تظهر تجاوبا ايجابيا مع تحركاته داخل اللعبة التي
كانت تعود على مصر بفوائد ومغانم كثيرة . لقد أفسحت حكومتنا المجال
أمامه ليبرح « لعبته » بدون أن تظهر وكان لها « لعبة » خاصة بها وبدون أن
يحس الفدر بهذه « اللعبة » أو يلمس منها شيئا . وقد اعترف ناصر بهذا عتصما

قال ان أي محط سياسي في زيارة للكرة الارضية قادما من المريخ سيصاب بنفس ههسته نتيجة تفحصه للتحركات الامريكية المصرية في اللعبة وهو ينظر اليها من خلال منظار المنافع الشخصية والمصالح الذاتية .

وفي أواخر عام ١٩٦٢ تحولت حيرة ناصر الى قلق متزايد عندما لمس أن ه لعبة الامم ، أضحت نوعا جديدا من الصراع وباتت كل من المصالح الامريكية والمصرية في تعارض بيثن وتضارب جلي يضطران الحكومة الامريكية أن تقف في وجه ناصر بصورة أكثر جدية وأشد عنيا . والطريقة التي اعتدنا فيها أن نؤيده ثارة ونعارضه أخرى (وقد ظننا انها لا تتفق ومصالحنا) قد تركت ناصرا في حالة حذر منا وترقب لشرنا وامتدت حتى عشية انتهاء الحرب العربية الاسرائيلية في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . واستمرار عابر للحوادث التي بدأت في أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦٢ - شهرا من بعد حديث ناصر مع السفير بادو - توضح ذلك وتجعله جليا .

في هذا الشهر بالذات (أيلول ، سبتمبر) مات امام اليمن وخلفه ابنه الامير البدر . ولم يمض أسبوع على تنصيب البدر اماما حتى قام ضباط من الجيش اليمني بانقلاب أدى الى السيطرة على الحكم واحتلال محطة الاذاعة والاعلان عن اعدام الامام البدر . ونتيجة لذلك أعلنت مصر وبقية الدول العربية باستثناء الاردن والمملكة العربية السعودية (١) اعترافها بالجمهورية اليمنية الجديدة . وخطا الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية وغيرهما من الدول الشيوعية نفس الخطوة . وهكذا بدأ الانقلاب وكأنه من توجيه شيوعي مما أدى الى اعتباره خطرا يهدد المصالح الغربية في الجزيرة العربية الغنية بحقول النفط وآبارها . غير أنه سرعان ما عرف أن الامام الجديد لم يعدم وأنه ما زال على قيد الحياة يجمع القبائل لشن هجوم معاكس على الانقلاب . وهنا قام ناصر بايفاد بعض المستشارين العسكريين على وجه السرعة لدعم النظام الجديد ومساعدته . وما لبث أن أرسل في أثرهم أعدادا صغيرة من الجنود ومن ثم أتبعهم بحشود هائلة من الرجال والعتاد ومن مختلف صنوف الاسلحة . وفي هذه اللحظات

(١) اعترفت المملكة العربية السعودية بالنظام الجمهوري باليمن في توز (يوليو) ١٩٧٠
(العرب)

بدأت الحكومة الأمريكية مترددة بين الاعتراف بالنظام الجديد لتفويض النفوذ المصري والسوفييتي والصيني في اليمن (على حد قول ناطق بلسان وزارة الخارجية الأمريكية) أو عدمه (كما كان البريطانيون ورجال وزارة الدفاع الأمريكية يرغبون) .

وبقي ناصر طوال مدة ترددها قائما مثلها ، يثور تارة ويهدأ أخرى . وأكثر ما كان يقلقه ويثير فضوله هو تفكيرنا وراء تريشنا وليس ارتياحه بقرارنا الأخير . وناصر قد لمس هذا من لقاءاته مع السفير جون بادو كما اشتم رائحته من تقارير سفيره في واشنطن وتحليلات الصحف اليومية . وبناء على وجهة نظر ناصر ، فإن الاعتبارات التي تحول دون اعترافنا بالنظام الجمهوري في اليمن يصلح في نفس الوقت لان تساق كحجج وبراهين على سلامة فكرة الاعتراف بالنظام الجديد ، والعكس صحيح . وفي كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٦٢ ، قام السفير بادو بزيارة لناصر وطلب منه تأكيدات على أن اليمن لن تستخدم كقاعدة لشن حملات عسكرية على المملكة العربية السعودية أو المراكز البريطانية في جنوب الجزيرة العربية . إلا أن ناصر قد أصيب بالدهشة ازاء هذا الطلب ولم يتردد البتة في اعطاء السفير ما شاء من تأكيدات وضمائمات . وفي ١٩ كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٦٢ قامت الحكومة الأمريكية بالاعتراف بالنظام الجمهوري في اليمن السعيد .

ولم تكن نظرة ناصر الى الاوضاع في اليمن - واليمن فقط - تختلف عن نظرتنا له . فلو أن اليمن انزلق الى البحر رويدا رويدا ، وغاص فيه شبرا شبرا ، وأصبح أثرا بعد عين ، فما اظن أن الجنس البشري سيفطن له ، وان حدث فلن يمانى من ألم أو يشمر بوخزة ضمير . ومن جهة أخرى ، فقد أدرك ناصر أنه ما من امرئ يستطيع أن يجني أية مكاسب في منطقة ما عن طريق انتفاضات محلية وحروب عصابات ما لم يكن له فيها موطن قدم وله يقربها محط رجال . « فالتعصبون » (١) لا يصلحون لمثل هذه المهمات ولا يفيدون في مثل تلك الملمات ، بل وغالبا ما يتلاشون تلاشي الاسهم النارية في الاثير وهي تندفع عاليا في سماء ليل بهيم . أما اذا اختفى وراء الستار انتهازيون (لا متعصبون) ،

(١) سبق الكلام عنهم في الفصل التاسع

(المعرب) .

وفي اللحظة الحاسمة الى المسرح يقفزون ، وللقيادة بمدئذ يتسلمون ، فالامر عندئذ يهون ، وربما قدما يسير . فناصر لم يكن باليمن من المهتمين ، بل كان الى كل الجزيرة من المتطلعين . فاليمن عنده موضة قدم لا هدف وأمل . وكذلك أيضا حكومتنا الامريكية ، فهي ليست حريصة على اليمن ولا ينبغي عليها ان تكون كذلك . فجلّ قلقها قد تركز على أمن عدن واستقرارها . وكانت من انتشار « موضة المستقبل » في الجوار خائفة ، فالملك والمملكة بجانب اليمن ، والامير في الكويت ، وليست امارته نائية لا تصنفها عاتية ، فامارات الخليج ومشيوخاته للطريق واصلة وبين الكويت واليمن رابطة ، فضلا عن انها للجرثومة حاضنة وبالداء مرعبة . وناصر رأى ذلك يقينا بعد ما نظر ، ثم عيس بعدها وبسر فلم يصدق أننا - نحن الامريكيين - لا نرى ما يراه . والحق أننا نظرنا ، وبففس عينه فعلنا ، ولكننا لم نكن لنفصح عن هذا وهو بنا من المتربصين ، وطفقنا عن « الشيوعية » متكلمين ، ومن « توجيهها » لحكم اليمن متخوفين ، اذ الحكومة فيه قتيئة ونخشى ان تكون للشيوعية مطيئة .

ولسنوات متتاليات ، تأرجحت العلاقات الامريكية المصرية بين الحسن والسيء ، فلم تقفز الى قمة أو تتردد الى هاوية . وفي خلال ذبذباتها لم تكن تنطوي على علاقة ظاهرة بالتحركات المصرية أكثر مما كانت عليه في الماضي . وأما « حوار » ناصر مع السعير بادو - وكان تابعا لعلاقات ناصر الودية مع الرئيس كيندي - فقد تفسخ وبات ضربا من الترهات والسفسفات يتبادلها الاثنان متناوبين وكاد ينقطع نهائيا لولا احترام ناصر لشخص السفير وذاته . وفي آب (اغسطس) عام ١٩٦٤، حل لويس باتل محل جون بادو كسفير لحكومتنا في القاهرة . ولويس هذا موظف من موظفي الخدمة الاجنبية المحترفين يتمتع بخبرات مكتبية رائعة ، غير أن فهمه « للعبة الأمم » ليس أكثر من اعتقاد خرافي يصور له أن وكالة المخابرات المركزية تشرف (عن طريق اللعبة) على عمليات تخريبية تغطي كافة المنطقة وأنها كانت وراءه لكنها أخطاته وبعد حوالي اسبوع من وصول باتل الى القاهرة ، اشتملت مظاهرات الطلبة النار في مكتبة كيندي التذكارية فانت على ما فيها من كتب ومجلدات . وفي نفس الوقت ، أسقط سلاح الجو المصري طائرة « جون مكوم » أحد ملوك النفط في تكساس وصديق حميم للرئيس جونسون . وبعد كل هذا وذاك ، وقف ناصر ليلقي

خطابا لاذما في جماهير مدينة القاهرة دعا فيه السفير الامريكى الى « شرب ماء البحر الابيض المتوسط » ، ان كانت لا تروقه مثل تلك التصرفات . وتكدست يومها الاستفزازات حتى بلغت الذروة وأثارت أعضاء مجلس النواب في الكونغرس فتداعوا الى اجتماع قرروا فيه قطع المساعدات عن مصر واييقاف ارسال الغذاء لها . ولربما يتراعى أن بادرة كهذه ليست سوى نكسة حلت بالعلاقات الامريكية - المصرية يومها غير أن مجلس الشيوخ عدل قائمة المساعدات ثانية و أعاد اسم مصر الى طبيعتها .

وبعد شهر من الزمن (في ايلول ، سبتمبر) ظن ناصر أنه قد سدّد صنفة مهينة لنا عندما حرّض مجموعة من الدول الافريقية على قطع علاقاتها و اياه مع بريطانيا ، وظن أن عملا غير مباشر كهذا لا يقل قساوة واهانة عن أي عمل مباشر آخر ضد الولايات المتحدة . غير أن تصرفه هذا قد أفنعه بصورة قاطمة أن التصرفات الامريكية تجاه مصر تسير في طريق غامضة عسيرة الفهم ، هذا ان كانت هناك طريق . فما أثار دهشة ناصر وأورثه حيرة على حيرته السابقة أنه لم يمض سوى يومين على فعلته تلك حتى ارسل الرئيس جونسون مبعوثه الخاص أفريل هاريمان الى القاهرة عكّه يفلح في توسيط مصر لدى فيتنام الشمالية للافراج عن الاسرى الامريكين هناك . وبعد ثلاثة أيام أعلن السفير الامريكى في القاهرة أن شحنات القمح الامريكى الى مصر ستبقى متدفقة دون انقطاع او نقصان . وهكذا بدت حكومة الولايات المتحدة متغافلة عما حدث ، وكان العلاقات مع اخلص حليفاتها ما نالها سوء أو مسها أذى .

وفي صيف عام ١٩٦٥ أخبرني ناصر انه قد « رفع يديه واستسلم » ولن يحاول ثانية أن يسبر غور التحركات الامريكية . واما محمد حسنين هيكل ، صديقه الحميم ، فقد نشر مقالة في صحيفة الاهرام معبرا عن رأيه في أن السياسة الخارجية المصرية (وهي المفامرات المصرية في جزيرة العرب وحلات القاهرة الاذاعية ضد الملك فيصل والملك حسين والمضايقات المستمرة للمواقف البريطانية والامريكية في الشؤون العالمية) ليست سوى « توظيف مثمر » للجهد المصري . فقد عادت على مصر بمنافع سياسية وأخرى عملية ملموسة ، فحصلت مصر على مساعدات عسكرية من الاتحاد السوفييتي دون أن تخسر المساعدات الاقتصادية

من الولايات المتحدة . وفصلنا بين مسألة المساعدات الاقتصادية وبين الاعتبارات السياسية ، قد حاز على اعجاب ناصر وقبوله ، ولم يقصر في ذلك ، وعبر لي ناصر عن هذا بنفسه . ولكنه بقي مرتابا في أن يكون ذلك هو كل ما فعله ، ولن يرتاح بائه وتهدأ نفسه حتى يقف على كل ما نريده حقا من وراء علاقاتنا معه ونبغيه . وبخصوص مقالة هيكل حول « السياسة الخارجية المصرية : توظيف منمر ، كاشفتني ناصر برأيه فيها (كما كاشف غيري) وقال انه لا يرى بأسا عليها، سوى أنني علمت انه عثف كاتبها وأنبه عليها سرا . ومع كل ذلك فقد بقي مصرا على أن علاقاتنا معه ما زالت تنطوي على اسرار دفيئة وتعقيدات بالغة غير ملم بها ، ولا واقف عليها .

وفي ايلول (سبتمبر) ١٩٦٥ ، افلح زكريا محي الدين ولقيف من ضباط ناصر باقناع الاخير بتوفير تفاعل اعمق بين المواقف المصرية والمواقف الامريكية، وستحسن الحكومة المصرية صنما ان نظرت اليها وكأنها مواقف واحدة . لقد كان يومها أكثر من ثمانين بالمائة من خبز سكان المدن في مصر من مساعدات القمح الامريكي ، كما ان المال اللازم لمصر من العملة الصعبة (حوالي ألف مليون دولار) لتنفيذ المشاريع الانمائية لا يمكن الحصول عليه الا من المؤسسات المالية التي تحتفظ حكومة الولايات المتحدة بأكبر نصيب من أسهمها . ومن خلال تقارير السفير المصري في واشنطن مصطفى كامل ، أدرك ناصر أن الرأي العام الامريكي في تصاعد مستمر ضده وأن الذين يعطفون عليه من موظفي وزارة الخارجية الامريكية بدؤوا يرزحون تحت ضغط متزايد عليهم . وعلى حد زعم السفير كامل ، فإن وزارة الدفاع الامريكية ألحقت فريسة للبريطانيين وتحت مطلق تأثيرهم ، وبات اعتقاد وكالة المخابرات المركزية أن ناصرا عميل سوفياتي، وأن مكتب شؤون الشرق الادنى الملحق بوزارة الخارجية قد أمسى هشيما تذروه الرياح وبات لا يملك مما كان عنده ذرة تأثير أو نفوذ . وازاء كل هذه المضاعفات وجد زكريا أنه لا سبيل لايجاد تفاهم مشترك وبنشاء مع الولايات المتحدة دون الوصول الى الرئيس جونسون وأن خير مسلك لتحقيق هذا هو انشاء علاقة شبيهة بعلاقة ناصر - ماسون . وعلى حد علم زكريا فإن أكثر الناس حظوة عند الرئيس جونسون هم اصداقاه من ملوك النفط التكساسيين . ولزكريا صديق منهم ، بل وصديق حميم ، كان سابقا وزير مالية الولايات المتحدة ، وهو روبرت

أندرسون • ومرة ، فان روبرت هذا قد أعطى زكريا سر تحريك « ملوك النفط المليونيريين » وقال له : « عليك بما يسهل صرفه في بنوكهم • انهم واقعيون ولن يقبلوا الا حقائق ملموسة ، وبغير هذا لن تجد اليهم سبيلا » •

وبعبارة اخرى ، أدرك زكريا أن « لعبة الأمم » ليست سوى هراء وهذيان، وعلى مصر أن تكف عن المشاركة فيها وتتكب على تطوير نفسها وتحسين اقتصادها ، وتتخل - ولو لمدة - عن مصالحها في العالم العربي وفي العالم الافريقي الآسيوي • وبهذا السلوك لا بغيره تفلح في كسب ود أصدقاء الرئيس جونسون من « أصحاب الملايين » وتفتتح حقبة جديدة من العلاقات الطيبة مع الولايات المتحدة خاصة والحكومات الغربية والمؤسسات المالية عامة ، دون أن تخاطر بعلاقتها مع الاتحاد السوفييتي وتخسر صداقته •

ولم يكن لدى ناصر يومها أفكار اصليح وآراء أنسب • ففي تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٦٥ أصدر قراره بتعيين زكريا رئيسا للوزراء، ووطد العزم على أن يترك له تسيير دفة الحكم في البلاد • وشرع زكريا يومها بتنفيذ سياسته المعروفة باسم « مصر أولا ، وأعلن أن على مصر أن تنصدر قيادة العرب عن طريق « الزعامة القدوة » • و«القدوة» هنا هي في ايجاد حكومة أكثر فعالية واستغلال اعظم للموارد الاقتصادية وفي تحقيق مغانم اكثر للشعب ، وليست « القدوة » مجرد تسلط سياسي أجوف على الدول الاخرى • واعترف زكريا رسميا بوضع مصر الاقتصادي السيء ، فاتخذ اجراءات تقشفية صارمة لاقت قبولا ورواجا عند عامة الشعب فاكسبت الحكومة شهرة ومحبة ، (وقد ادهش هذا ناصر نفسه) • وأجرى زكريا تمديدات على اتفاقيات الحكومة مع شركات البترول فحصل عائدات أكبر للمصريين وشحن الشركات بدفعة من النشاط لتوسيع أعمالها وزيادة انتاجها • ودخل في مفاوضات مع البنك الدولي ومع هيئة التمويل العالمية ومع صندوق التمويل الكويتي لتطوير العالم العربي ومع بنوك رئيسية خاصة يمكن أن تكون مصدرا حسنا للعملة الصعبة على أساس من « حقائق ملموسة » وليس « اعتبارات سياسية » • وأما نجاح زكريا في اقناع ناصر بالتوصل الى اتفاق مع الملك فيصل حول قضية اليمن السعيد (وذلك قبل أشهر من استلامه منصب رئاسة الوزراء) فقد دفع به الى حث المشير عامر الى التعميل بسحب

الجنود المصريين من هناك (وكانت هذه مغامرة زكريا اليتيمة في تدخله بالشؤون الغربية خلال فترة ولايته كرئيس للوزراء) . ولو أن الحكومة الأمريكية قد فودت زكريا حقا بقائمة اقتراحات لما ينبغي عليه انجازها لما كانت القائمة تتضمن شيئا ما فعله هو حقا . وهكذا فقد غامر زكريا بسمعته وجازف بها ، وكانت نتيجة « سياسة مصر أولا » أنه قد فاز بلقب « العميل الأمريكي » .

ولم يكن رد الفعل الأمريكي تجاه سلوك زكريا حارا ومشجعا ، فالسفير باتل لم يقيم بزيارته الا مرة للمجاملة عندما تسلم زكريا مهام منصبه كرئيس للوزراء ، ومرة أخرى صحبه فيها دافيد روكفلر ، ومذالك لم تتكرر زيارته الا مرة أو مرتين وفي ظروف رسمية محضة . ولم يتشرف زكريا برؤية طلعة السفير البهية حتى حان وقت انتهاء خدمة الاخير في القاهرة فجاءه مودعا حسب ما تقتضيه الاعراف والتقاليد . وفي نفس الوقت لم تنقطع المشاورات بين كبار موظفي السفارة الأمريكية في القاهرة وبين موظفي وزارة الخارجية المصرية حول مختلف الشؤون العالمية واحداثها . وكم دارت احاديث بينهم حول الاوضاع السياسية في اليمن وفيتنام وآسيا والبريقيا . ولم يكن مستشارو القصر الجمهوري عن هذه الاحاديث ببعيدين ، فشاركوا فيها بكل نشاط واكثرات . وهكذا سفتهم الأمريكيون بانفسهم النظرية القائلة ان حكومتنا تهتم بمصر « لاجل مصر فقط » ، واعادوا الى ذهن ناصر ان الحكومة الأمريكية تبدي اهتماما بالاوضاع المصرية بقدر المظهر التي تظهر به مصر على مسرح الاحداث العالمية ، وهذا حقا ما عبر عنه هيكل في مقالته الشهيرة : « السياسة الخارجية المصرية : توظيف مشر » .

وايقن زكريا اخيرا ، ان التفاعل الاعمق بين المواقف الأمريكية والمصرية قد بات عكس ما كان يحلم به ويتمناه . فالملك فيصل قد شرع في الدعوة الى إقامة تحالف اسلامي للوقوف في « وجه الشيوعية » (وبالتالي للوقوف في وجه ناصر) وذلك بعد ان سحب المصريون خمسة عشر ألفا من جنودهم في اليمن . كما ان الملك خشني ان تخف في واشنطن حدة المعارضة ضد ناصر التي كانت قد تكسبت ليومها . وكننتيجة متوقعة لهذا ، قام ناصر بعلاقة الجنود الى اليمن لانية وفتح باب النزاع والشقاق مع الملك فيصل على صراحيه . وفي تلك

الإثناء ، أخفق زكريا في التأثير على أصحاب الملايين الذين كان يأمل منهم أن يساعدوا على انتشار مصر من ضائقها المالية . فقد صرح « أصحاب الملايين » الأمريكيون أنهم لا يفضلون توظيف أي من أموالهم في مصر إلا إذا أقدمت الأخيرة على تخفيض قيمة عملتها (وهذا غير مقبول عند زمرة أصحاب الديون) وعلى إيقاف كافة مشاريع « صناعة العزة والكرامة » الخاسرة (وهذا لا يتناسب والاحوال السياسية في الداخل) . وقد أخبر أحد « أصحاب الملايين » زكريا قائلا : « انه لا يكفي أن تكون مصر بلدا مغريا للتوظيف المالي وصالعا للاستثمار ، بل يتوجب عليها أن تكون أسلم كل تلك البلدان ، التي مدت أيديها لنا لتلقفنا من كل الجهات ، حتى نفكر فيها - أي مصر - وفيكم . يا حضرة رئيس الوزراء » .

وهذا ما حدث تماما . فقد بعيت « لعبة الأمم » مستمرة وحتى مع الولايات المتحدة (وقال لي زكريا انها مستمرة « وخاصة » مع الولايات المتحدة) . وكم لام زكريا نفسه لارتياحه يوما بحقيقتها وقدرتها ! ولم تكن لتعني شيئا عنده ، فقد ظن بحتمية وجوده طريقة قياسية ما ، يطبقها المرء دائما ويصنع خط سيره بحسبها دون أن تتغير الطريقة أو تتبدل ، ودون أن يصاب أيضا بخيبة أمل كلما أراد أن يسبر الاغوار ويعرف الاسباب . ومهما كان ، فلقد بلغت الاوضاع مبلغا دفعت بنواب الرئيس الثلاثة - عامر وزكريا وعلي صبري - أن يختلوا برئيسهم ناصر في تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٦٦ حتى يضموا « تفسيرا عاما » للاحوال والاحداث .

وكلمة « التفسير العام » قد ترجمها المتأثرون بمسارات الوزير دالس وديباجاته الى الانكليزية على أنها « اعادة التقييم للاحداث المسؤلة والاضاع المتردية » . والمعقبة أن « التفسير العام » شيء آخر تماما . « فاعادة التقييم للاحداث المؤلة والاضاع المتردية » على طريقة دالس ليست سوى عمل أخلاقي بحث يتمثل في « صراع الضمير » لاقتناع المرء بشيء ومحاولته ابرازه على أنه شيء آخر كليا . واما « التفسير العام » فهو عمل واقعي لا علاقة له بعلم الاخلاق به ، وهو نوع من المراجعة التي يجريها قائد عسكري أو رئيس ليريق كرة قدم عندها يهوك أذ استراتيجيته التي اعتاد على تطبيقها في الماضي لا تصلح للمستقبل فيطلب تعطيل اللعب مؤقتا حتى يتسنى له اعادة تحديد أهدافه وفهم حقيقة

العثرات القابعة في طريقه والمساعدات المطروحة أمامه (والتي ربما تكون قد انضحت ذات مفعول مضاد) ولاستنباط استراتيجيات جديدة يتخذها طريقا له ومنهجا . وفي الوقت الذي كان ناصر عاكفا مع نوابه الثلاثة على اعداد « التفسير العام » ، فان البنوك وشركات الطيران وشركات البترول وغيرها من الشركات الامريكية كانت هي الاخرى بصدد اعادة تخطيط استراتيجياتها بعد ان شعرت انها لن تتمكن من صيانة مصالحها الا عن طريق العمل مستقلة - الى حد ما - عن العلاقات الدبلوماسية بين المصريين والامريكيين . وكان على بعض أجهزة حكومة الولايات المتحدة ان تحذو حذو الشركات تأمينا للمصالح الامريكية وبغض النظر عن تلك القيود التي كانت تفرضها « الاعتبارات العالية، الاخلاقية منها او القانونية » (مثل معاهدة الامم المتحدة والاعراف الدبلوماسية المتبعة) . وهكذا قفزت الى المسرح « لعبة » من نوع جديد عجزت بعدها الدبلوماسية التقليدية ان تمارسها أو تؤدي أدوارها .

وكما ذكرت آنفا في هذا الفصل ، فلم تكن تلك المرة الاولى التي رقد فيها أحد المشتركين في «اللعبة» من الامريكيين أو المصريين لاجراء تقييم عام وتقدير شامل . كما انها لم تكن تلك المرة الاولى التي يستعان فيها « بغير الرسميين » « بغير الدبلوماسية التقليدية » لتأخذ بنواصي الامسور ولكن من « خلف الكواليس » وسرا ولتحل محل الدبلوماسية التقليدية التي لم يبق لها سوى مهمة مراقبة تصرفات حكومتنا وتحديد ما اذا كانت في انسجام اخلاقي مع القواعد الشائعة داخل البلاد وخارجها . ولهذا « التفسير العام » خاصة أهمية فائقة لانه وجد نتيجة ظهور ملامح أربعة جديدة « للعبة الامم » ، تعززت أركانها حتى قادت الى الحرب العربية الاسرائيلية في حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ . كما انها لا تزال قائمة تدفع بذبول الحرب الى التفاقم ثانية ، وتطرح قضايا ومسائل مشابهة في أماكن أخرى من العالم . والملامح الاربعة هي :

١ - انتهاء اسطورة القطبين (اللذين كان كل من ناصر ونكروما وسوكارنو وغيرهم يصفونهما في دوامة التنافس لكسب ودهم) وظهور أقطاب جديدة أخرى في العالم .

٢ - انعدام الامن والنظام في كافة أرجاء العالم العربي مع ضياع أخسر

الآمال في الوصول الى « وحدة عربية » مهما كان لونها وشكلها .

٣ - نفاذ صبر الاسرائيليين مما دعاهم الى التصريح في اوائل عام ١٩٦٧ قائلين : « اننا لن نصبر بعد الآن ، وكفانا كل هذا ، فسنترى بالعرب الدوائر ونفتنم اول فرصة سانحة لننقض عليهم ونغيّر ما حولنا ونجعله كما نريد ونهوى » .

٤ - وقرر السوفييت أن يتخلوا عن فكرة الوقوف على الحياد في الصراع العربي الاسرائيلي وباتوا على اعتماد لان يتعاونوا مع أية حكومة عربية تلتقي معهم عند منتصف الطريق .

وبكل تأكيد فان هذه التحولات في الاحداث العالمية تتطلب استراتيجيات من نوع جديد ولكل الاطراف اللاهية على المسرح عامة والمصريين خاصة . وخير دليل على حاجة المصريين الماسة لاستراتيجية جديدة يقفزون بها الى مسرح الاحداث برشاقة وخفة جديدتين هو ما قاله صحفي امريكي بارز لاحد الدبلوماسيين المصريين وجاء فيه : « اننا - نحن الامريكيين - لم نعد ننظر الى ناصر على أنه مصدر ازعاج لنا أو قلق ، بل ان ناصرا لم يعد كذلك » . وكان هذا في أواخر عام ١٩٦٦ ، آخر عام قبل عام الحرب الخاطفة .

- ١٣ -

النصاية

الحرب العربية الإسرائيلية حزيران (يونيو) ١٩٦٧ وزيولها

... والحرب ، لكل حال يزول ...

ترى ما هي الاستراتيجية اللاتمة بزعيم مثل ناصر ليلعب بها على المسرح
لحالي للاحداث العالمية ؟ سأفترض أنك تقبل النقاط التالية :

● أن ناصر هو من ذلك النوع من الناس الذين يهمهم أن يتمتعوا بقوة
شخصية واسعة والا لما كان بوسعه أن يمسك بدفة الحكم ، ويبقى عليها
مسيطرا !

● وأن من المنطقي لزعيم كهذا أن يلجأ الى الاستعانة بأجهزة العنف
والارهاب (قاعدة القمع) وأن أجهزة كهذه يتضمن قوامها بالضرورة
آلآفا مؤلفة من الموظفين وجيشا جرارا لا تستطيع مصر تحمل نفقاتهم
ضمن قدرتها العادية ؛

● وأن الحصول على تأييد جماهير الشعب المحرومة التي تملأ شوارع مصر
وتعج بها مدنها ، اتخاذ مواقف لو نظر اليها امرؤ ذو عقل وبصيرة لما
وجدتها مجدية أو مثمرة ؛

● وأن دعم الشعب لناصر يقوم على حياده ، وحين يكون حياديا فلا مناص
من أن يعتبر الحياد ليس هدفا فحسب بل واستراتيجية لا بد منها
لمجابهة « القوى العظمى » ومواجهتها ؛

● وأنه عندما بدأت استراتيجية كهذه عملها (وكان الغرب ، وليس ناصر ،
هو الذي دفعها الى العمل) فعل ناصر أن يصل بفعاليتها الى القمة عن
طريق اشراك اطراف أخرى معه لتواجه كلها « القوى العظمى » كوحدة
متماسكة ؛

● وحالما تينع ثمار استراتيجية « التكتلات » (وهذا ما حصل فعلا) فعلى ناصر أن يضرب بعنف كل من شق عصا الطاعة عنه وخرج على «تكتله» أو فكر بانشاء « تكتل جديد » ؛

● وأخيرا ، ففي الوقت الذي يعتبر المحللون المحنكون في لندن واشنطن وموسكو أن سلوك ناصر لمثل هذا المسلك أمر معقول ومقبول ، فإن بقية العالم قد سئمته وضجرت منه حتى تكاد احدى تلك الدول العظمى أن توقف مجاملتها فجأة وتقول : « فليأخذ الآخرون هذا الرجل ، فلقد نلت منه ما يزيد عن طاقتي ويفيض عن كفايتي » ، وهنا يتقدم آخرون ليتلقفوه لقمة سائفة ، ويتلموه هنيئا مريئا .

ومن السهل ابداء الجواب لأي امرىء لم يسلك هذا الطريق . والجواب مماثل لجواب مسألة فيها رجل كان يجني خمسين ألفا من الدولارات في العام ، ثم انخفض دخله فجأة الى اثني عشر ألفا . ففي هذه الحالة عليه أن يقلص طموحه الى حدود معقولة ، ويرضئ نفسه قدر ما يستطيع بدخله الجديد . وهذا بالضبط ما اقترحه بعضنا - وخاصة روبرت اندرسون ، وزير المالية السابق لحكومة الولايات المتحدة والصدیق الحميم للرئيس جونسون - على الرئيس ناصر . وفي كانون الثاني (يناير) عام ١٩٦٧ ، رتب اندرسون - بالتعاون مع أحد أعضاء سفارة الجمهورية العربية المتحدة في واشنطن وهو محمد حبيب - قائمة بأسماء كبار المولدين ورجال الاعمال الذين لهم نفوذ وسلطة ، وكلهم من أصدقاء الرئيس جونسون، ومهد محمدحبيب الطريق أمام ناصر لدعوتهم الى زيارة القاهرة . وفي شباط (فبراير) وصلوا القاهرة ، وأعجبوا الى حد بالغ ليس بمستقبل مصر الاقتصادي فحسب بل وبالرئيس ناصر شخصيا . ونقلوا انطباعهم الحسن الى الرئيس جونسون عندما عادوا الى واشنطن . وبدا الى حين كأن من الممكن لحكومة الولايات المتحدة والرئيس ناصر أن يبدأ من الصفر علاقة جديدة يتخلى فيها ناصر عن فكرة انشاء « التكتلات » (مع أنه على مسرح الاحداث الجديدة يمكنه أن يكون حياذيا قدر ما يرغب ويهوى) ويقلص طموحه الى ابعاد معقولة مركزا اهتمامه على بناء مصر ، وسوف تدعمه حكومة الولايات المتحدة ماليا ليكون قادرا على هذا ، ولن يقصر رجال المال والاعمال الامريكويون عن مد يد المساعدة لتتضافر الجهود وينشط العمل .

الا أن تفاؤلا كهذا لم يضع في حسابه قوة الدفع الضخمة لحركة ناصر هذه والتي تتصاعد بازدياد ، ولا الحدود التي ستوصله اليها تلك القوة الدافعة

كما تدفع بطائرة ضخمة فتوصلها الى اجراء عالية . هل يخفض ناصر عدد افراد جيشه الى خمسين الفا ؟ هل يخفض ناصر عدد « طبقة الموظفين » الى مائة وثماتين الفا ؟ هل سيهد ما أمه من صناعات الى أصحابها الشرعيين ؟ هل يعلن حل « الاتحاد العربي الاشتراكي » تاركا للحظ اختيار وريث له ؟ انك حينما تأتي الى تنفيذ مثل هذه الاجراءات، ستجدها فجأة من « رابع المستحيات تفكيرا وتنفيذاً، ولو أن ناصرا رآها هكذا فليس ذلك لانه قد اضحى « مجنون سلطة » أو أنه قد فقد عقله .

ولم يكن تأثير الاتحاد السوفييتي بقليل . فالسوفييت يمتازون عنا بعدم حاجتهم لممارسة أي ضغط على ناصر مباشرة ، لان سلوكه وسياسته في المنطقة يوافقان رغباتهم ويبدان هوى في أنفسهم دونما تحوير أو تعديل . ومرة قال، ناصر لسفيرنا في القاهرة : « انني أفعل ما أفعله في اليمن وأماكن أخرى ، وسأفعله ، ولو لم يكن الاتحاد السوفييتي على قيد الحياة وفي حيز الوجود » . الا أن مصالحتنا في المنطقة ومسؤولياتنا تجاه أصدقائنا هناك لن تسمح لنا أبدا أن نغض الطرف عن ناصر وأن نصم عنه الأذان .

وهكذا ، فبعد أن غادر ملوك المال الامريكويون عائدين الى واشنطن ، استحوذت أحداث المنطقة على انتباه ناصر واهتمامه الى حد جعل الرجوع الى برنامج « مصر أولا » بعيدا عن تفكيره بعد المشرق عن المغرب .

ان سلسلة الاحداث التي ابتدأت في تلك اللحظة واستمرت حتى نشوب الحرب بين العرب واسرائيل في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ مفصلة تفصيلا بديما في كتاب والتر لاكور واسمه « الطريق الى حرب عام ١٩٦٧ »، وهذا الكتاب من أهم ما كتب حول هذا الموضوع بالذات . فالبروفسور « لاكور » ذو خبرة واسعة بمصالح السوفييت في الشرق الأوسط وله بها المام غزير ، ولهذا فهو من أقدر من يكتب موضحا الاسرار التي انطوت عليها سياستهم هناك (ولن أستطيع ذلك بنفسى) . لقد أراد الروس من ناصر أن يقوم « باستعراض عضلاته » ، وليس أكثر من ذلك بل ودون أن تورطه استفزازاته تلك في « حرب حقيقية لا تبقى ولا تذر » . ولعلي أصدق هذا على ضوء ما سمعته من الكثير من أصدقائي المصريين وأجد ميلا في نفسى لموافقة البروفسور لاكور على تفسيره الواضح البسيط حول

بداية الحرب واشتعال نيرانها وقد قال في ذلك : « لقد تعثر ناصر وانجرف نحو درك الحرب انجرافا ، ولم تكن اسرائيل قد تهيأت لها قلبا وقالبا بل وكانت مضطربة وحيرى . « أما أجهزة مخابرات السوفييت فلم تسكن تتمتع بالكفاءة اللازمة ولم يكن تخطيط الروس وتقديرهم سليمين قديرين بل وكانا ضعيفين . وكانت امريكا هي الاخرى عاجزة عن فعل أي شيء . « سوى انني أود أن أضيف هنا قائلا : « ان ناصرا لم يتورط في الحرب تورطا ولم يُدفع لها دفعا، ولم تكن اسرائيل مضطربة حيرى بل كانت للصدام متوقفة وللحرب متشوقة . « لقد أمسك ناصر بزمام الامور جيدا وظل لها مخططا، وبالناية بها منفذا، حتى لحظة تنازل نائب الرئيس زكريا محي الدين – وبالناية عن ناصر نفسه – عن مطالب مصر في مضائق تيران، استجابة لنداء الامم المتحدة، بساحة نفس ورحابة صدر . غير أن الاسرائيليين لم يكونوا راغبين في ترك ناصر يجني ثمار تلك الواقعة فوجهوا مصر الضربة القاضية في نفس الصباح الذي كان مقررا فيه مغادرة زكريا القاهرة قاصدا نيويورك مع أنهم كانوا قد قطعوا على أنفسهم عهدا أن يسكوا عن الحرب حتى يصل زكريا الى هناك . وللسنوات غير قليلة بقى الاسرائيليون يتدربون على انقضاضهم ذلك ، ولو لم ينفذوه يومها فما كانت الفرصة لتسبح لهم مرة أخرى أو تتوفر لهم ثانية ظروف مثل .

وها انذا أساهم بتقديم ما شاهدته بأم عيني في القاهرة، فقد كنت جاهلا لما كان يجري يومها في تل أبيب أو واشنطن ولم يكن علمي بمجريات الامور في موسكو الا عن طريق أصدقائي من المصريين . وهذا ما علمته :

١ – كان شغل ناصر وضباطه الشاغل قبل الحرب بشهرين خراب اقتصاد البلاد وانهيائه . ففي بداية تلك، السنة (١٩٦٧) قام فريق من الباحثين يعملون لشركتي باحصاء أدق الارقام التي توفرت عن مقدار العملة الصعبة والذهب المخزون في مصر عام ١٩٥٢ يوم قام ناصر بانقلابه . ثم اضافوا اليه مجموع المساعدات الاجنبية (من قروض وهبات) التي تلقتها الحكومة ، و اضافوا اليه ايضا مجموع ما أذخرته مصر من ثمن الصادرات بين منتصف ١٩٥٢ وحتى نهاية عام ١٩٦٦ ، وأنقصوا من المجموع الحاصل النفقات والمصرفات (الخارجية و ثمن الواردات) فكانت النتيجة أن معدل عجز مصر التجاري قد بلغ حوالي أربع مائة

مليون دولار سنويا وقد استنفذ تقريبا كل تلك السراردات بما فيها قروض استدانها الحكومة وعجزت عن اداها . وعلى حد قول البروفسور لاکور فان احتياطي مصر قد تدنى حتى اضحى حوالي اربعين مليونا من الدولارات كذهب مخزون وستة واربعين مليونا من الدولارات بشكل عملات صعبة . ولو ان امره حاول ان يبحث حثيثا في القاهرة عن تلك الستة والاربعين مليون دولار ، لما كان له - لدهشته - ان يعثر على أكثر من مليونين أو ثلاثة يجب دفعها لتسديد ثمن مشتريات طارئة لا مناص منها . فكم من معامل أغلقت أبوابها لنقص في قطع التبدیل التي لا تكلف أكثر من بضعة ألوف من الدولارات . وأوقفت يومها شركة الطيران العربية المتحدة أربعا من طائراتها.الكوميت السبعة لنقص في قطع الفيار مع ان هذه الشركة تعتبر أحد مصادر العملة الصعبة في مصر . ولو ان الحكومة المصرية باعت يومها كل ما تبقى لديها من ذهب ما كان ليكفيها هذا لاكثر من شهر واحد تسدد به ثمن ما اعتادت عليه من واردات وتدخر منه دراهم معدودات . وفي التقارير الاقتصادية الربع سنوية للسفارة الامريكية في القاهرة تجد رأيا أن الحكومة المصرية كانت مفلسة فعلا قبل عام من الزمن (أي.في أوائل ومرستهم الاحداث فقد قالوا يومها : « لقد اعتدنا على سماع هذا النغم القديم أعواما ، ولكن مصر دائما تجد منطلقا لها ومخرجا من هذه الازمات » . غير أن هذه المرة كان من الواضح جدا ان الجمهورية العربية المتحدة قد هوت الى الحضيض ، وعندما أدرك السوفييت أن مساعدات الغرب قد نضبت والمنافسة بينهم وبين الامريكيين قد انتهت بدؤا بتقديم المساعدات شيئا فشيئا ، وبمقادير قليلة وحسب ما يرونه من ظروف مناسبة وأحوال ملائمة .

٢ - وكنت أعتبر ولسنتين عديدة ، أن نظام ناصر أكثر النظم حصانة ضد الانقلابات في العالم العربي، ولا أزال أرى ذلك . الا أنه في آذار (مارس) ونيسان (ابريل) عام ١٩٦٧ بدا بدون أدنى شك أن ناصرا قد وصل الى طريق مسدود ، وأنه كان وضباطه بذلك عالمين . وبدا يومها في مصر أن « الاستعراض الكبير » قد انتهى ، وقررت حكومتنا (وكانت قد قدمت ليومها أكثر من خمس مائة مليون من الدولارات كمساعدات منذ انتهاء الازمة اللبنانية ١٩٥٨) أنها لن تقدم مساعدات جديدة الا على أساس من طرق استثمارها والاستفادة منها وليس على

أساس من الضغط السياسي . ولو جمع الخيال ما جمع فلن ينجح هذا الأسلوب الجديد في مصر . ولقد عبّر « وورد اليوت » (وهو معام من واشنطن ويكتب في مجلة « السياسة العامة » التي تصدر عن جامعة هارفرد) عما يجول حقيقته في عقول كل موظف غربي يعمل في « ديوان المساعدات » وكل أصحاب البنوك الغربيين عندما قال : « إن استمرار ناصر على القفز الى مسرح السياسة العالمية ليلهو هناك قد كلف المصريين نفقات باهظة كان يمكن استغلالها بشكل أجدي في مجالات اخرى » وعلى كل دولة تساعد مصر أن تدرك أنها بذلك تقدم دعما لناصر لتحقيق أطماعه وآماله خارج بلاده ، كما تساعد على ضم ممالك جديدة لعرشه الغزير بها » .

والناحية الهامة هي أن كبار المسؤولين المصريين في الجهاز الحاكم في الجمهورية العربية المتحدة . أدركوا أخيرا تلك التحولات في مواقفنا ووجهات نظرنا . ولا شك أنه خطر لبعض أصدقاء ناصر المخلصين (مع أنني كنت اعتقد باستحالة قيام أي انقلاب ضده) أن يجعلوا منه « سوكارنو » . ولو على مضض منه (كما عبّر عن ذلك سي سولزبيرجر) . فقد وقعت اندونيسيا في معضلة مشابهة لوضع مصر فكان الحل لها هناك أن رفعوا سوكارنو الى مستوى رئيس مجلس ادارة واستلم امناه عامون توجيه امور البلاد وشؤونها واعادوا بناء البلاد ثانية بعدما تردت الحالة فيها حتى بلغت حد الافلاس . وقد علمت من مصادر موثوقة لدي ان مثل هذه الفكرة قد بحثت جديا للخروج بالبلاد من مصاعبها ومصائبها وأن رجالا لا يشك بولائهم لناصر قد تكفلوا بوضعها قيد التنفيذ ، ولا استبعد أن يكون أحدهم قد بلغ حدا من التهور والطيش لان ينقلها لناصر ويبلغه اياها . ومن خلال معرفتي بناصر فانني كنت واثقا أن مشروعا كهذا لن ينجح أو يبرى بصيصا من نور . فناصر لن يرحل بتدمر أو شكوى ، ولن يتقوض نظامه وينهار الا بضربة عنيفة وضجة مدوية ، ويومها ستنازل الآلهة اعداءها وتدور رحى حرب ضروس لا تبقي منهم أحدا ولا تذر لهم على الارض ديارا .

٣ - ولم يعد ضباط ناصر يكثرثون بما يفكر العرب بالنظام المصري ، وأخذ حرصهم على سمعته يقل رويدا رويدا . الا أنهم أضحووا في قلق متزايد ازاء الصورة التي أخذ العالم المتحضر يرسمها عنهم وهي شبيهة بقصة افيلين واه

المسماة « بالمؤذي الشرير » . ولكن ناصرا كان حربصا على أن لا يفقد ماء وجهه أمام العرب - والعرب على الاقل - أو يبدو من الخاسرين . وقبل أيام من فراخي من القاهرة في وجه الكارثة التي بدأت تلوح يومها في الأفق سألت احد أشد أتباع ناصر تعصبا له قائلا : « لماذا يصر ناصر على الظهور بظهور زعيم كبير بين جملة أفراد خاسرين ؟ » ولم يستطع أن يجيبني بأكثر من : « من كل قلبي ، أتمنى لو كنا ندري ذلك » .

وكان هذا مهما لناصر . ولهذا فعندما استفزه السعوديون والاردنيون معلنين انه لم يبد أي تأثير بفقرات الاسرائيليين المتزايدة على سورية والاردن ، تحرك ناصر وأشغل نفسه بدعاية اذاعية مضادة وأهدل مسائل بلاده الاقتصادية الهامة . وغالب اعتقادي أن وصف الاردنيين له خاصة بالجبن والاختفاء خلف قوات الطوارئ التابعة للامم المتحدة قد دفعه الى اغلاق مضائق تيران في وجه الاسرائيليين . وعلى هذا يعلق البروفسور لاكور قائلا : « لقد كان من واجب السوريين وناصر أن يعلموا أن اطلاق التهديد من موقف الضعف أمر خطير » ، سوى أنني اعتقد أن السوريين وناصر اجهلون خطر مثل تلك السياسة بل وتجاهلوها بنجاح لسنوات عديدة خلت . (وحتى بعد الهزيمة النكراء التي حلت بهم في حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ ، فما زالوا يتحدثون بلهجة القوي المنتصر . ولا يقع اللوم عليهم في هذا فلهجتهم القوية تبدو طبيعية بل ومفيدة أحيانا .)

٤ - وأخيرا ، فهناك مشكلة سوريا . ففي السابع من نيسان (ابريل) عام ١٩٦٧ كانت بعض الطائرات السورية تحلق فوق المنطقة المجردة من السلاح فرأت بعض الجرارات الاسرائيلية تحرت وتزرع . فاغتنمت الطائرات السورية الفرصة وانقضت على الجرارات تصليها وابلا من رصاصها وقنابلها ، ولم لا فالسوريون لا يقرون الا على أمثالها قصفا ولا يجيدون لغيرها نزالا . ومهما كان ، فقد كان الاغراء يوما طاغيا ، فدمرت الجرارات عن بكرة أبيها وقتل من المزارعين نفر غير يسير . ولكن لم تكد غارة السوريين تنتهي حتى ظهرت في الجو بضغ طائرات من الميراج الاسرائيلية ولحقت بالطائرات السورية الى دمشق وأسقطت ستا منها فانتشر حطامها في ضواحي المدينة وفي الجوار . وتآلم السوريون من ذلك ، وأطلقت صحفهم والحكومة صيحات الحرب والنار . وأخذت الاذاعة

السورية في الاسابيع التالية تدعو الى الحرب علنا والى التحرير جهارا بشكل يجعل كل من لا يعرف السوريين أن يظن بهم خيرا وأنهم على مهاجمة الاسرائيليين لا محالة مصممون . وهكذا أعطى السوريون الاسرائيليين كل ما أرادوه من أدلة وبراهين ليظهروا أنفسهم بمظهر المدافعين عن أنفسهم والمنادين بالسلام . (وكان السوريون يندفعين بالاتفاقية العسكرية التي وقعوها مع المصريين في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٦٦) .

وعقد المصريون هذه الاتفاقية وهم يظنون ، والروس معهم ، أنهم يحسنون صنعا . الا أن سعيهم قد ضل ولم تخفف شيئا من مفلاة السوريين ، بل وكان اثرها عكس ما توقعوا تماما . فقد ظن السوريون أن الجيش المصري رهن اشارتهم ، فاندفعوا تحت حماية الاتفاقية يزارون ويزمجون ، ولولاها لبدا حماسهم في تلك الفترة متهورا حتى في منظارهم أنفسهم . وأضحى جليا في بداية ايار (مايو) ، أن السوريين وليس ناصرا قد أخذوا يندفعون الى حافة الحرب .

ومع أنني كنت فاقدا أي اتصال مع السوريين يومها ، فقد أخبرني أصدقائي من المصريين الذين كانوا على صلة بهم أن الأوائل قد ضمنوا أن النصر سيكون حليفهم في الحرب القادمة ، شريطة أن يكون المصريون معهم فيها . هذا عن السوريين ، وأما عن المصريين فاني اعتقد ، خلافا لكتتاب كثيرين ، أنهم لم يلمسوا من أنفسهم القوة الكافية لهزيمة اسرائيل . لقد أخبرني ناصر نفسه ، وقبل اسبوع واحد من الحرب ، عن محادثة جرت بينه وبين المشير عامر عنثفه فيها قائلا : « انك - عزيزي عامر - متخلف ما لا يقل عشر سنين عن العصر الذي أنت فيه . كيف ستلحق هزيمة بجيش حديث وحسن التدريب مثل الجيش الاسرائيلي وجيشك لم يتمكن لسنوات أن يخضع شراذم اليمينيين من المدمنين على المخدرات ! » وأزيد على هذا أن النظرة الآتفة الذكر لم ينفرد بها ناصر وحده بل أبدى كبار ضباطه شككا كبيرا في قدرة الجيش المصري على العمل وكفاءته في القتال . ولا أزال أذكر ما خاطبني به أحدهم قائلا : « ان استطاعت مصر الافلات من هذه الازمة بنصر دبلوماسي فستدع السوريين يخوضون غمار الحرب لوحدهم ان بقوا ليومها مصرين على ذلك دون تراجع أو خوف » .

كان الضباط المصريون يعلمون ، ويعلم الامريكيون المقيمون في القاهرة ،

وأنا من بينهم، وكذلك كان يعلم كل المراقبين من ذوي الاطلاع ان فرصة ناصر في احراز نصر ديبلوماسي مؤزر تعادل فرصة خسارته . وقد اقلق خطاب ناصر في ٢٩ ايار (مايو) عام ١٩٦٧ كثيرا منا حيث قال فيه : « لقد باتت استعداداتنا كاملة ، ونحن الآن مهيتون لمواجهة اسرائيل ٠٠٠ ولقد أصبحنا قادرين على معالجة قضية فلسطين بأكملها ٠٠٠، وكذلك قوله: «سوف نقرر نحن وليس هم زمان للمركة ومكانها» . وصحيح أن أشكول رئيس وزراء اسرائيل قد صرح في ١١ ايار (مايو) بما لا يقل فحواه خطورة عن ذلك ، غير أن عبارة ناصر أضافت حجة للاسرائيليين فوق الحجة التي وهبهم اياها السوريون ليقوموا بالضربة الاولى ، بل لعلها جعلت من المحتم عليهم فعل ذلك . وعندما غادرت القاهرة في تلك الاثناء عائدا الى لندن ، أخبرت أصدقائي من المصريين قبل سفري بأنني أراهن حتى الدولار الاخير الذي امتلكه بأن ناصرا سوف يواجه هجوما صاعقا كذاك الذي وقع على بيرل هاربر . قلت ذلك وأنا أعلم أن بعثة زكريا محي الدين الى نيويورك قد قررت أن تكون صباح الخامس من حزيران (يونيو) وأن الاسرائيليين قد قطعوا على انفسهم عهدا للرئيس جونسون أنهم لم يقوموا بتسديد أية ضربة لمصر قبل أن يرى العالم زكريا في نيويورك ويسمع منه ما يريد أن يقوله . وكما قلت سابقا فلقد كانت فرصته خمسين بالمئة ، لا تزيد عن هذا أبدا . ولكن ناصرا قامر وغامر ولعله قد خسر الرهان .

ولامرى، أن يسأل : هل ربحت اسرائيل الحرب ؟ انني أرجع هنا الى قول « اندريه بوفر » ، وهو استراتيجي فرنسي عظيم يعرف النصر فيقول : « هو اما أن تحطم عدوك تماما أو تجعله في موقف يقبل ما تمليه عليه من شروط الاستسلام » . فاذا أخذنا بهذا التعريف وجدنا الاسرائيليين لم ينتصروا حقا وذلك حينما نراقب الكلام الذي جرى بينهم وبين العرب في أعقاب الحرب . كما أن موقف ناصر في بلاده بعد الحرب أصبح أشد صلابة من موقفه لو لم تقع الحرب . واذا اتضح هذا لم يعد لاحد أن يسأل : ماذا سيكون موقف ناصر لو تكررت المسألة ؟ ان الجواب على هذا السؤال في رأيي واضح لكل من قرأ هذا الكتاب بامعان وغاص بين سطوره .

بعد كل هذا ناتي الى هذا السؤال : الى أين تمضي بنا علاقاتنا مع ناصر

انطلاقا من هذه الاحداث ؟ لقد كنت احاول في كل هذا الكتاب ان ابين ان ما يقوم به ناصر كان دائما طبيعيا ويمكن التنبؤ به ان اخذنا بعين الاعتبار تلك الظروف التي كانت تحيط به . وكان يسلك طريقا يسلكه فيما اظن كل امرئ يحمل عقليته وثقافته ، هذه العقلية والثقافة التي دفعتها ابتداء الى سدة الحكم ، وعرش القيادة في داخل بلاده . انني احب ناصرا محبة شخصية ، وما من احد احب الي قضاء سهرة مليئة بالحديث والنوادر من قضائها معه . انه من اكثر من عرفت من بين الزعماء جراءة ، لا يقبل الرشوة ولكنه لا يؤمن « بعلم الاخلاق » ، والتعصب للمبادئ . ، وعلى طريقته الخاصة ، فانه ميال للخير العام والاصلاح الاجتماعي وما اظن انني قد التقيت بمن يفوقه في هذا من الزعماء . وروح النكتة متوفرة عند ناصر الا انه لا يتصرف بدافع من غل أو حقد أو هوى أو غير ذلك من الدوافع الدنيا . لقد مهدنا – نحن الامريكيين – الطريق لناصر ، ولقد سلك ناصر هذا الطريق ولم يكن من المخالفين . ولو أننا رسمنا له طريقا مختلفا فلعل الامور كانت ستجري على غير هذا النهج . ويبقى دور ناصر في « مستقبل الامريكيين ومستقبل أمريكا » معتمدا على نوع المستقبل الذي يخبئه لنا القدر .

وأخيرا ، ما هو مستقبل « لعبة الأمم » ؟ لست أدري ان كان « مركز اللعبة » في وزارة الخارجية في واشنطن لا يزال قائما أم أنه قد تلاشى واضمحل ، لكنني متأكد أن عددا لا بأس به من كبريات الجامعات الامريكية مهتمة بممارسة هذه « اللعبة » ، والتدرب على ادوارها . الا أنني أجزم أن كثيرا من رجال الدبلوماسية الامريكية (الذين كانت لهم دراية سطحية ضحلة بشؤون الشرق الاوسط في عام ١٩٤٧) قد اكتسبوا خبرات فائقة في هذا المجال وقطعوا فيه شوطا بعيدا . لقد كانت نظرتنا للمناورات السياسية المجدبة التي تتبعها الدول المتخلفة أنها أساس الحياة الديموقراطية التي بدورها من أهم مقومات السلم والرخاء . الا أنها باتت الآن في نظرنا ذات صبغة مستقلة لا تمت الى كل ما ذكرناه بصلة ، ولكننا مع الاسف لم نحظ بمعرفة هذا قبل عشرين عاما . ولكننا من الآن فصاعدا لن ننظر الى تلك المناورات السياسية للبلدان المتخلفة الا بنفس الطريقة التي يعالج بها الطبيب سقيما عليلا . وبالتأكيد فان نظرة الطبيب له ستكون مشوبة بالهم والقلق ولكن دون تورط منه فيها أو تدخل . وانني أعتقد انه في المستقبل سيكون في كل سفارة امريكية موظف خاص أو سكرتير « ثالث »

ليس له من مهمة سوى اقتفاء أثر الخلافات الداخلية والنزاعات بين سكان البلاد . ولن يكتب المحللون السياسيون على دراسة تقاريره الى واشنطن بل ستنقل مباشرة الى ايدي علماء الانسان وتاريخه الطبيعي . فتلك التقارير لن تحتوي غير سرد لاخبار ومعلومات حول ما يدور من صراع بين « عادات الآلهة وطقوسها المقدسة » وبين « الهياج العصبي ضدها والنفرة منها » او ما يدور من نزاع بين « الاشتراكيين الوطنيين » وبين « الوطنيين الاشتراكيين » . وسيغزو شغلنا الشاغل الاجابة على أسئلة مثل : ماذا ستفعل حكومة « آزانيا » (الحكومة العابثة اللاهية) ازاء تضخم عدد السكان ، هذا ان كان لديها ما تفعله ؟ ما هي الاجراءات التي على هذه الحكومة او تلك ان تتخذها لتطوير وسائل الزراعة في بلادها ؟ وما هي المسالك التي يجب ان تسلكها حكومة ثالثة حتى ترفع من قوة انتاج القوى العاملة في مصانعها ؟ الا اننا سنتوجه في سلوكنا مستقبلا بالفكاهة التالية :

« أمة من أمم الارض عازمة على انزال رجل على القمر ويجاد عقار مضاد لمرض السرطان وللحمات الراشحة ، كما تنوي أيضا ايجاد حلول لكل مشاكل تضخم عدد السكان وشمح المواد الاولية . ان أي امرى يرغب بالمشاركة فليتفضل ، ولن يحول دون ذلك لون أو دين أو جنس . كما ان أي امرى يفضل أن يشغل نفسه بأهداف وغايات أخرى كحرق السفارات الاجنبية ورفض «المادية» الغربية أو أية غايات أخرى بغية « التحرر من الاستعمار » فلن نضن ببركاتنا عليه، ولعلمه فان « التحرر من الاستعمار » هو ذاك الشئ الذي باستطاعتنا ان نوزعه على غيرنا وجرعات كبيرة » .



انتهى الكتاب وقد وضعنا « الملحق » حول « مشاكل السلطة والأنظمة الثورية » في بدايته .

(العرب)

محتويات الكتاب

صفحة	
٤	اهداء المؤلف
٥	لمبة الأمم
٦	ملاحظة للقارىء
٧	تعاقب الأحداث
١١	مقدمة المؤلف
١٧	الانظمة الثورية ومشاكل السلطة :
١٧	١ - المقدمة
٢٢	٢ - العهد الثوري :
٢٦	الانظمة والقوانين
٢٧	قوى الأمن الداخلي
٢٨	أجهزة المخابرات
٢٩	الدعاية والاعلام
٣٠	القوة العسكرية
٣١	٣ - عهد ما قبل الدستور :
٣٣	المنظمات الشعبية : ما هي ، غايتها
٣٤	كيف يمكن تحقيق هذه الغايات
٣٦	الدستور الجديد
٣٨	٤ - الخاتمة
٤١	(١) مركز « لعبة السلم » في واشنطن
٥٧	(٢) مخططاتنا قيد التنفيذ في سوريا ١٩٤٧ - ١٩٤٩
٨٠	(٣) فشل في سوريا وأمل في مصر ١٩٥١ - ١٩٥٢
٩٤	(٤) حليفنا المستقل : ناصر في الحكم

صفحة	
١١١	(٥) الطراز الناصري للحكم ووسائل القمع
١٢٩	(٦) الطراز الناصري للحكم ووسائل البناء :
١٤٥	الدعاية
١٤٧	الحزب السياسي الواحد
١٤٨	الآلاف المؤلفة من الموظفين
١٥٠	الأسطورة
١٥٤	(٧) ناصر والحياد الايجابي
١٩٣	(٨) ناصر واتحاد المحايدين الايجابيين
٢٢٨	(٩) الناصرية والارهاب
٢٥٧	(١٠) عندما تمرت الشخصيات في لبنان عام ١٩٥٨
٢٨٠	(١١) السياسة الناصرية في الخارج تمتص ثروات الشعب في الداخل
٢٩٦	(١٢) تعدد القوى العالمية وانتهاء أسطورة القطبين
٣١٣	(١٣) الحرب العربية الاسرائيلية، حزيران (يونيو) ١٩٦٧، وذيولها
٣٢٤	المحتويات

الكتاب

إذا أردت أن تفهم « لعبة الأمم » فعليك أن تضع نصب عينيك القواعد التالية :

- ١ - انّ من أول أهداف أية أمة كانت أن تبقى في اللعبة ولا تخرج منها .
- ٢ - وغالبا ما تتصرف الأمة بصورة لا تهدف معها الى احراز أي نجاح في داخل اللعبة بقدر ما تهدف الى استمرار التأييد الجماهيري لزعيمها .
- ٣ - ومن السذاجة الخاطئة بمكان أن يُفسّر أي تصريح رسمي حول السياسة الخارجية بصفاء النية و'خلوص السريرة' ، فالمناورة شرط أساسي لاي زعيم في اللعبة ، فهو يُظهر ما لا يُبطن ، ويقول شيئا ويعني به شيئا آخر .
- ٤ - انّ اظهار 'حسن النية' والتصريح بوجود أهداف مشتركة لأمم متعادلة لا يهدفان الاّ الى تحسين الأوضاع الداخلية أو الى ممارسة ضفّط على فريق ثالث ، ويتندرّ أن يحملا معهما أي أمل مخلص لتحقيق ما يعلنان عنه حقيقة .
- ٥ - انّ مداعبة دولة عظمى لأمة ضعيفة وملاطفتها لها غالبا ما تتمخضان عن التفات الأخيرة نحو الخصم الرئيسي للدولة العظمى وذلك لتدفع بهما الى التنافس على كسب ودّها وعندئذ تنتهز الفرصة لتجني الأرباح وتحقق المكاسب .
- ٦ - وعندما تُصبح الأمة الضعيفة ذات قوة دبلوماسية عن طريق استقلالها ذلك التنافس بين الدول العظمى على كسب ودّها فانها تتبوأ هي الأخرى مركزا استراتيجيا يساعدها على احراز قوة أكبر عن طريق التهديد بالقيام بمغامرات ترغب عنها الدول العظمى .

المؤلف

مايلز كوبلاند : يعمل الآن مستشارا اعلى لمؤسسة ضخمة مختصة في العلاقات الحكومية . وقد شغل منصب نائب الفصيل في سوريا . لا انه عاد الى واشنطن في عام ١٩٤٩ ليسانع في تنظيم وكالة المحركات المركزية الاميركية التي انشئت يومها . وما يجدر بالذكر ان القسم الاعظم من حياته العملية كانت في منطقة الشرق الاوسط .

The Game of Nations

Nasser's Egypt by an exceptionally influential American observer with unrivalled opportunities of working close to Nasser and the leaders of Nasser's Egyptian revolution, provides a **case-study** for a whole new strategy of international politics. Without doubt the most informative and intimately revealed picture of the Nasser regime, its personalities and the **Machiavellian game** involving a small country at a vital strategic position in time and space and the great powers of the earth.

Miles Copeland